دار الثقافة

حياة يسوع

حبيب سعيد

حياة يسوع

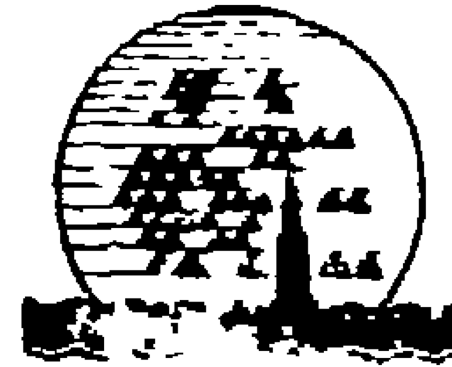
وهو كتاب « سيرة المسيح الشعبية A People's Life of Christ »

تأليف

الدكتور بترسن سميث

نقله الى العربية

حبيب سعيد





طبعـة ثالثة

صدر عن دار الثقافة بالتعاون مع دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية – ص . ب ١٣٠٤ القاهرة

١٠ / ٤٥١ طم (أ ت) ٨٧/٥/

رقم الايداع بدار الكتب : ٣٤٢٤/ ٨٧

الترقيم الدولى ٣ – ٠٧١ – ١٦٦ – ١٩٧٧

طبع بمطبعة : دار نوبار للطباعة – شبرا – القاهرة

تمهيد

حول سيرة المسيح أهرق المؤلفون والـكتّـاب في شتى العصور زبد قرائحهم ، وقدّم المثالون والفنانون عند قدميه روائع فنهم وخيالهم ، وأخرج رجال التقوى والصلاح أخصب اختباراتهم وأرق أحاسيسهم. ولـكن مهما بذل العقل وابتكر، ومهما سما الخيال وازدهر ، ومهما تعمق الاختبار وأخصب ، فلن يمكن للقوى البشرية ان ترسم صورة صحيحة كاملة « للانسان الكامل » الذي هبط من السماء ، والمثل الاعلى الذي وضعته الانسانية قبلة انظارها .

ومن الجهود الجبارة التي بذلها البشر في محاولتهم رسم هذه الصورة ، ما قام به الدكتور « بترسن سميث » في إخراجه مؤلفـه عن حياة المسيح تحت عنوان "A People's Life of Christ" — « سيرة المسيح لعامة الشعب » .

وللمؤلف كاتب شعبي محبوب سلك في كتابه مسلكاً مشوقاً . فهو يصف المشاهد الطبيعية كأنها مرتسمة امام ناظريه ، ويتحدث عن وقائع واحداث بظروفها وملابساتها كأنها تمثلت امامه ، ويسير بالقارىء سيراً وئيداً حتى يأتي به اخيراً الى امجاد المسيح الحي وكمالاته العليا .

عاش المؤلف اولاً في ارلندا ثم رحل الى كندا وانتقل الى راحته الخالدة في سنة ١٩٣٢ في الثامنة والثمانين من عمره ، بعد ان خلّـف وراءه من ثمرات عقله واختبارات روحه ثلاثة وعشرين سفراً من انفع المؤلفات التي أخصبت عالم الفـكر المسيحي . وحسبنا دليلاً على ما لقي هذا السفر من الرواج والاقبال بين قراء الانـكليزية — ان يعلم القارىء الـكريم انه قد أُعيد طبعه احدى وثلاثين مرة في ثماني سنوات! وهو ما برح من احب المؤلفات وانفعها ، واكثرها قرباً الى قلب القارىء ، واعمقها أثراً في نفسه .

الكتاب الأول

في البدء

الفصل الاول

في البدء

«في البدء كان الكلمة . والكلمة كان عند الله . وكان الكلمة الله » . وهنا نلمس حياة المسيح لأول مرة . والعادة الطبيعية المألوفة ان تبدأ حياة المرء من اليوم الذي يخرج فيه من الرحم ويظهر شكلاً منظوراً أمام الأعين . أما بالنسبة لحياة السيد المسيح فلا مندوحة لنا عن الرجوع بافكارنا إلى الوراء ، إلى عالم الأزل الذي اتصل به ، إلى العالم القديم الأزلي الذي يحسب عالمنا هذا أمامه حادثاً جديداً . وتقوم دعامة ايماننا على أن وراء هذا العالم الذي نعرفه ، وراء الكواكب والسيارات وعناصر المادة والفضاء والزمن — العالم الحقيقي ، عالم الازليات ، عالم الله والملائكة الأطهار ، العالم الذي يصدر عنه عالمنا هذا وسائر العوالم الاخرى . ولسنا نستطيع أن نشهد ذلك العالم ، ولا أن نرسم مواقعه واطرافه ، ولم تكتحل أعيننا قط بمرأى مدائنه الذهبية . ولكننا نوقن مع ذلك انه يحيط بنا منذ الأزل . وقد جاء الينا مَنْ هبط منه ، بالخبر اليقين عنه

أجل.قد انبأنا ان ذلك العالم ليس متناهياً في القداسة وحسب، بل أيضاً متناهياً في العطف والاشفاق والاهتمام بالبشر . ونستخلص من وجهة نظر الكتاب المقدس ان أروقة العالم غير المنظور غاصة بالنظارة الذين يرقبون باهتمام حياتنا على الأرض : « إذ لنا سحابة من الشهود محيطة بنا » . وقد أحسَّ يسوع الهابط من ذلك الوسط الاعلى بهذا الشعور عينه ، فاشار في أقواله إلى الآب يرمقنا من العلاء بنظرات الحب والألم ، وإلى فرح السماء العظيم ازاء خاطىء واحد يتوب على الأرض ، وإلى ابرهيم في تلك الحياة غير المنظورة يفرح ويتهلل ليرى يومه . وقد جاء في رواية الانجيل الكريم عن التجلي ان موسى وايليا — وهما من عظماء رجال الله القديسين في العهد القديم — نزلا من مجاهل تلك الحياة غير المنظورة ليلتقيا بربهما ويتحدثا اليه — عن أي شأن ؟ هل عن فرعون والبحر الاحمر ؟ هل عن آخاب وكرم نابوت اليزرعيلي وما إلى ذلك من الشئون التي دار حولها اهتمامهما على الأرض ؟ كلا . انما قد أمسكا بتلك الرغبة العليا التي تهتم بها النفوس العظيمة التي ترقبنا من كوى السماء — « تكلما عن خروجه (موته) الذي كان عتيداً ان يكمله في أورشليم » . أليس هذا دليلاً على مقدار الاهتمام الشديد الذي ملأ قلبيهما وسائر الزملاء والخلان وراء الستار ـ عن رواية الفداء التي أوشكت ان تظهر فصولها على مسرح الأرض؟

وهذا القول حديث العهد نسبياً لا يرجع إلى اكثر من ألفي سنة . ولكن بولس الرسول يقول لأهل افسس إن هذا الاهتمام كان منذ البدء ، وان مجيء المسيح لم يكن حادثاً طارئاً ، بل كان قصد الله الأزلي منذ تأسيس العالم أن تخلص البشرية على يدي المسيح الأزلي ، فيحتضن الآب بين ذراعي محبته أبناء الأرض الساقطين

وعلينا إذن أن نرجع في حياة السيد المسيح إلى الوراء ، إلى أبعد نقطة في التاريخ يتخيلها الادراك ، إلى العصور البعيدة ، قبل رواية التكوين عند ما خلق الله في البدء السموات والأرض ، إلى ازلية الزمن غير المحدود قبل ان يتم التجسد « عندما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك »

هذه هي رواية يوحنا التي جاء بها عن المسيح . وأحب ما لديَّ أن أتصور ذلك الشيخ العزيز أسقف افسس و « التلميذ الذي كان يسوع يحبه » جالساً ليكتب قبل موته « سيرة السيد » والبشارة التي أودعها ذكرياته القديمة المقدسة

ولـكن وراء ذكرياته عن يسوع البشري — الذي عرفه في الجسد، والذي أحبه خلال ثلاث سـنوات قضاها معه في ربوع فلسطين — يجثم ذلك الفكر العميق الخطير عن المسيح الازلي، « الذي مخارجه منذ القديم منذ أيام الازل » — « في البدء كان الـكلمة، والـكلمة كان عند الله،وكان الـكلمة الله» — ثم يفكـر الشيخ العزيز كيف ان ذلك المسيح الازلي عُني جداً العناية بهذا العالم البائس مدى الاجيال الطويلة قبل التجسد، وكيف انه في ذلك الماضي البعيد، والبعيد جداً، يوم لم يفكر فيه أحد « كان في العالم وكُوِّن العالم به ولم يعرفه العالم . . . . . فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس . . . . . كان النور الذي ينير كل انسان آتياً إلى العالم »

هذه كلها أسرار عويصة . ولا يستطيع الفكر البشري أن يبقى طويلاً في هذا الوسط الروحي الذي تنتفي فيه كثافة المادة . ولا يسعنا الا ان نهمس لانفسنا بدهشة قائلين : « كان المسيح هنا دائماً، وكان حضوره في الـكون أساس هـذا الوجود . وقد جاء عن طريق حلوله في الانسان بنور الضمير . ومنذ بدء هذا العالم كان واقفاً في وسطنا مَن لم نعرفه» . وهذا ما عنَاه القديس اُوغسطينوس عند قوله : «ان المسيحية كانت معنا منذ الخليقة» — بل هذا هو الفكر الجريء الذي تمخض عنه عقل تُرتليانوس في قوله : «ان المسيح كان يعدُّ نفسه للتجسد مدى الاجيال الطويلة التي سبقت هذا الظهور العجيب »

ويفكّـر يوحنا في المسيح كأنه كائن في العالم قبل التجسد، يعلن الاله غير المتناهي في الطبيعة والعقل والضمير. ولذلك نراه يستعمل اصطلاحاً مألوفاً لدى الفكر اليوناني واليهودي في ذلك العصر، هو « كلمة الله » كما في قوله « في البدء كان الـكلمة » . وهو اصطلاح يبدو غريباً في بادىء الأمر للدلالة على المسيح، ولـكنه عـبّر عن فكر الرسول وكانت لهمزيته الخاصة إذ كان معروفاً بمعنى مشابه لهذا في الفلسفة اليونانية والفكر اليهودي في ذلك العصر.وقد نستطيع الاعراب عن معنى هذا اللفظ في عبارة موجزة بالقول انه يشير إلى ما يُعلن الله ويُظهره . وترمي الفلسفة اليونانية من وراء لفظ « الـكلمة » إلى شـبه هذا المعنى . لأن البشر لا يرون ولا يلمسون مصدر كل الاشياء غير المحدود، ولـكنهم يعرفونه فقط في مظهره، في العالم حولهم . ولذلك أطلقوا على هذا المظهر في تعبير خيالي روائي لفظ « الـكلمة »

وكيف يُعلن الانسان فكره ونفسه الباطنة؟ بالكلمة التي يتفوّه بها. فبها يعبّر عن نفسه ويتصل بك، ويكشف عن افكاره وأحاسيسه، وينبىء عن ارادته . والكلمة الصادرة عن الفكر والارادة تحمل في نبراتها العقل الباطني والاخلاق الدفينة . وبكلمة الانسان التي تخرج من فيه أنت تعرفه

والآن كيف يعرف الانسان الاله الذي لاتحصره الحدود، ولا تراه العيون،ولا تحيط به الافهام ؟ لا يعرفه إلا عن طريق اعلان نفسه في ضمير الانسان ، وفي عجائب الحياة ، في الزوبعة العاتية ، في ضوء الشمس المشرق ، في السموات الصافية ، في بهاء الفجر وروائه ، في جمال الارض وجلال البحر ، في سهول الحنطة الذهبية الالوان — هذه هي مظاهر الله المختلفة — هذه « كلمته » للبشر — وأية قوة تعلن هذه المظاهر كان يحسبها الفيلسوف الوثني « الكلمة » الصادرة عن الكائن الاسمى

الى هذا الحد تطور الفكر الوثني . أما فكر الرسول فقد أوغل الى مدى أبعد وأعمق. وهو قد عرف مظهراً لله أتم واكمل من جميع هذه المظاهر . ولمدة ثلاث سنوات متتابعة سار فوق سهول فلسطين مع شخص عرف الآن انه كان المظهر الأكمل ، والكلمة الأوفى للعالم من قِبَل الله.ولذا نراه يقول: «والكلمة صار جسداً»، الكلمة الذي كان منذ البدء يُظهر الله في عجائب الطبيعة وفي أسرار الحياة قد جاز أخيراً في ملء الزمن إلى مظهر اكمل وأتم « والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده،مجداً كما لوحيد من الآب، مملوءاً نعمة وحقاً » . وكان هو الذروة العليا للمظاهر المختلفة التي أعلن الله بها ذاته للبشر، فبه لم تُعلن فقط قوة الله وعظمته ، بل أُعلن قلب الله الحنون ورحمته وعطفه ومحبته . هذا هو فكر الرسول عند وصفه المسيح « بكلمة الله »

* * *

وكان على العالم المسكين ان ينتظر ردحاً طويلاً من الزمن قبل أن يبزغ نور هذا الاعلان الكامل . ولسنا ندري لماذا طال زمن التجسد وتأخر الله في اعلان ذاته . ولكننا نعلم حق العلم ان الله كان يعنى جدّ العناية بهذا العالم البائس قبل مجيء المسيح ، ونعلم ان محبته ستعوّض على الانسان مدى الابدية ما فقده من قبل

وان قلب المفكر ليتجه بعطف واشفاق نحو العالم الوثني المسكين قبل المسيح ، حيث

كان للبشر أشواق ملتهبة نحو البر والخير اسوة بنا نحن اليوم . وكانت أسباب الحيرة والجزع ، والآلام العقلية والجسدية والنفسية. ولم يكن لهم إله شفيق يهرعون اليه ، فكانوا يستسلمون إلى الحدس والظنون. واستنتج فلاسفتهم من مظاهر الطبيعة إلهاً خالقاً . لكن الطبيعة لم تنبىء الا عن عظمة ذلك الخالق وقوته . وجسّمت الشعوب المتمدنة حدسها وظنونها في « المشتري » إله الآلهة (عند الرومان) وزوجه ملكة السماء .ولكن بالاسف لم تكن هذه الأسماء على مسمّيات عاقلة يلجأ اليها الانسان المتعب المضنى للابتهال والصلاة

هذا كان شأن الشعوب المتمدنة . أما القبائل الهمجية فكانت تفزع من قوى الطبيعة . فاذا سمع الهمجي زئير الزوابع والرياح ، وحفيف الاشجار في الغابات والحراج، وأصوات الرعد والبرق والبرد والنار — ربض في كهفه وعمد إلى صنع الأصنام يستصرخها ويسترضيها لترفع عنه غضب الكائن او الكائنات القوية . وكانت هذه الاصنام المصنوعة بالايدي محاولة منه لاعلان مظهر الله

ولا يسع كل مطلع على التاريخ القديم إلا الشعور أن البشر في العالم القديم كانوا « يطلبون الله لعلهم يتلمسونه فيجدوه » . ولم تكن فلسفاتهم وخرافاتهم وأصنامهم إلا مقياساً لما أمكنهم أن يبلغوه . حقاً انه لأمر يستدعي العطف والاشفاق أن يحرم البشر مرشداً يأخذ بيدهم ويهديهم . فهل لله قلب يرقّ ويرثي ؟ وهل هو على شيء من العدالة والشفقة والمحبة ؟ وهل يسمع الأم الثكلى تبكي بحرقة فلذة كبدها التي أختطفها الموت ؟ وهل يُعنى الله بنا شيئاً ؟ حقاً انه لأمر يثير فينا الشجن . ولو لم اؤمن بان الله كان يُعنى بالأنسان منذ الازل ، وانه سيعوض له يوماً ما في عالم آخر ما ضاع عليه في هذا العالم — لو لم اؤمن بذلك، لكنت أُسارع إلى الظن بانها قسوة من جانب الله أن يترك البشرية التائهة في تلك الحالة التي تستحق الرثاء

وهكذا تعاقبت الأجيال الطويلة المظلمة والله صامت لم يعط البشرية علامة ما . ولكن في كل تلك الأزمنة الممتدة كان قصد الله يعمل في هدوء وسكينة وباساليب شتى، وكان المسيح يستعدُّ لحادث «التجسد» . وليس لدينا من المعرفة ما يكفي لأن نتتبع خطاه في سير التاريخ ، وليس لنا الا أن نعمد إلى الحدس والتخمين ونلمح وميضاً متقطعاً .

فنحن نلقي انظارنا إلى مواكب الانبراطوريات القديمة من أشوريين و بابليين وفرس وأغارقة ورومان ، ونسمع انبياء القدم يتحدثون قائلين ان هذه المواكب كلها شطر من قصد الله الذي يعدّ من وراء ذلك تدبيراً عظيماً

و يوماً ما نلمح على مسرح التاريخ البشري وميضاً اكثر بريقاً من سواه ، يوماً ما قبل التجسد بألفي سنة نرى راعياً شـاباً فوق ربى سورية توقظ نفسه آمال عالية فيُدعى و يطلب اليه أن يقطع نفسه من وطنه الوثني و بنزعها من بين عشيرته ليسير الى حيث لايعلم . واستمع « ابرام » الى هذا النداء الهابط إلى نفسه من الإله الأزلي وسار إلى مهمته الالهية ، سـار إلى حيث لايعلم « ليعدّ طريق الرب » كأنه يوحنا المعمدان في العهد القديم

هنا بدأ ترويض الشعب اليهودي وتدريبه . فعُزل أولا عن بقية الشعوب ليسهل عليه تلقي الوحي الجديد . وعزل عن عبادة الأوثان والآلهة المتعددة التي دان لهـا أسلافه لـكي يتعلم شيئاً جديداً عن الاله الواحد الحي . وتروض وتدرّب هذا الشعب في معرفة الله مما لم يظفر به شعب سواه . وفي كل أدوار تاريخ بني اسرائيل رنت في آذانهم أصوات الأنبياء معلنة ارادة الله الصالحة . وتخلل نسيج نبواتهم خيط ذهبي لامع ينبيء عن وعد سرّي عميق بحلول يوم مجيد ، فبهم و بنسلهم تتبارك كل أمم الأرض . وظهر مراراً وتـكراراً في رؤى النبوات عن مستقبلهم شبح مبهم ربما بشري ، وربما إلهي ، في ألفاظ ومصطلحات شتى : ابن داود — ابن الانسان — ابن الله ــ عبد الرب . العجيب . المشير . أمير السلام الذي ليس لملـكه نهاية ــ حمل الله الذي يساق إلى الذبح كشاة ــ والذي وضع عليه الرب إثم جميعنا

كل هذه الأمور نبهت أذهان البشر وساقتهم إلى الانتظار والترقب . ولـكن على الرغم من ذلك كله فان الله باق على صمته ولم يحدث شيء ما . دالت دولة ملوك اليهود وانبيائهم وحلّت أيام السبي المريرة وتشتت الشعب في كل أنحاء الأرض وسـار العالم في طريقه العادي بين افراح واحزان ، ومصارعات وخطايا . والله بعدُ صامت وليس ثمت علامة في افق السماء !

واخيراً ، واخيراً جداً ، حلّ ملء الزمن . وحدث الحادث العجيب الذي ترقبته الاجيال . ومن غريب الأمر أن العالم كان وقتئذ كأنه يتأهب له . وكالمحيط يستسلم بمدّه وجزره وهو لايدري الى حركات القمر ، كذلك خيّل أن الأرض تستسلم وهي لا تدري إلى حركات العالم الازلي . ولما بدأ ذلك العالم في الاستعداد لارسال المسيح ، أخذ عالم الأرض من جانبه أيضاً يتأهب لهذا اللقاء

الفصل الثاني

العالم يتهيأ

واخيراً جاء ملء الزمن . وتمخض في مجيئه عن حادث جلل . فها هوذا العالم يتهيأ . وكما تتماوج بطون المحيط بالمد والجزر من جرّاء حركات الجذب في القمر ، كذلك يُخيَّل الينا أن الارض تتماوج من جرّاء الحركات الناشطة في العالم الخالد . ولما بدأ ذلك العالم يتهيأ لارسال المسيح أخذ هذا العالم في الأستعداد . وإذ نُلقي الآن نظرة إلى الوراء ، بعد الحادث باجيال ، لا يسعنا الا القول ان التاريخ كان يُصاغ استعداداً لهذا المجيء

ويؤيد التاريخ انه عند مجيء المسيح كان في العالم شعوب ثلاثة هي صاحبة النفوذ في ذلك العصر — اليونان والرومان واليهود . كان اليوناني المثقف المصقول ، والروماني الجبار المتسلط ، واليهودي المرذول المحتقر . هذه كانت الشعوب البارزة في العالم المتمدن يومئذ . ولم يكن للشعوب الاخرى أية قيمة . ولقد أدرك بيلاطس هذه الحقيقة يوم كتب عنوان الصليب « بالعبرية واليونانية واللاتينية » . وان كانت هذه الشعوب الثلاثة في الجيل الذي سبق مجيء المسيح قد تعاهدت دون دراية أو قصد على أن تعدّ الطريق لهذا المجيء ، أفلا يكون هذا على الاقل نوعاً من انواع التدابير الالهية للاستعداد ؟ ان الذين لا يحسبون للمسيح حساباً قد ينظرون إلى هذه الاحداث كلها كأنها مصادفات تاريخية . غير أني اعتقد ان المسيحيين الذين يقدّرون هذه الاشياء ، يشعرون وهم يقرأون تاريخ ذلك العصر ، ان الله لم يرسل يوحنا المعمدان فقط « ليعدّ طريق الرب » وانما أرسل العالم كله . وهذا ما حدث فعلاً .

* * *

وأول كل شيء نرى الروماني وقد أعدّ الطريق لمجيء الملك . لانه قبل الميلاد بقرن واحد كان العالم ممزقاً ومبعثراً شعوباً صغيرة متباعدة ، لكل شعب دينه وعوائده وشرائعه وشكوكه وحروبه وحدوده القائمة في وجه كل اتصال أجنبي . وكانت البلدان غاصة بعصابات

النهب والسلب . وكانت البحار موبوءة بالقرصان . ونستطيع القول من الوجهة البشرية انه كان متعذراً قبل المسيح بقرن لاية دعوة تنبعث من فلسطين ان تتعدى تخوم تلك البلاد الصغيرة . وكان متعذراً من الوجهة البشرية لدعاية جامعة ان تنساب انسياباً سهلاً حراً إلى كل انحاء العالم

وقبيل حادثة الميلاد هيأ الرومان عالماً مشتبكاً . فبدلاً من وجود شعوب منفصلة متباعدة تتبادل الريب والشكوك ، ألفى المسيح عالماً ممهداً خلواً من الحواجز والعقبات . وكانت رومية قد أدمجت الدول المتنافسة في انبراطورية واحدة، وحطمت القوميات المختلفة والاديان المتباينة وخلقت من الدول العالمية مملكة عظيمة متحدة. وشقت الطرق الرومانية كل رقاع العالم المتمدن، وصانت قوة القياصرة الحديدية السلام العالمي. وهكذا قد تهيأت الطريق لمجيء الملك السمائي . ويكفي أن نلقي نظرة الى سفرات بولس الرسول الطليقة في كل انحاء الانبراطورية لنرى فضل السلام الروماني ، والطرق الرومانية ، والوحدة الرومانية ، على انتشار الدين الجديد وذيوعه

* * *

هذا ما فعله الرومان لتهيئة الطرق . غير أن الطريق المعبدة لم تكن ذات شأن بدون لغة عامة شائعة تحمل رسالة الانجيل إلى كل ربوع العالم الروماني . أما اليهود فكانوا يتكلمون الرومانية . وعرف الرومان اللاتينية . وتكلمت الشعوب الاخرى لغات مضطربة أشبه بلغات بابل . ولكن عند اقتراب اليوم الذي جاء فيه المسيح ، قام اليونان — وهم لا يدرون — بنصيبهم في إعداد الطريق أمام الملك . وذلك لأن اللغة اليونانية الجميلة اللينة كان قد أصبحت اللغة الرئيسية في الانبراطورية . فتعلمت كل الشعوب المحيطة بحوض البحر الابيض المتوسط اللغة اليونانية علاوة على لغاتها الاصلية . وصارت اليونانية اللغة الرسمية في كل العالم المتمدن . فتهيأت الاداة لنقل التعليم الجديد وترويجه

ولنا الدليل على ذلك ايضاً في سفرات بولس الرسول . فنسمعه يتحدث إلى الاقوام كلها عن أعمال الله العجيبة بلغة مفهومة سواء للرومان، أو الكورنثيين، أو القبائل الوثنية في هضاب غلاطية

* * *

اليوناني والروماني واليهودي — تضامن الثلاثة في تهيئة طريق الرب فالروماني مهّد الطريق، واليوناني هيّأ اللغة. ولكن ترى ماذا فعل اليهودي ؟ وماذا كان يُنتظر منه في نهضة عالمية واسعة النطاق وهو مخلوق مرذول محتقر من الاجناس المتغلّبة عليه، ومُحتبس في زاوية ضيقة من زوايا الانبراطورية المتباعدة ؟

ان اليهودي في عصر المسيح لمثَل بارز للانسان صاحب اليد الطولى في اعداد طريق المسيح . فهو بعزلته مدى الأجيال الطويلة بين تلال فلسطين قد احتفظ للعالم باقوال الله، وتعاليم الديانة الروحية، ونبوات العصر الذهبي الذي سيجيء فيه الموعود به. ثم حلّ ما حسبه اليهودي مأساة السبي . ونحن نرى هذه الحادثة — حين نلقي عليها نظرة بعد حدوثها — كأنها عمل معين بالذات من أعمال القصد الالهي ، شأن كثير من مآسي التاريخ الاخرى

وذلك لان السبي شتت اليهود في كل أصقاع العالم . وكما ينقل البستاني الفسائل الصغيرة من مهادها الطبيعية ليغرسها في الأرض البعيدة ، هكذا نقل الله اسرائيل و بعثره بين شتات الشعوب. ولم يعُد بعد السبي إلى فلسطين الا اقلية ضئيلة . أما كثرة المسبيين فبعضهم استقر في اوطانهم الجديدة، والبعض الآخر جاب البلدان الاخرى سعياً وراء التجارة والكسب . ويقول مؤرخو ذلك العصر انه لم تخلُ منهم أمة بل انتشروا بين كل الشعوب واحتازوا القوة والنفوذ التجاري . فكان لهم شأن يذكر في كل اجزاء الانبراطورية . أما خارج الانبراطورية فكانت لهم مستعمرات عظيمة في بابل والاسكندرية أشبه بمراكز القيادة للجنس اليهودي . وكما هو شأن « بريطانيا العظمى » في هذا العصر كان شأن « اسرائيل الاعظم » يومئذ . فقد كان عدد النازحين إلى العالم المتمدن اكثر جداً من البقية الباقية في فلسطين . ولكنهم كانوا يحنون دائماً إلى أورشليم ، كما يحن المنفيون إلى أرض الوطن. ونستطيع ان نكوّن فكرة عن عددهم الوفير وتشتتهم في كل الانحاء بالقاء نظرة عليهم بعد خمسين سنة من الميلاد، وهم يفدون افواجاً إلى أورشليم لحضور عيد يوم الخمسين السنوي : « فرتيون وماديون وعيلاميون والساكنون ما بين النهرين واليهودية وكبدوكية و بنتس وآسيا وفريجية و بمفيلية ومصر ونواحي ليبية التي نحو القيروان والرومانيون المستوطنون يهود ودخلاء كريتيون وعرب »

كان اليهود في كل مكان ، و إلى كل مكان حملوا معهم دينهم وكتبهم المقدسة كما قيل

« لان موسى، منذ أجيال قديمة، له في كل مدينة من يكرز به إذ يُقرأ في الجامع كل سبت».

وفي كل مكان تراهم قد اعتصموا برجائهم القومي الموعود به في المسيا المنتظر مجيئه. وقد كان هذا المجيء منتهى آمالهم التي انطوت عليها نفوسهم . ولهذا فقط قامت اليهودية في العالم . اذ يقول التلمود العبري : « تنبأ الانبياء فقط عن المسيا ، ولاجله فقط خلق العالم». ولسنا ننكر انهم لم يعرفوا الميعاد الذي سيجيء فيه المسيا المنتظر . واعتنقوا أفكاراً ضيقة غير روحية عنه كمنقذ ورافع لواء شعب اليهود. فلم يترقبوا نوراً يضيء على الامم ، ولكنهم توقعوا مجداً لشعب اسرائيل وحسب . ومع ذلك فقد كان لوجود شعب كهذا يغرس في الاوساط الوثنية هذه العقائد، فضل لاينكر في اعداد طريق الملك السمائي

ومع أن اليهود كانوا شعباً مكروهاً، فقد كان لهم نفوذ واسع . لأن جيرانهم من أحرار الوثنيين المفكرين — الذين لم ترقْ لهم فكرة تعدد الآلهة وعبادة الاوثان — أحسوا بجاذبية دين قائم في وسطهم يدعو باله واحد ، سام ، قدوس ، يقدّر الاخلاق والتصرفات الدينية، ويُعنى بالبشر ويستمع إلى الصلوات. وهو قد أعد شيئاً عظيماً لمستقبل البشرية — ولذا انضم من الوثنية دخلاء إلى المجمع اليهودي في كل مدينة . وكان خلا هؤلاء عدد اكبر من المنتمين (الذين قيل عنهم في سفر الاعمال « رجال اتقياء») مثل قائد المئة في العهد الجديد ممن اجتذبتهم التعاليم اليهودية، ومالوا إلى درس كتب اسرائيل المقدسة ، فكانوا كحاشية حول المجمع اليهودي لحياة الامم المحتمرة

وكان من أهم عوامل الاتصال أن الكتاب المقدس العبري قد تُرجم قبل المسيح بمئتي سنة إلى اللغة اليونانية — وهي اللغة الذائعة وقتئذ — فاستطاع أن يقرأه اليهودي والاممي سواء بسواء . وألفى فيه كلاهما إلهاً باراً ، وشخصاً عظيماً موعوداً به .

ولئن تكن جمهرة اليهود قد عميت بصائرهم وجمدت قلوبهم، ولئن تكن فلسطين قد صلبت المسيا عند مجيئه، إلا انه يكفينا الرجوع إلى رواية بولس لنجد أن المجمع هو التربة التي نمت فيها بذرة الكنيسة، وندرك مقدار النفوذ القوي الذي كان لذلك الشعب المبعثر في تهيئة الطريق أمام الرب.

وانه لغريب حقاً أن تتحد هذه الشعوب الثلاثة — وهي لا تدري — لاعداد الطريق قبيل مجيء « كلمة العلي » . وفي هذا لدليل على وجود يد إلهية تُصيغ من هذه العناصر الكثيرة المتفاعلة نتيجة باهرة عظيمة .

الفصل الثالث

العالم يفكّر

ولكن الى جانب هذه التطورات الخارجية، الجغرافيةوالسياسية، كانت هناك ايضاً عوامل خفية داخلية لا تقل أهمية عن العوامل الظاهرة ، عوامل اضطرمت فيافكار وأحاسيس البشر في ذلك العصر . وقد كان العالم الذي ترقّب مجيء المسيح عالماً تعباً منهوكاً ، خائر العزم ، مضنى القلب ، حائراً مضطرباً ، كان في أشد افتقار الى مَن يأخذ بيده ويشدد خور عزمه . وليس شك في أن هذا القول يصدق على كلعصر سابق لمجيئه . انما كانت البشريةفي نماءوتطور مضطرد ، وكانالضمير الانساني قد استيقظ لادراك كنه سلطانه وسيطرته، فنجم عنذلك دقةالشعور والحس بحالة لاترضي ولاتقنع ، وكثرة التفكير في المصير البشري

والآن لنلق نظرة مرة اخرى الى الاجناس الثلاثة التي ملكت زمام العالم في عصر الميلاد ـــ اليونان والرومان واليهود :

* * *

كان هناك اليوناني المتكبر ، الحائر ، الجميل بما جبل عليه من تعشق الفن والادب والفلسفة وحب الجمال الرائع ، وبما امتاز به من تصورات خيالية سامية . والى هذا اليوم ينظر العالم المتمدن الى الاغارقة نظرة الاعجاب والاكبار . ونحن مدينون لهم بأفضل ما لدينا من ثقافة وتهذيب ، إذكان لهم فضل السبق في ميدان الثقافة

ولكن بالأسف قد علمّتنا الحرب العالمية الكبرى الاخيرة ما قد تجرّه الثقافة العاطلة عن الدين، وعرفناان العالم لنيقدر علىالبقاء بقوة الثقافة وحدها. واني اتخيلاولئك اليونان القدماء أشبه بأهل مدينة كبرى فيهذا العصر ، شعباً يمرح ويلهو في خفة الحركة والروح. ويمتّع نفسه بكل أسباب المتع ، ولكنها متع سطحية فقط . أما قرارة الحياة فتستدعي العطف والاشفاق. وكانت أزهى أيامهم قد مضت وانقضت، وزال عن اليونان عصرها الذهبي ، وضاعت وحدتها السياسية ، فاخذوا ينفقون اوقاتهم في الخفة والاستهتار

وما هو أشر منهما وأضلُّ سبيلا . وفشا بينهم الفساد والخلاعة والتهتك كسرطان يأ كل في الجسم ويُبهرئه . ولم يكن في دينهم الجميل قوة تصدّ تيار هذه الموبقات المنكرة. وكيف ذلك وآلهتهم الجميلة فوق جبل « الاوليمب » لم تكن أخلاقية روحية ، حتى في أزهى أيامهم وأزهرها . فما كنت ترى أحداً يقدم لها الصلوات الروحية !

وفي عهد السذاجة والفطرة كانت آلهتهم حقيقية في نظرهم آمنوا بها ، ولم تكن آلهة شريرة ، فكان «جوبيتر» الآب الطيب القلب ، والخالق العظيم ، وحاربت آلهتهم معهم في مضيق « ترموبيل » حيث بذل الثلاث مائة المشهورون حياتهم في سبيل اليونان ، وفي سبيل الحق .

أما الآن — أي قبيل الميلاد — فقد أمسوا جنساً يائساً مخنثاً . ومع انهم قد احتفظوا بأشكال وتماثيل آلهتهم، إلا انهم أضاعوا كل ايمان بها . وأمست أساطيرهم القديمة روايات خرافية. « وتسلق اليونان جبل الاوليمب فلم يجدوا هناك آلهتهم » . وهكذا كان العالم موحشاً في نظر الشعب الاغريقي المسكين . ومن الطبيعي أن يعكف الشعوب والافراد في أيام الفتوة والسعادة الى الاستهتار والملذات والخيالات الشعرية ، ولكن تأتي أيام تزول فيها هذه كلها . وفي أيام الأحزان والضيق نريد إلهاً من نوع ما نهرع اليه للاحتماء فيه. وحتى « جوبيتر » وزوجه يؤديان بعض النفع على أن يكون الايمان بهما حقاً . ويا لخيبة الأمل ان لم يكن الحال كذلك ! !

* * *

والآن لننظر إلى الرومان : لم يكونوا في حالة انحطاط وتقهقر شأن اليونان، بل كان عالمهم على جانب عظيم من الشجاعة والعظمة والكبرياء والقوة والسيادة . ولكن يقول المؤرخون ان هذه العظمة الظاهرية أخفت تحتها فساداً ناخراً . فالحياة العائلية كانت لا تُطاق ، وكانت المظالم فاشية والقسوة سائدة ، وكان الشعب غائصاً في وهاد الانحطاط والوحشية ، فكانت أحب ملاهيهم المذابح المريعة في ساحة المصارعات ، وكان الرقّ لعنة الانبراطورية. فبين كل ثلاثة يسيرون في شوارع رومية، كنت ترى اثنين من العبيد الارقاء. وبين كل ثلاث نسوة أو ثلاث فتيات، كنت ترى اثنتين خاضعتين لهويّة السادة الغاشمين ولكل ميل شرير من ميول الشهوات البهيمية الجامحة . وكان العبيد انفسهم في حالة

الشقاء والبؤس فهرع خيارهم إلى المسيحية عند ظهورها ،.وعاث أشرارهم في رومية فساداً وفسقاً ، وجرّوا معهم صنوفاً جديدة غير طبيعية من الرذائل والموبقات وأفسدوا سادتهم ، وأفسدوا الاطفال معهم. وكانوا مصدر كل شهوة في عصر رومية الذهبي حتى ان الفتيان الرومان كانوا يشيخون ويفسدون بالرذائل الكريهة وهم بعد بين العاشرة والعشرين من العمر. وبعد هذا التاريخ بنصف قرن نرى بولس الرسول يصف هذه الحالة الشائنة في الفصل الأول من رسالته الى رومية .مشيراً إلى القوم الذين أسلمهم الله الى النجاسة في شهوات قلوبهم

وها أنت ترى العالم الروماني بكل ما فيه من كبرياء وعظمة ، عالماً مظلماً موحشا لكل رجل وكل امرأة ، عالما بدون إله . وحين كان يحلّ الحزن بانسان ، أو يشمئز من نفسه ، او تثور في داخله رغبات وميول الى الحق ، لم يكن يجد أمامه إلهاً يصلي له الاّ الإلهة رومية ، والانبراطور الذي كان يعبده الرومان كأنه يمثل رومية . وتصوّر نفسك في مثل هذا المركز وفكر كيف كنت تشعر !!. ولكن ليس هنا نقطة الارتكاز فان هذا القول يصدق اجمالا على العالم الوثني في كل العصور . أما النقطة المركزية فهي أن خيار الرومان انفسهم سئموا كل هذا وكانوا يرحبون بأية قوة تنشلهم . وقد كان بين اولئك الوثنيين شخصيات نبيلة . ونحن نذكر كيف ان قادة الرومان في العهد الجديد مالوا إلى المسيحية عندما احتكوا بها . وانه لمن دواعي العطف والاشفاق ان نعرف شعور قادة الفكر انفسهم ازاء هذه الحالة . فقد كان ذلك العصر عصر الفلاسفة، الذين يتلمسون الطريق نحو الحق، ويتعسسون في الظلمات لعلهم يعثرون على مرشد أخلاقي . وكان لناس يفكرون تفكيراً جديا . ويحاولون — وهم أمام سماء خالية من الآلهة كسماء اليونان – إيجاد نوع ما من أنواع الدين ليحيوا به . وكانوا قد نفذوا الى معرفة أسرار الضمير وادراك مدى سلطته . حتى قال احدهم ان الضمير شعاعة من الالوهية في داخل المرء . وكانت هذه بلا شك خطوة واسعة الى الامام خطاها شعب وثني .

ولقد أخرج فلاسفتهم الرواقيون تعاليم نبيلة : « اسعَ وراء الفضيلة، اصغ الى صوت الضمير ، لان الضمير نوع من أنواع الالوهية الداخلية . وربما كان وراءه كائن عظيم ،

وحتى ان لم يكن فعليك ان تصغي الى نداء هذا الصوت ». أليس هذا موقفاً نبيلا يقفه شعب وثني ؟

أجل . جاء اولئك المفكرون بأفضل ما لديهم . ولكن لم تخرج جهودهم عن حد التفكير النظري . ولم يكن لديهم اساس مكين يقيمون عليه ديناً ما كما كان لليهود . ولم تقوَ ظنونهم وتأملاتهم النظرية على مصادمات الحياة وعثراتها . ولم تستطع نظرياتهم امتلاك عامة الشعب الذين لم يفهموها، ولم تمس الا العقل البشري المفكر وهو يحاول اخراج دين ما لنفسه . ولذا كان الفشل محققاً في هذه المحاولة .

فشل الفلاسفة . ولكن أليس مما يسترعي النظر انه في الوقت الذي يسعى فيه الوثنيون لادراك النور ـ في الوقت الذي فشلت فيه اسمى الجهود التي بذلتها العقلية البشرية العاطلة عن اية معونة خارجية ـ يجيء المسيح في هذه الازمة الفكرية في تاريخ البشر؟!

وما شأن اليهودي وهو يمثل القسم الثالث من العالم يومئذ ؟ ربما يقال انه مهما كان الحال مع اليوناني أو الروماني ، فان اليهودي بما كسته الضيقة لم يكن في موقف المرحب بمجيء المسيح .

غير اني اخشى ان يكون هذا القول مبالغاً فيه. لانه يحكم فقط على اليهودي المتعصب المتحزب الذي يظهر في العهد الجديد بمظهر المعاند المقاوم . ولكن كثيرين من افاضل اليهود رأوا رجاء النبوات مكملاً في يسوع، فصاروا الاعضاء الغيورين الاولين في الكنيسة الاولى الناهضة .

وكتابات ذلك العصر تدلنا على ان مفكري اليهود لم يكونوا راضين عن دينهم شأن اليونان والرومان . لان اليهودي المتجول بعيداً عن رقاع فلسطين قد اتسع مدى تفكيره بفضل احتكاكه بالشعوب الاخرى وميله الى علوم وآداب الامم، فلم يبق محصوراً في الدائرة اليهودية الضيقة. وأحس وهو يخالط اصدقاءه الوثنيين و يصادقهم ان اليهودية التي عجزت عن ان تفتح أبوابها لامثال هؤلاء الاصدقاء لن يمكن ان تكون ديناً للبشرية قاطبة . لان « يهوه » كان إلهاً خاصاً باسرائيل فقط، ولا يمكن لسائر العالم ان يصل اليه الاّ عن طريق اسرائيل بواسطة الختان ومراعاة طقوس ثقيلة فرضها شعب غريب هو مكرهة شعوب الارض . ولذا كان الموقف غريباً . و يؤخذ من كتابات بعض اليهود في ذلك

العصر انهم كانوا يحاولون اصلاح دينهم وتوسيعه ليصبح ديناً للجميع

ولو أمكن ان تزدهر اليهودية بما حوت من تعاليم لاهوتية نبيلة وتصبح ديناً جامعاً شاملاً للجميع لا فرق بين يهودي واممي ، يوناني أو بربري ، عبد او حر ، لكان ذلك عين المرام . ولقد ادرك اليهود المفكرون ان هذا ما رمت اليه نبوات القدم ، اذ سيأتي يوم يتفتح فيه جذع يهوذا عن زهرة ناضرة يفوح اريجها معطراً ، ويُنشر على البشرية قاطبة عند مجيء المسيا المنتظر .

بقي ان ننظر الى شيء آخر : هو ان الرجال الروحيين الغيورين امثال بولس الرسول تقدموا الناموس . ويقول بولس نفسه ان الناموس مؤقت ومقصود به ان ينمو ويتسع ، وهو معلم لاقتياد الناس الى المسيح . وقد أبان في ازاحة اللثام عن شقوته ومصارعته الروحية قبل الاهتداء كيف ان الغيورين من اليهود كانوا يسعون و يجاهدون لايجاد منفذ يقتربون منه نحو الله . ولامثال هؤلاء كان المسيح كشفاً مفرحاً معزياً

ولعلَّ اغرب ما في الامر كله وأدعاه للدهشة هو الانتظار الحار الذي كان عليه شعب اليهود قبيل مجيء المسيح . واجرؤ على القول ان التاريخ البشري لم يحو بين طياته ظاهرة قوية مقنعة كتلك الظاهرة النفسية العقلية، ظاهرة الترقب الصامت والانتظار الحار الذي كان عليه ذلك الشعب عند مجيء المسيح

وكان قد مضى على آخر الانبياء الذين تنبأوا عن مجيء المسيا المنتظر خمسة قرون ولم يحدث شيء ما. وكان المتوقع ان ينسى الناس، او تضعف الآمال المرتقبة بعد خمسة اجيال، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وشهد التاريخ شعباً نبيلا واقفاً على اطراف اصابعه يزداد ترقباً كلما طال الزمن . وقد ظهر في الفترة بين العهدين القديم والجديد نخبة من المؤلفات تعبّر كلها عن هذا التوق الشديد . وهاك نبذة من احد الاسفار المسمى سفر « اخنوخ »، وكان هذا السفر ذائعاً منتشراً في القرنين اللذين سبقا مجيء المسيح واكبر الظن ان المسيح استقى من هذا السفر اللقب المحبوب الذي اطلقه على نفسه «ابن الانسان» : ــ

« ورأيت في رؤياي مَن كان مع الابدي الازلي . وجهه شبه وجه انسان مملوءاً نعمة . وسألت الملاك فقال لي : هذا ابن الانسان الذي يسكن فيه البرّ والذي يعلن كل ما خفي . . وهذا ابن الانسان سيكون عكازاً للبار ونوراً للامم ورجاءً لمضطربي القلوب.

وستجثو امامه كل ركبة من سكان الارض . ولهذا السبب كان اختياره قبل تأسيس العالم والى الابد » .

وتومىء هذه الاسفار كلها الى رغبة الارتقاب المتقدة . وانت تلمسها نابضة ايضاً في فصول البشائر الافتتاحية . وكانت رسائل انبياء القدم قد تبلورت وصارت رجاء قوياً . وصار هذا الرجاء رغبة متسائلة دوماً عن يوم مجيء القائد المنتظر . ولما جاء يهوذا الجليلي في أيام العشور والضرائب تبعه خلق كثير آملين فيه ان يكون المسيا المنتظر . ولما جاء يوحنا المعمدان فكّر الجميع في قلوبهم هل هو المسيح أم غيره . ولما بدأ دعوته في البرية كان اول سؤال وجه اليه : « قل لنا . هل انت المسيا ؟ هل انت المنتظر؟ ». ولا يسع الباحث الا ان يشعر بانه في وسط مملوء بالتساؤل والانتظار الشديد.

لقد رأينا في فترة معينة من التاريخ البشري شعوب الارض العظمى تتهيأ لإعداد الطريق لمجيء المسيح . قد رأينا الشعب اليهودي قاطبة واقفاً على أصابع القدم يترقب وينتظر ، والعالم كله في هوة عميقة يتلمس قوة لانتشاله

وعندئذ — وعندئذ فقط — جاء المسيح ! !

الكتاب الثاني

في ملء الزمن ......

الفصل الاول

في ملء الزمن

وبعد ان فرغت هذه العوامل كلها من مهمتها ، جاء الملك ، « وفي ملء الزمن أرسل الله ابنه » من العالم الازلي الى هـذا العالم . وها قـد جئنا في مراحل التاريخ البشري الى الحادثة الخطيرة التي كان كل التاريخ السابق بمثابة استعداد لها ، الحادثة التي أزالت شقة التباعد بين الله والانسان، اذ جاء « هو » نفسه الى الارض في هيكل بشري ، « هو » الذي كانت مخارجه منذ القدم ومن الازل .

وأول ما يسترعي النظر ، ويكاد يكون بعيد التصديق لاول وهلة ، تلك الطريقة العادية البسيطة التي تم بها هذا الحادث الخطير. فلو كان قد جاء في قوة واقتدار ، وانشقت له السماء ، لـكان ذلك حادثاً منتظراً لا شـذوذ فيه . اما ان يجيء على هـذه الطريقة البسيطة العادية فهنا وجه الغرابة والدهشة !

ولـكن من ناحية اخرى ، أليست هذه طريقة الله في صنع كل عجائبه ؟ أليس

هذا هو الاسلوب المألوف في أعمال العالم الازلي ؟ . . . في إنبات أشجار البلوط الضخمة ، في صنع الكواكب والسيارات ، في أعجوبة الفجر ، في غزائب الزرع والحصاد — هذه هي طريقة الله ، هادئة بسيطة ، لا تسترعي شيئاً من الالتفات .

جاء يسوع في بساطة هائلة غير منتظرة . ليس في مجد وفخار وانشقاق السماء، بل في رقة ولطف وهدوء كالندى يتساقط في الليل، او الفجر ينسل لتبديد غياهب الظلمات. وها هو ذا حادث جلل لا يستوعبه الفكر البشري، ولكنه يتفق مع أبسط عناصر الحياة . و يخيل للمرء كأنه يقرأ قصة قروية عادية، حتى ليصعب عليه ادراك ما فيها من غرابة ورهبة.

في بساطة وهدوء ، وفي حالة طبيعية ، صار المسيح انساناً !

ونبدأ مشاهد القصة في بلدة قروية صغرى تكتنفها جبال الجليل . وفي احدى طرقات القرية يقع النظر على حانوت نجار ريفي يعمل أمام منضدته بالمنشار والقادوم والازميل ، و يصنع المناضد والمقاعد والمحاريث والأنيرة لعملائه في تلك النواحي . يعمل بجد ونشاط وفي غبطة وهناء ، وقلبه مفعم بافكار خطوبته والبيت الذي ينوي إعداده للحياة الزوجية.

وعلى مقربة منه في القرية تقطن خطيبته ــ مريم ابنة حنة ــ وهي فتاة قروية ولو أنها من دم ملكي ــ تعمل في بيتها في الغزل و إعداد الخبز واستقاء الماء من البئر عند المساء مع الفتيات الاخريات في القرية . ونحن نتخيلها فتاة قد اكتست بالجلال والوداعة والرقة ، ونصورها لانفسنا بوجه جميل رائق يتفق مع جمال نفسها وصفائها .

ومن ذا الذي كان يحلم يوماً ان تجري معجزة الاجيال في هذا الوسط الساذج الوضيع؟ ان العالم غير المنظور وهو يرتقب مدى الاجيال استعداده الطويل ، يهبط الى الارض ليمثل على مسرحها رواية الفداء و يلعب أدوارها في مشاهد علنية على مرأى البشرية . وفي ذات يوم او ذات ليلة اضطربت فجأة نفسية تلك الفتاة الساذجة وهي تردد صلاتها ، واكتنفتها رهبة خارقة للطبيعة، وظهر لها ملاك من السماء ، وخرق اذنها صوت من العالم غير المنظور :

سلام لك ! ايتها المنعم عليها ! الرب معك !

وفي تلك الساعة ، وهي تحني هامتها في هيبة ودهش يأتيها الاعلان الهائل وينبئها ذلك الصوت الغريب بان رجاء اسرائيل ، ورجاء كل الاجيال الطويلة سيكمل أخيراً :

« لا تخافي يا مريم لانك قد وجدت نعمة عند الله . وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً

وتسمينه يسوع . هذا يكون عظيما وابن العلي يدعى . . . . وليس لملكه نهاية . الروح القدس يحلّ عليك وقوة العلي تظللك، فلذلك القدوس المولود منك يدعى ابن الله » .

فتقول مريم : « هوذا انا أمة الرب . ليكن لي كقولك » .

ثم يمضي من عندها الملاك . وهنا يعقل اللسان ، وينسدل فوق قلب العذراء حجاب كثيف ، وليس لنا أن نلقي كلمة تعليق ، أو نتطفل على صدق هذه القصة المقدسة التي لم تأت إلا عن طريق مريم نفسها .

* * *

وبعد قليل نرى امرأة — قد أُحيطت بسر هائل لم تعهده امرأة سواها من قبل — تصعد مسرعة نحو جبال يهوذا لتكشف هذا السر الى امرأة مثلها . ولم يكن في وسعها ان تفضّ مكنونات قلبها أمام أحد ، حتى ولا أمام خطيبها . لان المرأة في مثل هذا الظرف تودع سرها امرأة مثلها . وقد كان لها ابنة عم تدعى « اليصابات » زوجة لكاهن قروي ، وهذه انبأ عنها الملاك ايضاً بانها ستشترك في إتمام القصد الالهي ، وكان آتياً إلى العالم طفل آخر سوف يكون منادياً ، وممهداً طريق المسيا .

وجاءت مريم إلى بيت الكاهن في جبال حبرون . وتلاقت المرأتان وروت كل منهما قصتها ، وأخذتا تستعيدان التفاصيل في ذهول واندهاش . ولا يمكن لأيهما ان تنسى الاختبارات التي تذوقتها خلال ثلاثة أشهر وهي تتحدث إلى شريكتها ، والى نفسها ، والى الله ، ليل نهار ، في ذلك البيت الصغير الهادىء القائم فوق سفح الجبل . أما العالم الخارجي فكان مشغولاً كعادته بمشروعاته ، ولم يدر شيئاً عن ذلك الحادث الجلل الذي كان يوشك أن يظهر على مسرح الأرض .

عادت العذراء المباركة الى بيتها في الناصرة . ولم تعد اليه تلك الفتاة الطروبة الخفيفة القلب التي تركته . فانه خلال الاشهر الثلاثة التي مضت كانت الفتاة قد صارت امرأة ، وارتقت في القامة الروحية ، وأصبحت في عالم جديد اكثر اتصالا بالله ، تفكر ملياً على انفراد في فرح ممزوج بالخوف في ذلك السر الرهيب الذي أُغلق عليه داخل أحشائها . وحتى يوسف نفسه لم يعرف شيئاً . ولكن بعد أن مرّت الأشهر امتزج الفرح الذاهل في عينيها بغصات قاسية من الألم ، وقد بدأت تفطن الى الريبة المرعبة التي سوف تخامر

قلب خطيبها ، والتجربة القاسية التي تنتظره بالمرصاد . ويكفي ان تصور لنفسك مقدار ذلك الالم عند ما أراد يوسف « إذ كان رجلا باراً أن يخليها سراً » !

انقضت أيام الشقاء . وفي هزيع الليل عند ما تماسّ الانفس البشرية بالعالم الروحي، هبطت رسالة الله الى ذلك الرجل المعذب ، واستيقظ وفي نفسه مزيج من اليقين والخجل والغبطة ليأخذ مريم زوجته ، ويرعى في رقة وحنان تلك الأم العذراء «ومسيحها» الذي لم يولد بعد . أما مريم فلم تنس بسهولة مرارة تلك الأيام القاسية ، لان مثل هذه الاختبارات تترك آثاراً في قلب المرأة .

تسعة اشهر تقضّت . وفي ذات يوم وقد مالت الشمس الى المغيب ، وألقت وشاحاً من النور الذهبي على تلال بيت لحم ، وتطاولت جبال موآب بلون قرمزي في الفضاء البعيد ، تقع العين في طريق الوادي على ركب من المسافرين قد أضناهم السير، وبينهم شابة قروية تمتطي دابة وقد بدت عليها آثار الاعياء، وأمسك زوجها السائر إلى جانبها بمقود الدابة . « لانه صدر أمر من أغسطس قيصر بان يكتتب كل المسكونة فصعد يوسف ايضاً من الجليل من مدينة الناصرة الى اليهودية الى مدينة داود التي تدعى بيت لحم، لكونه من بيت داود وعشيرته ، ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلى » .

اقترب الاثنان الى بيت لحم ، الى بلاد كانت لاتزال حية بذكرياتها التاريخية . ففي المراعي المحيطة بهم التقطت راعوث منذ أمد بعيد بقايا السنابل في حقل بوعز ، وفي الفجوة الى اليمين خارج ابواب القرية مات ثلاثة من الشجعان في سبيل إحضار الماء لداود من بئر بيت لحم ، وعلى مقربة من الطريق قبر تذكاري يقدسه جميع اليهود، عنده انطفأ رجاء حياة يعقوب: « ماتت عندي راحيل في أرض كنعان في الطريق اذ بقيت مسافة من الارض . . . . فدفنتها هناك في افراتة التي هي بيت لحم » .

ولكن على الرغم من هذه الذكريات كانت افكارها مفعمة باشياء أعظم من هذه ستحدث قريباً . ويوسف يسرع ليعد ملجأ لراحة شريكته لان الاميال الاخيرة كانت قد انهكتها جداً . وليس من الصعب في الايام العادية ايجاد مكان للراحة لان الشرق الكريم يعتبر الضياقة من الواجبات المقدسة ، ولكن المدينة كانت قد غصّت بجماهير الوافدين ، ولم يكن ثمت مكان للقادمين اليها ، حتى ولا في الخان !

لم يكن هذا ذنب أحد من الناس . لان احداً لم يعرف من هو القادم إلا الجمهور الساجد المطلّ من كوى العالم الاعلى الذي هبط منه ابن السماء. وحاشا لسكان ذلك العالم الذي تسوده المودة والمسرة ان يعيبوا علينا هذا التقصير ، وربما كانوا يستمتعون بسخرية غير مقصودة هـذا المشهد : ربّ الـكون يهبط الى عالمه الصغير ، وليس في هـذا العالم مكان لايوائه ! !

واخيراً التجأ الضيفان الى كهف طبيعي منقور في الصخر،من الـكهوف التي تستعمل مَرابط للماشية . وهناك وحيدة منفردة ، بلا يد شفيقة تسندها وتشددها ، قاست تلك الام العذراء آلام المخاض « وولدت ابنها البكر وقمطته » — ولم يكن معها انسان يقوم بالتقميط — وأضجعته في المذود وحوله المواشي ، وفي هذا الوسط نام نومة الطفولة الاولى!

هل دخل طفل الى العالم بهذا الشكل الوضيع ؟

أليس هذا باعثاً على شدة حبّنا له ؟

لو كان المسيح ولد في قصر فخم ، تحفّ به الاميرات ورؤساء الـكهنة ، لتشوه جمال هذه الصورة بعض التشويه. وهذا الطفل الصغير الوضيع الذي لم يلحظه أحد، يأتي الينا في عجزه وضعفه بنداء حار قوي . كأنه يَـكِل نفسه الينا ، و يلتمس حبنا وتعلقنا به ...

في حالة تمسّ كامن الحسّ ،وبنداء يلمس مكمن الضمير ، جاء المسيح الطفل الى العالم!

* * *

ولم تـكمل القصة بعد . فها هي ذي الملائـكة تجيء ، و يظهر على المسرح عالـمـان . ولايفوتك ان تطبع في مخيلتك هذه الصورة كاملة لئلا تفقد محاسنها و يضيع معناها .

تمّ هذا الحادث الجلل في الانسان . جاء رب المجد في الحياة البشرية ، في سذاجة و بطريق عادي مألوف هادىء كندى الصباح. فعلى الجانب الارضي نرى حظيرة المواشي ومذوداً والماشية في مرابطها وامرأة فقيرة تلفّ طفلها في أقمطته ـــ لا شيء من الغرابة في الامر كله حتى يبرق على المسرح نور العالم الذي جاء منه هذا الطفل ، حيث نرى في كبد السماء فوق المذود والحظيرة ، الجمهور السماوي يهلل لمجيء المسيح .

واذكر ان هذه قصة واحدة متماسكة، وصورة واحدة لحادث واحد : الطفل الالهي على الارض قـد هبط من السماء فأحاطت به فوق رأسـه جنود الملائـكة تهتف له وتحييه يوم ميلاده . . . . .

وان هذا الفصل من القصة ، صوت الانفجار المفرح في العالم الآخر ، لأشدّ فصول القصة أثراً في النفس . فما اجمل انغام موسيقى السماء تتجاوب أصداؤها فوق سهول بيت لحم ، معلنة بشرى الفرح للعالم قاطبة! وما أوفر افراح الجماهير السمائية تطرب وتبتهج وهي تنشد النشيد الخالد المألوف في عالم السماء « المجد لله في الاعالي » !

وما لم نحتفظ في أذهاننا دوماً بصورة هذا العالم الروحي الغيور ، الفرح الطروب، تغيب عنا معالم جماله وعجائبه ، وتمسي صورة الملائكة من السماء محوطة بالضباب والسحب الى جانب صورة المذود والطفل على الارض . وهذا لن يكون ، فان اي تردد من جانبنا في حقيقة العالم الاعلى ووجوده في هذا الحادث يُذهب عنا معنى القصة كلها . وليس هذا مشهداً خيالياً أحاط بافراح الطفولة وحسب، ولكنه جزء من قصة الطفل والاقمطة. والصورتان تتماشيان معاً وكلتاهما على قدم المساواة في الحق والصدق. والواحدة مكملة للاخرى.

و يسوع — وقد كان ذلك العالم مسقط رأسه — يضع العالمين امامه دوماً . فهو يتكلم عن السماء والملائكة والارواح كما نتحدث نحن عن مساقط رءوسنا واصدقائنا الذين نعرفهم. وعندما تقع عيناه على طفل صغير على الارض تقع عينه في الوقت نفسه على ملاكه الحارس امام وجه الآب في السماء . وعند مايرى خاطئاً يتوب على الارض يرى ايضاً فرح الملائكة في السماء و يشعر ان ذلك العالم الذي جاء منه محيط به دائماً ، ويهتم كل الاهتمام بعالمنا الارضي هذا .

قلنا ان كل حلول لله في الحياه البشرية ، وكل نهضة روحية ينهضها عالمنا هذا ، تبدأ في ذلك العالم الاسنى قبل ان نعرف عنها نحن شيئاً . وتُعلن في ذلك الملاء الاعلى قبل ان تظهر في هذا المسرح المنخفض . واذ ما فكرنا ملياً في خطورة هذا الحادث الخطير — تجسد الابن الازلي — وكيف تهللت له السماء في بادىء الامر، وتبعته باصوات التسبيح عند ما انتقل المشهد الى مسرح الارض ، استطعنا ان نقدر معنى الفرح الملائكي الذي عطر اجواء الارض بالبشارة المفرحة لكل البشرية : « يولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب » !

الفصل الثاني

الميلاد من عذراء

رأيت من اللائق ان أفرد فصلاً خاصاً لميلاد المسيح العذراوي إذ قد طُرح الموضوع فيمناقشات علنية، ونجم عنه شيء من الريبة في بعض العقول.

ولا يجيء هذا التساؤل من جانب غير المؤمنين فقط. بل هناك نفر من المسيحيين أنفسهم يزعمون ان التساؤل في عقيدة ميلاد المسيح من عذراء لا يؤثر شيئاً في الاعتقاد بالوهية المسيح. ورغبة في إزالة الشكوك والشبهات يطالبون بحذف العبارة القائلة: « حبل به بالروح القدس وولد من مريم العذراء » من قانون الايمان المسيحي.

ومهما تكن النية سليمة فان المرء لا يسعه إلا اعتبار هذا الموقف المبهم خطأً فادحاً. لانه لم يحدث ما يبرره. وهو يؤثر جداً التأثير في عقيدتنا بالوهية المسيح. ولم تضع الكنيسة الاولى هذه العبارة البارزة في قانون الايمان صدفة أو اعتباطاً. ولنا في التاريخ عبرة، فان من يعمد الى تفكيك عقيدة البشر في ميلاد المسيح العذراوي، فكأنه يهدم دعامة التعليم القائم عليه التجسد.

وانه لمن الصعب معالجة هذا الموضوع في ايجاز. ولكن سأحاول أولاً بيان الموقف التاريخي وكيف أُدمج هذا التعليم في قوانين الايمان المسيحية. وأعالج ثانياً الاعتراضات والشكوك التي يبديها البعض. وأبين اخيراً الاهمية الحيوية في الاحتفاظ بهذا التعليم في ايماننا.

ولنبدأ أولاً بالموقف التاريخي:

خلال حياة السيد المسيح لم يفكر أحد قط من التلاميذ فيهذا الموضوع. فان التفكير فيه قبل إدراك الوهية المسيح كان يُحسب من الأمور السخيفة السابقة لأوانها، والتي لا يمكن تصديقها. وان تكتم الام العذراء « التي حفظت جميع هذه الامور في قلبها » يؤدي بنا الى الاعتقاد بان روايتها لم تُفشَ إلاّ لنفر قليل من الاخصاء، وكيف لا يكون ذلك والامر دقيق يتطلب بطبيعته التمنع والاحجام عن اذاعته فيوقت كان يُنظر فيه الى المسيح كمجرد انسان. ونحن مع توقيرنا لسرّ التجسد يصعب علينا جداً ان ندرك حقيقة الموقف يومئذ. ولكن التاريخ يفضح كل شيء ويروي لنا كل الفريات المستقبحة التي أذاعها

أعداء المسيحية فيا بعد . وهل تستطيع الأم المباركة نفسها ان تنسى ذلك اليوم المشئوم القاسي، يوم ارتاب خطيبها في طهارتها وعفتها وأراد ان يخليها سراً؟ وكيف كان يمكنها ان تذيع في عالم مشبع بالشكوك والافتراآت ذلك الاختبار الفذ الفريد في ذاته قبل ان تدرك في نفسها الوهية المسيح ومعنى الميلاد العذراوي؟

ولا يغرب عن البال ان التلاميذ قبلوا المسيح في باديء الامر كانسان. وقد كان هذا هو القصد الالهي الذي أرلده المسيح. فانه كانسان اكتسب عطفهم واعجابهم واحترامهم. وتدريجاً أخذت أحاسيسهم تتعمق وتزداد في الدهشة والرهبة ، في الحيرة والتردد — وقد حاروا في أمرهم ، ولم يرد هو ان يجلو ما غمض عليهم ولكنه احتفظ بالسر الالهي ، وحتى عند ما لمحوا وميضاً منه منعهم ان يتكلموا . وحتى بعد التجلي أمرهم ان يصمتوا الى ان « يقوم ابن الانسان من الاموات » . ولم يبدأ باعلان ذاته إلا قبيل نهاية حياته. فقال لهم « أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي » — « أنا والآب واحد » — « يوماً ما سآتي لأدين الاحياء والأموات » .

ولم يشرق عليهم فجر هذا الاعلان الهائل إلا بعد القيامة، والاربعين يوماً التي قضاها متردداً عليهم،والصعود الى السماء ،ونزول الروح القدس عليهم — و بعدهذا كله أدركوافي رهبة وخشوع مَنْ كان ذلك الشخص العجيب الذي قضى معهم ثلاث سنوات في فلسطين. فكتب أحدهم: «الكلمة صار جسداً وحلّ بيننا ورأينا مجده، مجداً كما لوحيد من الآب ».

تمّ هذا كله دون ان يفطن أحد الى ميلاده العذراوي ، وأغلبهم لم يكن قد عرف شيئاً عن تلك الحادثة العجيبة . ولكن عند ما أُميط اللثام عن ذلك السر الدفين في جوّ أهل لقبوله، جاء لهم بمثابة تأييد لايمانهم وظهرت لهم خطورته ومعناه. ولو كانوا قد عرفوه من قبل لما كان له في نظرهم معنى. أما الآن فقد أزاح هذا السرّ كل حيرة حول الوهيته . وجاء مؤيداً ومتناسقاً مع عقيدة التجسد.

وبالطبع قد أُذيع هذا السر عن طريق العذراء مباشرة ، أو بواسطة أخصائها ، ربما الرسول يوحنا أو زميلاتها من النسوة القديسات. ونحن لا نعرف شيئاً عن كيفية هذا السر، ولا الدليل الذي أقنع الكنيسة بصدق تلك الحادثة . ولكننا نعلم ان « مريم أم يسوع كانت مع الاخوة » ، ونعلم ان هذا السر قد ذاع في سنوات قليلة في كل أرجاء

(م ٤)

فلسطين، وانه بعد ان تناقلته الألسن كحديث متواتر، دوّنه في السفر المكتوب البشير متى وفصّله البشير لوقا، وان الكنيسة قد أذاعت هاتين البشارتين كأنهما لسان حالها وتعبران عن عقيدتها . وقد أدمجت هذه العقيدة في أولى قوانينها . وهاك ما جاء في قانون الايمان الروماني المعمداني الذي وضع حوالي ١٠٠ ب. م. :«ولد بالروح القدس من مريم العذراء». ومنذ ذلك التاريخ ، وعلى مدى الاجيال المتعاقبة، قد جعلت الكنيسة — في غير تبديل أو تحوير أو تردد — هذه العبارة الدعامة التي قام عليها معنى التجسد في قوانين ايمانها . وحتى اليوم تأمر جميع ابنائها في كل رقاع العالم بأن يعلنوا عقيدة التجسد في تلاوتهم هذه العبارة : « وآومن . . . . . يسوع المسيح ابن الآب الوحيد الذي حبل به بالروح القدس ، وولد من مريم العذراء ».

واذا وضعنا الحوادث التي حدثت مع التلاميذ في ترتيبها المنطقي الطبيعي، نجد ان مسئلة الميلاد العذراوي لم تخطر على بال ، ولم تثر قط إلاّ بعد الاقتناع بالوهيته . و بدون هذا لم يكن لها ثمة معنى . وهم عند ما عبدوا المسيح الصاعد كإله، فهموا ذلك السر الهائل الذي انطوت عليه هذه الكلمات : « الروح القدس يحلّ عليك وروح العلي تظللك ، ولذلك القدوس المولود منك يدعى ابن الله ». عندئذ ، وعندئذ فقط ، فهموا هذا السر الذي جاء مؤيداً ومتناسقاً مع حقيقة الوهيته .

ولكن متى أُعلن هذا السر ؟ لم يدم كتمانه طويلاً بعد ان تناقلت الالسن الرواية . انما أُعلن عقب القيامة مباشرة . ويقول الاستاذ « هارنك » اكبر الثقاة في تاريخ ذلك العصر — وهو نفسه لا يؤمن بالميلاد العذراوي — « كان هذا السر شائعاً بين جميع المسيحيين حوالي نهاية القرن الاول . ولذلك لا بد ان يكون قد دُوّن في فلسطين في السنين العشر الاولى بعد القيامة» .

وما هو الدليل على ذلك ؟ ان الدليل الوحيد الذي يثبت أية حقيقة تاريخية بعد ان يكون قد مضى عليها سنوات طويلة انما هو شهادة ابناء ذلك العصر الذين كانوا في موقف يؤهلهم أن يحكموا على صحة الدليل — وقد آمن الرسل بهذه الحقيقة ووضعوها كعقيدة أساسية مؤيدة عن سيدهم وربهم.

وان في إثبات البشيرين لوقا ومتى هذه الحقيقة كجزء من عقيدة الكنيسة ، وقبول

الـكنيسة إياها وادماجها ضمن عقائدها — نقول ان في هذا دليلاً كافياً يؤيد هذا الاعتقاد . ولا ندري كيف يفوت بعض الناس هذا الامر الواقع . ومن يقرأ الادلة التي يدلي بها ناكرو الميلاد العذراوي، يظن ان لوقا ومتى هما الشاهدان الوحيدان، كأنهما قد كتبا نظريات من عندياتهما لتؤمن بها الـكنيسة . ولـكن لايغرب عن البال انهما كتبا عقائد الـكنيسة نفسها ، وهنا محور الامر كله :

ان الكنيسة لم تؤمن بميلاد المسيح من عذراء لان هذه الحقيقة قد كتبت في الانجيل. ولكنها بالعكس كتبت في الانجيل لان الكنيسة آمنت بها. وكان وراء متى ولوقا الكنيسة كلها شهادة عاضدة مؤيدة .

لو تذكر الناس ذلك واحتفظوا بتوازن العقل وتوازن الشعور لما قامت هذه الصعوبة التي يدلي بها جماعة المرتابين في زعمهم بان كتَّاب العهد الجديد الآخرين لم يشهدوا للميلاد العذراوي كما فعل ذانك البشيران .

والآن لنعالج هذا الامر: ولنغضّ الطرف لحظة عن الاعتراضات التي يثيرها الملحدون، ونحن نجد ان اصعب مشكلة تتصدى لجماعة المتشككين من المسيحيين ان البشيرين مرقس ويوحنا لم يتعرضا لذكر هذه الحادثة . ولم يذكرها أيضاً بولس في رسائله الـكثيرة التي حوت الشيء الـكثير . فيقولون : أليس ذلك دليلاً على أنهم لم يؤمنوا بها ؟ وهـذا الاعتراض يبدو وجيهاً ، ولـكن لا يلبث ان يزول بعد بحثه وتحليله .

ولنذكر أولاً ان قبول الـكنيسة بشارتي متى ولوقا كوثائق صحيحة في تعاليمها لدليل على وجود اعتقاد شائع ثابت . فلماذا اذاً لم يشر اليه مرقس في بشارته ؟ اننا اذا تصفحنا هذه البشارة من أولها نجدها تتحدث عن حياة يسوع العامة فتبدأ بالمعمودية ورحلته الى الجليل. والبشير لايمس شيئاً ما قبل ذلك التاريخ، بينما لوقا يقول في مستهل رسالته : « . . . . اذ قد تتبعت كل شيء من الاول » . ولذلك لا يصح اتخاذ مرقس كشاهد نفي أو اثبات لحادثة لم يتعرض لها .

ولماذا لم يذكرها يوحنا ؟ لست أدري . ولـكن لنذكر انه كان عالماً بنشر بشارتي لوقا ومتى، وموقناً ان ميلاد المسيح العذراوي كان من العقائد المسلّم بها في الـكنيسة . ولذا قصد فقط ان يكمل ما نقص في البشائر الاخرى وان يكتب ما لم يكتبه زملاؤه .

واذا لم يكن هذا القول دليلاً كافياً ، فلنذكر ان يوحنا نظر الى ميلاد المسيح من ناحيته السمائية لا من ناحيته الارضية . وهو قد أشار فعلا وحقاً الى حادثة الميلاد . ولكن عوضاً عن قوله ان يسوع ولد في بيت لحم اليهودية ، قال انه هبط من السماء العليا . وهذه هي مقدمة روايته التي تماثل مقدمة روايتي متى ولوقا: « في البدء كان الكلمة ، والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده » . فهل يؤخذ من هذا القول ان يوحنا كان معارضاً لاعتقاد الكنيسة في ذلك العصر ؟

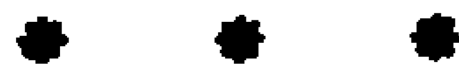
أما عن الرسول بولس فلماذا ينسى المعترضون انه ليس لدينا أي أثر عن انجيل حياة المسيح الذي كان يبشر به هو والرسل كل يوم ؟ وقد كان ينادي بتعاليم خاصة عن سيرة المسيح واشار الى ذلك في احدى رسائله بقوله : « انجيلي » — « . . . كيف قام يسوع المسيح من الاموات بحسب انجيلي ».

وليس لدينا أي بيان عن ذلك « الانجيل »، تلك السيرة التي نادى بها بولس يومياً. فاذا قال قائل : انه لم يناد بالميلاد العذراوي لايمكن ان يفحمه أحد . ولكن هنا حقيقة حيوية تستحق النظر : لئن لم يكتب بولس « انجيلا » ، فان لوقا تلميذه وزميله الملاصق له قد كتب « انجيلا » وهو برفقة بولس . وفي كل السنوات التي قضاها في اتصال وثيق ببولس كان بين يديه مخطوطتان : احداها يومية تضمنت سيرة زميله وصديقه بولس ، وهذه نشرت فيما بعد تحت عنوان « اعمال الرسل »، والاخرى اكثر قيمة واجل قدراً نشرت اولا وتضمنت سيرة حياة سيده المبارك . وكان من المسلم به ان بولس قد اختاره هو بالذات ليكتب هذه السيرة ، وان بولس كان شريكا له في هذا العمل ، وان تلك البشارة تضمنت تعاليم بولس نفسه، حتى ان الكنيسة الاولى اطلقت عليها « انجيل بولس » لا « انجيل لوقا » . ونورد هنا شهادتين لاثنين من آباء الكنيسة في القرن الثاني — « ايرانيوس » في بلاد الغال القائل: «وضع لوقا في بشارته الانجيل الذي نادى به بولس». و « ترتوليانوس » في افريقية القائل: «ان خلاصة بشارة لوقا تنسب عادة الى بولس » . وانجيل لوقا هذا هو الذي ينقر بشدة على وتر حادثة الميلاد من عذراء !

وحيال هذه الحقائق لسنا نشك البتة في ان صمت الرسائل عن ذكر حادثة الميلاد ليس بذات أهمية . لان الرسائل قلما تعرضت لسيرة المسيح . وقد كانت مجرد رسائل خاصة

كتبت لمناسبات خاصة لمعالجة شئون جدلية ثارت يومئذ بين الاوساط المسيحية . والظاهر ان حادثة الميلاد لم تكن موضوعاً للجدل والحوار. والمرجح انه لم ينازع في صحتها أحد ما.

فصلت هنا أعقد الصعوبات التي يثيرها المرتابون المسيحيون ألا وهي صمت بعض البشائر والرسائل . واترك للقارىء الكريم ان يحكم لنفسه فيما اذا كان لهذه الصعوبة أي تأثير في صحة العقائد . أما الملحدون فيختصرون الطريق ويزعمون ان « الميلاد من عذراء لا يمكن ان يحدث حسب الاختبار البشري » . ونحن نسلم بذلك جدلاً .ولكن نقول لهم أيضاً : ان امثال المسيح لم يوجدوا بعد . وكل ما يؤيده الكتاب المقدس ان الحادثتين — الميلاد العذراوي ومجيء المسيح — لم يحدثا في التاريخ الا مرة واحدة فقط. والحادثة الواحدة ترتبط بالاخرى . ومثل هذا القول لايقنع الملحد الكافر، ولكنه يقطع عليه الحجة التي يقيمها ضد المسيحيين . ولسنا هنا في مقام محاجة الملحدين الكافرين . لانه لامعنى لهذا الموضوع لدى الذين لا يؤمنون بالوهية المسيح



والآن نأتي الى النقطة الاخيرة وهي اهمية ابقاء هذا التعليم مدمجاً في الايمان المسيحي. وقد أبدى بعض المسيحيين ـ نفر قليل جداً منهم ـ رغبة في حذف هذه العبارة « حبل به بالروح القدس وولد من مريم العذراء » من قانون الايمان على سبيل الترضية لجماعة المرتابين .

والتساؤل حول الميلاد العذراوي ليس حادثاً جديداً. بل هو قديم نشأ مع الكنيسة. ويرجع تاريخه الى الزنديق « كيرنثوس » خصم القديس يوحنا . وثار ايضاً في أوقات مختلفة، كما ثار ايضاً في هذا العصر، ولكن مع هذا الفارق: ان التحدي في العصور الاولى جاء من الخوارج ، من قوم جحدوا الوهية المسيح . والفكرتان — أي ألوهية المسيح وميلاده من عذراء — قد تمشتا معاً جنباً الى جنب، وجرى الناس إما على قبولهما معاً أو رفضهما معاً. أما في هذا العصر فالميل يتجه الى الفصل بينهما. ويرغب بعضهم ممن يؤمنون بالوهية المسيح ان يُترك باب موضوع الميلاد العذراوي مفتوحاً على مصراعيه.

وانها لمحاولة تستحق الاشفاق من جانب المرتاب الذي يميل الى جعل العقيدة المسيحية سهلة التصديق. ولكنك لست تقدر ان تجعل قانون الايمان المسيحي سهل القبول. وهو

في الواقع أعظم شيء في الـكون وأبعد عن التصديق — وكيف لا يكون كذلك وهو قائم على ان الله صار انساناً ! وان الكلمة صار جسداً !

أنجعل العقيدة سهلة! لا بل ان هذا الشك يزيد العقيدة صعوبة وتعقيداً. لان المفكر الذي من هذا الطراز لا بد ان يعود يوماً الى نفسه ويسائلها قائلا :وكيف صار الله انساناً؟ وكل مفكر عميق لا بد يواجه هذه المشكلة ويسعى الى حلها.

يقول لنا المرتابون انالله يستطيع بسهولة ان يكمل التجسد حتى ولو كان يسوع الابن الطبيعي ليوسف ومريم . سلمنا جدلاً — ولـكن لماذا لا يكون ذلك عن طريق الميلاد العذراوي والادلة ناهضة على تأييده ؟ وانه لسهل على الله ايضاً ان يكمل التجسد عن هذا الطريق . وهل التسليم بزعمهم يجعل الامر سهل القبول أمامنا ؟ ولماذا نعمد الى الحدس والتخمين حول ما كان يمكن لله ان يفعله ؟ ولمـاذا لا نقبل ما يؤيده الـكتاب المقدس والـكنيسة المسيحية ، وهو ما يتفق مع فـكرة التجسد قلباً وقالباً .

الآن حول أفكارك — أيها القارىء — عن هذا البحث اللاهوتي، وعد الى التفكير الشخصي الهادىء ، وتأمل برهبة وخشوع ودهشة في سر التجسد : كيف ان — الكلمة صار جسداً — الله صار انساناً — وان الذي تنازل ليحبنا ونحبه هو المسيح ابن الله الازلي الذي مخارجه منذ القدم ومن الازل . . . . وبينما تفـكر في الطفل المسيح الذي هبط الى الارض كما جاء في الرواية القديمة المحبوبة — استستقر نفسك ويغزر سلامك في ذلك الايمان القديم الساذج . لانه لم يحدث ولن يحدث شيء ما يعكر هـذا الاعتقاد . وما قالت به الـكنيسة منذ ألفين من السنين ، ستبقى مستمسكة به الى انقضاء السنين : « أنا أؤمن بيسوع المسيح، ابن الله الوحيد، الذي حبل به بالروح القدس،وولد من مريم العذراء».

الفصل الثالث

عهد الصبوة

عندما نستعرض سيرة أي عظيم من عظماء التاريخ يميل كثيرون منّا الى معرفة شيء ما عن عهد الصبوة، وما فيه من وقائع خلابة تجمع أحاديث الطفولة الساذجة والالفاظ الطبيعية التي تخرج من الفم دون وعي أو تفكير، وتطور العقل والادراك، والحوادث الصغرى التي تستخلص منها عادة بوادر العظمة المقبلة.

وكثيراً ما فكرنا تفكيراً تمازجه خيبة الامل،لان البشائر لم ترو لنا شيئاً عن طفولة سيدنا وربنا. فهل جهل البشيرون ذلك؟ ولماذا لم ترو الأم العذراء وقائع صبوته وحوادثها كما روت للناس حادثة ميلاده؟ ربما فعلت العذراء ذلك ولكن أصدقاءها في القرية نسوا هذه الحوادث لانهما كهم واهتمامهم بأطفالهم دون أطفال الغير، وان كان الارجح ان شيئاً من هذا لم تفعل. لان البشائر تصورها لنا امرأة تنظر وتتعجب وتفكر في حوادث الطفولة، امرأة هادئة صامتة كتومة مستغرقة في تأملاتها بحب ووقار حول هذا الطفل العجيب وما أحاط به من الاسرار في حادثة ميلاده المعجزية. وكانت ترقب باهتمام المصير العظيم المعد له، ولكنها لم تكن لتدري كيف يتم له ذلك فتتولاها الحيرة والذهول. وكانت تستعرض أمامها كل هذه الحوادث محاولة ان توفق بينها وبين آرائها: « وكانت (مريم) تحفظ جميع هذه الامور في قلبها » والظاهر انها لم تتكلم عنها كثيراً.

ولا يسع الباحث إلا ان يفكر في موقف العذراء الأم ازاء ولدها يسوع. هل حسبته « إلهاً » ابن الآب الازلي؟

ان رواية الانجيل تجعل هذه الفكرة محالة. كما ان العقل لا يسلّم بها. وإلا كيف أمكن تربيته كصبي بشري عادي خاضعاً لوالديه « يتقدم في الحكمة والقامة عند الله والناس »؟ وإلا كيف استطاعت ان تؤنبه على توانيه في الهيكل مع أحبار وعلماء اليهود؟ وكيف عالجت شئونه كلها كطفلها الخاضع لها؟ ان فكرة « الوهيته » لو كانت عُرفت في بادىء الامر لهالت كل انسان وتعذر معاملته كصبي بشري، ولكانت الحياة العائلية

غير محتملة وغير ممكنة ، ولذهب هباء قصد التجسد الذي انطوى على ان يكون المسيح انساناً كاملاً ينمو تدريجاً في الحياة الشخصية والادراك البشري.

كلا.ان العذراء لم تفكر في ولدها كإله. قد عرفت انه المسيا المنتظر الموعود به ولكن اليهود كانوا يعتنقون أفكاراً مبهمة غامضة عن المسيا.عرفت ان ميلاده المعجزي جعله فريداً عديم المثال،ولكنها لم تدرك سر «الوهيته» الهائل الذي لم تفطن اليه ولم تعرفه إلا مؤخراً.

وحتى التلاميذ أنفسهم لم يدركوا هذا السر الهائل إلا قبيل نهاية حياته . لان سرّ الوهيته ظل مكتوماً اكثر سني حياته على الارض حتى يتسع له المجال لينمو انساناً كاملاً يتذوق اختبارات البشر ، وليعرفه الناس كصديق بشري ، وليجرأ بطرس على توجيه الاسئلة اليه ، وليضع يوحنا يده على صدره بلمسة الحب والعطف ، وليجد الاطفال الصغار حناناً بين ذراعيه . وليقبل اليه العشارون والخطاة في جسارة لا تكلف فيها . وكيف كان يمكن ان يحدث كل هذا لو عرفوا من بادىء الامر انه « الله » ؟ !

ولكننا نراه يزيح اللثام تدريجاً عن هذا السر كلما اقتربت نهاية الحياة . ونرى في الرسل شعور الدهشة والحيرة يتزايد.ونراهم يذهلون أحياناً و يصمتون أمام تلميحات عارضة عن هذا السر الهائل. ولكنهم لم يفطنوا اليه و يدركوه تماماً إلا بعد موته وقيامته وصعوده بمجد وارساله الروح القدس . عندئذ أخذوا يرجعون بذكرياتهم الى الوراء خلال ثلاث سنوات تقضت في صحبته و يتعجبون كيف أُمسكت عيونهم عن معرفة ما عرفوه الآن من أن «الكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً» .

* * *

وهل لنا ان نتقدم بوقار خطوة الى الامام ؟ ونحن الآن على أرض مقدسة نواجه أسراراً خالدة. ولكن لا يسعنا إلا التفكير فيها . ونرغب جدّ الرغبة ان نفهمها بقدر ما تصل اليه أفهامنا . وترى ماذا كان شعور الطفل الالهي عن نفسه ؟

ولزام علينا قبل كل شيء ان نؤمن بناسوته كما نؤمن بلاهوته.فقد صار «انساناً تاماً» مثلنا في كل شيء ما عدا حماقتنا وعصياننا وخطيتنا . وكان الصبي يسوع غلاماً بشرياً . ونحن نتعجب ونتسائل قائلين :ترى متى بدأ هو ان يدرك « نفسه » ويعرف الاعماق التي لا غور لها داخل « نفسه»؟ ألم يحدث ان ساوره أحياناً خلال صلواته في عهد الصبوة

شعور الرهبة . وأحس — ولو احساساً ضئيلاً — بعظمة منسية وبعالم من النور والجمال يفوق كل شيء مما رأى على الارض ؟ ألم يفطن الصبي الى حقيقة نفسه ويفهم دعوته وسبب مجيئه الى هنا ؟

نحن نعلم ان قبوله البشرية وحدودها الضيقة معناه الانتقاص من ادراكه الكامل لحقيقة عظمته في العالم الازلي. ولولا ذلك لما استطاع ان يكون انساناً كاملاً . ولكن نجرأ على شيء آخر ، ويخامرنا فكر بأن سرَّ يسوع نفسه كان مستكناً في « عقله الباطن » بشكل ما ، بينما كان يشعر بادراكه العادي المستيقظ انه غلام بشري طبيعي . وقد دارت أبحاث كثيرة مؤخراً حول ظواهر «عقلنا الباطن» وما فيه من مستودع الذكريات المنسية الجاثمة «على هامش الشعور» كما يقولون. والتي تبرز بين آونة وأخرى عند حدوث استفزاز فجائي يدفعها الى الظهور في مداركنا العادية . وقد نقرأ أحياناً عن طفل ضال يعيش وسط قبائل الهنود أو في دار رجل فقير مدة عشرين سنة واذا بأزمة خاصة تثير أعماق نفسه، وتستفز بحالة غامضة بعض الذكريات القديمة التي تحمل الى وعيه بيتا كريماً نبيلاً ، ووسطاً جميلاً مهذباً ، وأماً تظلله بحنانها في الماضي السعيد . وربما نستطيع القول ان شيئاً من هذا القبيل يصدق على الطفل الالهي ربيب الناصرة .

ولسنا نحسبه عدم احترام من جانبنا أن تجول مثل هذه الافكار بمخيلاتنا . ولكن يليق بنا الاَّ نذهب الى أبعد من هذا.

* * *

وعلى أية حال ، ولو انه لم يُدون الا القليل عن هذا الدور في حياته ، الا اننا قد نصور لانفسنا مشاهد طفولته ونفكر فيها . ونستعين في ذلك بما لدينا من المعرفة عن الوسط الذي عاش فيه . وندع الخيال يلمسه بيد الوقار والاجلال . لاسيما اذا لحظنا في الالفاظ التي فاه بها في السنين المتأخرة ما يلمح الى ذكريات صبوته .

فكّر أولا في الناصرة موطنه ، واقدس بقعة على هذه الارض، ومستودع ذكريات طفولته وشبابه . وكان معروفاً دائماً امام الناس بيسوع الناصري . وهذا هو اللقب الذي سمّر على الصليب . والذي كلم شاول الطرسوسي من السماء هو « يسوع الناصري الذي أنت تضطهده ».

وهل تريد ان تلقي نظرة الى الناصرة باديء ذي بدء ؟ أمامي الآن فلسطين : أنظر شمالا فارى الى يساري البحر الابيض المتوسط بزرقته الممتدة الى مسافات بعيدة . والى يميني نهر الاردن يجري في خط مواز والآن تصور وادياً فسيحاً يمتد وسط هذه الخطوط ويخترق جبال فلسطين من البحر الى الاردن . هذا هو وادي يزرعيل والبلاد التي تقع شماله هي الجليل . ثم قف في منتصف هذا الوادي ، وانظر شمالا تواجهك طريق الناصرة المؤدية الى مدرج مستدير طبيعي في الجبال.

في ذلك المدرّج الطبيعي الجاثم فوق الجبال درج وترعرع الصبي يسوع .

والآن أصوره لك في ذلك العالم الصغير يقيناً مني ان مشاهد الصبوة اكبر عون للانسان . وأرى امامي في مكتبي صورة كبيرة لذلك المدرج الجبلي حيث يقع نظري على الجبال والاودية التي وقع عليها نظر يسوع ، والحقول والمزارع التي سار فيها ، وتلك المدينة الجبلية الصغيرة المتكئة بلونها الابيض فوق اكتاف الصخور السوداء المحيطة بها . واني استطيع ان اتخيله جائلا سائراً في وسط هذه المشاهد .

ورغم آثار الدمار والتخريب التي خلفها الحكام الطغاة، فان الظواهر الاصلية الطبيعية لتلك البقاع لم تتغير الا قليلا عما كانت عليه في عصره . وقد وقعت عيناه على الطرقات الضيقة المعوجة التي نراها الآن، والمنازل الصغيرة القائمة خارج البلدة بين الحقول ، والحدائق والكروم المنبسطة على اكتاف الجبال ، والاودية الخضراء المتلمعة في فصل الربيع بازهار السوسن وشقائق النعمان البيضاء وزنابق الوادي وغيرها من الازاهير الجبلية المتنوعة الالوان التي تكسو شمال فلسطين جمالا رائعاً خلاباً . وهناك ايضاً تقع العين على ممرات الجبال التي سار فيها ، والجبل العالي المتطاول وراء البلدة حيث كان يرى في الايام الصافية الاديم، طابور وحرمون وجبال جلبوع التي مات فوق رباها داود ويوناثان . وتنبسط ايضاً امام عين الرائي هضاب الجليل، ووراءها الى مسافة بعيدة مياه البحر الابيض المتوسط الزرقاء . وفي هذا الشرق الذي لا يعتريه التغيير والتبديل ترى حتى اليوم الاولاد يصرخون في الطرقات، وترى الفتيات يستقين الماء عند بئر القرية. وترى في الطرقات الفلاحين بملابسهم الجذابة وهم يعرفون بعضهم بعضاً . لا بل تقع العين ايضاً على نفس اطيار الهواء التي تحدث عنها، واكثرها معروف لدينا مثل القنبرة والدج والعصفور الاحمر وأبي فصاده وغيرها

من الاطيار التي ترفرف فوق جداول المياه ، وايضاً اسراب العصافير الرخيصة التي كان يباع الاثنان منها بفلس ، وقال عنها المسيح ان الآب السمائي يعتني بها !

هذه هي الناصرة موطنه . وهناك في كوخ النجار في احدى تلك الطرقات عاش المسيح غلاماً طبيعياً في أسرة بشرية طبيعية . وقد كان في ذلك البيت اطفال آخرون . وانت تذكر القول السائر الذي كان ينعته به اهل القرية الذين عرفوا حرفة الاسرة ولم يقبلوا نبوته، فكانوا يقولون . « أليس هذا هو النجار ابن مريم ؟ أليس اخوته يعقوب ويهوذا وسيلا ؟ أليس اخواته معنا ههنا ؟ » ونحن لانتعرض هنا للبحث الذي ثار حوله كثير من الجدل فيما اذا كان اولئك أطفال مريم أو اطفال يوسف من زواج سابق . فقد كتب الشيء الكثير حول هذا الموضوع دون جدوى ، ولم يؤد البحث الى نتيجة ما . ويكفينا القول هنا انه شبّ معه في البيت اخوة واخوات له .

واننا لنحتاج في هذا المقام الى مجهود فكري خاص ونحن ننتقل بافكارنا من الابن الازلي الذي مخارجه منذ القدم ومنذ الازل ، الى ولد صغير في الناصرة يذهب بالرسائل لامه، وينظف حانوت النجارة من قصاصات الاخشاب، ويلعب مع اصحابه واترابه في السوق الالعاب عينها التي يلعبها صبيان هذا العصر في عالم الصبوة الذي لايتغير ، ويشدو بصوت رخيم بما يشبه الاناشيد التي تتعالى بها أصوات اولادنا اليوم .

والارجح ان كثيراً من الملاحظات العارضة في امثاله واقواله جاءته عن ذكريات طفولته . فمثلاً رأى يوماً ما صبياً يُعيد الى العش برفق وحنان عصفوراً سقط من عشه ، عالماً ان هذا الطائر الصغير لا يسقط الى الارض بدون علم الآب . او رأى زوجة عامل في أحد اكواخ الناصرة قد اضاعت قطعة صغيرة من النقود القيّمة في نظرها فأشعلت مصباحاً وكنست البيت كله وفتشت حتى عثرت على الفلس . أو رأى امرأة في بيتها تكيل ثلاثة مكاييل من الدقيق لخبزها الاسبوعي وخبز اسرتها الصغيرة وتمزج الخميرة بالدقيق ، واذا بولدها الصغير يضع اصبعه في العجين ويسأل عما تفعل وكيف يحدث الخمير فعله . واظن ان المسيح تذكر احدى ذكريات طفولته عند ما قال « يشبه ملكوت السموات خميرة وضعتها امرأة في ثلاثة مكاييل من الدقيق حتى اختمر العجين كله » .

وما اكثر الاحوال التي تومض فيها هذه الذكريات الصغيرة في عقولنا حين تنسى الاحداث الكبيرة !

* * *

ولم يأت الطفل يسوع الى العالم مزوداً بمعرفة غير محدودة . فكان عليه ان يتعلم حتى حقائق دينه . وقد جاءته بالطبع اولى تعاليمه الدينية عن أمه . وهذه هي الهبة الخاصة التي اختص بها الله الأمهات في العالم أجمع ولو ان المسئولية في عرف اليهود تقع على الآب . وتأمل أيها القارىء الكريم — في تلك الساعات المقدسة عندما كانت مريم تنوّم طفلها وتعلمه الصلاة وتحدثه عن الآب، وقلبها مشبع بالفكر عن المصير العظيم الذي ينتظر طفلها فيا مريم أيتها الأم المباركة — بل أيتها الأم التي تقوم بتكاليف هذه التبعة — طوبى لك بين النساء!

وقد كان اليهود جداً حريصين على تلقين التعاليم الدينية. وحتى في بلد وثني، وتحت ولاية أب وثني، نذكر انه قيل عن تيموثاوس: «انك منذ الطفولية تعرف الكتب المقدسة». وكان تعليم الطفل الديني يبدأ بمجرد ان يعرف التكلم، فيتعلم أولاً قانون الايمان اليهودي، وانشاد بعض المزامير السهلة ، وقصة أعمال الله مع اسرائيل كدرس تاريخي .

وكل شيء حول الطفل كان يعلّمه الدين: مثل عشاء السبت، ومصباح السبت، والمجمع الاسبوعي، والحفلات السنوية، وعيد الحصاد، وعيد الاسابيع، ويوم الكفارة، وعيد الفصح، يوم كان يترك الاهلون قراهم للحج الى اورشليم في كل سنة. وها أنت ترى الطفل يسوع محاطاً بأفكار وحوادث عن الله كأنها نسيج في حياته اليوميـة . وتدريجاً وعلى النظام البشري « كان الصبي ينمو ويتقوى بالروح ممتلئاً حكمة وكانت نعمة الله عليه » . . . . وكل يوم « كان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس » .

ولما بلغ السادسة من العمر كنت تراه ذاهباً الى مدرسة المجمع في البلدة يتعلم عند قدمي معلم (حاخام) ريفي. وكان اليهود في ذلك العصر يعلقون أهمية شديدة على المدرسة، وكان محرماً شرعاً السكن حيث لا توجد مدارس لتثقيف الاحداث . أما قوام التعليم فكان الكتاب المقدس حتى يبلغ الولد العاشرة من العمر

وها أنا أرى الصبي الصغير ذاهباً الى المدرسة مع اخوته وأخواته . وأراه جالساً مع أترابه على الارض في نصف دائرة يتلقى عند قدمي معلمه كلمة الله .

ولما عرف القراءة كانت الاسفار المقدسة أهم المؤلفات، أو ربما المؤلفات الوحيدة التي وضعت تحت إمرته . ويذكر كتّاب اليهود بعض كتب الاحداث مثل قصة التكوين . ونحن نعتقد جازمين ان الاساس الذي بني عليه تعليم ذلك الصبي منذ الطفولة انما هو المؤثرات الصالحة التي تشبعت بها حياته من الاسفار المقدسة . وكم نود ان يكون الحال هكذا في كل بيوتنا وأسرنا ! !



أما عنه ، فنحن نعلم ان عالم الله بكل محتوياته كان من أفضل الاساليب للتثقيف والتهذيب . فعلاوة على كلمة الله المسطورة في الاسفار المقدسة أحاط به ايضاً الكلمة غير المسطورة بكل بهائها وجمالها - كتاب الطبيعة والانشودة الصامتة التي كان يهيء ألفاظها الكتاب المقدس ويحدثه عنها الآب السماوي . ونحن نشعر انه كان محصوراً بشعور خاص ينبئه بحضرة الآب معه . ونعلم ان بين الله ونفس كل طفل صلة إلهية جميلة مدهشة سرية . فكم بالاولى مع ذلك الطفل الفريد — الطفل الإلهي !

أُسرّح الطرف في خريطة الناصرة المعلقة على جدار غرفتي،فيسرح فكري نحو ذلك الصبي وأتمثله جائلاً فوق سفوح تلك التلال بين أحضان الطبيعة الجميلة التي هي أروع مظاهر الله . ملقياً نظره الى تلك الروابي المكسوة بالبساط السندسي الاخضر ، والجداول الباسمة بثغور وضاحة ، والشمس المجيدة تشرق بأنوارها الذهبية لتنير الكون ثم تبتلع في أعماق اليم بمجد قرمزي، والى الازهار والاطيار والحيوانات التي أحبها وسرّ بها وشعر ايضاً ان الآب السماوي سرّ بها وأحبها . وأنت تشعر هذا الشعور في تلميحاته التي تفوه بها عن الطبيعة في أقواله . وتحسُّ ان الله وراء كل هذه المخلوقات التي يحبها ويعتني بها. فهو يحب الحملان الصغيرة تلعب وتمرح في الحقول . ويرعى الخروف الوديع التائه الذي يضلّ عن القطيع . ويطعم أطيار الهواء التي لا تكد ولا تغزل . ويرى العصفور الصغير الذي يسقط من عشه.ويكسو الحقول خضرة ونضرة وينبت أزهار البرية فوق سفوح التلال ويكسوها جمالاً يفوق جمال « سليمان في كل مجده » . وعندما كان الفلاح الناصري يبذر بذار الحنطة في الارض كان يرى الصبي ان الحياة من قبل الله تنبت بطريقة معجزية « أولاً نباتاً ، ثم سنبلاً ، ثم قمحاً ملآن في السنبل » .

وهل يمكننا ان نجد طفلاً استمتع بالطبيعة وأحبها ورأى الله فيها، كما فعل ذلك الصبي الناصري؟ ما أجمل ان نربي أولادنا هكذا ! وان نرى الله يتحرك ويعمل في حياة الطبيعة. ونرقب باحترام ووقار الزهرة تتفتح اكمامها . ونشعر ان ايذاء طائر صغير أو الدوس بالقدم على زهرة ناضرة هو من قبيل اتخاذ اسم الله باطلاً ! ان بثّ هـذه الافـكار في نفوس أولادنا الغضة خير وسيلة لتعليمهم الدين بأسلوب طبيعي جذاب،وتفهيمهم ان عطف الآب المحب الحنون يحيط بهم على الدوام .

أجل . كان يسوع صبياً طروباً سعيداً في عهد صبوته الطليقة الساذجة التي قضاها في الناصرة ، قبل ان يضغط على قلبه البريء شعوره بخطايا البشرية وآلامها .

الفصل الرابع

«. . . . . في الهيكل جالساً وسط المعلمين . . . »

وفي رواية الأنجيل نجد صمتاً طويلاً قد امتد الى ثلاثين من السنين. ولم يقطع ذلك الصمت الطويل إلا حادثة واحدة وقعت في دور الشباب لما بلغ الصبي الثانية عشرة من العمر. وان المرء ليعجب ويتساءل قائلاً : ما الحكمة في ايراد هذه الحادثة بالذات ؟ وهل تشير الى بلوغ أزمة معينة في طور التقدم والرقي ؟ أم هي الخاطر الاول الذي مرّ بمخيلته ، مشعراً اياه بانه المسيح الهابط من فلك السماء ؟

وقد كانت العادة ان يصير الصبي اليهودي عند بلوغه الثانية عشرة من عمره « ابن الناموس » في حفلة أشبه بخدمة التثبيت أو أية خدمة أخرى تجرى في أية هيئة مسيحية لقبول الحدث ضمن عضوية الكنيسة الكاملة . وكانت الحفلة نذيراً بأن دور الطفولة قد مضى وانقضى، وأخذ الحدث يحمل على منكبيه تبعات الدين ، وله ان يذهب الى الاعياد والمحافل مع كبار السن . ولذا قيل عن يسوع « وكان أبواه يذهبان كل سنة الى اورشليم في عيد الفصح . ولما كانت اثنتا عشرة سنة صعدوا الى اورشليم كعادة العيد».

وان الأهمية المعطاة لهذه الحادثة تدعو الى اهتمام جدي فها أنا أرى صبياً مفكراً صامتاً يترقب منذ شهور حلول هذه الفرصة ، قد أزمع الرحيل — وفي نفسه عوامل من التأثير الشديد — مع رهط من حجاج الناصرة في الطريق الممتد في السهل . وعند كل مفرق تقع عينه على جماعات جديدة يتزايد بها هذا الركب المسافر وسط أماكن تاريخية حافلة بذكريات الآباء والانبياء. ففي « شونم » يذكرون ايليا، وعند « جبعة » يذكرون صموئيل ، وعند ما تقع أعينهم على اورشليم من بعيد يرفعون أصوات الحمد قائلين :

« اورشليم الجبال حولها . والرب حول شعبه من الآن والى الدهر » .

« فرحت بالقائلين لي الى بيت الرب نذهب. تقف أرجلنا في أبوابك يا اورشليم »،

« اسألوا سلامة اورشليم. ليسترح محبوك . ليكن سلام في ابراجك . راحة في قصورك. من اجل بيت الرب الهنا التمس لك خيراً ».

وانه لمن الصعب علينا ان نصور لانفسنا افكار ذلك الصبي اليهودي المتحمس وخاصة ذلك الصبي بالذات ـ عند ما رأى لاول مرة اورشليم المقدسة . ولم تكن هذه المدينة في نظره مجرد عاصمة لارض الوطن ، ولا مجرد بلد حافل بالذكريات التاريخية . بل كانت المدينة المقدسة المتصلة بدينه وصلواته وكتابه المقدس واقدس الازمنة في حياة بني جنسه . ولما دخل الحجاج الوافدون من باب دمشق أحسوا بانهم في مدينة الله العلي .

كان ذلك اليوم مأثوراً مذكوراً . وتزايد اعجابه وخشوعه طيلة ذلك الاسبوع كله . وحسبك ان تفكر في شعوره الخشوعي الذي ملأ جوانحه عند ما دخل الهيكل العظيم الفخم ، بيت الآب ، ومركز عبادة اسرائيل في العالم كله ، وان تفكر في شعور الحماس والاستفزاز الذي ساوره عند ما وقعت عينه على الجموع المتكاثفة — التي تزيد عن المليون عداً — من اليهود الغيورين الوافدين الى المدينة المقدسة من كل فج عميق ومن كل امة تحت السماء . وقد ازدحمت بهم طرقات أورشليم ونصبوا مضاربهم فوق سفوح التلال . وجاءوا كلهم لغرض واحد، هو ان يعبدوا الآب في هيكله المقدس! لا شك ان هذا المنظر أثار فيه مكامن الحس .

تأمل أيضاً في تلك الليلة المأثورة وقد اقامت كل أسرة — او مجموعة من الاسر — فريضة الفصح «في علّية» .وقد كانت هذه الفريضة مدى القرون الطويلة تشير الى «ذاته» تصوره ينظر الى خروف الفصح يذبح،والى الفطير غير المختمر والاعشاب المرة تؤكل ، يوم كان مفروضاً ان يسأل الولد الصغير — وربما كان السائل في تلك الليلة يسوع نفسه — أبويه السؤال الطقسي المألوف : « ما هذه الخدمة لكم؟» فيجيبه الكبار في وقار وخشوع: « هي ذبيحة فصح للرب الذي عبر عن بيوت بني اسرائيل في مصر وخلص بيوتنا » . لا شك في ان هذه المناظر كلها قد اثارت في نفس الصبي افكاراً غريبة !

وهنا جاء ذكر علماء واحبار الهيكل . وتذكر الرواية حديثه معهم . ويقول التلمود اليهودي انه كان من عادة أعضاء سنهدريم الهيكل ان يجلسوا في الأعياد فوق الشرفات ليعلموا الشعب،وكان تعليمهم بسيطاً سهلا يباح لكل انسان حضوره والقاء الاسئلة . وربما حدث ان ذلك الصبي كان يجول وسط أروقة الهيكل الفخمة والدهش يملأ عينيه ، والمؤثرات المختلفة تتزاحم في مخيلته ، و بغتة ألقى نفسه وهو لا يدري في الشرفة

وفي لحظة نسى أمه وصحبه وكل شيء . ذلك لان نفسه الفتية تتوق الى المعرفة وقد ضمرت وافتقرت من جراء الضيق الذي احتبسها فيه جهل حبر الناصرة الريفي المجهول. وهو الآن امام علماء الامة الاعلام الذي عرفوا كل شيء .

في ذلك اليوم اتخيله يستمع في اصغاء تام . وفي تلك الليلة اتصوره جائلاً في انحاء المدينة يبحث عبثاً عن رفاقه . وافترض ان امرأة حنوناً قد عطفت على ذلك الصبي التائه فآوته واعطته طعاماً. وفي اليوم التالي أراه جالساً مرة أخرى في المكان بعينه يستمع و يفكر، و يسأل أحياناً اسئلة تدل على الرغبة في المعرفة . واخيراً يلحظه العلماء كبار السن فيهتمون بأمره حتى « بهتوا من فهمه وأجوبته » .

ونظراً لما نعلمه عن اولئك الاحبار اليهود ، لا نتوقع منهم كثيراً لايقاظ عقلية صبي صغير . ولكن الامر يتوقف الى حد كبير على الصبي نفسه . ثم ان أشد علماء الدين تشبثاً بمصطلحات العلم الجافة،قد يذكرون في بعض الاحيان انهم كانوا يوماً ما صبية صغاراً . وربما قد رأوا في عقل ذلك الصبي النابه الوثاب ما يثير افضل ما في نفوسهم نحوه . ولم يكن خيرة اولئك المعلمين مجرد علماء دين رسميين، بل كان بينهم عقول مفكرة ونفوس نبيلة. ولا تزال صفحات التاريخ العبري مزدانة باسماء انبل قادة الدين في ذلك العصر امثال «هيلال» و «شماي» و «غمالائيل» الذي صار فيما بعد معلم بولس .

والذي نلحظه ان يسوع لم يفكر كثيراً فيما بعد عن اولئك العلماء بصفة عامة . ولكن هنا في هذه الحادثة نرى بينه و بينهم تفاهماً متبادلاً . فهم ايقظوا فيه قوة التفكير كما ايقظ هو فيهم قوة التساؤل والاعجاب . وان الباحث لا يسعه الا التساؤل مستغرباً عن افكاره حيال التعاليم التي سمعها او الاسئلة التي القاها عليهم . وقد كانت أشياء كثيرة أراد ان يعرفها — ربما عن قصد الله نحو اسرائيل ، او رجائهم في المسيا ، ومعنى عيد الفصح ، او ربما عن الالم والخطية القائمين جنباً إلى جنب مع محبة الآب . وكم كنا نود كثيراً أن نسمع اسئلته والاجوبة عنها . وهي كانت بلا شك أهم شيء في الموضوع اذا اعتبرنا هذه الحادثة بمثابة أزمة فاصلة في حياة الصبي . ولكن الارجح ان البشير لوقا نقل معلوماته في هذه الحادثة عن مريم العذراء وهي لم تأت الا في النهاية لتبحث عنه ، ولم تسمع شيئاً مما دار بين ولدها و بين أحبار الهيكل .

وكم كنا نود ان يكون بين اولئك الاحبار من أدرك كنه افكار ذلك الصبي . والظاهر انه لذّ لهم استماعه واسئلته ، حتى ان الوقت مرّ سراعاً فظل ثلاثة ايام و يوسف ومريم يبحثان عن الصبي في كل مكان حتى وجداه اخيراً « وسط المعلمين يسمعهم و يسألهم ».

ولما ابصرته مريم « اندهشت » . والارجح انها اندهشت اذ رأت ولدها الخجول يتحدث مع العلماء الكبار . ولكن اظن اندهاشها يرجع بالاكثر الى رؤيتها غلامها في حالة غير حالته . ولمحت في عينه نظرات جديدة . شيء ما طرأ عليه .

أجل . رأى اورشليم ، والفصح ، وهيكل الآب ، وملايين البشر تجثو أمامه ، وتساؤل العلماء الاعلام . وذكر هذا الشيء الاخير بالذات يدل على قيمته الخاصة، ولو ان نص الرواية لا يفصح لنا عن ذلك . وعلى أية حال فان حادثاً جديداً طرأ بلا شك على نفسية ذلك الصبي .

ثم سؤال مريم المؤنب : «يا بنيَّ لماذا فعلت بنا هكذا ؟».سؤال ما أقربه الى الطبيعة ! سؤال تسأله أي أم بعد ان تكون قد قضت ثلاثة أيام تبحث عن ولدها التائه وفي نفسها شتى الاحتمالات والفروض، و بعدئذ تجده بغتة سليماً طروباً لم يمسسه أذى . والظاهر أنه لم يفطن إلى قلق أمه عليه . وقد كانت الأم البشرية المسكينة تفكر طول الوقت في تعب الاسرة وقلقها.ولم تتوغل الى الافكار العميقة السرية التي كانت تتجاذب عقل ذلك الصبي.

وفي جوابه نجد الكلمات التي دونها الانجيل على لسان المسيح . وهي تدل على قدر عنايتها بولدها وتلقينه التعليم عن الآب . وربما يُستدلُّ منها على انها كانت قد أخبرته من قبل عن ميلاده المعجزي وعلاقته الخاصة بالآب : «لماذا تدهشين ياأماه؟ ألم تعلمي انه ينبغي ان اكون في ما لأبي » .

ولكن هذا الجواب يعني اكثر من ذلك . اذ يخيل الينا انه يتكلم الآن عن نفسه كأنه قد اصبح الى حد ما بمعزل عن حياتها ، وكأنه قد بدأ يفكر افكاراً لا تستطيع أمه ان تشاطره اياها . ونحن نذهب الى الحدس في خشوع و وقار فنقول ان الغريزة الكامنة — غريزة « الازلية » — قد أخذت الآن تستيقظ في نفسه فتنير الغشاوة عن ادراكه،وتشعره بانه يختلف نوعاً ما عن البشر المحيطين به،وعن الاطفال الذين كان يلعب معهم والابوين اللذين تعهداه بالتربية والرعاية . وان نمو عقل الطفل يجيء تدريجاً وغير

منظور، أشبه بالعصير في الشجيرة ابان الربيع. وقد تحدث أحياناً أزمات بارزة في ذلك النمو التدريجي . وحتى الولد العادي في الثانية عشرة من عمره قد يجتاز لحظات خطيرة في حياته — كما يذكر البعض منا عند الرجوع الى ذكريات الصبوة — عند ما يفتقد الله نفس الصبي الغضة في سكون وتكتم فلا يعرف الكبار شيئاً عنه . ومايحدث لأي صبي بشري في الثانية عشرة من عمره يحدث ايضاً بلاشك باعمق معنى لذلك الصبي الالهي ، ونفسه الغضة عرضة لمؤثرات اسبوع الفصح الموقظة للاحاسيس والعواطف .

ولاشك في ان العذراء قد ادركت شيئاً من هذا. اذ تقول الرواية: «فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما . . . . وكانت أمه تحفظ جميع هذه الامور في قلبها » . ولم تكن هذه المرة الاولى التي لم تفهمه فيها أمه كما سنرى فيما بعد . ولم يكن بدّ في أخريات حياته ان يقف منفرداً في افكاره لا يدانيه أحد فيها . أما الآن فقد كانت وحدته أشد وطأة عليه — أن يفكر وحيداً في عزلة عمن حوله، وهو بعد ولد صغير في الثانية عشرة من عمره . هنا نرى بداية وحدة يسوع !!

* * *

وهذا كله يقوي شأن العبارة الثانية : « ثم نزل معهما وجاء الى الناصرة وكان خاضعاً لهما » . ولو حدثت هذه الاحداث لصبي عادي ، وتزاحمت في مخيلته هذه الافكار العليا ، لكانت كافية لان تنفره من الحياة القروية البليدة . ألم يكن خير له ان يبقى مع العلماء والمعلمين في اورشليم ؟ ألم يكن أفضل له ان يبقى في بيت أبيه، ويتعلم و يعمل الاشياء العظيمة « فيما لابيه »؟ لو أنه فعل ذلك، لما كان ثمة غضاضة عليه، ولقلنا ان هذه الاسباب القوية المقدسة تبرر هذا الموقف. ولكن الصبي الالهي قد تعلم — وهو بذلك يعلمنا — ان الطاعة الساذجة والحرف غير المستحبة قد تكون احياناً أشرف وأقدس في نظر الآب. وجدير بنا نحن الذين نضجر من اعمالنا اليومية المملة أن نذكر أن هذا كان ايضاً نصيب المسيح في الحياة .

وقد كانت الحياة اليومية المملّة المضجرة وقتئذ « عمل الآب » في نظر المسيح . لانه كان فقط في الثانية عشرة من عمره . و بلاشك كانت الحياة البيتية الساذجة وخضوعه لأبويه أفضل استعداد للمستقبل . فلا مؤثرات غير طبيعية ولا نمو مبكر قبل الأوان . ولا

مداهنة ولا اعجاب . انما تدرجت هذه الحياة الغضّة تدرجاً طبيعياً محضاً في ظروف عادية خالية من عوامل العبث والعناد . وشبّ الصبي رجلا مجهولا دون ان تتجه اليه الانظار كأنسان عادي . وربما لم يكن يعرف وقتئذ ان العناية الالهية — التي ظهرت مؤخراً في كفالته أمه الارملة — ستبقيه ثماني عشرة سنة اخرى في تلك الحياة القروية المجهولة . . . . . .

وهكذا عاد الصبي الى موطنه بالناصرة — وقلبه عامر بالاسئلة الجديدة ، وعيناه طافحتان بالدهشة الجديدة — لينمو نمواً متناسقاً يهيئه لخدمته العامة لاجلنا نحن البشر ولاجل خلاصنا .

الفصل الخامس

« أليس هذا النجار ابن مريم ؟ ! »

الآن نخطو خطوة واسعة الى الامام . ثمانية عشر عاماً قد مضت. فلنلق نظرة أخرى الى موطنه بالناصرة . قد بلغ الصبي « الالهي » طور الرجولة . ومات يوسف النجار فألقت الارملة الوحيدة بحزنها بين ذراعي ولدها المحبوب . وما كان اكثر سلوتها ان تجده قريباً منها في حزنها! وما كان أطوعه ولداً ان يقف الى جانبها طيلة هذه السنوات التي قضتها وحيدة حتى أتت الخاتمة — عند آلام الصليب — حين استودعها الى رعاية ألصق تلاميذه وأحبهم اليه : «يا امرأة.هوذا ابنك » ـ «يايوحنا .هوذا أمك»!!

والظاهر انه كان مفروضاً عليه ان يعمل بيديه لاعالة أمه.وربما كان الاخوة والاخوات قد تزوجوا وتركوا دار أبيهم . حتى قال عنه الجيران في الناصرة الذين عرفوا مكانته : « أليس هذا النجار ابن مريم ؟ » وهكذا نستطيع ان نفكر في يسوع عند بلوغه طور الرجولة شاباً يعمل في حانوت النجارة لاعالة أمه الارملة .

* * *

تأمل في اتضاع يسوع،كلمة الله وروحه ! عامل يشتغل في صنعته. نجار يكسب عيشه بعرق جبينه! وهل تريد ان تعرف شيئاً عن وجهة نظره في التجارة والتعامل؟ تصوره نجاراً يصنع المحاريث والانيار،وثق بانه كان يصنعها صالحة خالية من كل غش.فكان يأتي اليه الفلاحون الذين يريدون الامانة في المعاملة .

هنا نراه قد علّم الجنس البشري كرامة العمل الامين في عيني الله. وقد كان الناس في عصره — كما هم الآن — ينظرون الى العامل كأنه في مستوى وضيع منحط . حتى ان جيرانه في الناصرة رمقوه شذراً وسخروا منه قائلين :«أليس هذا النجار ؟» وفي هذا يقول شيشرون الفيلسوف الروماني في ذلك العصر :« ان الصنعة اليدوية وضيعة منحطة . ولا يمكن ان يتمشى حانوت الصانع مع أي شيء نبيل في الحياة».أما يسوع الصانع فقد رفع من مكانة العمل الامين الشريف،حتى ليستطيع النجار في حانوته ان يشعر بزمالته مع سيده وربه

واذكر ايضاً انه كان فرضاً على يسوع بحكم صنعته ان يتعامل بالنقود ويبتاع الاخشاب ويبيعها بعد صنعها ويساوم مع زبائنه. وفي هذا قد علمنا المسيح ان الحياة العملية قد تكون مقدسة . وان عملية التعامل بالنقود لا تقل كرامة عن حمل السيف في يد المواطن يذود به عن حياض الوطن . وان منضدة البيع والشراء ، ومنضدة المكتب، قد تبقيان سليمتين من الغش والاثم كمذبح الله . . . .

وهنا قف هنيهة في حانوت النجار . وتصور الاولاد الصغار يهرعون اليه بلا خوف وسط قصاصات الاخشاب، لان يسوع أحبهم ورحب بهم. ويقول عنه الانجيل انه كان مرضياً في عيني الله وعيون الناس. ونحن واثقون بانه كان محبوباً ايضاً من الاطفال الصغار . ونعلم ان ذلك النجار أحب الاطفال حوله . ولا شك في انه كان من عادته ان يروي لهم الاقاصيص والامثال . لان حياته بعد ذلك دلت على انه أحب هذا الضرب من التعليم . وليس معقولاً ان يمتنع عن تعليم الاحداث بهذه الطريقة في هذا الدور من حياته . وليس من شك في ان الاحداث تعلموا عن محبة الله وعنايته من روايات وأمثال ذلك الحانوت اكثر مما علمتهم اياه التعاليم الدينية في مجمع القرية على يد الحبر القروي .

* * *

وقبيل ختام هذا الدور من حياته، وهو على وشك الدخول في طور خدمته الجهارية، لسنا نجرأ على تتبع الافكار العظيمة التي جاست في نفسه . وهو يعمل بيديه في الحانوت نهاراً ، أو يصعد فوق جبال الناصرة مساء للاختلاء متأملاً على انفراد سر مستقبله ، أو يقضي الليل كله مصلياً كما فعل في أخريات حياته .

ونحن لا يسعنا الا ان ننظر عن بعد الى حياته المشبعة بروح الاستسلام وانكار النفس والشركة المتصلة بالآب . ونتصوره عائشاً في صلة يومية مع شعراء وانبياء أمته . وليس ثمة شيء آخر يعمق فينا شعور التوقير للعهد القديم اكثر من ان نعرف كيف نظر اليه هو . وكان هذا الكتاب هو كل ما لديه من الاسفار المقدسة . وفي كل حياته كان الكتاب المقدس مصدر تعليمه وتهذيبه وأساس دعوته. فسلم جدلاً بكل مافيه من تعاليم أساسية جوهرية،واتخذه كطريق ممهد لمجيئه. واوعز الى تلاميذه ان يبحثوا بين ثناياه عنه، واستعان به لتبرير بعثته وانارة سر صليبه . وفوق كل شيء غذى حياته من محتوياته .

وفي أزمة حياته الهائلة ركن اليه واعتمد عليه كأنه كلام الله ووحيه .

وهكذا مرّت السنوات الهادئة حتى بلغ يسوع الثلاثين من العمر . وعندئذ حلّت أزمة الحياة وجاءت ساعته !

وكانت البلاد وقتئذ في هرج ومرج . لانه بعد خمسة قرون تقضت في صمت رهيب ظهر نبي آخر في اسرائيل . وكان الناس يصيحون « هل انت ايليا ؟ » ، ذلك لان القوم اعتقدوا بان ايليا سيجيء ثانية . وعند مجيئه تكون اقدام المسيا على الابواب .

كان وقتئذ يوحنا المعمدان قد أيقظ ثائرة القوم منادياً فيهم قائلا : « توبوا لان المسيا قادم ! قد اقترب ملكوت الله ! وانا هو الرسول الموعود به الذي سيعدّ الطريق امام وجهه ! »

وكانت هذه الثورة قد بدت على بعد سبعين ميلاً عبر وادي الاردن. وكان القرويون يذهبون زرافات ويجيئون بالاخبار الى اوطانهم. فثارت الناصرة كلها وكان هذا الموضوع حديث القوم ومدار اهتمامهم .

سمع يسوع هذه الاخبار. وفي ذات ليلة ألقى جانباً كل آلات النجارة للمرة الاخيرة. وكان هذا نهاية سنين طويلة قضاها في الترقب والانتظار .

« حينئذ جاء يسوع من الجليل الى الاردن ، الى يوحنا ليعتمد منه » .

الكتاب الثالث

العام الأول

الفصل الاول

المعمودية

عد هنيهة الى الوراء — ثلاثين سنة الى الوراء — الى اليـوم الذي نهضت فيه العذراء بعد ظهور الملاك لها، وذهبت بسرعة الى الجبال الى مدينة يهوذا . . . وسلمت على اليصابات « فلما سمعت اليصابات . سلام مريم ارتكض الجنين في بطنها » ، كأنه يقدّم وهو بعد في جوف أمه واجب الخضوع والتعظيم لسيده المقبل الجاثم في مستودع العذراء.

ولد الطفلان وبين الواحد والآخر أشهر قلائل ، وبينما نفـكر في صبوة المسيح في الناصرة ، يتحول نظرنا الى صبوة اخرى كانت تترعرع في بيت ذلك الكاهن الشيخ فوق جبال حبرون

ويوحنا شخصية هامة في حياة السيد المسيح. كيف لا وهو الحلقة الاخيرة من سلسلة انبياء برزت شخصياتهم كقنن الجبـال المتعالية في افق تاريخ اسرائيل ، انبياء جاءوا واحد تلو الآخر لاعلان ارادة الله المقدسة والالماع الى يوم مجيء الرب .

و يوحنا عظيم بحق — « لم يقم بين المولودين من النساء اعظم منه » كما قال عنه المسيح — وهو لذلك يستحق ان نفرد له فصلا بل فصولا ، غير اننا نؤثر هنا ان تتركز أبصارنا في الشخصية المركزية . وأما هذه الشخصية الاخرى فنرسمها عرضاً و بلون باهت لتكميل الصورة الاصلية التي نحاول في هذه الصفحات ان نبين جمالها . وقد قيل ان أحد مشاهيرالفنانين رسم على لوحته صورة العشاء الرباني وعندما أشار اليه بعضهم الى لمسة فنية جميلة في الصورة أخذ ريشته وحطمها على اللوحة، وأخفى معالم الصورة خشية ان تتحول الانظار لحظة عن صورة المسيح نفسه.

ولئن كنا لا نعلم الا القليل عن صبوة يسوع وحداثته،فاننا نعلم عن يوحنا أقل منه، وقد كان إعداد الاثنين على نمطين مغايرين. فالمسيح الذي كان مزمعاً ان يحاكينا تماماً في كل شيء كأنه واحد منا، ترعرع في وسط عائلي قروي مع كل أصناف الناس. وأما النبي الذي سار امامه وأعد طريقه، فنما في عزلة وانفراد .

ونحن نتصوره غلاماً صامتاً وحيداً، مبكراً في البلوغ العقلي، شأن ولد وحيد لشيخ عجوز ، بدون اخوة ولا اخوات ولا زملاء ولا خلان،يأخذ عن والديه المصير الذي كان معداً له ، وينعم في وحدته وعزلته وهو هائم على وجهه في البرية ، مأخوذاً بالتأمل والتفكير العميق .

ونراه في رجولته ناسكا زاهداً ، معتكفاً عن الناس ، ملتهباً بعينين أيقظتهما روعة الاحلام والآمال ، متقشفاً قطع نفسه عن كل الروابط البشرية ، منكراً على نفسه نعومة الحياة السائغة ، ساعياً لاخضاع نفسه والسيطرة عليها بالصوم والتذلل، مرتدياً رداء من الوبر ومغتذياً بطعام المستجدي من جراد وعسل بري . وقد قضى كل وقته متأملاً في نبوءآت امته الذين بواسطتهم كلم الله البشر فيأيام القدم وكانأنفذ اقوالهم الى رجل في مزاجه، كلماتهم الجافية في التبكيت عن الخطية والدعوة الى التوبة . ولكن لم يكن هذا كله الا بمثابة حاشية فقط لذلك الفكر المركزي الذي تشبعت به نفسه في التبوءآت ، ذلك الفكر الغامض الذي كان كخيط متقطع تخلل نسيج التبوءآت مدة ثمانية قرون وهو حلم بحلول عصر ذهبي، ومجيء ملكوت الله ، يوم يظهر على مسرح التاريخ البشري عظيم قادم. ومن هذا النسيج حاك رؤى المستقبل،وكان شاقا عليه ان يحيك نسيجا كهذا

من عوامل الحيرة والتناقض . فحتى اشعياء الذي أحب نبوته لم يجد فيه عونا كبيراً لان المسيا المنتظر كان في عرفه « عجيباً . مشيراً . إلهاً قديراً .... ليس لملكه نهاية » . وهو ايضا « كشاة تساق الى الذبح . . والرب قد وضع عليه أثم جميعنا » — ان بحث مجيء المسيا لمن البحوث المحوطة بكثير من الحيرة والتناقض .

وقد عرف عن نفسه ان بينه و بين الملك القادم علاقة ما غامضة. وليس شك في ان والده الشيخ قد روى له رسالة الملاك التي تلقاها عن مولده، وقوله عنه «يتقدم أمامه بروح ايليا وقوته». وليس شك في انه أدرك خطورة هذه العبارة لانه كان عالماً بالنبوة القديمة القائلة: « أُرسل ايليا أمامه» ، و بالفكرة الخيالية التي كانت ذائعة بين عامة اليهود يومئذ القائلة: « ان يوماً ما سيعود ايليا ، وعند ظهوره تكون أقدام المسيا على الابواب» فلا غرابة ان تكتنف حياة ذلك الانسان الرصانة والجد الرهيب . وقد أحس في نفسه بأنه الرقيب المعدّ لانتظار المسيا . فكان يرقبه كمن يرقب انبلاج الصبح في ظلمة الليل البهيم .

وان الانسان ليشعر بكثير من العطف والاشفاق نحو ذلك الانسان في ثيابه الوبرية الخشنة، هائماً فوق معاقل الجبال وفي منبسط البرية الجرداء الى جانب البحر الميت، هائماً على انفراد مفكراً في مشاكله المحيرة، ومجالداً أوقات الشك واليأس عندما تهجم عليه. وليس له من يشجعه أو يمتدحه . أما عن نفسه فلم يفكر شيئاً: «أنا صوت صارخ في البرية» . ولنفسه لم يطلب شيئاً .ولكنه فتح الابواب للآخرين والمعمّد الاكبر لم يتعمّد هو نفسه. ولم يستمتع بغبطة الزمالة مع يسوع كما فاز بها غيره . وحين كان يعمل الآخرون لمجيء الملكوت التي نادى بها، كان هو مطاطيء الرأس ليتلقى فوق عنقه سيف الجلاد في زاوية من زوايا السجن !

نفس وحيدة تستحق كل عطف واشفاق ! ولكن هكذا درّب الله أعاظم أنبيائه والمنادين باسمه . ففي وحدته وعزلته ، و بواسطة ايمانه الساذج في الله ، قد تم له اليقظة الروحية العميقة، والايمان الراسخ في رسالته، وعدم المبالاة بالناس، مما جعله أهلاً لان يعدّ طريق الرب . وفي وحدته ازداد يقينا بحضرة الله و بالعالم غير المنظور الذي كان مزمعاً ان يجيء منه المسيا المنتظر .

وأخيراً جاءت ساعته فيقول الكتاب : « وفي السنة الخامسة عشرة من سلطة

طيباريوس قيصر إذ كان بيلاطس البنطي والياً على اليهودية وهيرودس رئيس ربع على الجليل وفيلبس أخوه رئيس ربع على ايطورية وكورة تراخونيتس وليسانيوس رئيس ربع على الأبلية . في أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البرية . فجاء الى جميع الكورة المحيطة بالاردن يكرز بمعمودية لمغفرة الخطايا . كما هو مكتوب في سفر أقوال اشعياء النبي القائل : صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب اصنعوا سبله مستقيمة » (لوقا ٣ : ١ — ٤)

كان الشعب الذي جاء اليه يوحنا شعباً تاعساً مدوساً تحت موطىء القدم ، قد انقضّت عليه بثقلها يد غريبة كانت منه موضع الكراهية والبغض والاسماء التي وردت في العبارة المقتبسة تنبئ عن حقيقة الموقف . فطيباريوس قيصر كان انبراطوراً ظالماً شديد الوطأة وكان بيلاطس البنطي اسوأ من سبقه من الولاة، متخذاً موقف الازدراء والتحمير حيال وساوس الشعب وحيرته الدينية . وكان رؤساء الكهنة معرة في وظائفهم. ولم تكن عامة الشعب بأحسن حالاً وكانت فلسطين قد خارت عزمانها وخيل ان روح اسرائيل القديمة قد ماتت. ولم يكن ثمة دليل على الحياة إلاّ في جماعة الوطنيين في الأنحاء الشمالية. وهم الوطنيون العصاة في هضاب الجليل الحرة الذين كرهوا النير الاجنبي وجاست بمخيلاتهم أحلام عن أيام العظمة الدارسة يوم كان الرب ملكهم . ومما يستحق الذكر هنا ان بين اولئك العصاة كان أحد اخوة يسوع — سمعان الذي لقب لهذا السبب « بالغيور » . وكانت تلك الجماعة العاصية مصدر قلق واضطراب للحكومة. لانهم راموا ان تجيء ملكوت الله بالسيف ، وفاتهم ان من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ . ومع ذلك لم يخمد لهم رجاء وظلوا يعللون النفس بأن ملكوت الله لا بد آت يوماً ما .

وعلى الرغم من سوء الحالة وحرج الموقف، كان ذلك الامل ذائعاً بين الشعب وقد قلت هنا «خيل ان روح اسرائيل القديمة قد ماتت». ولكن كان ذلك ظاهرياً فقط، لان وراء مظاهر الموت والاضمحلال رسب في الاعماق رجاء قوي حافز بالخلاص المنتظر — كما ترسب الجذوع الميتة في أعماق ثلوج الشتاء — رجاء قد يُبعث الى الحياة بأية عزمة فجائية ناهضة.

والامر المدهش حقاً في تاريخ ذلك الشعب هو ترقبهم الصامت الشديد في ذلك العصر . ولم تظهر في تاريخ أمة أخرى ظاهرة أقوى وأشد من موقف اليهودية قبيل مجيء

المسيح . فكان قد مضى على آخر نبي أنبأ عن مجيء المسيا خمسة قرون ولم يحدث شيء ما . ومع ذلك نرى هذه الفكرة مالئة القلوب عند ظهور يوحنا المعمدان : « . . . الجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح» . وكان أول سؤال أُلقي عليه بشغف : «قل لنا . هل أنت ايلياء الذي سيعدّ الطريق ؟ هل أنت المسيح ؟ هل أنت الآتي ؟ »

وهذه الاسئلة تشعرنا باننا في وسط ترقب حار شديد. و بغتة رنّ في البرية صوت قائلاً : «قد اقترب ملكوت السموات». و بدأت اورشليم تضطرب وتثور، وتكهرب الجو بالاشاعات المزعجة، وتناقلت الالسنة حديث ناسك قديس متقشف ظهر فوق الجبال، رجل عظيم محوط بالاسرار تنطبق عليه رؤيا ايلياء المعروفة . يرتدي ثوباً من وبر الابل ومنطقة من الجلد في حقويه . و بعد تداول الحديث عنه نقلا عمن رأوه ، ارتفعت في المدينة أصوات هائجة تقول : « لقد سمعناه ورأيناه ! انه ايلياء قد عاد ثانية ! وهو يفضح خطايانا ويدعونا الى التوبة ! وينادي بملكوت الله ! ويروي العجب العجاب عن شخص آت من بعده ! »

وفي مدى شهر من الزمن عمّ هذا الاضطراب الفكري كل الانحاء ، وسرعان ما ازدحمت الطرقات بالحجاج يتسابقون نحو الاردن — من رجال ونساء — من قرويين وحضريين — من تجار وعشارين، وجنود وفلاحين، وكتبة وفريسيين — ونرى المسيح نفسه بعدئذ يعيد الى أذهان القوم ذكرى هذا الهرج والمرج بقوله : « ماذا خرجتم الى البرية لتنظروا ؟ »



كان عصر ثورة فكرية واضطراب في فلسطين . ولم يكن يوحنا داعياً الى التوبة فقط . انما كانت هذه التوبة استعداداً لحادث جلل سوف يحدث، أشبه باليوم الذي ظهر فيه شعب اسرائيل نفسه في برية سيناء استعداداً لسماع صوت الله. وقد كانت هذه التوبة متصلة بمجيء المسيا ، حتى لقد كان يومئذ مثل سائر يقول : لو تاب شعب اسرائيل يوماً واحداً فقط لجاء ابن داود المنتظر .

رنّ صدى صوت ذلك المنادي القائل : «توبوا . توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات ! أتظنون ان مجيء هذا الملكوت أمر هين ؟ أتزعمون انكم مستعدون له في استكانتكم الحمقاء الغبية ؟ توبوا ! استعدوا ! هذه هي الازمة الفاصلة لامتكم وشعبكم . قد

وضع الفأس على أصل الشجرة . فاحترسوا لئلا تقطع وتلقى في النار . اطرحوا عنكم الرياء والمظاهر الكاذبة المصطنعة ! واثمروا أثماراً تليق بالتوبة . لان المسيا قادم . ورفشه في يده وسينقي بيدره . ويعزل القمح عن التبن. ويميز الحق من الرياء . ولا تقولوا في أنفسكم لنا ابرهيم أب ، لانّ الله قادر ان يقيم من هذه الحجارة أولاداً لابرهيم . . .

« كلا ! لست أنا المسيا . لست أنا ذلك النبي . ما أنا إلا صوت صارخ في البرية : أعدوا طريق الرب . أقدامه على الابواب . وهو الذي لست مستحقاً ان أحلّ سيور حذائه . وأنا قد جئت لأعدكم لأجله ، وأعمدكم فقط بالماء للتوبة . أما هو فسيعمدكم بالروح القدس ونار » .

* * *

وكان يوحنا يجول من مكان الى آخر صاعداً شمالاً محاذياً ضفة نهر الاردن، والجموع تتزايد حوله. وكان قد وصل في تجواله الى « بيت عبرة » على مسافة عشرين ميلاً من الناصرة. وفي ذات يوم نزل اليه من الناصرة شاب قروي ووقف بين الجموع دون أن يلحظه أحد . . وهذا ما رآه يسوع :

انسان متحمس يتطاير الشرر من عينيه ، بوجه ناحل قد أعياه الزهد والتقشف ، واقفاً على ضفة النهر يسكب نفسه سكيباً . وحوله جمهور من الناس وقد بدت عليهم أمائر الثورة الفكرية والحيرة والتساؤل. واستولى على كثرتهم عاطفة دينية أخاذة . يئنون أنين التوبة المتصاعد من قرارة النفس التائبة ، لان اليه « خرج اورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة المحيطة بالاردن .... معترفين بخطاياهم » — هذا مارآه يسوع .

أخذ يراقبهم يوماً بعد آخر . وفي ذات يوم بعد ما فرغ يوحنا من معمودياته ووقف منفرداً ، اقبل اليه يسوع خائضاً في الماء. واني أُلقي نظرة الى وجه المعمدان ويسوع مقبل اليه فاذا به تتبدل أساريره . ويعلو ذلك الوجه المتحمس علائم الحيرة والدهش وحب الاستطلاع . وتقرأ في عينيه هذا السؤال ، في ذعر واندهال : « من هذا » ؟

ولابد انهما قد تلاقيا في الطفولة ، ولكن الظاهر انهما لم يتلاقيا في الرجولة بدليل قول يوحنا « لم اعرفه » .والمرجح انه لم يكن يدري ما اذا كان المسيا موجوداً على الارض، أم سيجيء من السماء بغتة بقوة ومجد عظيم. ولكنه احسّ على اية حال بروح التأثر العميق

فيحضرة ذلك الانسان الماثل أمامه . وثارت في نفسه عندئذ أحاسيس غريبة.

رفع يسوع عينيه وتفرس في وجه يوحنا . وعندئذ عرف... عرف مَن كان يحلم به خلال هذه السنوات الطويلة التي قضاها في عزلته . عرف من كان يرهف آذانه ليتسمع وقع اقدامه . عرف المسيا — رجاء اسرائيل . قد جاء !

أتستطيع ان تصور لنفسك مدى الاضطراب والدهشة والاتضاع في عقل يوحنا ، ومدى التغيير الذي طرأ على نبرات صوته . منذ برهة كان يخرج من فيه قذائف التأنيب والتعنيف لتصيب أشد الفريسيين عجرفة وكبراً قائلاً لهم : ياأولاد الافاعي ! أما الآن فقد خانته شجاعته وثقته بنفسه فقال : « ما هذا ! أنت ! انا محتاج ان اعتمد منك . وانت تأتي اليّ ! »

أمايسوع فأمره فيرقة ان يكمل مهمته . الحق انه لم يكن فيحاجة لان يعتمد للتوبة، وانما كانت هذه المعمودية لكي يندمج المسيح في ملكوت الانفس الامينة كأكثر الناس اتضاعاً فقال: «اسمح الآن لانه هكذا ينبغي ان نكمل كل برّ» . فوضع يوحنا يديه على رأسه وغطّسه فيالماء وعندئذ بدأت مهمة المسيح العامة. واختتم حياته الخاصة وشرع فيالدور الجديد وأضحى القروي الوضيع المتخرج من حانوت النجار بالناصرة ،« مسياالله » من تلك الساعة .

وهنا حدث حادث لم ينسه أحدهما فانه عندما خرج يسوع من الماء وهو يصلي — ربما الصلاة المحبوبة : « أبانا .. ليأت ملكوتك . لتكن مشيئتك » — تفتحت كوة السماء وهبطت رؤيا كحمامة استقرت على رأس يسوع ، وسُمع صوت قائلا : « هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت». وعرف يوحنا عندئذ عن يقين انه قد وجد المسيح .

وحدث مرة بعد ذلك ، في ساعة من ساعات اليأس المظلم ، ويوحنا موثق في زاوية من زوايا السجن — ان جال الشك بنفس يوحنا . ويذكر هذه الحادثة أحد تلاميذه بعد موته عندما بعث باثنين منهم ليسألا المسيح قائلين : « هل انت هو الآتي أم ننتظر آخر ؟» أما الآن فلم يكن ثمة شك لانه قال بجرأة للجموع الحاشدة : « في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه » — وحين رأى يسوع للمرة الثانية بعد التجربة صرخ قائلا : « هوذا حمل الله » .

الفصل الثاني

التجربة

ثم اصعد يسوع الى البرية ليجرَّب من ابليس. وكانت هذه الحادثة بعد المعمودية تواً. وعندئذ يتبدل المشهد فيتحول من مظاهر خارجية الى اختبار داخلي. من المعمودية الى التجربة. من النور الى الظلمة. بعد كوة السماء المفتوحة و بعد سماع رنين صوت الآب، اصعد المسيح تواً الى البرية ليجرَّب من أبليس.

ووصف التجربة في البشائر يدل على انها لم تكن مجرد حادث بل كانت أزمة خطيرة شديدة في حياة يسوع. والظاهر انه كان يفكر في عمله الخطير الموضوع امامه، و يصارع مشاكله الكثيرة لعله يجد لنفسه مخرجاً. فكانت تصارعه تلك القوات الشيطانية الهائلة، محاولة تجربته وتضليله والحيدة به عن خطة سيره. والذي صار انساناً ليؤسس و يشيّد ملكوت الله، عليه ان يشرع كانسان في مصارعة وهزم قوات ملكوت الشر.

وذات يوم روى السيد لبعض تلاميذه قصة تجربته، وربما رواها بما انطوت عليه من حقائق عميقة أبعد من أن تحيط بها مداركهم، وربما وضعها في أسلوب سهل على افهامهم. ولكن حتى بعد وضعها في هذا الاسلوب السهل لايسع المرء الا الدهشة ازاء تكييفهم لها. فهل حاروا كما حرنا نحن؟ وهل افصحوا عن هذه الحيرة، وألقوا عليه اسئلة اخذوا عنها أجوبة كما فعلوا في ذلك السر الآخر عن الخبز الحي النازل من السماء (يوحنا ص ٦) ؟ لسنا ندري. وربما كان المقصود ان نقف امامها حائرين ونحاول حلّها بانفسنا.

* * *

ونصطدم في أول مرحلة بسؤالين على جانب من الصعوبة. فهل نتخذ القصة كما هي في ظاهرها — و بحرفيتها الدقيقة، ونتصور روحاً شريراً، وأصواتاً مسموعة في الهواء، وكائناً قوياً حالكاً منظوراً للعين يحمل يسوع بالجسد الى ذروة الجبل وفوق جناح الهيكل؟ أم هذا وصف مجازي فقط يصف صراعاً داخلياً في النفس؟ وهل نصور لانفسنا انسانا وحيداً

منفرداً بين صخور البرية غارقاً في التأمل ، واقفاً على حذر خلال أربعين يوماً يرقب فيها قوى الشرير غير المنظورة تهجم على نفسه، مفكراً في عمله ومهمة حياته، فينبذ فكرة بعد أخرى تعرض له، وهي فكر ممتدحة في ظاهرها ولكنها مصطبغة بصبغة الشر. ان البعض ليشعر ان هذا المعنى أقرب الى الحال الطبيعي. وهو أشبه بما يحدث لنا . تجربته أقرب شيء الى التجارب التي تتصدى لنا .

ان كلا الامرين واحد لدى يسوع من الوجهة العملية . لان نفسه الحساسة تدرك الشرير فوراً ،منظوراً كان أو غير منظور. وفي ظني انه من الجائز لنا الاخذ بأحد الرأيين، بشرط ان ندرك أن المقترحات التي قُدمت له جاءت اليه كتجارب حقيقية ، وانها قامت ليس في نفسه المعصومة عن الخطأ ، بل جاءته من مؤثرات خارجية.

وهذا يأتي بنا الى سؤال أشد خطورة من الأول : كيف يمكن ان يُجرَّب الرب يسوع بأية تجربة وهو بلا خطية ؟ فان التجربة لنا تنطوي على حالة شريرة فينا تميل مع هذه التجربة ، أما انسانية المسيح فكانت معصومة ، فهل كانت تجربة المسيح اذن عراكاً ظاهرياً فقط ، خلواً من أي صراع حقيقي أو خطر فعلي ؟

حاشا لله ! والا فما هو العزاء لي في تجربتي أنا ؟ وأنا أعلم حق العلم ان تجربتي ليست عراكا ظاهرياً فارغا. وأي مشجع لي في تحويل نظري للاستعانة بمنتصر إلهي عظيم في سلاح لامع يبهر الأبصار لن تنال منه السهام منالاً ؟ واذكر ان جاءني مرة شيخ عجوز من الملحدين وقال لي : « إن كان مسيحكم هو الله . فان تجاربه ليست عزاء لي » ، وقد كان من الصعب ان أجيبه جوابا مقنعاً لاني أحسست ان في نفس ذلك الشيخ غريزة طبيعية تواقة الى ان ترى الى جانبه صديقاً بشريا حيّا ، جاز دوراً من أدوار التجربة المريرة التي يجوزها هو بنفسه ، يشعر معه ويشاركه كأخ اكبر ومختبر محنك .

ومع ذلك هل يمكن ان يُجرب حقا المسيح المعصوم عن الخطأ ؟ يعطي الكتاب المقدس جوابا ايجابيا صريحا .

والآن لنفكر في هذا الأمر: العصمة عن الخطأ لا تعني بالضرورة ان اسباب الاغراء لاتخطر بالبال، ولكن معناها عدم الاستسلام الى اسباب ووسائل الاغراء المختلفة ، وتشبث الارادة بالاخلاص والولاء حيالها والفرق عظيم والبون شاسع بين تجربة عرضية تعرض

للانسان من الخارج ، وبين فكر خبيث شرير جاثم في النفس . فالتجربة ليست شائنة بالكرامة . ولعلّ أعز وأسعد ذكريات الحياة هى ذكريات التجارب التي فاز فيها المرء بقوة إرادته . ولو ان هذه للاسف قليلة جداً !

ومع ذلك كله فاننا في توقيرنا للسيد المسيح ، نأبى كل الأباء ان نظن بانه احسّ ولو مجرد الاحساس بتجربة ما . وذلك لاننا نعجز عن ادراك مدى اخلاء نفسه في صيرورته انساناً . وبينما نذكر انه « اله من اله » خليق بنا أيضاً ان نذكر انه صار انساناً كاملا لاجل البشر وخلاصهم . والذي غلب التجربة هو الانسان وليس الله . وحين تنازل قائدنا الاكبر ليكافح معنا ويحارب الى جانبنا ، ألقى عنه الاسلحة اللامعة ، ووقف معنا كجندى في صف القتال . ولم يعف نفسه من شيء ما ، ولكنه جُرب مثلنا .

وسواء فهمنا هذا او لم نفهمه ، فالكتاب يعلمنا ان يسوع باتخاذه الطبيعة البشرية اتخذ معها كل اشواق هذه الطبيعة وميولها ورغائبها التي تفسح فينا الطريق الى الخطية . وهو قد أحسّ بألم الجوع كما أحسّ انا . وأضناه العطش على الصليب فتوسل لأجل جرعة من الماء . وتقلص جسده امام وخزات الألم . وتجشمت روحه أقسى الآلام العقلية في جثسياني . وطبيعي ان تهجم عليه التجربة عندئذ ، فيطلب ان تعبر عنه هذه الكأس ان امكن . ولولا ذلك لما حُسب المسيح انساناً . وهكذا نرى ان طبيعته المعصومة عن الخطأ كانت عرضة لتجارب أليمة كان الصراع فيها قاسياً ، وقد فاز فيه ببذل مجهود حق . وماذا يقول الكتاب : « في هذا تألم مجرباً لكي يعين المجربين » . وأيضاً « ليس لنا رئيس كهنة غير قادر ان يرثي لضعفاتنا بل مجرب في كل شيء مثلنا بلا خطية » . ولم تكن هذه الحادثة بالذات أولى تجارب المسيح ولا آخرها . ففي كل حياته السابقة كان عرضة للتجارب مثلنا . وكذلك كان الحال بعد هذه الحادثة . لان ابليس فارقه « الى حين » . وحتى في جثسياني كانت التجربة محيطة به : « ان امكن لتعبر عني هذه الكأس » . ويقول لتلاميذه في اخريات حياته بلهجة مؤثرة : « انتم الذين ثبتم معي في تجاربي » . ولكنه فاز فيها كلها .

هذا ما نستطيع ان نفهمه بجهودنا العاجزة . والآن لنعد الى القصة ذاتها :

اتصور يسوع في ذلك اليوم صاعداً من الاردن ونفسه تتقاذفها المؤثرات العميقة . ذلك لانه يجوز الآن ازمة روحية هائلة . فهناصوت من السماء ، ومسحة الروح القدس ،

والشعور بالقوى الخارقة للطبيعة ، وبداية مهمة الحياة الخطيرة ، وجهاده من هذه الساعة « في ما لأبيه » . كل هذه شئون تزاحمت في العقل والقلب .

وبهذه الافكار « أُصعد يسوع بالروح الى البرية ليجرب من ابليس»، ليس مدفوعاً بقوة من نفسه، بل خاضعاً لارادة الآب المقدسة .

وفي وسط هذه البلابل والعواطف المتزاحمة، يحس المرء بميل الى الابتعاد عن الناس والانزواء للتفكير والتأمل . واني أراه يتسلل من وسط الجموع الواقفة على ضفاف نهر الاردن ويهيم وحيداً بين الحراج الى جبال البرية . وهناك يقضى الليل كله لا يلوي على شيء ولايدري شيئاً . حتى يستفيق من هواجسه ليجد نفسه بين صخور وكهوف البرية مع وحوش الفلاة .

هناك قضى أربعين يوماً — كما يقول البشير لوقا — مجرباً من ابليس . وهنا أريد ان نحصر افكارنا في هذه الايام . لان كثيرين منا يتجاهلون ما حدث فيها بالاهتمام فقط بما تلاها من الاحداث . وهذا خطأ محض . وكلما فكرنا فيها ادركنا ان الصراع العقلي في خلالها بلغ أشدّه، حتى انه لم يشعر بأنه قضاها صائماً بلا غذاء. وهل يمكن للعقل ان يتصور الجهد النفسي الذي يصل بالانسان الى حالة كهذه مدى اربعين يوماً ؟

وحين يكون الانسان رازحاً تحت عبء عقلي كهذا،ينسى كل شيء حوله ولا يفكر في الجوع . واذا كان يسوع قد صحا في ختام هذه المدة واحس بالجوع ، أفلا نظن عندئذ انه قد غلب في هذا الصراع الذى بلغ منتهاه ؟ وان تعدد التجارب التي عرضت له يدلُّ على انه أحسّ بالفرج بعد الضيق، وباليقظة بعد الغيبوبة العقلية. وعاد الى الوعي بعدانقضاء هذا الصراع وشعر بألم الجوع ؟ بل هنا دلالة على ان في الكون عالماً روحياً غامضاً بقوى شريرة غير منظورة يحيط بنا ويصارع الانسان والله . ويغلب على ظني أن لهذه الأربعين يوماً الفضل في اضافة العبارة : «لاتدخلنا فيتجربة ، لكن نجنا من الشرير » الى صلاته التي أحبها .

ويسوع لم يرو لاي انسان فان ماعاناه من النزاع الروحي الغامض في هذه الفترة . واعتقد انه لن يمكن التعبير عن هذا النزاع بألفاظ تدركها افهامنا . واني اجرؤ على ان اتصوره خلال الأربعين يوماً لايعي شيئاً في الارض، وروحه مأخوذة الى عالم الروح في

مصارعة عنيفة قاسية مضنية . اتصوره بعيداً عن مدى ابصارنا وافهامنا. والجوع هو العلامة الاولى الدالة على رجوعه الى عالمنا، وربما عندئذ فقط بدأ دور التجربة الذي نستطيع ان نفهمه.

بعد أربعين يوماً أحسّ بألم الجوع الشديد الذي نعجز عن ادراكه ، والذين قاسوا ألماً كهذا مدى أيام طويلة يقدّرون هذا الموقف ، ولم يكن يسوع بطبيعته متقشفاً مثل يوحنا المعمدان . وفي تلك اللحظة تاق جسده البشرى السليم توقاً شديداً الى الطعام . والحجارة المبعثرة في النور الضئيل تذكّر الجائع بأرغفة الخبز ، وربما كان الاعياء الشديد مدعاة أيضاً الى شكوك عليلة ، وكان قد أعياه فعلا الجوع الشديد ، وكان وحيداً منعزلا مع ابليس ، ونحن نعلم ان الاعياء والوحدة والوحشة تفعل كثيرا في ايحاء الشكوك وإلباس كل شيء صالح لبوس الشك والخيال البعيد عن الحقيقة .

وفي تلك اللحظة ـــ لحظة الاعياء والجوع ـــ تبدأ الهجمة الاولى التي دوّنها الانجيل: «ان كنت انت ابن الله !» . ان كنت انت ؟ هل واثق انت ؟ ألا يمكن أن يكون ذلك المعمدان البريّ المتعصب مخرفاً ؟ ألا يمكن ان يكون صوت السماء والحمامة المقدسة مجرد « هلوسة » لا اصل لها ؟ فقبل ان تبدأ هذه المهمة وتضلّ الآخرين جرّب نفسك. جرّب ان تخلص نفسك من الجوع والموت . ابن الله ! ان كنت ابن الله ، فَقُل لهذه الحجارة ان تصير خبزاً .

ولماذا لا ؟ يبدو هذا الطلب لاول وهلة جائزاً معقولا . فهو قد أحسّ ـــ ربما لاول مرة ـــ بقوى غير محدودة . وهنا التجربة . لماذا لايجرب هذه القوى الفائقة الطبيعة ؟ لقد استخدم هذه القوى فيما بعد في اشباع الخمسة آلاف وتحويل الماء الى خمر . فلماذا لايفعل الآن ؟

وهنا خداع هذه التجربة . فقد كان من الحماقة ان يقترح عليه ابليس فكرة خاطئة خطأ صريحاً ، وهذه التجربة ليست حماقة في ظاهرها . ألسنا نشعر كلنا أن اسوأ تجاربنا هى التى نجرّب فيها انفسنا بان نطلب اليها اعمالا محببة . فيقول المرء لنفسه : أواثق انا بان هــذا خطأ ؟

ومع ان المسيح كان في حالة الاعياء الشديد والجوع المضني،فهو لم يشأ ان يفعل ذلك . لماذا ؟ لايسعنا هنا الا الحدس والتخمين بروح الوقار والخشوع . فهل كان ذلك لانه أُصعد الى البرية بالروح ليجتاز هذه المحنة الاليمة، فلا يليق به ان يكسر من شدة هذه المحنة ؟ ام

هل كان ذلك لانه لم يرد ان يستخدم لراحته القوة التي اختزنها لخدمة الآخرين ؟ أم لانه أراد ان يعهد بنفسه كلية الي عناية الآب فلا يفعل شيئاً بنفسه لخير نفسه ؟ واذ قد أخلى نفسه وخضع لاحكام الطبيعة البشرية وضعفاتها لتشجيعنا نحن،لم يرض ان يصنع المعجزات لراحة نفسه والتفريج عنها. لان هذا الصنيع يخرجه عن طبقة البشرية.وان فعل ذلك الآن، فلماذا لايفعله مرة واخرى لينقذ نفسه من الفقر والحاجة والتشريد ، وقد كان ابن الانسان الفقير الذي لم يكن له اين يسند رأسه ؟ ولماذا لا يهرب من نزعات جثسيماني ؟ ولماذا لايخلص نفسه عند ما عرضت له تجربة كهذه فيما بعد وسط آلام الموت عند ما قيل له : « ان كنت ابن الله ، فخلص نفسك وانزل من على الصليب » .

كلا! خلّص آخرين ، أما نفسه فلم يقدر ان يخلصها، لا بعدئذ ولا فى هذا المقام. ولم يكن يسوع قد أشرف على الموت من قبل كما أشرف عليه ابان هذه التجربة . . . .

وتعرض بنا نحن أزمات في الحياة، نقدر فيها ان نرضي انفسنا ونجعل الحياة سهلة هنيئة ونكسب المال لارزاقنا وأولادنا اذا لم نتشدد في الخضوع لارادة الله المقدسة . وقد نقول : « يجب ان يعيش الانسان » . ولكن في هذا الانتصار، يتحدث الينا يسوع من البرية وكأني به يقول : « يابني ؟ انا اعرف تجربة العامل المكدود في كسب العيش . وقد جزتها بنفسي . فتعلّم مني. وأولى بالانسان ان يموت من ان يخون الحق ويهدره» .

* * *

والآن تأتي التجربة الثانية :

بالايمان بالله وبقوة كلمته المقدسة، انتصر يسوع. وهنا يغالبه الشيطان على أرضه وفي موطنه : — ان كان ايمانك هكذا في الله فأظهره ، واطرح نفسك من فوق جناح الهيكل على مشهد من أحبار اليهود وجموع العابدين . وهذا وحده يظهر ايمانك الكامل . وهو علامة اكيدة على انك المسيا ، لانه مكتوب منذ القدم « انه يوصى ملائكته بك وعلى ايديهم يحملونك حتى لاتصدم بحجر رجلك » .

وكيف نعلّل هذ التجربة ؟ هل أخذ الشيطان المخلص وأصعده بالجسد فوق جناح الهيكل ؟ نحن نعلم عن قوة عالم الروح مايكفي لحملنا على تصديق هذا . ولعلّ هذا القول صورة تمثيلية فقط للتعبير عن تجربة روحية دقيقة عرضت عليه .

لا شك ان المسيح كان يفكر في مهمة حياته . ولا بد ان ادراكه سرّ قواه الخارقة للطبيعة كان تجربة شديدة له . فكيف يستطيع ان يحمل الى العالم المضطرب المتعب رسالة ملكوت الله ؟ هل يرفع راية هذا الملكوت وحوله اجناد السماء تحت امرته ؟ وهل يفوز بولاء الناس وخضوعهم له باظهار قواه المعجزية دفعة واحدة ؟ ترقب الناس المعجزات دليلا لاثبات دعاوى المسيا، وبدون هذا الدليل لن يقبلوه؛ ونراهم بعدئذ يطلبون مرة تلو اخرى آية من السماء . فهل يعطيهم الآن الدليل الذي لا يدحض ؟ وهل يجيء لهم كصانع معجزات ، على كل شيء قدير ؟ انه اذا ألقى بنفسه من العلاء في وسط الجموع الحاشدة أو فعل شيئاً من هذا القبيل، يقبله الناس بلا جدال بالهتاف والتصفيق، ويخرج من الهيكل في موكب منتصر متوجاً بالمعجزات، والناس يحنون الرقاب عند قدميه في الطريق !

ولذا يهمس المجرب في اذنه : « هذه فرصتك . ان كنت ابن الله فاطرح نفسك الى اسفل . واظهر ذاتك حليفاً للقادر على كل شيء . وأصحب بقوة ملكوت الله التي تظن انك بها تطوّب الانسانية . وهكذا تصل الى غايتك بدون ألم ولا ابطاء » .

أليست هذه تجربة حقيقية لابن الانسان ؟ ليست لاجل نفسه بالطبع . فحتى الشيطان عرف ان اغواءه لراحة نفسه او تمجيد ذاته لن يجد الى نفسه سبيلا . ومثل هذا الطعم لا يصطاد الا امثالنا فقط . أما هو فقد جاءته الغواية كأنها لاجل العالم الفقير المنكوب الخاطيء الذي يقدم اليه على عجل ملكوت السماء ! ولا شك ان يسوع فكّر في معجزة كهذه ، والاّ لما نظر اليها كتجربة مصوبة اليه . ولا شك انها ألقت شيئاً في روعه في تلك اللحظة على الاقل.

ولكنه عرف ان الدهشة والايمان نقيضان . ومباغتة الناس بالمعجزات لا تسمو بهم بالضرورة الى حالة افضل . وهو قد جاء ليربح الناس، لا بقوته بل بمحبته . ونزل ليعلن محبة الله وعطفه وألمه الرقيق وتضحيته . فاذا لم تربح هذه كلها الانسان فلا يربحه شيء آخر . وهكذا نرى المسيح قد نظر الى الامرين : في الجانب الواحد ألم وضنك وخيبة وابطاء وصليب . وفي الجانب الآخر ترقب اسرائيل الطويل أن المسيا سيقتادهم بالفوز المبين من مقدس الهيكل.

واختار المسيح أحد الامرين :

فكّر في المعجزة فقط لينبذها . وفي سبيل اداء الواجب، هو لا يحجم عن ان يلقي بنفسه من فوق جناح الهيكل او من فوق ذروة الكون . ولكن اذا لم يكن الانسان في طريق الواجب ، فمن الخطأ المحض ان يتحدى الله ليوصي ملائكته به . وقال يسوع : « مكتوب لا تجرّب الرب الهك » .

* * *

« ثم اصعده الى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان » . ربما « في الجسد او خارج الجسد » أخذ الشيطان السيد الى جبل عال. وبقوة روحية معجزية أراه كل ممالك المسكونة ومجدها .

وربما يعني هذا القول ان يسوع فكّر في هذه اللحظة في مشروعاته المقبلة لتأسيس ملكوت الله . وجالت بخاطره رؤى أحلامه يوم يأخذ العالم الوثني ميراثاً له واقاصي المسكونة ملكاً له هذا ملكوته الموعود به . تختفي البرية عن نظره ويظهر العالم بأمجاده وجملة تحت ضوء الشمس بما فيه من مدائن وقصور وجيوش وشعوب غنية عظيمة ، كلها تسجد لصانعها الذي خلقها .

هو يتوق الى تحقيق هذه الرؤيا ليجيء الى عالم شرير بالسعادة والنبل ! ما أمجده عالماً يكون المسيح ملكاً له ! ولكن كيف يتم له ذلك ؟ يقول الشيطان : « لك أعطي هذا السلطان كله ان سجدت أمامي » .

والظاهر من هذا ان يسوع جُرّب ان يفعل شيئاً ، حسبه خضوعاً وسجوداً للروح الشرير ، كأن يؤسس ملكه بالقوة والعنف كما فعل غيره من زعماء الاديان . أو أن يفعل هذا في غير عناء وينفذه عاجلاً بشيء من التراضي والتساهل والتحالف مع قوات العالم الاخرى — مع القوة الرومانية ، أو مع الكتبة والفريسيين . فكل النهضات العظمى قد كملت على هذا النحو . وبهذا فقط يمكن ربح العالم والتغلب عليه .

وما قاله المجرّب ليسوع حق لا مراء فيه . ونحن نستطيع ان نربح شطراً كبيراً من العالم وامجاده لو قنعنا بدفع الثمن للشيطان . والكنيسة لم تكن بمنجاة من هذه التجربة وحاولت الغلبة على العالم احياناً بالتراضي والتساهل والمساومة مع مَن كانوا سادة لها .

اما يسوع فلم يرض التساهل والمساومة مع عالم شرير . وهذا الرفض حدا به الى عملية بطيئة أليمة ، عملية المحبة وانكار الذات والاستسلام وتعريض نفسه للناس بدون حمى او نصير ليفعلوا به ما شاءوا ، عملية طويلة مضنية يستغرق اكتمالها اجيالاً كثيرة . والآن بعد انقضاء ألفي سنة لم يكمل نصفها بعد . ولكنها ستكمل . ويوماً ستصبح ممالك هذا العالم ملكاً لالهنا ومسيحه وهو يتسلط عليها الى الابد . والشيطان يعرض على المسيح طريقاً معبداً سهلاً مختصراً بدلاً عن طريق الواجب الطويل الوعر المضنى ، على ان يدفع فقط ثمناً ضئيلاً هو الخضوع للشر . ولكن حيلة كهذه لم تجز عليه : « اذهب يا شيطان . انه مكتوب للرب إلهك تسجد واياه وحده تعبد » .

* * *

الآن قد فرغنا . فماذا تعلمنا ؟

١ — ان ربنا الذي نعترف له بتقصيراتنا يستطيع ان يعطف علينا في تجاربنا ، لانه « في كل الاشياء مجرب مثلنا ولكنه بدون خطية » . وكونه لم يستسلم للتجربة لا يقلل شيئاً من عطفه . هبوا اننا اخوة ثلاثة يحاولون معاً تسلق جبل عال . وبلوغ آخر مرحلة في الفوز مائة درجة . وبعد خمسين درجة خابت قوتي ووقفت عند حدي . واخي الآخر يصعد الى سبعين ثم يقف . هذا يستطيع ان يشاركني ويعطف عليّ لانه أدري بما قاسى . اما الاخ الاكبر الثالث فيحاول وهو يلهث الى جانبنا ان يطيب خواطرنا ويأبى الاستسلام. تدركه الظلمة ولكنه يثابر ويجاهد . العرق يتصبب عليه وانفاسه تتقطع ولكنه جادّ في التسلق. وأخيراً بعد ألم وصراع يجوز في المرحلة الى منتهاها . أليس يستطيع هذا ان يعطف عليّ كالاخ الذي فشل في منتصف الطريق ؟ وهو قد تألم اكثر من الاثنين !

٢ — وهذا الاخ الاكبر فعل ما لم يفعله الآخر . أراني ممكنات الفوز . وهذا هو الدرس الثاني في التجربة . ويسوع المنتصر في البرية يقول : « ايها الاخ المسكين الخائر المجرب ! تعال تفز ! وهذا في مكنتك وقوتك . قد خارت نفسك واستسلمت الى القول العاطفي عن قوة التجربة وألم الفشل . ولكن اصارحك ان هذا جبن منك ، وليس هو الحق . كن رجلاً ! جرب مرة ثانية بقوتي . فلقد اتخذت البشرية ، كافحت ونافحت

كانسان لا حول لي ولا طول مثلك سوى الايمــان بالله . وكان كفاحي أشد هولاً من كفاحك . وقد فزت . ولاني فزت في الـكفاح الشديد والمعركة الفاصلة ، فانك مستطيع ايضاً ان تفوز في كفاح اقل ومعركة اصغر » .

ثم تركه ابليس واذا ملائـكة قد جاءت فصارت تخدمه . وهـذا تمثل لما يحدث لعبيده الضعفاء ايضاً بعد كل تجربة يكون الفوز حليفها .

الفصل الثالث

التلاميذ الاولون

اسبوع من الزمن تقضّى ، وفي كثير من راحة النفس والشعور بالفرج بعد الضيق ، نعود من البرية القاحلة الجرداء ، والصراع مع أبالسة الفكر — لنتتبع خطى السيد في علاقاته البشرية العادية مع القرويين الساذجين في الجليل ، الذين أحبهم واتخذهم له اصدقاء .

ولولا ذكريات الشيخ العجوز يوحنا ، التي استفاضت بها ذاكرته بعد خمسين سنة ، لحرمنا قصة شائقة وقعت في الاسبوع عقب التجربة ، يوم التقى المسيح بتلاميذه الأولين . وتذكر لنا بشائر متى ومرقس ولوقا أهم الحوادث في سيرة السيد ، وهي تمثل التاريخ المجمل ، الانجيل العام الذى تلقته الكنيسة الفتية الأولى شفوياً ، ثم سطّر بعدئذ في هذه الأسفار المكتوبة التي بايدينا . ولكن في قصصهم وسرد حوادثهم ثغرات من الفراغ . فهنا ينتقلون مرة واحدة من حادثة التجربة الى فترة الخدمة في الجليل ، دون الاشارة الى ما حفلت به هذه المدة من الحوادث .

ولكن في افسس البعيدة كان تلميذ شيخ يقرأ هذه الرسائل ، وطفق وهو يقرأ يملأ في مخيلته هذا الفراغ . وأتخيله يقول لنفسه وهو يقرأ وصف التجربة : آه ! لقد نسوا تلك الأيام الشائقة التي أعقبت التجربة ! واذ يقرأ وصفهم عن دعوته للتلاميذ ، تسارع اليه أفكاره قائلة له : انهم لم يذكروا شيئاً قط عن كيفية معرفتنا به نحن التلاميذ لأول مرة .

وقد حفلت خيالات يوحنا الرسول بذكريات لم تتوافر لدى الآخرين، ذكريات عذبة حلوة عن تلك السنين الثلاث التى قضاها على اتصال وثيق بيسوع . واذ استعادها الى مخيلته رواها لشعبه ، و بعد أن رواها لشعبه دونها في بشارته .

وبين تلك الذكريات البارزة قصة وقعت بعد ظهر يوم لخمسين سنة خلت — هو اليوم الذي التقى فيه بسيده لأول مرة . وذاك هو اليوم المأثور الخالد في حياته فكيف يتغافل عنه. ولذا نراه يسجل ذكريات الأسبوع الذي أعقب التجربة في صورة رائعة ويضع فيوسط الصورة ذلك اليوم المأثور في حياته ويحيطه بهالة حمراء . ولعله من الشائق أن نذكر أن ذلك اليوم كان سبتاً على الأرجح ، لأنه يسرد أحداث أربعة أيام متتالية ، ثم يأتي بعد ذلك في اليوم الثالث عرس قانا الجليل . وكانت العادة المألوفة عند اليهود أن تقام أعراس العذارى يوم الأربعاء . فكأننا نحصى الأيام من يوم الأربعاء رجوعاً الى الوراء حتى يوم الخميس السابق .



ألق نظرة الى المشاهد كما يرسمها البشير : اليوم الأول هو يوم الخميس — كان يوحنا في ذلك اليوم مع يوحنا المعمدان في بيت عبرة . وكان قد جاء مع جمع من رفاقه الشبان، مسوقين بشوق ليسمعوا النداء السامى من النبى الجديد . وهم قد لبّوا هذا النداء وصاروا تلاميذ له، ولبثوا معه حتى يحلّ فصل الصيد فيعودوا الي البحيرة .

وكانت رسالة معمدان البرية قد أثارت القوم حتى اضطر الفريسيون في أورشليم الى أن يبعثوا بوفد من قبلهم ليستجلى الخبر . وقد وصل ذلك الوفد يوم الخميس على الأرجح قبل أن يرجع يسوع من البرية بيوم واحد . فالتقى بهم ذلك المبعوث العظيم وصارحهم بكل شيء فلم يخفِ عنهم شيئاً :

— قل لنا من أنت ؟

— أنا لست المسيح !

— اذن من أنت ؟ أأنت ايليا ؟

— أأنت ذلك النبي ؟

— كلا !

— اذن قل لنا من أنت لنعطي جواباً لمن أرسلنا ؟ ماذا تقول عن نفسك ؟

— أنا صوت صارخ فيالبرية : قوّموا طريق الرب كما قال اشعياء النبي .

— ما بالك تعمّد ان كنت لست المسيح ولا ايلياء ولا النبي ؟

— أنا أعمّد بماء ، ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه .

* * *

« وفي الغد » كان يوحنا واقفاً مع نفر من أخصائه، وبغتة رفع عينيه فلمح من بعيد على منحدر الجبل يسوعَ قادماً من الطريق الذي اختفى فيه منذ ستة أسابيع — رآه شبحاً نحيلاً منهوكاً قد أضنته الاربعون يوماً في البرية ، وعلى محياه وفي عينيه غبطة من العالم الآخر. وكان المعمدان قد تحيّر في سبب اختفائه، وهاهو الآن يراه مرة أخرى ويعرفه ويوميءُ اليه قائلاً : « هوذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم . هذا هو الذي قلت عنه .. قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه ... وأنا قد رأيت وشهدت ان هذا هو ابن الله » .

وهنا يشعر اسقف أفسس الشيخ، وكأن دم الشباب يعود يجرى في عروقه، اذ يذكر كيف التهب قلبه في ذلك اليوم الذى لقي فيه لأول مرة مَنْ تاق اسرائيل أن يراه مدى الأجيال ، الذى كان مزمعاً أن يرفع خطيّة العالمين .

* * *

والذكريات تتوارد وتتلاحق : ففي الغد أيضاً ، في بعد ظهر يوم السبت ، كان يوحنا وزميله اندراوس يتحدثان مع معلمهما يوحنا عن يسوع . وانهم لكذلك واذا به يمرّ أمامهم في الطريق المحاذي لضفة النهر . وهنا أصور المعمدان وقد قبض في ثورة نفسه على ذراع زميله الشباب قائلاً له : « انظر ! هوذا حمل الله ! حمل الله ! » . ولم يدروا معنى هذه الكلمة حتى رأوه بعيونهم معلقاً فوق رابية الجلجثة . ولكن في تأثر عاطفى فجائي إذ « سمعه التلميذان يتكلم تبعا يسوع ». ولعلَّ المعمدان نفسه هو الذي شجعهما على ذلك. فلم تعد ثمة صلة شخصية تربطهما به ، وهو لم يكن الا المنادي الممهد طريق الرب .

وها انا أرى الشابين الصيادين يهبطان الى الطريق ، في حذر وخجل وخوف وحرج موقف ، مؤملين أن يبتدرهما يسوع بالكلام . أما هو فاذ قد سمع صوت الخطى التفت الى الوراء ورآهما يتبعانه ، كما يلتفت مدى أجيال التاريخ ليلقي نظرة الى التلاميذ الخائفين الحاذرين الذين يرغبون أن يتبعوه . وفي اشفاق وتشجيع يسألهما قائلاً : « ماذا تطلبان ؟ » ولعله أراد أن يختبرهما ويوعز اليهما أن يسألا قلبيهما ماذا يريدان . وهو لا يعيب الجهل أو

الضعف أو البلادة أو أي شيء آخر، متى أحسّ المرء في داخله بانه يطلب الله حقاً و يسعى الى خدمته بقلبه .

وهنا عرت الشابين القرويّين حيرة فلم يعرفا بماذا يجيبان : « ياسيد أين تمكث؟ » وعندئذ عرف يسوع ماذا يطلبان فأجابهما : « تعاليـــا ! » ، واقتادهما الى مسكنه الوضيع الصغير ومكثا معه ذلك اليوم . واذ يرجع يوحنا بذاكرته الى نصف قرن يستعيد كل شيء تماماً : « وكان نحو الساعة العاشرة ! (أي الساعة الرابعة) ». فكيف ينسى حادثة كهذه وقد كان لها فيما بعد أعمق الأثر في نفسه، بعد اذ مكث مع يسوع عصارى ذلك اليوم في ضيافته الوضيعة يتحدث اليه و يسائله و يستمع اليه وهو يخبرهم عن متاعب البشر وخطاياهم، وعن مشروعاته وآماله الحارة في تأسيس ملكوت الله . وما أن يجتذبهما اليه بقوة عطفه حتى يشرعا في التحدث بخجل عن آمالهما وأشواقهما، ولعله قال لهما في تلك الفرصة ما كان منتظراً منه « سأدعوكما يوماً ما الى معاونتي والوقوف الى جانبي » .

وفكّر الآن في ذينك الشابين وهما عائدان تلك الليلة يتخطران في طريقهما تحت أضواء الكواكب اللامعة ، وقد اتقدت فيهما لواعج الغيرة ، وامتلأ قلباهما بحب شديد حيال ذلك الصديق الجديد. « أجل. هما يتبعانه ، و يتبعانه حتى الموت! ». قد تبدل العالم كله في نظرهما . ولم تعد الارض كما كانت من قبل . .

* * *

« كان اندراوس أخو سمعان بطرس واحداً من الاثنين » — يقول يوحنا هذا في كثير من التواضع والحشمة لأنه لم يشأ ذكر اسمه . ولشدّ ما كان اغتباط اندراوس من هذا اللقاء، فأسرع وأنبأ أخاه « ياسمعان قد وجدنا المسيح! ». ولم يخبرنا عنه يوحنا بل قد رأيناه بأنفسنا . وطوبى لمن يقولون من أعماق اختبارآتهم : قد وجدنا المسيح ! بل طوبى لمن يجيئون بآخر ليراه معهم !

« جاء به الى يسوع » . وهكذا انخرط بطرس — المتهور المندفع العطوف — في سلك هذه الجماعة . واذ تفرس يسوع في وجهه أعطاه لقباً جديداً . ولعله كان ضعيف الثقة بنفسه بسبب اندفاعه وتقلبه، وعرف يسوع ذلك في دخيلة نفسه فقال له : « يا سمعان بن يونا . أنا أعرف كل شيء عنك . ستكون يوماً ما قوياً حيث أنت ضعيف . وستدعى

يوماً صفا أي الصخرة » . على هذا النمط يشدد السيد عزائم البشر، فيرى ببعد نظره ما سيكون عليه الانسان في المستقبل .

يسترجع يوحنا في خيالاته ذلك المشهد البعيد. وكان بطرس قد مات منذ أمد والتقى بالسيد في عالم الارواح . ولـكن التلميذ الشيخ ما برح يحمل في مخيلته الآثار التي انطبعت على محيا يسوع وهو ينظر الى بطرس في ذلك اليوم . كما يذكر أيضاً نظرات يوم آخر بعد ذلك اليوم بثلاث سنين ، يوم « نظر يسوع الى بطرس ، فخرج بطرس و بكى بكاء مراً » .

* * *

وأما في اليوم التالي فيرسم صورة للطريق الى قانا . وكانت طريقاً جميلة تحفها الزروع على الجانبين . وهنا يصوب يسوع وجهه شطر الجليـل فيقف في طريقه عند قانا لحضور حفلة عرس . و يذهب معه الأصدقاء الفتيان الثلاثة . لأن موطنهم على مقربة من تلك البقاع وقد دُعوا هم أيضاً الى ذلك العرس. وفي الطريق يلتقي يسوع بفيلبس، وأكبر الظن انه عرفه من قبل . وكان لفيلبس صديق حميم يدعى نثنائيل من سكان قانا، وكان يهودياً ورعاً تقياً ، رجلاً هادئاً مفكراً ، يعيش في صلة بالله . وليس شك في انه تحدث مراراً مع فيلبس عن رجاء اسرائيل .

وسرعان ما وصل فيلبس الى قانا حتى أسرع الي صديقه الحميم :

— اسمع يا نثنائيل ! قد وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء .

— من هو ؟

— يسوع بن يوسف الذى من الناصرة !

ولكن نثنائيل يرتاب في الأمر لأنه لم يتوقع أن يجيء المسيح بهذه الطريقة العارضة. ولعلّه كان رجلاً متقدماً في السن ، حريصاً حذراً ، فلم تستفزه أقوال هذا الشاب المتحمس. ولذا نسمعه يجيبه بمثل كان دائراً على الألسنة في ذلك العصر :

— أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح ؟

وفيلبس لا يدخل معه في جدل وحوار . و يكتفي بالقول : « تعال وانظر ! »

أجل ، تعال وانظر. فهذا خير جواب لجماعة المرتابين ، أهل الشك والريبة في يسوع. وكأن فيلبس قد أحسّ بان مجرد لقاء يسوع يبدد سحب ريبته، وان نظرة واحدة أو كلمة

واحدة منه ، تتسامى فوق كل حجة ودليل . ولذا يجيء بنثنائيل لرؤية الزملاء الآخرين « واذ رأى يسوع نثنائيل مقبلاً اليه، قال عنه هوذا اسرائيلي لا غش فيه » .

وتستحوذ تلك النظرة على نثنائيل وتتملكه ، فترَبطه برابطة روحية مع من يكلمه . وهناك قوة غريزية خفية تتعارف بها الأنفس الصادقة في كل العالم .

وبعد هنيهة يقول له : « من أين تعرفني ؟ »

— « أعرف كل شيء عنك . قبل ان دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك » .

وكانت هذه الكلمات مثار دهشة له . ولم يكن أساسها مجرد معرفة خارقة بتلك التينة. فان هذا لا يعلل دهشته الغريبة ، واستسلامه التام الفجائي مقترناً باعترافه العجيب . وأستطيع أن أتخيل ما يعلل هذا كله : فأنت ان أخفيت نفسك بين أغصان تلك التينة حيث لا تراك عين انسان ، وحيث تسكب نفسك فى خلوتك مع الله ابان خلوة روحية عميقة . وأنت ان عرفت من نظرات يسوع وأقواله انه كان عالماً بدخائل أفكارك ودبيب مناك وحديث نفسك في خلوتك . وأنت ان أحسست بعطف منه وتقدير لأشواق نفسك الخفية الدفينة . . . إن عرفت كل هذا ، أفلست تدهش وتصرخ مع نثنائيل بنفس هائمة : « يا معلم أنت ابن الله ! أنت ملك اسرائيل ! »

أجل ، كان ابن الله . ولكنه آثر مؤقتاً أن يخفي لاهوته وراء قناع ويكون مع أولئك الزملاء كواحد منهم . ويجيب عن نفسه باللقب الذى أحبه واعتز به طيلة حياته — ابن الانسان — ابن عامة الشعب — « الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الانسان ». وليس من السهل أن نستنبط علاقة هذا الجواب بالحديث الدائر. على انّا نعلم انه كان من عادة أتقياء اليهود في خلواتهم اليومية أن يتأملوا في أجزاء معينة من العهد القديم . ولعل تفكير نثنائيل تحت التينة في ذلك اليوم دار حول رؤيا يعقوب وملائكة الله صاعدة نازلة . وفي هذا التعليل شيء من الافصاح عن مدلول هذه الكلمات ، وعن اليقين الذي امتلأت به نفس نثنائيل بأن الواقف أمامه عرف كل أسرار قلبه وخفايا نفسه .

* * *

وكم يحلو لى أن أفكر في أن ذلك التلميذ الشيخ اعتز بتلك الذكريات المحبوبة لأيام

شبابه ، وان الله في قناع بشرى علّم الدين لذلـكم النفر من أصفيائه ومختاريه الأولين ، ليس عن طريق اثبات الوهيته، ولا عن طريق ارهابهم بمـا أعدّ للخطاة من سوء المصير ، بل بمحبته لهم، ومصادقته اياهم، وتعارفه بهم . والقصة كلها تحدثنا عن سحر حلالٍ ، وعن جاذبية بشرية غريبة اتصف بهما يسوع. و بقوة الادراك الغريزية رحّبت به القـلوب الصادقة وأحبته . وهل كان في وسعها أن تفعل غير ذلك ؟

كان هذا يومئذ ، وهو كائن اليوم . فان أولئك الشبان ليسوا الاّ نمـاذج لجماهير غفيرة لاتحصى مدى الاجيال المتعاقبة ممن اتصلوا به بقوة جاذبيته الروحية ، وسحر شخصيته الفائقة . وعلى هذا النمط يفوز يسوع بولاء الوادعين ذوى العقول السليمة المفكرة . ونحن لسنا نقدر أن نرى يسوع عياناً كما فعـلوا هم في يومهم . غير أننا بدرس حياته وسيرته ، والسعي الى معرفته ، قد يجتذبنا اليه فنثق به ، ونرغب في أن نـكون أقرب شبه اليه ، كما فعل ذلـكم النفر من شباب فلسطين .

ومتى بلغنا دور معرفته ، تبدو لنـا أمثولة أخرى نراها ماثلة في قصة حياته . فان الطريقة التي سلـكها التلاميذ الأولون في اذاعة دينه هي الاتيان بزميـل لهم الى عرفان رسالته . وان فعل كل منا هذا الصنيع فلاريب أن يجيء ملـكوت الله سراعاً . وقـد قرأت مرة عبارة غريبة كتبها كاتب قديم : « لو وجد مائة من المسيحيين الحقيقيين للبدء بهم في هذا العام ، وجاء كل منهم بصديق واحد الى معرفة المسيح في كل سنة ، لأضحى العالم كله خاضعاً عند قدميه في مدة خمسة وعشرين عاماً ! ». ولم أصدق هذا التقدير لأول وهلة، فعكفت الى الأرقام أستشيرها وألفيت ان في العام التالي يتضاعف العدد الى ٢٠٠ ثم الى ٤٠٠ والى ٨٠٠ والى ١٦٠٠ وهكذا يتضاعف في كل سنة . وما أن تجيء السنة الخامسة والعشرون حتى يكون الرقم ١٦٠٠ مليون — وهو عدد سكان الـكرة الارضية . فما أعظم ما يقوله الصديق الى صديقه ، والزميل الى زميله ، والام الى ولدها ! أما الامهات – عليهن بركات الله – فهن الفريدات في هذا ، لان كل أم تقريباً ترغب في أن يعرف ولدها المسيح . وعن طريق الامهات الفاضلات بلغ ملكوت المسيح الحدّ الذي وصل اليه الآن .

الفصل الرابع

في قانا الجليل

« وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل وكانت ام يسوع هناك . ودعي أيضاً يسوع وتلاميذه الى العرس » .

والظاهر من اهتمام ام يسوع بهذا العرس وأوامرها للخدام، انه عرس في الاسرة ، وان العريس او العروس يمت بصلة القرابة الى يسوع . واني اتصور تلك العروس العذراء القروية ، وقد ارتدت نقاباً ناصع البياض وا كليلاً من الآس فوق شعرها ، فخورة لان يسوع شرّف عرسها. وأغلب الظن انها عرفته منذ الطفولة ، لان موطنها كان قريباً على مسيرة اربعة أميال من الناصرة . وربما كانت احدى الفتيات اللواتي سمعن قصصه وامثاله في حانوت النجار. والآن قد أرادت ان يشرّف ابن خؤولتها عرسها ويشاطرها افراحها ، وقد أعجبت به وأحبته كأخ اكبر ، وذاع صيته كمعلم مرسل من الله . لذلك دعي يسوع الى العرس .

جاء مثقلاً بالآراء والتدابير الجسام والتبعات الخطيرة . جاء حاملاً فوق منكبيه مصير البشرية . لبى الدعوة وجاء الى العرس راغباً في ذلك .

وقد يصوّر البعض يسوعَ، انساناً يذهب الى العرس من قبيل المجاملة او اداء الواجب، اشبه بشخص حامل لباس الكهنوت الرسمي يلقي كلمة على الضيوف المدعوين . فاياك ان تصدق ذلك !

كان موقف يسوع في هذه الحالة طبيعياً منطوياً على العطف والحب والمشاركة . جاء لانه أحب ان يجيء ورغب في ذلك . وليس في العالم من استمتع بالحياة كما فعل هو . قد أحب الحياة بكل مافيها. استمتع بالطبيعة ومناظرها الجميلة الخلابة . أحب الاطفال الصغار. أحب الاصدقاء ولم يكن في غنى عنهم . أحب حفلات الانس وأويقات السلوى مع الغير خصوصاً الفقراء ، حتى حسبه الفريسيون أكولاً وشرّيب خمر وصديقاً للعشارين جباة

الاموال والخطاة . كان هذا من قبيل القدح والنميمة ، ولكن لم يكن في وسعهم أن يتجنّوا عليه كل هذا التجني، لو لم يكونوا قد رأوه فرحاً طروباً في عشرته وائتلافه بالناس ومواساتهم كلهم.

نثر يسوع ازاهير السعادة والغبطة أنّى ذهب ، لانه كان هو نفسه سعيداً مغتبطاً. ضحك بملء قلبه في الافراح. أحب اللقاء بالناس . وكان من عادته دائماً ادخال المسرة الى قلوب المبتئسين لانه كان مسروراً. وأسعد الناس في هذا العصر هم الذين يخدمون غيرهم و يعتنقون الآراء المبهجة عن الله وتنطوي جوانحهم على ثقة كاملة به . هم الذين يذهبون في التفاؤل الى أبعد مدى و يثقون بالنصر في الختام . هم الذين يوقنون ان الموت ماهو الا ميلاد لحياة أكمل وأرقى ، وان الشرّ لابد يولي الادبار يوماً ما . وان كنا على شاكلة يسوع ، فلا مناص من ان نكون سعداء !

أضف الى هذا كله غبطته في عمله وهو يرفع الساقطين الى حياة القداسة والبر . و يبدّل شقاء النفوس فرحاً و بهجة. و يشعر ان العالم اللانهائي الفرح المقدس يرقبه بنظرات العطف والاشفاق، وهو يتسمع تهاليل ملائكة الله تشاطره الفرح عند رؤيته خاطئاً ينيب الى برّ الحياة .

ولست ادرى من اين جاءتنا الفكرة الشائعة عن محيا يسوع العبوس الكئيب ! لاشك في ان رواية الانجيل خلو من هذا الوصف. واظنها جاءت عن نبوة اشعياء القائلة : « رجل اوجاع ومختبر الحزن ». ولطالما أظهر الرسامون والفنانون هذه الفكرة في صورهم حتى خيل الينا انها من خواص سيرة حياته، وهي مفسدة لهذه السيرة التي تخللها البشر والسرور . أجل لقد احتمل احزاننا وحمل اوجاعنا ، وهذا ما نعترف به شاكرين . انما الشعور مع الآخرين والموت لاجلهم، لا يخفي معالم الفرح في النفس الكبيرة . بل ان الحمية للتضحية وانكار الذات هي فرح في حد ذاتها لمن كان مثله . وفي اعتقادي ان الاستعداد للموت لاجل الآخرين، قد اضاف عنصراً آخر الى فرح يسوع الداخلي

ونستطيع القول من الوجهة البشرية ان انشراح الصدر والفرح الداخلي وخفة الروح هي التي هوّنت عليه مهمة الحياة . ولم يفقد هذه الروح قط حتى في أحلك ايام حياته . فقبل نزاع جثسياني بثلاث ساعات فقط ، نراه يذكّر تلاميذه بالسعادة التي تذوقوها . وكانت أمنيته الاخيرة ان يلبث معهم هذا الفرح بعد مفارقته اياهم، وان يكون كاملاً فيهم.

وقد كان يسوع وتلاميذه — في الايام الأولى على الاقل — نخبة من الزملاء الذين لم يشهد العالم اشد منهم فرحاً واكثر غبطة. وقال يوماً، واظنه قالها بروح الفكاهة والطرب: «نحن أشبه بجماعة في حفلة عرس يقضون شهر العسل في بسطة وانشراح لان العريس معهم». وسأله مرة الفريسيون ذوو الوجوه العابسة قائلين: «لماذا لا يصوم تلاميذك»، فأجابهم يسوع: «لا حاجة بهم للصوم والنواح، فاننا سعداء فرحون، وابناء العرس لا يصومون مادام العريس معهم، ولكن تأتي ايام فيها يؤخذ العريس منهم، عندئذ يحل وقت الحزن. فلننتظر حتى تحين اوقات الشدائد والمحن». كلاّ! لم يكن المسيح عابس الوجه ونحن نعلم ان شخصيته كانت جذابة، والوجوه العابسة المكتئبة لا تجذب اليها احداً لاننا لا نميل اليها. وهو القائل لتلاميذه: «متى صمتم فلا تكونوا عابسين».

* * *

وكان الله معلناً ذاته وصفاته في يسوع. فاذا ما رأيناه مغتبطاً في حفلة الأنس هذه، لنذكر عندئذ المسيح ذا الطبيعة الالهية الرحيمة المشفقة، ولنذكر ان الله يحب الانشراح وسعادة الحياة. وهنا في قانا الجليل نرى يسوع الازلي الابدي في شكل بشري طبيعي يفرح مع جماعة من القرويين ويشارك الزوجين في افراحهما. وهنا نرى الله يشعر مع البشر. ولاشك ان الله يُعنى قبل كل شيء بقداسة الحياة ونبلها، ولكن الله ليس اشبه بكاهن مترفع، يهتم فقط بالكنائس والوعظ وخدمة الاسرار المقدسة، ويعتكف عنا في اوقات الطرب واللهو — كلا! ان الأب السماوي يُعنى بكل ابنائه، فهو يشاركنا في كافة الاحاسيس البشرية والمتع في الحياة، وهو يقدس ويبارك كل الصلات التي تربط الانسان باخيه الانسان — هو يُعنى باطيار السماء السابحة في الفضاء، وبزنابق الحقل البرية، وبالحملان الوديعة تمرح وتلعب في المراعي والمروج، وبالاطفال الصغار يلعبون في الاسواق والخلاء. يرغب الله ان نستمتع بالحياة، فهو الذي خلق الموسيقى والفن، وهو الذي وهبنا روح النكتة والضحك، والذي يشرح الصدور لنتمكن من التغلب على وعورة مسالك الحياة. وانت اذا ادخلت المسرة البريئة الى قلوب جماعة من الناس فكأنك تفعل ارادة الأب الذي في السماء. ألا يكون الدين بهجاً وسهلاً في حالة كهذه. أليس جذاباً لاطفالنا أن نأخذهم بوجهة نظر المسيح هذه؟

والآن قد حدث بالعرس في قانا الجليـــل حادث شاذ . ولنذكر انه عرس قروى ، وان القوم فقراء تؤثر النفقات في مواردهم المالية . وفي وسط الفرح والمرح يكشف بعضهم ان الخمر قد نفدت . وربما يظن البعض ان هذا حادث زهيد ، ولـكن لنتصور حالة تلك الفتاة القروية وهي تحمل في المستقبل ذكرى ليلة زفافها وقد نفد الخمر ووقفت واهلوها موقف الخجل والخزى امام المدعوين . عرف يسوع شدة تأثر تلك الاسرة القروية . والقرويون بطبيعتهم يغالبهم شعور الخجل والعار عند تقصيرهم في واجبات الضيافة في موقف كهذا .

أسرعت اليه امه وهمست في اذنه قائلة — وربما لم يسمعها سوى يوحنا ـ « ليس لهم خمر » .

هل انتظرت منه ان يصنع معجزة ؟ لسنا ندري . ولم يكن المسيح قد أجرى بعد اي عمل معجزي . والمظنون ان تجرى المعجزات في موقف ارفع مقاماً وأكثر لياقة من حفلات العشاء. وربما لجأت اليه امه لانه كان من عادتها ان ترجع اليه كلما اشتد بها خطب ، لان يوسف كان قد مات ، وكانت قد أيقنت إنه لا يحجم عن المعونة اذا استطاع الى ذلك سبيلاً . وعلى أية حال فانه ايمـان لا بأس به ان تلجأ الى المسيح في اوقات الاضطراب، حتى ان كنت لا ترى عندئذ منفذاً للمعونة .

وجواب المسيح يدل على انهـا ألحت عليه ليفعل شيئاً ما . فأجابها بعبارة تبدو في ظاهرها ثقيلة على السمع « مالى ولك يا امرأة » . ولـكن رواية الانجيل لم تذكر الا الالفاظ العـارية دون الاشارة الى نبرات الصوت او نظرات العين المليئة بالمعنى العميق . وكلمة « امرأة » التي تبدو ثقيلة على السمع، كانت اصطلاحاً في اللغة المألوفة يومئذ يُستعمل للدلالة على الاحترام والعطف، وهي الـكلمة التي استعملها اوغسطس قيصر مخاطباً الملـكة كليوباترا . ويؤخذ من آداب اللغة اليونانية القديمة ان السيدات ذوات المجد الرفيع كنّ يُخاطبن بهذا اللفظ. وهذه هي الـكلمة التي خاطب بها يسوع مريم المجدلية عند القبر، وهي الـكلمة التي تفوهت بها شفتاه المائتتان على الصليب عند قوله : « يا امرأة هوذا ابنك » . ونلحظ ايضاً ان الام لم تُظهر اي امتعاض لانها رأت ما في بريق عينيه من العطف . وان لم تستطع ان تفهم فقد استطاعت ان تثق ، ولذا نراها تأمر الخدم قائلة : « مهما قال لـكم فافعلوه » .

كلاّ ! لم يكن يسوع ضجوراً من امه . الاّ ان جوابه كان بمثابة مذكّر لهـا بان تغييراً ما قد طرأ على ما بينه و بينها من صلة ، وعليها ألاّ تنظر اليه الآن كما نظرت اليه من قبل، عند ما كان في الناصرة «خاضعاً لها»، لان عليه الآن مهمة خطيرة، وله افـكار لا تستطيع ان تشاطره اياها، ولا يجب ان تتدخل فيها الصلات الشخصية . وقد كان هذا درساً قاسياً طالما أُلقى على مريم مراراً وهي لم تنس بعد جوابه الجريء الذي قال لها وهو صبي يافع : « ألم تعلما انه ينبغي ان اكون في ما لابي » .

والظاهر ان يسوع توقف هنيهة عن عمـل المعجزة . لانه لم يكن قد شرع بعد في حياته العامة بل كان واقفاً على عتبتها فالبدء بالمعجزات كان له بمثابة اتخاذ خطوة فاصلة وتعدّ لحدود حياته الخاصة، للبدء في معركة الحياة العامة التي انتهت عند الجلجثة . فهل كان ارشاد الاب ان يبدأ الآن ، وان يبدأ بدافع شعور الحب ليستر خجل اصدقائه ؟ ونحن نجد عادة في مثل هذه الحوافز العاطفية ارادة الله معلنة لنا .

وفي لحظة استقر على رأي . منذ اسبوع كان قد أبى ان يحوّل الحجارة خبزاً لاشباع جوعه . أما الآن فقد ارتضى ان يحول الماء خمراً ليصون مشاعر اصدقائه من الخجل .

« املأوا الاجران ماء » فملأوها الى حافتها ثم قال : خذوا وقدموا الآن لرئيس الحفلة ففعلوا . ولما ذاق رئيس الحفلة طعم المـاء الذي صار خمراً، ولم يكن قد عرف من اين جاء ، التفت الى العريس — بدون ان يكلف نفسه ان يسأل من اين جاءت الخمر شأن كثيرين منا، ممن يتناولون هبات الله بدون ان يعرفوا مصدرها — وقال « قد ابقيت الخمر الجيدة الى الآن ! »

وهـل تظن ان العريس والعروس الشابين قد نسيا ما صنع بهما ابن خالتهما يوم زفافهما؟ وربما ألمح بعضهم يومئذ الى تلك الفتاة العروس؛ على ان حفلة زفافها كانت اشهر حفلة في التاريخ البشرى . ذلك لاننا نقرأها بعد مرور ألفي سنة كالقصة الاولى ، التي هي بداية اعلان الله للانسان .

وقد كان هذا العرس بحق فاصلاً في تاريخ يسوع . فلم يكن فقط بداية حياته العملية العامة ، بل كان ايضاً بداية اعلان ذاته للناس. وهذا هو شعور الرسول يوحنا حين قال « هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل واظهر مجده فآمن به تلاميذه » .

ويليق بنا ونحن في صدد « بداية الآيات » ان نقول كلمة عن معجزات المسيح . ويزعم البعض ان المعجزات حجر عثرة في الانجيل، وانه يسهل عليهم تصديق القصة لو خلت من عناصرها المعجزية . وربما كان الامر كذلك . ولكن البشيرين لم يكتبوا ما يناسب عقائد البشر وآراءهم ، انما سجلوا القصة كما عرفوها ولم تكن المعجزات حجر عثرة لهم .

ولقد أصرَّ انصار العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر قائلين : « ان الطبيعة تعمل وفق نواميس ثابتة مقررة ولا نرى فيها احداثاً خارقة لهذه النواميس ، لذلك يجب ان ننظر على الاقل بعين الشك الى أية قصة معجزية » . اما انصار القرن العشرين فقد اظهروا شيئاً من التواضع في هذه المزاعم ، وهم يصرحون بأنهم انما يعرفون تتابع الاحداث والمظاهر الطبيعية، ولا يعرفون شيئاً عن علل هذه المعلولات او الارادة التي تسيرها ، لان وراء العلة ارادة ما. فان سلّم العلم بامكانية حادث منقطع النظير كالتجسد مثلاً ، فهو يسلم ايضاً بان تلحق به احداث اخرى منقطعة النظير وهي التي نسميها المعجزات . والكون امام العقل المفكر بوقار ، والشاعر بالدهشة ، مملوء بالاسرار والغوامض . وفي هذا يقول الاستاذ العالم ويتمان: «اما انا فلا ارى امامي الاّ المعجزات ، وكل ساعة من ساعات النور او الظلمة معجزة قائمة امامي » .

وكيف أظهرت هذه المعجزة مجده ؟ أظهرت من هو . اظهرت رب الطبيعة . ولست اظن ان التلاميذ قد فهموا كل ذلك عندئذ، لانهم كانوا قد عرفوه منذ أيام قلائل . اما الرسول يوحنا ، فعند التنويه الى هذه القصة يلقي اليها نظرة بعد الصلب والقيامة وبعد خمسين سنة قضاها متأملاً في ربه وسيده وهو الآن قد عرف من هو . وقد كتب في مستهل بشارته « في البدء . . . كان عند الله . كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان » - هو خلق العالم وهو يعطي الحصاد ، ويحوّل المياه خمراً في الكروم مدى الاجيال. واذكر اني كنت يوماً مسافراً في وادي نهر الرون بسويسرا واستعدت في مخيلتي معجزة قانا الجليل، وكان المطر يهطل في ذاك الوقت، وقد اكتست منحدرات الوادي بالكروم واخذ الماء يتساقط منهمراً . وبعد شهر يجيء الكرامون ليجدوا هذا الماء وقد تحول خمراً . ثم يؤخذ الخمر الى حفلات ومآدب العالم، ويتذوق رئيس المأدبة طعم الماء وقد تحول خمراً

وهو لايدري من اين هي . ويقول في نفسه : « هذا الطعم اللذيذ ، هذه النكهة الفكهة ، انما تتولد عن حرارة الشمس وطبيعة العنب وتفاعل عناصر الارض الكيمائية فيمنحدرات هذا الوادى » . هذا كل ما يقوله ولا ينظر الى ابعد من ذلك . ولا يدرك قط المجد العظيم الذى يكتنف الحياة العادية،حيث يجري الله عجائبه ومعجزاته في حقول الحنطة وفيالكروم حيث يتحول الماء خمراً .

انالمعجزات تمدّنا بالعون حين تعلّمنا ان مجد الله العظيم يحيط بنا دائماً ، والصانع العظيم يظهر لنا نفسه في المعجزة لأجل قصير حتى نذكر انه يصنع ويعمل بعد ما تختفي المعجزات عن انظارنا . وشأن المعجزة ان تجعل المجد الخفي منظوراً للاعين . والحادث الخارق للعادة يبين لنا ان الاشياء العادية هي من الله ايضاً — اشبه بوميض البرق الذي يظهر لنا في لحظة وجود القوة الكبرى بائية الهائلة العاملة في الكون .

قد بدا للتلاميذ فيما بعد ان المسيح اظهر مجده في هذه الحادثة . ومع ان المعجزة قد أظهرتمجده، الا ان هذا لم يكن السبب الاول والاهم الذي حمله على صنع المعجزات . ولم يكن المسيح متعجلا لاظهار ألوهيته بالمعجزات ، بل بالاحرى كان حريصاً مقتصداً في فعلها . ولم يكن قصده فيصنع المعجزات اكراه القوم على الايمان به . ولكن لانه إلهي قد استخدم القوة الالهية كلما رأى مناسبة لتدريب تلاميذه ، وبالاكثر للترويح عن البشر واسعادهم. فاذا اهتاج جمع صاخب وطلب معجزة كآية، فانه يقرعهم بعنيف القول: « جيل شرير وفاسق يطلب آية » . واذا طُلب اليه ان يصنع من الحجارة خبزاً لاشباع نفسه يأبى ذلك بشمم واباء . اما اذا تعرضت فتاة عروس للخزي والخجل امام صاحباتها . اما اذا ثكلت ارملة نايين بفقد ولدها الوحيد . اما اذا أُصيبت امرأة كفر ناحوم بالحمى واشرفت على الموت. اما اذا اعترضه شحاذ اعمى على قارعة الطريق وصرخ اليه ان ينقذه من شقوته . . . . . عندئذ يصنع المسيح المعجزات بدون ابطاء ولا توقف .

وهذه المعجزات قد اظهرت مجده ولئن كان ذلك غير المقصود منها. فالشاعر لايقرض الشعر ليظهر للملأ انه شاعر . والمحسن الكريم لا ينفح الهبات والعطايا ليعلن بانه كريم جواد . ولكن العمل نفسه يظهر ذلك من تلقاء ذاته . فيسوع قد يصنع المعجزات ليثبت انه إلهي ، ولكنها قد اثبتت ذلك للقلوب الصادقة التي استطاعت ان تعرفه .

ثم ان المعجزات في حد ذاتها ليست من الاساليب المستحبة لاعلان الله . والفكر الذي ينظر الى قوة الله كأسمى درة في تاج المجد الالهي، انما هو فكر سطحي عقيم يحتاج الى كثير من التهذيب والتشذيب . وما القوة الا اقل مظاهر العظمة الالهية شأناً . ولما صرخ موسى لله قائلا : « ارني مجدك » قيل له : « أُجيز كل جودتي قدامك »، فكأن اعظم مظاهر مجد الله ليست قوته بل جوده وصلاحه وعطفه ومنّه وكرمه ومحبته . فالرغبة في انقاذ اسرة من مأزق الخجل والخزي في حفلة عرس، لهي اعلان لمظهر الله انبل واعظم من القوة التي بدت في تحويل الماء خمراً .

وعند ما نقرأ ان المسيح دعي وتلاميذه الى هذا العرس، ألسنا نود لو يدعى المسيح الى افراحنا ، و يستعد الشبان والفتيات لهذه الخدمة الخاشعة كما يستعدون لخدمة الشركة المقدسة مثلاً ؟ ولست ادري كيف استعد الزوجان لعرس قانا الجليل . ولكنني اعلم ان الزواج عند اليهود في عصر المسيح كان امراً خطيراً ولم يكن مجرد طرب ولهو ، فكان مفروضاً على الشاب والفتاة ان يستعدا بالصوم والصلاة والاعتراف بالخطايا . وان تشغل افكارهما بالله طيلة الوقت . ومن الاقوال المأثورة عن احبار اليهود قديماً ان الله نفسه بارك الكأس عند زواج ابوينا الاولين ، وكان الملائكة جبرائيل وميخائيل (العرّابين) الاشابين لهما ، وانشدت جوقة الملائكة انشودة الزواج !

وخدمة الزواج في الكنيسة المسيحية تسمو الى أرقى من ذلك . فهي تشير الى ان المسيح كرّم الزواج وجمّله بحضوره واجرائه المعجزة الاولى في قانا الجليل . وتعتقد ان الزواج رابطة مقدسة تمثل الاتحاد السري بين المسيح وكنيسته . ولذا يجب الاّ يؤخذ اعتباطاً عن غير وعي او تفكير، بل بروح الوقار والخشوع والفطنة ومخافة الله . فحين يهب الله قلب الشريك الى شريكه . وحين يتسلم الرجل حياة المرأة وديعة بين يديه . وحين تتسلم المرأة حياة الرجل وديعة بين يديها، ليعيشا معاً في حالتي السراء والضراء واليسر والعسر الى ان يفرّق بينهما الاجل . حين يحدث كل ذلك نشعر انها ساعة خطيرة في الحياة . نشعر بانه يجب ان تترفع عن الثرثرة وخفة الروح، وتقترن بالجد والرزانة والخطورة، ذاكرين ان الله الآب يهتم بسعادة ابنائه وفرحهم ، ويغدق عليهم من نعمائه طول حياتهم .

وشتان بين زواج وزواج :

بين زواج يمسي بعد سنوات قلائل عقيماً خاوياً . و بين زواج يبقى فيه المحبان في حب وثيق مدى الحياة . والفارق بين الاثنين ليس وجود الحب وحسب ، انما الفارق هو وجود الله . ولذا ننصح الى الشباب ان يقضوا الايام قبيل الزواج في صلوات وتفكير وعزم. فان هذا يجعل الحياة الزوجية اكثر سعادة. ومتى حلّ يوم العرس ودعي اليه يسوع، كما دعي في قانا الجليل ، ازداد بهاءً ورواءً .

الفصل الخامس

المسيح الغاضب !

بعد عرس قانا الجليل ، صعد يسوع الى اورشليم لحضور عيد الفصح . والطريق اليها محاذية لبحيرة الجليل الزرقاء ، والمراعي الخضراء ، والكروم الناضرة التي كانت تعرف يومئذ — بكروم الامراء . وقد ذهب المسيح أولاً الى كفر ناحوم شمالاً حيث كان يقطن نفر من تلاميذه على ضفاف البحيرة ، وحيث كان يسهل عليه الانضمام الى احدى قوافل الحجاج الصاعدة الى أورشليم للعيد . وجاء في الأنجيل ان أمه واخوته كانوا معه حتى كفر ناحوم . وهناك بقي أياماً لم يحدث فيها شيء ذو بال . وكان في وسعنا ان نغفل ذكر هذه الزيارة ، لولا ان ذكرها يوجه انظارنا الى بلدة كفر ناحوم بالذات ، تلك البلدة الجميلة الجاثمة على ضفاف البحيرة ، والتي صارت فيما بعد موطن يسوع « ومدينته » ومركز خدمته في الجليل ، ومسرحاً تمثلت فيه اشهر قصص الأنجيل .

ومن هناك صعد الى أورشليم للعيد حسب عادته كل سنة منذ المرة الاولى التي ذهب فيها في عهد صبوته . مع هذا الفارق : فهو الآن ليس الساجد العابد الفردي ، ولكنه المصلح القومي يذهب الى بيت أبيه ليبدأ خدمته العامة في العاصمة أورشليم ، ولو انه لم يكن قد أعلن عن نفسه بعد انه المسيا المنتظر. والعاصمة في كل أمة هي المركز الذي يتكون فيها الرأى العام . ولعلّ هذا هو السبب الذي حدا به الى الظهور بمظهره العام لأول مرة أمام رؤساء شعبه والجماهير الحاشدة القادمة من كل انحاء المعمور .

ولو كانوا قد عرفوه في أورشليم ، لكان اتجه تاريخ الشعب الى ناحية أخرى كما قال النبي ملاخي : «ويأتي بغتة الى هيكله السيد الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تُسرون به ».

ولكن أسفاً ! لم يُسروا به هذه المرة. ولم ندر شيئاً عن زيارته للمرة الثانية . وفي المرة الثالثة صلبوه ! !

ولم تكن أشعة الديمقراطية قد بزغت بعد . ولم يكن للشعب أية قوة أو نفوذ . انما كانت كل القوة والامتيازات في ايدي طبقة الكهنوت الارستقراطية ، وهم الكتبة والفريسيون، وكانوا قوماً قد أعمى التحزب والتعصب بصائرهم وارتضوا الدين الذي درجوا عليه ــ وفي أيدي طبقة من الارستقراطية السياسية هم جماعة الهيرودسيين الذين اقترنت مصالحهم الشخصية بمصالح هيرودس ، وكان من واجبات هذا الاخير وهو ممثل انبراطور رومية ان يبقى الشعب في خضوع تام .

وقد اعتزمت هاتان الطبقتان على ان يبقى القديم على حاله، شأن كل الطبقات الممتازة في عصور التاريخ . والآن يظهر في الميدان مصلح غيور وثائر ديني يأبى ان تبقى الاشياء على حالها و يميل بعطفه نحو الشعب . فهو لا يحب هذه الطبقات الممتازة لما جُبلت عليه من الظلم ودعوى التبرير الذاتي واحتقار الفقراء والمنبوذين ، و يبغض ظواهرهم الدينية الجوفاء وافكارهم الضيقة عن الله . ولذا لم يخشَ شيئاً في اعلان طوية نفسه ضدهم بكل صراحة و بسالة ، فلم يكن مفرٌ من قيام نزاع بينهم و بينه .

وفي هذه الزيارة لهيكل أورشليم يذكر الانجيل حادثتين فقط : هما تطهير الهيكل ، ومجيء نيقوديموس الحبر اليهودي اليه تحت جنح الظلام .

وكان الهيكل شعاراً مقدساً في نظر كل يهودي . والى المدينة المقدسة وهيكل الرب اتجهت انظار كل اشتات اسرائيل المبعثرين في انحاء الأرض . ذلك لانه كان مركز عبادتهم القومية . أما بالنسبة ليسوع فكان الهيكل هو الشعار المنظور لحضور الآب . وقد سبق ان قال وهو صبي في الثانية عشرة من عمره « ألا تعلمان انه ينبغي ان اكون في ما لأبي». وقد أحب بيت الله وغار على كرامته . وسنة بعد اخرى وقع نظره على ما يُقترف فيه من سيئات تدنس كرامته، فاهتاجت احاسيس نفسه وسط انات العابدين الاتقياء . وربما كانت هذه الفكرة مالئة قلبه وهو مقبل الآن الى أورشليم .

وكانت مطامع رجال الكهنوت قد حولت الهيكل ادارة لتبادل النقود . وكان الفناء الخارجي الجميل سوقاً للماشية لأبناء حنان رئيس الكهنة . فضوضاء السوق ، ورنين نقود الصيارفة، وثغاء الاغنام، وخوار الثيران ــ هذه كلها ازعجت نفوس العابدين

في الهيكل . وكان كل شيء مغرياً للكسب والربح، ونال الهيكل نصيباً كبيراً من هذه الارباح المادية الغادرة فزادت بذلك ايراداته . .

ونحن نعلم كيف تُغفل السوءآت ويُتغاضى عنها، حين تصادف هوى في النفوس ويداخلها عنصر الكسب المادي . وكان ضرورياً بالطبع ان توجد اسواق للماشية وصيارفة لاستبدال النقود . انما الفاضح المخزي ان تخدع الجماهير الساذجة تحت سقف بيت الرب . وان تُقلق خواطر العابدين بالجلبة والضوضاء . وان تجني الهيئات المسئولة في الهيكل الارباح الطائلة من وراء هذه المعاملات المادية في البيع والشراء واستبدال النقود . ولا شك في ان الشعب نفسه خجل من هذه المخازي . والذي نعلمه ان سوق الهيكل لم تكن مقبولة في نظر العامة . ولكن تعوّد القوم عليها ، وسكوتهم سنوات طويلة على هذه الحالة المخجلة يدلان على فقدان روح الوقار والخشوع الحقيقي في العبادة .

* * *

والبشير يوحنا يحمل في مخيلته ذكرى احد الايام في اسبوع الفصح . فالمدينة غاصة بجموع الوافدين اليها، وطرقاتها تتلمع بالألوان الزاهية . وحول الهيكل جماهير غفيرة من الرواد في ازيائهم القومية الجذابة . ولم يفدوا من نواحي فلسطين فقط بل من كل أمة تحت السماء . هناك اجتمع خيرة الأتقياء من جنس اسرائيل ، من كل حدب وصوب في المكان المقدس ليعبدوا الله . انه لمنظر أخاذ يثير قلب المسيح !

ساعة بعد أخرى يمتلىء الهيكل ويفرغ . ويتقدم نحو مدخله افواج العابدين، كل فوج في دوره . وترى العين في فناء الأمم الخارجي الجميل المكشوف تحت القبة الزرقاء بأروقته الفخمة وأعمدته المنحوتة الهائلة ـ فوجاً ينتظر دوره ليدخل للعبادة. ولكن الماشية تدوس أرض هذا الفناء ، والصيارفة والجباة يخشخشون بنقودهم ، والباعة يساومون باصوات منكرة عالية يسمع صداها في قدس الهيكل نفسه.

وهناك ترى قوماً يأخذون هذه المناظر والاصوات عادة ألفوها ، وقوماً يضجون ويئنون لهول ما يرون كما فعلوا منذ سنوات . ويقول الشيوخ الوافدون من بلدان بعيدة : « لم يكن شيء من هذا في يومنا ». ولكن لم تتعدّ الشكوى حدّ التذمر المكبوت والغيظ المكمود خوفاً من الكهنة .

والآن يظهر عند الباب فجأة هرج ومرج . وتتجه الانظار كلها الى النبي الشاب القادم من الجليل، لان الناس كانوا يتحدثون عنه فعلا . والجليليون الذين قدموا معه أذاعوا عنه الشيء الكثير . وراجت اشاعات عن علاقته بالمعمدان الشهير . وأخذ الناس يتحدثون عن المعجزات التي أُجريت في المدينة . واستولى عليهم الذهول وحب الاستطلاع .

هنا يدخل يسوع . ليس يسوع الوضيع الوديع الذي نراه في الصور ، ولا يسوع الصديق الصدوق كما عهدناه في عرس قانا الجليل . انما يدخل يسوع آخر غير هذا — يسوع العابس المكفهر الوجه القوي الشكيمة . يدخل الى الفناء غاضباً محنقاً كأنه ملك قادم ليؤدب عبيداً عصاة آثمين . و يلتفت الى رؤساء الهيكل بغيظ وغضب . وفي صمت رهيب يوجه اليهم عبارات التأنيب اللاذع قائلاً : « ارفعوا هذه من هنا ! لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة! »

ولا عجب ان تفزعهم هذه الجرأة . فينظر اليه القوم في ذهول وهلع . « بيت أبي ! » من هو ذا الذي يستعمل هذه الالفاظ ، الذي يجرؤ على اتخاذ موقف التحدي الشديد حيال قادة الهيكل ؟ وكانت نظراته وهو يطرد الماشية و يقلب موائد الصيارفة ، نظرات شخص سامي المقام رفيع النفس كأحد انبياء القدم . أما السلطات فقد فزعت من هذا التحدي وحلّ عليها سبات فلم تستطع المقاومة . واني اتخيل أحد الكتبة أو الفريسيين يتقدم اليه محتجاً قائلاً : « مكتوب انه هكذا ينبغي ان نعبد الهنا . مكتوب انه ينبغي ان نقدم الذبائح على مذبحه» ، فيجيبه المسيح الحانق بصوت الرعد : « أجل . ولكن بيتي بيت الصلاة يدعى . وأنتم جعلتموه مغارة لصوص ! »

قد أُسيء الى قادة الهيكل اساءة أليمة . وأصاب سلطة الفريسيين تحدّ ظاهر أمام الملأ . و بانت عوارت تجارة الكهنة وجريهم وراء المادة . ونعتقد ان يسوع المسيح قد قضى على نفسه عملياً في أورشليم في ذلك اليوم وعرف هو نفسه ذلك . فانه بعد سنتين في مثل هذا الوقت تآمروا عليه في هذا المكان عينه لقتله . و ترى هل كان يفكر في ذلك عند ما طلبوا اليه آية بقولهم : « أية آية ترينا حتى تفعل هذا ؟ »، فاجابهم يسوع (مشيراً الى هيكل جسده) : « انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أُقيمه » .

والظاهر ان أحداً لم يفهم كلامه في ذلك الوقت . وظل الامر لغزاً لهم . ولكنه بقي في أذهانهم حتى قال عنه اعداؤه عند المحاكمة : «هدد بأن ينقض الهيكل ». وفي الجلجثة

سخروا منهقائلين : «يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام .خلص نفسك » . و بعد قيامته تذكر التلاميذ وفهموا معنى قوله: « في ثلاثة أيام أُقيمه » .

هذه هي الطريقة التي بدأ بها يسوع خطته العامة . لم يبدأها سياسياً حذراً . كلا . فان سياسة الحذر صائبة في محلها، ولـكن توجد ظروف لايصلح فيها الا الغضب المتقد كالنار . وفي غضبه لم يجرؤ أحـد على الوقوف في وجهه . أما الشعب الذاهل فـكان الى جانبه وقد غالبه الفرح اذ رأى شخصاً يفعل ما لم يجرؤ هو على فعله . وكانت الى جانبه ايضاً ضمائر الذين أصابتهم لذعات تأنيبه لانهم عرفوا في دخيلة أنفسهم انهم خاطئون . وكان لهذا التحدي الالهي الخارق أثره في ضمائرهم التي أحست الى حين بوجوب البر في عبادة الله . ولا ننسى فوق كل شيء نظرات عيني المسيح التي أوغلت الى كوامن أفئدتهم، والتأثير الذي أحدثه فيهم « غضب الحمل » .

غضب الحمل !

وليس ثمت غضاضة ان نفكر في هذه الناحية من أخلاق سيدنا . ونحن عهدنا المسيح في الصور التي يرسمها الفنان بريشته شخصاً وديعاً بشوش الوجه .

وان حصر افـكارنا في وداعة المسيح ومحبته فقط قد يصور لنا صورة خاطئة ذات ناحية واحدة لاتروق في نظر ذوي المزاج الحار، الذين يشعرون ان المحبة التي لاتتسع للغضب احياناً شيء بلا طعم تعافه النفس. و يشعرون ان الغضب البريء الذي يخشاه الناس انما هو عنصر من إخلاق الرجل القوي الحازم . وامثال هؤلاء على حق لان يسوع الذي مثّـل كمال الرجولة ثار غضبه بين آونة واخرى .

ونحن نتعلم من يسوع ان الغضب من صفات الله . ولكن يجب ان نتعلم منه كيف يجب ان يكون الغضب في حياة الرجل القوي . لان كثيراً من غضبنا هو الضعف بعينه ، لا القوة — هو حدة الطبع وسوء الخلق وجموح العاطفة التي نعجز عن السيطرة عليها . وكثير من غضبنا مرجعه حب الذات والانانية لان شخصاً ما اساء الينا . وكثير من غضبنا قاس لايلين ولا يرحم ، ومرّ لا أثر فيه للعذوبة ، وحاقد لايغفر ولا ينسى .

ولنقف هنا هنيهة أمام المسيح الغاضب . نراه يغضب لانه يرى الطمع والجشع والمادية تستغل البسطاء . ثم يغضب لان نفراً من متعصبي اليهود ذوي العقول الضيقة يفرضون

قواعد عقيمة لحفظ يوم السبت تحول بينه و بين ابراء شخص مريض متألم — «فنظر حوله اليهم بغضب» (مر ٣ : ٥) — ثم يغضب حين يفكر ان احداً من الناس يعثر الاصاغر « خير له ان يعلق في عنقه حجر رحى و يغرق في لجة البحر » (متى ١٨ : ٦) — ثم يغضب كالنار الملتهبة و يُخرج من فيه لواذع التهكم والتأنيب حيال مظالم ورياء القوم الذين حجبوا الله عن انظار الناس: « ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم مثل القبور المختفية ! ويل لكم لانكم تحملون الناس احمالا وانتم لا تمسون الاحمال باحدى اصابعكم ! ويل لكم لانكم تطوفون البرّ والبحر لتكسبوا دخيلاً واحداً ومتى حصل تصنعونه ابناً لجهنم اكثر منكم مضاعفاً ! ويل لكم ايها القادة العميان ! ايها الحيات اولاد الافاعي كيف تهربون من دينونة جهنم ! » (انظر ص ٢٣ من انجيل متى) .

هذا هو يسوع الوديع الحليم حين يغضب ! واذا اردت ان ترى الغضب الحقيقي في روعته ورهبته ، اذا اردت ان تعرف وجهة نظر الله حيال المظالم والمكر والرياء، فانظر الى المسيح الغاضب !

* * *

ومن أين جاءتنا فكرتنا عن المسيحية الرخوة التي تحسب الغضب خطأ في أية حال؟ ان الغضب من صفات الله . ويليق بنا ان نغضب . وكلما تمكنت فينا صفات النبل والكرامة ، كثرت حالات غضبنا . انما ليكن هذا الغضب على مثال غضب المسيح !

(١) واعلم — ايها القارىء الكريم — ان المسيح لم يغضب قط بسبب اساءة لحقت بشخصه. فكان للناس ان يفعلوا به ما شاءوا — ينبذونه و يحتقرونه ويهزأون به و يبصقون على وجهه و يسمرونه على الصليب . وفي وسط صرخات الاستهزاء وهو معلق فوق منحدرات الجلجثة، يفكر في عواطف الغوغاء المهتاجة الصاخبة فيقول «يا ابتاه اغفر لهم لانهم لا يعلمون ماذا يفعلون الآن » — أما ان يرى الباعة والتجار يدنسون كرامة بيت الله ، أما ان يرى المرائين يثقلون على عامة الشعب احكام الدين ، أما ان يرى الاقوياء يظلمون الضعفاء ، أما ان يرى مخلوقاً يجرّ فتاة الى الفساد والخطية . . . .

عند ذلك ينفجر مرجل غضبه ! —

هذا هو يسوع — ليس في دخيلة نفسه أية كراهة شخصية . فاذا ضربه احد على

خده الايمن يحول الايسر ايضاً. وهو يأمرك ان تفعل ذلك متى كانت الصفعة على خدك أنت. أما ان كانت الصفعة على خدّ شخص ضعيف عاجز — فهذا شيء آخر عنده !

(٢) وأعلم ايضاً أن غضبه انما هو الوجه الآخر لمحبته. فهل يظن أحد ان غضبه لايتفق ولا يتسّق مع محبته ؟ ان محبته هي اساس غضبه. فلأنه أحب المظلومين، كره الظالمين. ولانه احب تلك الفتاة الساقطة، كره الذي أغراها وغرّر بها. ولانه أحب ان يرى الناس فرحين في حضرة الآب، صوّب لواذع التأنيب نحو المرآئين الذين حطوا من شأن الدين.

(٣) واعلم ايضاً — لتعزية نفسك وتشجيعها — ان غضبه يمتزج دائماً بالغفران. فهو يغضب من العصاة والاشرار، من المرآئين والقساة، من المتعنتين والمتمردين. ولكن أية بادرة من بوادر الحزن والندم توقظ كامن عطفه ورقته. فالظالم والمرأني يرعد بأمثال الادانة والتشهير. والتائب المجاهد البائس الذي يبدو منه بادرة الصلاح الاولى يقدم امثالاً اشبه بالخروف الضال والابن الضال !

هذا هو غضب يسوع. فاغضب ما شئت، ان استطعت ان تكون مثله في غضبك !

الفصل السادس

الحبر اليهودي

تصور ما حدث في اورشليم من الهرج والمرج في تلك الليلة التي تحدى فيها المسيح جهرة جهابذة الهيكل وعلماء الشريعة أمام الشعب اليهودي قاطبة. هوذا معلم شاب يقف في وجه ذوي السلطان والمقـام الارفع في الهيكل والامة، و يتهمهم علانية بأنهم لصوص غادرون ! تصور شخصاً يطعن بتهمة شنيعة كهذه في كرامة اكبر هيئة يجلّها مواطنوه! ألا تقوم البلاد وتقعد أمام حادث كهذا ؟

ثق ان الحديث في كل أسرة داخل بيوت اورشليم ، و بين أية جماعة من المارة في الطرقات— دار في تلك الليلة عن جرأة ذلك النبي الشاب وما أثار من الشعور في الهيكل. وليس شك في ان اشياع النظام القائم كانوا معادين منتقدين. ولـكن كثيرين — حتى بين الفريسيين أنفسهم — تأثروا من جراء هذا العمل، وحسبوا صاحبه على أية حال رجلاً قديساً ونصيراً قوياً لا يهاب شيئاً في نصرة الحق. وقد تهامست الألسن وتوسمت فيه شيئاً اكثر من هذا في المستقبل . وكان الجليليون قد حملوا معهم إشاعات كثيرة عنه . وترى هل أذاع يوحنا وزملاؤه ما قاله فيه المعمدان وما تنبأ به عنه . وقد كان لـكلمة المعمدان وزنها وقدرها في ذلك الوقت ؟

ربما فعلوا ذلك. ولو اني ارجح انهم لم يفعلوا . والمحتمل ان يسوع نفسه نهاهم عنه . لأن معجزاته والاقوال الذائعة عنه كانت محرجة له، وقد جذبت حوله طبقات البشر التي لم يردها . لأن شعب اورشليم كشعب الجليل — نظروا الى ملـكوت الله مبدئياً كملك للبر، ولـكنه قبل كل شيء ملك قائم على قوة شعبهم وعظمته ورجوع مجد اسرائيل التالد. يوم يكون الرب نفسه ملـكاً عليهم ، ومسيا قائداً لهم في قوة زمنية ونائباً عن الله القدير .

ومتى كان الجو مكهرباً بأفكار كهذه، فانه لا يصعب ان يلتف حوله جماهير تحرج مركزه وتتحمس لرؤية شخص يرفع كرامة الامة ، ولـكنها تنظر في برود وغير مبالاة الى

القصد الحقيقي الاسمى — الى ترقية النفوس البشرية من الوجهة الروحية . والظاهر انه انفرد عن الناس في اورشليم، وتحاشى اذاعة اسمه قبل الاوان. ومع ذلك لم يكن مناص من ان يفكر فيه الناس من جميع الطبقات. ويروي لنا البشير يوحنا قصة مأثورة من هذا القبيل:

« كان انسان من الفريسيين اسمه نيقوديموس رئيس لليهود». وكان هذا الانسان بين المفكرين في مجريات الاحوال، وأحس بميل نحو ذلك النبي الشاب رغم العداء الذي أبداه له زملاؤه الاحبار والرؤساء. أراد أن يلتقي به ويتحدث اليه . أراد ذلك بجد وغيرة ، ولكنه جبان خائر ، من رجال الدين الرجعيين المحافظين على القديم ، وليس من السهل على رجل من هذا الطراز أن يثير الشبهات حول نفسه، فيتسلل منفرداً في الليل تحت أشعة القمر الفضية في شهر الفصح، وقد خبأ نفسه في عباءته الطويلة وانتحى الجانب الظليل من الطريق لكي لا تبصره العيون ، الى أن يصل أخيراً الى البيت الذي يقيم فيه يسوع ربنا مع تلميذه يوحنا .

وأستطيع أن أرى يوحنا يقود الزائر الكريم الرفيع المقام الى العلية الصغيرة الفقيرة التي يسكنها مع سيده . وأراه يبقى هناك مصغياً ، ذاكراً الاشياء التي سوف يرويها يوماً ما للعالم . والواقع انه لم يدوّن إلا مذكرات مختصرة جداً ، وعلينا أن نقرأ بين ثنايا السطور، ونلخص الحديث المطول على قدر ما نستطيع .

والذي نستنتجه أن نيقوديموس هذا أراد أن يسمع عن ملكوت الله الذي جاء يسوع ليقيمه والذي امتلأت به جعبة أفكاره . وقد ترقب الحبر اليهودي — شأن غيره من بني جنسه — مُلكاً زمنياً يزهو فيه مجد اسرائيل وتعلو كرامة الشعب . ويكون بالطبع كل اسرائيلي المولد فرداً من أفراد هذا الملكوت . وجاشت في نفسه آمال ان سيصير يسوع هذا المسيا المنتظر . ولما كان هو نفسه رجلاً شيخاً وحكيماً وذا مقام عظيم رفيع في العالم الديني ، فربما خامره الظن أن نصائحه ومؤثراته قد تجدي نفعاً للشاب الغيور المتحمس الذي بدأ يلعب دوره هذا الصباح بطيش وتهور . وإن كان في نية يسوع انشاء مُلك كهذا الذي يترقبه الشيخ ، فسوف يكون هو من أحلافه ومناصريه .

وإن كان في نفسه أية فكرة للتعضيد والنصح ، فان رفعة يسوع الرزينة الهادئة قد ردّته الى نفسه لأول وهلة . ونحن نراه يخاطب الشاب القروي بمنتهى الاحترام والتبجيل

قائلا : « يا معلم . نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً . لان ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل ان لم يكن الله معه » .

ولسنا نستطيع الآن الحدس والتخمين حول ما أراده ذلك الحبر ، لان المسيح قاطع كلامه كأنه عرف ما دار بخلده، فاجابهعن أسئلته قبل ان يسألها :« الحق الحق أقول لك ان كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله » .

ونحن نفترض انه شرح معنى قوله هذا باسهاب فقال : — يا معلم اسرائيل — ان فكرتك خاطئة. وقبل أن تتمادى في الحديث دعني أضع الامور في نصابها. فهذا الملكوت الذي تعنيه ليس ملكاً سياسياً عالمياً قوامه القوة الزمنية والمزايا الاخرى. انما هو ملك تلتف تحت لوائه أنفس المؤمنين رجالاً ونساء من ذوي المبادىء السامية المخلصين لله في قرارة قلوبهم . ولذلك تمسُّ الحاجة الى شيء آخر غير المولد والامتيازات اليهودية : ما لم يولد الانسان — يهودياً كان أو أممياً — ولادة جديدة ، ولادة من فوق ، من روح الله ، فلن يُحسب في عداد أنفس المؤمنين .

ولسنا ندري ما الذي يحير العالم اليهودي المفكر في هذا الكلام، فان فكرة الولادة الروحية الثانية لم تكن مستغربة لدى اليهودي . وكان يعتبر الاممي عند اعتناقه اليهودية كأنه ولد ولادة ثانية. وربما كان مبعث الحيرة في نفس ذلك العالم قول المسيح: ان كل انسان — حتى اليهودي — يفتقر الى الولادة الثانية، ولكل اسرائيلي في نظر الحبر نصيب في الحياة الاخرى. أما يسوع فقد عني شيئاً آخر. لذلك يدهش الشيخ و يقول :« لست أفهم . كيف يولد الانسان وهو شيخ ؟ »

وأما يسوع فلم يبين « كيف ». ولكنه يلجأ الى اختبارات العالم نفسه فيقول له : «أنت تعلم الفرق بين الجسدي والروحي، بين الانسان الطبيعي الذي يعيش للعالم والانسان الروحي ذي القلب المتصل بالله، والآن المولود من الجسد جسد هو، وأما المولود من الروح فهو روح . والعقل الروحي ، والشوق للمبادىء العليا في الحياة ، لا يجيئان صدفة أو بحكم النمو الطبيعي ، ولكن روح الله هو الذي يفعل ذلك ، وأما « كيف » يتم هذا فليس في وسعك ادراكه ، لان مؤثرات روح الله حرة طليقة وغامضة كالريح . أتسمع هذه الريح التي تهبُّ بين الاشجار ؟ أنت لا تعرف من أين تجيء ولا الى أين تذهب ، وهكذا كل

من ولد من الروح ، ومُلـكي هو ملك أناس ولدوا من الروح ، روح الله » .

أما الحبر اليهودي فلا يفهم ويسأل قائلاً : « كيف يمكن أن يكون هذا ؟ »

فيجيبه السيد : « أنت معلم اسرائيل ولست تعرف هذه الامور ؟ واذا لم تستطع فهم هذه الاوليات التي بموجبها يصير الانسان روحياً بفعل روح الله، فكيف تفهم اذا ذهبت بك الى الاسرار السمائية العميقة ؟ وأنا لا أستطيع إلاّ ان أرويها فقط. فليس أحد صعد الى السماء وأدرك هذه المعرفة سوى ابن الانسان الذي هو في السماء. عليك أن تتعلم أشياء كثيرة مدهشة قبل ان تستطيع ان تفهمني وتفهم مُلـكي ، فلست آتيا كما تظن للتربع فوق عرش ملـكي لاظهار مجد الله ، ولـكني آتٍ لحمل صليب العـار لاظهر محبة الله وتضحيته ، لانه كما رفع موسى الحية في البرية ليخلص اسرائيل ، هكذا ينبغي ان يرفع ابن الانسان » .

والآن تصور حالة ذلك الشيخ العالم اليهودي وهو صاغ الى هذا الكلام، أمام ذلك الشاب القروي المجهول الذي لم يتثقف في المدارس ولا اعترفت به السلطات الدينية، الذي يقف منه الآن ، في هـدوء ورزانة ويقين ، موقف المعلم والرئيس مدعياً انه من السماء وعارف مشورات الله ، وانه نور العالم ومصدر الحياة الابدية . وليس شك في ان شعوراً قد خامره عندئذ بان ذلك الشاب اما أن يكون فريسة الخداع والضلال أوأن به روحاً من الله.

هـذا كل ما ورد في الرواية . ولسنا ندري كيف انتهى الحديث، لان الظاهر أن الـكلمات الختامية في الرواية من تعليقات يوحنا نفسه . ولسنا نعلم كيف تلقى العالم اليهودي هذا الـكلام، هل فهمه أم أُشكل عليه ومضى حزيناً . كنا نود أن نعرف ذلك لانه يبدو لنا شخصية مخلصة في السعي وراء الحق على الرغم من حذره وجبنه . ومهما تـكن النتيجة فانه لم يقطع علاقته بيسوع، ونسمع عنه بعد ذلك مرتين ، وفي كل مرة يُظهر صداقة للمسيح، ويظهر هذا الحذر بعينه في التقرب اليه . نسمع عنه مرة عند ما أراد رؤساء الـكهنة ان يبطشوا بيسوع فدافع عنه نيقوديموس محاذراً وقال : « ألعل ناموسنا يدين انساناً لم يسمع منه أولا » . ونسمع عنه في المرة الثانية عند موت يسوع لمـا أخذ يوسف الرامي الجسد لدفنه « . . . وجاء ايضاً نيقوديموس الذي أتى أولاً الى يسوع ليلاً وهو حامل مزيج مرّ وعود . . . ». جاء في هذه المرة ايضاً متخفياً يحمل هدية الطيب وهي الشيء الاخير الذي يستطيع

فعله، تكريماً لذلك الصديق الشاب الذي أُعجب به، ولو ان الموت قد أثبت له الآن فشل دعوته.



وهكذا يلعب نيقوديموس دوره ويختفي، وانه لجدير بنا ان نقف هنيهة حيال السؤال الذي حير لبّ ذلك العالم الوقور:

ونستطيع القول هنا ان للانسان الطبيعي كفاية وطاقة قد يرقى بهما الى مرتبة الانسان الروحي كما ترقى الدودة وتصبح فراشة. وليست كل دودة تتطور الى فراشة، كذلك لا يتطور كل انسان طبيعي الى انسان روحي، انه يستطيع ذلك ولكنه لا يفعله، ولا بد لبلوغ هذه المرتبة ـ كما يقول يسوع ـ من اتصال شخصي بالله واحياء روح الانسان بنسمات روح الله، وقد يصير الانسان الطبيعي طرازاً حسناً من الانسان الطبيعي كما تصير الدودة نوعاً أرقى من الدود، ولكن أرقى أنواع الدود ليس فراشة لانه قد ضلّ سبيل التطور الحقيقي، وأفضل طراز من الانسان الطبيعي ليس انساناً روحياً لانه في افتقار الى لمسة روح الله المحيية.

ولقد أشار يوحنا المعمدان الى شيء من هذا التعليم فقال: « أنا أستطيع ان أعمدكم، أنا أعمدكم بماء للتوبة، ولكن الآتي بعدي هو الذي يستطيع ان يهبكم الحياة الروحية، هو يعمدكم بالروح القدس ونار ».

وربما يخيل الى بعضنا — كما بدا لنيقوديموس — ان هذا قول شديد الوطأة. ولكن ألا يليق بنا أن نفكر فيه مادام يسوع يصرّ عليه هذا الاصرار؟ يقنع كثيرون منا ان يتطوروا الى طراز أرقى من الدود، وان يرتفعوا الى مرتبة أرقى وافضل من مراتب الانسان الطبيعي وروح الله الطامح ينتظر ويترقب. وكل ما يحيط بنا أشبه بالنسيم الذي نستنشقه. أشبه بالريح الخفيفة التي تهبّ حيث تشاء، لكنك لا تعلم من أين. « لا تعلم » وهنا معقل الرجاء. فلا يجب ان نقصر نسمة الله الحرة الطليقة على القديسين الاتقياء دون سواهم، فاذا بلغك نبأ جندي جافي الطباع ترعرع في بيت تسوده الشرور والآثام، تلقن ان يحلف ولا يصلي، ولكنه مع ذلك محبوب من معشر زملائه لتضحيته ونكرانه ذاته، ويبذل نفسه أخيراً على مثال المسيح لينقذ غيره، فقل عندئذ ان كل عملٍ صالح كامل يهبط من العلاء، وفكر عندئذ فيما يقوله المسيح عن نسمة الله الخفية: « لست تعلم »!

الفصل السابع

رأس المعمدان تُهدى في طبقٍ !!

لسنا ندري مدى الزمن الذي قضاه يسوع في أورشليم عقب عيد الفصح وتشتت جماهير الرواد كلٌ الى موطنه . ويخيل الينا انه لم يقضِ زمناًطويلاً . لان أورشليم لم تكن مستحبة كثيراً. ومدائن الرئاسات الدينية وأماكن العبادةالرئيسية تكون عادةمشوبة بروح التعصب والاعتداد بالذات وخاضعة لنفوذرجال الدين . والواقع ان أورشليم التفت حوله من جراء المعجزات التي صنعها ، ومع ذلك قيل ان « يسوع لم يأتمنهم لانه عرف جميع الناس » . والذي أفترضه في معنى هذا القول انه فهم انهم سيتبعونه حتى يعرفوا النتيجة ليس الاَّ ، وهم في الواقع لم يريدوا ما أراده هو . ولم تكن طريقه طريقهم وعارضت آراؤه آراءهم . ولما تبينوا حقيقة الموقف رفعوا عليه عقبهم وصلبوه .

ولذا نراه يهرع الى الريف مع تلاميذه . وربما جال معهم مدة ثمانية أشهر من خدمته العامة متنقلاً في هدوء بين الفلاحين والقرويين في اليهودية . وليس لدينا بيان وافٍ عن هذه الفترة، وما صنع فيها من المعجزات، وما تفوَّه به من التعاليم السامية . ولسنا ندري لذلك سبباً. ولكننا قد نعزوه ، على قدر ما تدركه افهامنا البشرية ، الى ان فصل الصيد كان قد انقضى وعاد يوحنا لعمله في الجليل . والذي نفهمه ان السنة الاولى من سني حياته العملية كانت سلاماً وهدوءاً وقد غمض علينا الكثير من حوادثها . وكانت السنة الثانية عاصفة هوجاء. اما السنة الثالثة فكانت محنة واضطراباً وموتاً .

ونعتقد ان هذه السنة الاولى كانت أبهج سني حياته وأسعدها . وقد بدأت صيفاً في الريف وأحب يسوع حياة الريف . وكان هو وزملاؤه الشبان سعداء ، خلت نفوسهم من الهمّ والعناء . ولم تكن لديهم نقود، ولكن كرم القوم وحسن الضيافة والترحاب اغناهم عن النقود . واني اتصور ذلكم النفر القليل يسيرون على أقدامهم في الطرقات الريفية يستمتعون

بمناظر التلال والربى الداكنة وخرير المياه الجارية، يتحدثون الى الصغار الذين كانوا يخرجون من الاكواخ لتحية العابرين والمسافرين وتوديعهم . وربما كان يعترض طريقهم أعمى كفيف أو أبرص بائس في مكان قصيٍّ عند مفترق الطرق فينال البرء من يديه . وربما كانوا يستريحون عند قرية فوق التل حين يدركهم الكلال ، اذ لم يكن داعٍ للعجلة . والأثر الذي كان يتركه المسيح وراءه دائماً هو ان الله صانع هادىء يعمل في كونه متباطئاً في غير عجلة لان الابدية ممتدة عند قدميه . وكان على للمسيح ان يحيا حياته ويصوغ المسيحية في لغة ساذجة مفهومة هي لغة العمل اليومي والراحة من العمل . وكان القرويون الذين سمعوا أخباره من أورشليم يلتفون حوله في المساء فيحدثهم ويروي لهم أمثاله وقصصه اللذيذة رافعاً أفكارهم وقلوبهم الى محبة الله . وربما كانوا يدعونه معهم للعشاء . وفي الكوخ الذي يحل فيه ضيفاً كان ينتفي منه كل تكلف أو صمت بارد محرج. وربما تذكر له ربة الدار ولدها المريض فيذهب اليه ويضع يديه عليه فيبرأ وعندئذ يرتبط به قلب تلك الأم الى الأبد ، وفي ظني ان هذه هي الطريقة التي بدأ بها يسوع المناداة بملكه واذاعة رسالته ، فانه لم يطالب بادىء ذي بدء بالولاء والاخلاص، ولم يبكت على خطية . ولكنه اكتسب ولاءهم بالجاذبية الروحية في حياته . ووَدّ الخطاة في حضرته ان يكونوا على شاكلته .

وبعد زمن تنتهي اليهم الاشاعات بان ضيفهم الكريم قد صلب في المدينة وقام ثانية من الاموات ـ ولو تعرف تلك الام وأولئك القرويون ان ضيفهم هذا كان قد نَزل من السماء على الارض ليمثل الله للبشرية ، أفلا تعمر قلوبهم بعقائد مستحبة عن محبة الله وصداقته للانسان ؟

قرأت مرة في كتاب لتلاميذ المدارس ان للهمجي وللتلميذ وللانسان الفطري الساذج في كل مكان ـ إلهين : أحدهما إله محبوب والآخر إله مهوب ـ فالاول يُعبد اعجاباً به وتكريماً له ، لانه إله صالح ومحبوب وقادر على صنع الافعال الالهية . واما الآخر فيعبد للتحرز والاحتياط منه فقط، لانه عظيم قاهر غير مستقر في أعماله وربما لا يوفي نذوره .

ولست أشك في نوع الفكرة التي استقاها اولئك القرويون والفلاحون عن الله من يسوع ومظهره .

* * *

واذ نقتفي خطواته في قرى الريف خلال ذلك الصيف نجد أنفسنا ـ على غير انتظار ـ وقد اقتربنا من يوحنا المعمدان على مسافة بضعة أميال في البرية . والذي يتخيله الانسان ان مهمة يوحنا المعمدان قد انقضت في اليوم الذي عمّد فيه المسيح ، ونادى بين تلاميذه « بحمل الله الذي يرفع خطية العالم » . وربما كانت هذه فقط مهمة حياته ، وهو الآن ينتظر النداء ليتنحى عن عمله . وهذا النداء هو تهليل الشعب وسير الامة وراء خطوات المسيح .

ولكن هذا النداء لم يُسمع له صوت . وتقضت شهور لم يرَ فيها شيئاً ولم يسمع الا النذر اليسير عن المسيا الذي انتظره كل حياته . لم تظهر علامة يؤخذ منها ان يسوع قد اعلن نفسه، وأجرى المسيا فداء في اسرائيل .

وهكذا نراه ينتظر هذه العلامة ليتنحى عن عمله . وها هي آتية أسرع مما توقع وعلى نمط غير ما توقع . فان هيرودس والفريسيين كانوا يدبرون الامر . وفي اثناء ذلك نراه مستمراً على الدعاية للبر والتوبة ، والمناداة بملكوت السماء، بنغمات أشد وأقوى مما ألفه الناس فيه منذ ذلك اليوم المأثور الذي شهد فيه المسيا على ضفاف الاردن . والارجح انه تحدث عن يسوع اكثر من ذي قبل بعد ان رآه ، حتى قال الناس بعدئذ عند ما ذاع صيت يسوع « يوحنا لم يفعل آية واحدة . ولكن كل ما قاله عن هذا كان حقاً » .

يستمر يوحنا في مهمته مع ظاهرة واحدة تدل على انها تتقارب نحو المنتهى : فان الجموع لم تعد تتبعه، وأخذ نفوذه يضمحل، وهدأت العاصفة التي استقبله بها الناس . و بدأ تلاميذه يشعرون بالغيرة لأجل معلمهم. فمنذ أشهر كان العالم يتبعه وكان أعظم قوة في اسرائيل. ولكنه وقف وهو في أوج مجده وعزه ، وأومأ الى شخص آخر أعظم منه. ومن ذلك اليوم بدأ سقوطه وانحطاطه ، وتلاميذه لم يفهموا مغزى ذلك . وهم يسمعون الآن صيت النبي الجديد المتزايد . وانفضت الجماهير من حولهم فثقلت نفوسهم لانهم أحبوا معلمهم الجريء الصامت الذي أحبه الناس حباً جماً .

وتصل الامور نهايتها ذات يوم في نزاعهم مع يهودي عن التطهير . والمرجح ان ذلك اليهودي كان مع يسوع، وكان يعمل مقارنة تحط من قدر يوحنا المعمدان، فلم يستطع تلاميذه صبراً حيال ذلك وأسرعوا الى معلمهم قائلين . « يا معلم هوذا الذي كان معك في عبر الاردن الذي أنت قد شهدت له ، هو يعمد والجميع يأتون اليه » .

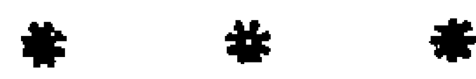
عندئذ فقط عرفوا حقاً عظمة المعلم الذي تبعوه. ولم يكن من قبل أحد أعظم منه في ساعة فشله وانحداره، إذ يجيبهم بقوله: «حسناً. قد انقضى زمني. وعند ما أذهب أنا يحل من هو أبهى مني، الذي كنت أترقبه. أنتم أنفسكم تشهدون لي اني قلت لست أنا المسيح بل اني مرسل أمامه. ما أنا إلا صديق العريس المتواضع يكمل فرحي به. وها أنا أصمت. ولكن في هذا الصمت المحيط بي أتسمع صوت العريس. لذلك أنا أفرح. هو يزيد وأنا أنقص. اذن فرحي هذا قد كمل».

رجل عظيم حقاً هو الذي يملأه شعور كهذا. والآن يتنحى المعمدان عن عمله. وهذه هي الكلمات الاخيرة التي تروى عنه بانه تفوه بها علناً. وما أن ينقضي شهر واحد حتى نراه قعيد زاوية مظلمة في السجن يترقب ساعة الموت.



ونلحظ انه عند هذه النقطة تبدأ البشائر الثلاث قصة حياة المسيح العملية في الجليل. وهي الخدمة الوحيدة التي عُني بها الكتّاب اذ لم يكن لهم شأن مع اليهودية وأورشليم إلاّ حين تتبعوا خطوات سيدهم عند ما صعد ليموت. وكلهم يبدأ روايته عند نقطة واحدة: « ولما سمع يسوع ان يوحنا أُسلم انصرف الى الجليل لانه علم ان الفريسيين سمعوا انه يصيّر ويعمد تلاميذ اكثر من يوحنا». ومعنى هذا انهم كانوا يراقبونه وان القبض عليه سوف يعقب القبض على يوحنا حالاً. وهذا لا يتفق مع التدابير التي وضعها. أجل سوف يقبضون عليه ويقتلونه، ولكنه لم يرد ذلك الآن، لان ساعته لم تأت بعد.

ولذلك ختم خدمته التي مر بها في تلال اليهودية، ومضى الى الجليل مجتازاً السامرة. وهنا نقف هنيهة لنلقي نظرة على خاتمة يوحنا المعمدان.



كانت القلعة السوداء التي زجّ المعمدان في إحدى خباياها أحد حصون فلسطين الجنوبية وكانت قائمة على كومة من الصخور الرمادية اللون، العابسة، المطلة على مياه البحر الميت الراكدة. فهي مكان لائق لان يكسر قلب الانسان الجريء الذي نادى بقولة الحق في وجه الفريسيين والكهنة، وأعطى للزنى اسمه الحقيقي ولو ان الزاني كان ملكا عظيما. وهنا ظل المعمدان طيلة شهور الصيف سجيناً في زاويته المظلمة وهو الذي تعود كل حياته

عيش الخلاء يستنشق نسمات السماء الطاهرة. وفوقه على منحدرات التل قام قصر هيرودس الملك . وعبر مياه البحر السوداء يقع نظره على مشاهد صبوته والبرية التي جاهد فيها بأفكاره مع الله ، ومهد أحلامه عن المسيا وملكوت الله ، ملكوت الله الذي طال أمد انتظاره ، والمسيا والحمامة المقدسة التي لامسته في نهر الاردن ! !

وكان احياناً يأتيه تلاميذه في السجن حاملين اليه أخبار العالم الخارجي. ولم يُعنَ من هذه الاخبار بشيء سوى اخبار سيده وربه. وكان اولئك التلاميذ قد تبعثروا عقب القبض عليه وقد اطاع بعضهم مشورته وتبعوا يسوع الى الجليل . الا انهم كانوا حيارى وقد غالبهم اليأس . لانه لم يحدث شيء ذو بال . فالمسيا لم يُظهر بعد قوته ، ولم يفعل شيئاً لاستعادة مجد اسرائيل الضائع . فكانوا يخبرون يوحنا كيف انه كان يجول بين الناس والجماهير تستمع لاقواله ، ولكنه لم يعبأ كثيراً بالشخصيات التي جذبها اليه حتى نعته الفريسيون : « صديق العشارين والخطاة » .

وكانوا يخبرونه ايضاً عن تعاليمه البسيطة الساذجة والامثال والقصص التي رواها للناس. و يقول احد البشيرين بعد احدى المعجزات التي أجراها المسيح في اقامة ابن ارملة نايين ان تلاميذ يوحنا جاءوا اليه وأخبروه بهذه الامور .

اما السجين الصامت فكان يصغي اليهم مفكراً وهو مطرق الرأس. ولم يفطنوا كثيراً الى الاضطراب الذي كان يخفيه بين جوانحه. و بعد ذلك بقليل يحدث حادث غريب مدهش، رواية كان يصعب تصديقها لو لم تجيء من المصدر الذي رواها .

وهنا ننتقل لحظة الى الجليل حيث ذهب يسوع . فنشهد في الجموع السائرة وراءه شخصين علتهما الخيبة، و بدت عليهما آثار الاعياء من السفر. وعندما يقتربان يلتفت يسوع اليهما، وفي لحظة يفرغان ما في قلبيهما من القلق والاضطراب : «يا معلم . يوحنا المعمدان ارسلنا اليك لنسأل : هل انت هو الآتي أم ننتظر آخر ؟ »

«هل انت هو الآتي ؟ » — تأمل -- أيها القارىء الكريم — في هذه العبارة ! الذي جاء لينادي بالمسيح قد ساوره الشك ! تأمل في أمانة نقل هذه الرواية ببساطة لا يشوبها الاصطناع او تأمل في آلام الشكوك التي طغت على نفس الشخص الذي يبعث بهذين الرسولين! فماذا عسانا أن نقول ؟ هل كان يوحنا ضعيف الايمان ؟ هل اضاع ايمانه ولم يعد بعد

مستحقاً أن يكون المنادي والممهد لطريق المسيح ؟ كلا ! ان من يزعم هذا الزعم لايعرف شيئاً عن نفسية الشك الذي يخالج المرء، أو عذاب النفس العظيمة التي ترتج عقيدتها .

اني أتصور ابن البادية الذي ألف الحرية والخلاء يقتعد تلك الخابية المظلمة العابسة بحرّها الذي يقطع الانفاس . أتصوره رجلاً حساساً رقيق المزاج قد طغت على أعصابه عوامل الوحشة والوحدة والقيود . واعتقد انه يصعب على أعمق العقائد وأثبت الاديان ان تنقذ ايمان الانسان من الشك في زاوية مظلمة كتلك التي اقتعدها المعمدان . وقد جاءت عليه أيام لامعة بهجة ، استطاع ان يسمع فيها صوت العريس ، ولكن حلّت به ايضاً أيام الحيرة والقلق . لان يوحنا كان يترقب حدوث احداث جسام . واراد ان يرى قبل موته تحقيق أحلام حياته . ولكن يسوع يسير ببطء وتؤدة . وفي أعمال الله البطيئة في هذا العصر، كما كانت في ايام يوحنا ، محكّ لايماننا .

وليس كثيراً على النفس العظيمة المستوحشة التي استندت في حياتها الى رؤيا السماء ان يساورها الشك في النهاية حين تواجه الموت !

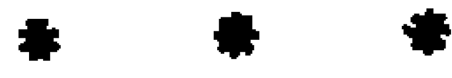
وعلى أية حال فقد أحسن في الالتجاء الى يسوع نفسه . ويسوع الذي خبر التجربة قد فهم سر الامر، وعرف ما تحدثه الخيبة في النفس،فارسل الى عبده الامين البائس رسالة يفهم منها اكتمال النبوات التي عرفها كلاهما : « اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران: العمي يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يطهرون ، والصم يسمعون ، والموتى يقومون، والمساكين يبشرون » .

ونحن لا نعرف شيئاً بعد ذلك . والذي نفترضه ان يوحنا استعاد شجاعته واستّرد آماله. والمرجح انه استحى من شكوكه وأحسّ بانها ستحط من قدره امام ربه . والذي نرجوه ان يكون أحدهم قد أبلغه قبل موته ما قاله عنه المسيح عقب ذهاب الرسولين : «لم يقم بين المولودين من النساء اعظم من يوحنا المعمدان » .

تأمل في هذا القول الذي وصف به السيد عبده البائس في نفس الوقت الذي أحسّ فيه ذلك العبد بالخجل والخزي . واهمس به لنفسك في قلبك، لعلّه يقول كلمة طيبة كهذه عنك ، حين تكون انت خجولا من نفسك .

لاتخشَ المجيء الى يسوع البتة في شكوكك الأمينة وحيرتك . لان الشك خطيئة

فقط متى اكتفيت به ووقفت عنده . فانك اذا لم تقدر ان تؤمن لايسعك الا ان تشك . ولكن حذار ان تبقى عند هذا الحد وتكتفي بذلك . بل اذهب الى صديق أمين واكشف له عن حيرتك ، الى راعيك ان كان ممن تثق بهم وتركن اليهم . وخصوصاً الى سيدك وربك . وكن صريحاً وجريئاً معه . وهو يفهمك جيداً . ومتى استطاع الانسان ان يفعل ما فعله المعمدان ، ويذهب الى المسيح بشكوكه فان ايمانه لا يشوبه الخطأ كثيراً .



والآن يستطيع المعمدان برجاء مجدد ان ينشد نشيد النصر ، ولو كان الموت منه قاب قوسين أو أدنى . وكان عليه ان يجتاز بعض الاختبارات الغريبة قبل ان يدركه الموت ، اذ يباغته يوماً الملك هيرودس بزيارته في السجن . ويوماً آخر يدعوه ليتحدث اليه في قصره . وتتوثق بينهما المعرفة . وهيرودس هذا شخصية غريبة مركبة من مزيج مختلط . فهو دنيء ، وخائن زنيم ، وشهواني قاس . ولكن به شيئاً من الخير والصلاح . فان الله خلق الانسان على صورته . وأشرّ الناس فينا لم يطمس معالم هذه الصورة طمساً كاملاً . وتلك الشعاعة الضئيلة من الصلاح الكامنة في الانسان هي الشيء الوحيد الذي يستطيع به الله ان يُمسك بالانسان صنع يديه .

وفي هيرودس لم يكن الشيء كثير من الصلاح حتى يمكن امساكه منه . لان تاريخ الاسرة التي انبتته شائن ، والوسط الذي عاش فيه شرير . ومع ذلك ربما لم يكن كل شيء شريراً . وان كانت أحاطت به الآن امرأة تعمل على جذب نفسيته الى الحضيض ، فقد كانت في حياته من قبل امرأة أخرى عكس ذلك — ليست أمه . فاننا نقرأ في سفر أعمال الرسل ضمن اسماء رجال الكنيسة . « . . . . . ومناين الذي تربى مع هيرودس » . وهذا يحملني على التفكير في تلك المرأة المتواضعة التي تولت تربية ذينك الولدين ، فاذا باحدهما يصير زانياً ظالماً سفاكاً . ويصير الآخر منادياً بانجيل المسيح ! ومن يدري ربما كان هيرودس مديناً لها بشعاعة الخير الضئيلة الكامنة في نفسه ؟

أحب هيرودس يوحنا واستيقظ ضميره على يديه . فاننا نقرأ أنه سمع كلامه بفرح وفعل اشياء كثيرة بسببه . ويقول البشير مرقس ان من الاسباب التي حملته على القاء يوحنا في السجن رغبته في انقاذه من المكائد الخبيثة التي كانت تحيكها له الملكة هيروديا . لان

هذه قد كرهت يوحنا بقدر ما يمكن لامرأة مهانة في كرامتها ان تـكره انساناً . واذا لم يستطع بشر ان يحب كما تحب المرأة،فلا يمكن ايضاً لاي انسان ان يكره كما تكره المرأة . وليس للجحيم ثورة واحتدام أشد من ثورة واحتدام المرأة المهانة ! وكانت هيروديا هذه قد خانت عهد زوجها الاول ، وحبكت حبائل دسيسة ضده مع أخيه هيرودس بينما كان هذا زائراً في بيتها . وقد سمعت بذلك زوجة هيرودس الفتاة العربية ، فهربت الى بيت ابيها وأخلت مكانها في القصر لهيروديا الخائنة . وقد عرفت هيروديا وجميع من في البلاط الملـكي ان هذا النبي الجريء قد اعلن جهرة امام الملأ لزوجها الملك انه لايحق له الاحتفاظ بها . ولذلك حنقت عليه وكمدت غيظها وتحيَّـنت الفرصة للايقاع به .



ثلاثة شهور تقضَّت.وحلّ يوم عيد ميلاد هيرودس فاضيئت القاعة الـكبرى بالقصر بالانوار المتلألئة، وجمع الملك حوله نفراً من سادة الجليل والـكبراء والقواد والاعيان . وانصرف القوم الى المجون والخلاعة والسكر والبطر، حتى رنت اصوات الموسيقى والهتاف وصيحات الطرب في آذان السجين وهو في خابيته . وفي ذروة النشوة ارادت هيروديا ان تثير في نفوسهم شهوة جديدة ، فارسلت ابنتها الجميلة سالومة لتؤانس الضيوف . وكانت سالومة مطمح انظار المجتمعات وحفلات الانس،فهي تستطيع ان ترقص الرقصات الشرقية المهيجة للعواطف مما لا يتاح لفتاة يهودية كريمة ان تفعله . وينظر القوم حركات تمايلها ودلالها، فترتفع الحناجر والاكف باصوات الاستحسان والطرب، وينتشي الملك الثمل حتى ليقسم امام ضيوفه بان يعطيها ما تطلب ولو نصف المملـكة .

تذهب الفتاة لاستشارة امها . ثم تعود الى الجماعة الصاخبة وقد ارتسمت على محياها نظرة قاسية . وهنا تهدأ ثائرة المازحين الضاحكين السكارى ويعودون الى صوابهم حين يسمعون الفتاة تقول بصوتها الرنان : « اعطني ههنا على طبق رأس يوحنا المعمدان » .

وعلى الرغم من شرهم وأثمهم،يتولاهم الاضطراب والخجل. فهم يعلمون ان هذا النبي يحبه الشعب، ويعلمون ايضاً لماذا تطلب هيروديا رأسه . حتى هيرودس بين كئوسه يكاد يعود الى صوابه من هول هذا المطلب . ولـكن هيروديا قد افلحت واوقعت الملك اخيراً في شباك محبوكة . ولم يعد مجال للهرب امام وعده وقسمه . « فاغتم الملك ولـكن من أجل الاقسام

والمتكئين معه أمر انـ يُعطى . فأرسل وقطع رأس يوحنا في السجن ! »

«اغتم الملك» . وقد ازداد غمه بعدئذ حين سمع لعنات الشعب تنقضّ عليه كالصواعق، لان يوحنا « كان عندهم مثل نبي » . وذلك الضمير الذي دفعه للاصغاء الى يوحنا وفعل اشياء كثيرة بسببه، قد هزّه الآن هزة عنيفة وهو واقف على جرف الهاوية. وسواء أ كان نائماً ام مستيقظاً لم يبرح يوحنا مخيلته . وكان ذلك الوجه المائت الملطخ بالدماء محملقاً في عينيه ليل نهار . ولما سمع بعدئذ عن المعجزات التي صنعها يسوع دفعه ضميره في هلع ورعب الى ان يصرخ قائلاً : « هذا هو يوحنا المعمدان قد قام من الاموات » . فقالوا له : « انه ايليا . . . انه نبي او كأحد الانبياء». اما هو فصرخ قائلاً : « كلا ! هذا هو يوحنا الذي قطعت انا رأسه . انه قام من الاموات ولذلك تعمل به القوات ! »

هذا كان شأن الضمير الثائر في هيرودس الملك !

واخيراً جاءت الدعوى ليوحنا ليعتزل عمله .

جاءه في ضوء القمر نداء الجلاد ليخرج من زاويته . وحملت الرأس تقطر منها الدماء امام نواظر المرحين المعربدين، واخذتها الفتاة تحفة رهيبة لامها الشريرة. ثم تقدم التلاميذ ورفعوا الجسد ودفنوه واتوا واخبروا يسوع. وهكذا اجتاز النبي الجريء الى العالم غير المنظور يترقب مجيء ربه الذي حظي بلقائه بعد سنتين من ذلك التاريخ ، يوم نزل المسيح الفائز المنصور من فوق الصليب الى الهاوية ، ليبشر الموتى بانجيله ويرفع رايته ويقيم صليبه في عالم الراحلين ، العالم المحوط بالاسرار الغامضة . يومئذ التقى يوحنا مرة ثانية « بحمل الله الذي يرفع خطية العالم » !

الكتاب الرابع

كفرناحوم

الفصل الاول

الى كفر ناحوم !

الآن نأتي الى ازمة اخرى في قصة المسيح، الى المرحلة التي اعتبرها البشيرون افتتاح القصة بالفعل ، الى بداية خدمته العلنية في الجليل . ويضع البشيرون لهذه المرحلة علامة للانباء عنها : « ولما سمع يسوع ان يوحنا أُسلم انصرف الى الجليل وابتدأ ينادي ويقول :« توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات » .

وهذه الخدمة العلنية هي التي عُني بها البشيرون دون سولها.وكلُّ ما تقدمها اعتبروه اعمالاً تمهيدية تهيء احداث القصة ذاتها. وقد سبق ان ألقينا نظرة الى هذه الاعمال التمهيدية — من استعداد طويل لمجيئه ، الى القصد الازلي في العالم العلوي الذي جاء منه، الى النبوات اليهودية الكثيرة التي انبأت عن مجيء المسيا ، الى العالم الوثني وهو يعدّ له عن غير قصد المسرح ليلعب دوره عليه. ثم ألقينا نظرة الى مولده وصبوته ورجولته كنجار شاب وآماله واحلامه في المستقبل. ثم اليوم العظيم الذي خرج فيه من عزلته، الى معموديته

وتجربته ، الى لقائه الاول لتلاميذه الشبان ، الى زيارته الاولى لمدينة اورشليم : الى رحلته السعيدة فوق تلال اليهودية التي انتهت بالقبض على يوحنا المعمدان .

كل هذه الاحداث انما كانت تمهيداً في نظر البشيرين للقصة ذاتها . فهم يشيرون اليها ويبدأون بها . ولكن القصة بالذات تبدأ عند هذه النقطة المعينة .

وقصتنا الجديدة تأتي بنا الى مدينة جديدة، ليست بالضرورة من امهات المدن التي نتخيلها افكارنا عن يسوع . وثمة اربع مدن بارزة في حياته: هي بيت لحم حيث ولد . والناصرة حيث درج . واورشليم حيث مات. وتلك المدينة الصغيرة—مدينة الصيادين التي قضى فيها اكثر من سنة مركزاً لحياته الجليلة— كفر ناحوم القائمة على ضفاف بحيرة الجليل .

* * *

والمصادر الرئيسية التي نستقي منها اخبار ووقائع هذه القصة الجليلية هي البشائر الثلاث الاولى. ولنا هنا ملاحظة لا بد ان نبديها: وهي ان هذه البشائر لا يصح ان تكون «سيرة» لحياة السيد . بل هي بالاحرى مجموعة مذكرات وحوادث واحاديث اُختزنت في عقول التلاميذ الاولين، ولم تكتب دائماً في ترتيب متتابع .

وليس لدى الجيل الاول من المسيحيين سيرة مكتوبة بالتتابع عن حياة السيد . وقد عرف كثرتهم انهم تلقنوا كل احد في الكنيسة اجزاء متفرقة مثل « انجيل اليوم » الذي يُعين في العبادات الكنسية ، وسمعوا القصص التي تناقلتها الجماعة نقلاً عن الذين رأوا وسمعوا الرب وقد عرفوا ترتيب الحوادث من البداية — التجسد والمعمودية والتجربة . كذلك عرفوا الحوادث في النهاية — الرحلة الى اورشليم والمحاكمة والصلب والقيامة والصعود. اما عن الفترة المتوسطة في حياته فقد عرف البشيرون حوادثها المتفرقة واحاديثها المتنوعة،دون ان يتمكنوا من تبويبها وترتيبها ترتيباً زمنياً.وكانت نتيجة ذلك ظهور البشائر المكتوبة التي هي سجل الانجيل غير المسطور، الذي تلقنه المسيحيون الاولون . وتبين البشائر الثلاث الاولى نواحي سيرة ربنا كما لقنها المسيحيون في الاقليم الذي عاش فيه البشير الكاتب ، مضافاً اليها المعلومات التي انتقاها الكاتب من شهود العيان أو من مصادر اخرى .

* * *

واول بشارة كتبت هي بشارة مرقس. وهي تسرد بافصاح واسهاب حوادث الايام الجليلية . وليس في ذلك من غرابة اذا تذكرنا انها مأخوذة عن القصة التي رواها الرسول بطرس . والمعلوم لدينا ان معرفة مرقس الشخصية بحياة السيد سطحية، ولـكنه كان على اتصال وثيق بالرجل الذي عرف تفاصيل هـذه الحياة اكثر من سواه . وكان بطرس صديقاً حميماً له وقد دعاه « مرقس ابني » .

وهنا نثبت الاقرار الذي يسلّم به جمهرة العلماء وهو مقتبس عن « بابياس » اسقف هيرابوليس عقب موت يوحنا :

« كتب مرقس — ترجمان بطرس — بدقة، وان لم يكن بترتيب، كلّما رواه بطرس عن المسيح . لان مرقس نفسه لم يسمع السيد ولم يكن تلميذاً له بل . . . . لبطرس الذي اعتاد ان يلقي تعاليم تناسب حاجات سامعيه ، لا رواية مرتبة منسقة . . . . وهكذا لم يخطىء مرقس . لانه عُني بشيء واحد هو ان لا يترك شاردة ولا واردة سمعها ، وان لا يدون شيئاً خطأ » .

ويصح لنا ان نسمي كتابه انجيل بطرس . ونستطيع ان نجد فيه اشياء صغيرة هامة تنبئنا عن بطرس من وراء الستار . فمثلاً عند ما نفكر عن يسوع في كفر ناحوم وهو مقيم في منزل بطرس، ونقرأ انه ذات يوم قام ونهض للصلاة « في الصبح باكراً جداً »، نستطيع ان نصور لأنفسنا كيف يروي بطرس القصة، ويذكر الصلاة التي سمعها في ذلك اليوم من السيد وهو يتنقل في الغرفة المجاورة .

ونعلم ايضاً من المصدر عينه ان متى كتب باللغة الآرامية الوطنية مجموعة من اقوال السيد توسع فيها هو وغيره حتى صارت الانجيل الحالي الذي بيدنا ، وقد أودعها ايضاً كثيراً من المواد التي جمعها مرقس .

ونفترض ايضاً ان لوقا تلقن انجيله اولاً في مجمع بلدة انطاكية، ولـكنه استعار المواد الكثيرة من متى ومرقس والمصادر الاخرى التي يشير اليها في الفصل الاول من بشارته . وقد تلقن الشيء الكثير من التلاميذ الآخرين الذين التقى بهم في مرافقته الرسول بولس، الذين عاونوه خصوصاً في بيانه عن ذكريات الطريق الى اورشليم .

ونجد في البشائر الثلاث اقوال السيد وأفعاله متناسقة متفقة بعضها مع بعض،ولكنها ليست بترتيب واحد، حتى ليصعب علينا ان نروي قصة خدمته في الجليل على نمط متتابع.

والآن لنبدأ بقصة الجليل :

سنة ٢٧ ب . م . في الاقليم المتاخم لبحر الجليل ، وفي كفر ناحوم القائمة على البحر ، وهي بمثابة الموطن المركزي :

ختمنا الفصل السابق برحلته من الجنوب وسط قرى اليهودية، ورأيناه يصعد شمالاً الى الجليل بعد ما أسلم يوحنا . ولكن بدلاً من أن نتبعه ، تباطأنا قليلاً في الجليل لنلقي نظرة على خاتمة يوحنا المعمدان . والآن نريد أن نقتفي خطواته في مشاهد خدمته العامة على ضفاف بحر الجليل .

ولا شك في انه جرت احداث كثيرة في طريقه الى الجليل لا نقدر أن نسمع عنها شيئاً في هذه الحياة . ولكن يذكر يوحنا حادثة وقعت في مرورهم من السامرة الى الجليل ، وهي حادثة المرأة السامرية عند البئر .

أظن انهم عند ما وصلوا الى تخوم الجليل عند مفترق الطرق ، ودّع زملاءه (ربما بطرس واندراوس وفيلبس ويوحنا أيضاً) . وكان هو ذاهباً غرباً ربما الى موطنه في الناصرة . واما هم فكان عليهم أن يذهبوا شرقاً الى موطنهم للصيد . وكانوا قد تغيبوا غيبة طويلة وتركوا أعمالهم ولم يكونوا قد تلقوا بعد دعوة لمهمتهم الخاصة . وكل ما في الأمر أنهم رافقوه بضعة أشهر في غبطة وبهجة، واستمتعوا بعشرته وزمالته فوق التلال والربى فلم ينسوا قط تلك الأيام اللذيذة التي قضوها معه .

واني اتصورهم عند التخوم يودعونه ويذهبون جذلين الى موطنهم في كفر ناحوم. وكانت قلوبهم مليئة على الأقل بالآمال — وان لم يكن بالوعود القاطعة — في أنهم سيعاونونه يوماً ما في مهمته العظيمة ، وربما عرفوا انه بعد قليل سيتبعهم الى بحر الجليل .

ولا شك في انه كان من تدبيره، ومن وسائل تهذيبهم وتدريبهم، ان يكونوا بعيداً عنه بضعة أشهر . لأن يسوع كان يحترم شخصيات الآخرين ولم يرغم الناس ارغاماً ولم يأخذهم على غرة، ولكنه أعطاهم فرصة للتأمل والتفكير . وقد كانت هذه الفترة كافية للتفكير . واني اتصورهم عاكفين يومياً على الصيد، مترقبين مجيئه، متحدثين عنه فيما بينهم، ومفكرين

في محبته وشاعرين بفراقه . وكان هذا كله بمثابة استعداد لمهمتهم العظمى في المستقبل .

سار يسوع غرباً بمفرده في طريق الناصرة وهو يختفي الآن عن الأنظار . وليس من يروي لنا ما حدث خلال تلك الأسابيع . وقد كان وحيداً منفرداً على قدر ما استطاع الانزواء عن الناس، لان صيته كان قد ذاع وقتئذ، وكان أهل الجليل يروون أحداث اورشليم في الفصح لأنهم كانوا في العيد . واظن ان المسيح قد اراد الخلوة ليضع برنامجه . ولا شك في انه كان يروي في المجامع واجتماعات الليل اشياء عجيبة عن الآب وفكرة ملكوت الله على الارض للجماعات التي كانت تحيط به في الليل ، ولكن لم يسطر شيء من هذه الامور كلها ، الاّ حادثة واحدة وردت في ذكريات يوحنا :

ذات يوم أدّى به المطاف الى بلدة قانا، واظنه اقام مع «نثنائيل الذي من قانا الجليل»، الرجل الذي كان قد اجتذبه الى زمرة اصدقائه في تلك الزيارة المأثورة منذ شهور . وأستطيع ان اتصور نثنائيل يرحب به فرحاً ويستقبله باشاً في الليلة التي زاره فيها . واتصوره في اليوم التالي يطوف به ارجاء بستانه والمقعد تحت شجرة التينة حيث حلّت عليه الازمة الروحية. وهل نشك في انه لقي ايضاً ترحاباً في ذلك اليوم من عروس قانا الجليل التي حوّل في عرسها المـاء خمراً !

لم يطل به وقت الراحة، لان اخبار مجيئه كانت قد ذاعت، وثارت لها كل ارجاء الجليل . وعلى بعد عشرين ميلاً كانت كفر ناحوم تتوقع مجيئه بفارغ الصبر لان التلاميذ الصيادين الشبان كانوا قد حملوا معهم أخباراً مثيرة . واذاعوا بين الناس ان الشخص الطائر الصيت قادم الى بلدتهم، فأحيوا بذلك موات الرجاء في قلب المقعد الـكسيح في آلامه ، في قلب الأم ورضيعها المريض . وأمل الجميع خيراً على يد الشافي الاعظم .

وهنا تروى قصة ذكرها يوحنا . ففي اثناء اقامة يسوع في قانا الجليل في ذلك اليوم مع نثنائيل وعروس قانا على بعد عشرين ميلاً من كفر ناحوم، كان الحزن مخيماً على احد بيوتات تلك البلدة العالية ، مقر الطبقات الغنية . اذ كان بين ساكنيها « نبيل » أو قائد من قواد هيرودس، له ابن وحيد على فراش الموت . وكانت قد بلغه اشاعة مجيء يسوع ولـكنه علم انه سيجيء على مهل . وقد يصور القاريء لنفسه لوعة الام واصرارها بقولها:

لا تنتظر ! هو الآن في قانا . من يدري ربما إذا جاء ينقذ وحيدنا من براثن الموت ! »

وفي تلك الليلة نراه مسرعاً الى قانا ماثلاً أمام المسيح : « يا سيد هل تستطيع أن تأتي ؟ ولدي يحتضر ! »

وقد كان من دواعي خيبة آمال السيد ان الذين قصدوه، كانوا يفعلون ذلك رغبة في الحصول على الشفاء. والظاهر ان احداً لم يعبأ برسالته وملكوته. ولذا نراه ينظر الى الرجل آسفاً كئيباً وهو يمثل أمامه الرأي العام المجرد عن الروحانية ويقول له : « ما لم تروا عجائب وآيات لن تؤمنوا » .

أما الأب المسكين فلم يفهم . ولا يريد أن يفهم : « تعال يا سيد قبل أن يموت وحيدي! ». ولم يشأ المسيح ان يردّ هذا الطلب. وفي لحظة سرت قوة فكره الى ذلك البيت البعيد، وحلق في عيني الرجل المعذب وقال : « اذهب . ابنك حي» . وفي تلك النظرة لمح ما جعل الشك في نفسه مستحيلاً . وفي الصباح التالي عند ما أقبل فرسانه الى كفر ناحوم تلقى الرسالة من زوجته وسألها قائلاً : قولي لي متى شفي الغلام ؟ فأجابته : صباحاً يا مولاي الساعة السابعة فارقته الحمى .

وقد عرف الضابط الهيرودسي ان في تلك الساعة عينها قال له يسوع « ابنك حي» فآمن هو وأهل بيته . وكسبوا اكثر من حياة ولدهم . وصارت تلك العائلة التي لم تر وجه المسيح، تلاميذه الاولين في مدينة كفر ناحوم عن طريق الاقرار بالفضل لهذا الصنيع الجميل. وعن طريق هذا الامتنان يحصل الله على خيرة تلاميذه « ماذا أرد للرب من أجل جميع حسناته التي صنعها بي ؟ » .

وهكذا ينتهي دور قائد هيرودس وأسرته. ولكن قد يجرؤ الباحث على الادلاء بفكرة قوامها الحدس والتخمين فقط :

يُذكر في قصة الانجيل بعد ذلك اثنان من رجال هيرودس : مناين الذي تربى مع هيرودس والذي كان زميلاً للرسول بولس . وقبل ذلك نقرأ عن « يونا امرأة خوزي » وكيل هيرودس التي خدمته بمالها ، والتي ذهبت الى القبر في صباح يوم القيامة لتنوح على المسيح المائت . وقد يتساءل الانسان هل هذه هي عينها زوجة قائد هيرودس

وأم ذلك الولد المسكين الذي كان مريضاً بالحمى في كفر ناحوم ! لان الامهـــات كنَّ — كما هنَّ الآن — أول من اجتذبهن المسيح .

* * *

و بعد قليل أُتيح لاسرة ذلك القائد النبيل ان تشكر السيد شخصياً . وتقع العين بعد بلدة قانا على طريق البحيرة تتلوى فوق المنحدرات الى كفر ناحوم، وسط أرض وعرة خلوية، لها جمالها الخاص حيث تتفتح الاعشاب البرية عن أزهار بديعة في فصل الربيع . واستطيع أن اتصور ذلك «النبيل» يستحث جواده على المسير ليعود الى ولده . واستطيع أن أرى السيد نفسه بعد أيام قلائل يسير في هذه الطريق عينهـا ليبدأ خدمته العامة في الجليل. وعلى مسافة أميال يظهر من ثغرة في التلال منظر البحيرة ممتدة تحت سفوحها ، وكورزين و بيت صيدا وكفر ناحوم مشتبكة كعنقود من العنب على الضفة الغربية . واتصور بطرس واندراوس وفيلبس وغيرهم يأتون لملاقاته في الطريق ، ويفد سكان كفر ناحوم جماعات لرؤية مواطنيهم وهم عائدون برفقة المعلم الغريب عن بلدتهم .

وهناك ايضاً جابٍ من جباة الاموال يدعى « متى » يؤدي وظيفته في الطريق العام، ربما في ذلك اليوم عينه الذي وفد فيه ذلك الطارق الغريب . و بعد سنوات تذكَّر متى هذه الزيارة وأدرك أهميتها فكتب في بشارته « ... وأتى فسكن في كفر ناحوم التي عند البحر في تخوم زبولون ونفتاليم . لكي يتم ما قيل باشعياء النبي القائل : ارض زبولون نفتاليم طريق البحر عبر الاردن جليل الامم . الشعب الجالس في الظلمة أبصر نوراً عظيماً . والجالسون في كورة الموت وظلاله اشرق عليهم نور » .

هكذا جاء يسوع الى كفر ناحوم .....



الفصل الثانى

كفر ناحوم على شاطئ البحر

كفر ناحوم على ضفة البحيرة : هي تلك المدينة الصغيرة ، التي اشتهرت بصيد الاسماك في ولاية الجليل، والتي اتخذها يسوع موطناً ثانياً له ، والمسرح الذي تمثلت على أديمه أشهر قصص الانجيل ورواياته . هي بقعة من الأرض نالها من شرف الذكرى ومجد التاريخ ما لم يتوافر لبقعة سواها . « وانت يا كفر ناحوم المرتفعة الى السماء ...... لو صنعت في سدوم القوات المصنوعة فيك لبقيت الى اليوم » .

ولكي يسهل عليك تتبع خدمة يسوع في الجليل، لا بدَّ لك من رؤية الجليل ، ورؤية البحيرة ، ورؤية كفر ناحوم[1] .



والجليل هو الهضبة العالية الى ناحية الشمال بين الجبال . وكان الشمال والجنوب يبغضان أحدهما الآخر . وأهل الشمال في مستوى أحط في نظر أهل الجنوب بدليل القول «انه لم يقم نبي من الجليل» — «أمن الناصرة يمكن ان يكون شيء صالح» — وقد احتقر أهل يهوذا ثقافة أهل الجليل. وهزأوا بلهجتهم وكلامهم. وكان الجليلي في اورشليم معروفاً في ذلك العصر بلهجة كلامه. (يُعرف الصعيدي مثلاً بلهجته اذا جاء مدينة القاهرة) . ولهذا السبب عُرف بطرس وقت محاكمة المسيح « انت جليلي فان لغتك تظهرك » .

أما أهل الجليل ، سكان الهضاب الاحرار الذين جبلوا على العزة والكبرياء ، فقد اشمأزوا من هذا الموقف . ولم يكن اشمئزازهم بدون سبب ، فهم الوطنيون المتحمسون الذين

(١) وقد اجمع جمهرة علماء الكتاب المقدس على ان الخرائب التي يطلق عليها اليوم « تلحوم » في الناحية الشمالية الغربية من البحيرة هي موقع كفر ناحوم القديمة

لم ترضخ رقابهم لذلّ الغاصبين ، بينما خنع أهل يهوذا وارتضوا الظلم والامتهان . ويقول عنهم يوسيفوس : « لم تخلُ بلادهم من الابطال البواسل » . ويقول التلمود اليهودي : « امتازوا عن اهل الجنوب بحرصهم على الشرف والكرامة اكثر من المال » . ولعلّ هـذا هو السبب الذي حدا بالمسيح الى ان يتخذ الجليل مهداً لدعوته . لانه ، وهو جليلي، رحل الى الجليل بعد معموديته، وخبر اورشليم وأهلها، وجاب بضعة اشهر في نواحي يهوذا . ولعله كان يفاضل في تلك الفترة بين الشمال والجنوب . ولما استقر على رأي ، ودنا الموعد ، « جاء يسوع الى الجليـل يكرز ببشارة ملـكوت الله . ويقول قد كمل الزمان واقترب ملـكوت الله . فتوبوا وآمنوا بالانجيل » .

وكان الجليل فخوراً بخيره العميم ورزقه الوفير، فهو « ارض اشير ونفتالي » حيث وَفُرت المياه الجارية في الانهار المنحدرة من جبال لبنان ، والفائضة في العيون المتفجرة من بطون الجبال .

وكان الاقليم زراعياً خصيباً، حفل بالقرى والضياع المتناثرة، تحوطه شعوب وامم غنية، وتشق سهوله أشهر الطرق المعروفة في العالم القديم . ولم يكن دخان السكة الحديد قد طغا بعد على روعة تلك الطرق وجمالها الطبيعي . . . .

تلك الطرق البيضاء العظيمة ، الحافلة بالالوان المتعاقبة ، المـكتظة بالحركة المستمرة — هي ابهى ما في الصورة من جمال . فهناك طريق القوافل الـكبرى بين دمشق والبحر الابيض المتوسط ، طريق البحر المشهور الذي اشار اليه اشعياء بقوله : « طريق البحر ، عبر الاردن ، جليل الامم » . وكان الرومان قد عبّدوه ومهدوه . وفرضوا المـكوس على البضائع السائرة فيه . وفي احدى محاطّ ذلك الطريق عند كفر ناحوم جلس متى العشار يتقاضى المـكوس والضرائب . وهناك الطريق الشرقي القادم رأساً من بلاد العرب — والطريق الجنوبي الـكبير النازل ، الذي سار فيه التجار المديانيون قديماً يوم حملوا يوسف معهم في قافلتهم و باعوه الى فوطيفار رئيس حرس عاهل مصر، الطريق الذي اكتظ كل يوم منذ عصر ابرهيم بقوافل التجار المحملة جمالها ، والجنود والموظفين الرسميين والمسافرين من بلدان كثيرة .

وكان لتلك الطرق الرئيسية الفضل في وصل الجليل بالعالم الخارجي . وربما فـكر

يسوع في هذا عينه يوم اختار الجليل مسرحاً عاماً لخدمته . ويقول سائح شهير في هذا العصر : « كان منظر تلك الطرق الأثرية العظيمة أشد الاشياء استثارة لنفسي في الجليل ، ليس لانه قد وطئتها أقدام الآباء الاولين وحسب، وسارت على اديمها مركبات اشور ورومية بل لان في هذه الطرقات الصاعدة والنازلة وقع نظر يسوع على تلك الاشباح الخالدة التي سجلها في امثاله وقصصه . ففيها سار التاجر الغني الذي كان يسعى وراء اللآلىء الثمينة . وفيها رحل الملك ليتسلم ملكه . وسار الصديق في رحلته ، وفاجأ ربّ الدار عبيده، وعاد الابن الضال من الارض البعيدة . أجل، « الارض البعيدة ! » . فلشدّ ما تشعر بعمق معنى هذه الكلمة التي قالها المسيح مراراً وانت واقف في ربوع الجليل الى جانب احدى الطرق الرئيسية، تلك الطرق التي حملت الارجل الطائعة المتسارعة من مواطن اشير ونفتالي الورعة المتدينة ، الى مدائن فينيقية المتهتكة الفاسقة ، الطرق التي اتصلت في عصور القدم برومية وبابل !

ولذلك عند ما نرسم صورة يسوع في الجليل ، لا مناص من ان نفكر فيما وراءها ، في تلك القبائل الجبلية الرافلة في مرحها ، والبلاد المشرقة في بهجتها ، والحياة الناشطة في حركتها الدائبة ، واجناس الشعوب والامم السائرة جيئة وذهاباً على مسرح الحياة ، والى « البلاد البعيدة ! » . وبهذا يسهل علينا فهم حياته المزدحمة الحافلة بالالوان المتكاثرة ، والجماهير التي كانت تتألب عليه للاحداق به في كل ازمة خطيرة .

بل علينا ان نشهد بحيرة الجليل ، قلب هذا المشهد . وكذا الموطن الذي اختاره لنفسه ، كفر ناحوم الجاثمة على شاطىء تلك البحيرة .

والقِ اولاً نظرة الى بحيرة الجليل : انظر الى وادٍ عميق ، وعميق جداً ، يقطع فلسطين كلها من شمالها الى جنوبها . وفي بطن هذا الوادي يسير نهر الاردن . وهناك في هذا الوادي العميق ، على مقربة من نقطة ابتدائه في الجليل، وعند سفح الجبل ، وفي منخفض يهبط الى ثمانين وستمائة من الامتار تحت سطح البحر — تنبسط بحيرة الجليل ، بحيرة صغيرة تبلغ مساحتها حوالي اثنى عشر ميلاً في ستة اميال وانه ليصعب على المرء ان يتصور انه حول تلك البحيرة الصغيرة مُثّلت أدوار قصة الانسانية !

والسائح اليوم لا يراها إلا مكاناً بلقعاً اجرد ، عليه مسحة من الجمال البري العار .

ومن دواعي الاسف حقاً ان يد التغيير والتبديل عبثت به الى حد كبير . فان لعنة الحكم التركي قد دمغت هذا الاقليم عصوراً طوالاً . فاختفى من الوجود رجال الجليل البواسل الاشداء، وديس على الفلاحين بكلكل الظلم والاعتساف، فماتت في نفوسهم جذوة النشاط والعمل . وقطعت الاشجار الباسقة في غير رحمة ولا شفقة . وكل بلد يسكنه شعب مظلوم مغتصب، وكل أرض تتعرّى عن أشجارها ، مصيرها ان تمسى كما امسى الجليل !

* * *

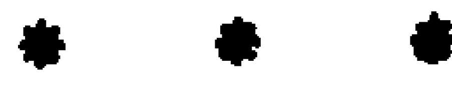
وقد عرا العالم المسيحي رجفة الخجل مدة الف سنة . وهو يرى الارض المقدسة التي سار في ربوعها ابن الله، نهباً في أيدي القساة الظالمين . ومنذ ثماني مائة سنة نهض بطرس الناسك، وأخذ يستحثّ فرسان العالم المسيحي للقيام بالحملة الصليبية الاولى . وقد أعقب تلك الحملة الاولى ثانية فثالثة الى السابعة . وسجل التاريخ لتلك الحملات اروع اقاصيصه ، واقترنت بذكرى الابطال الذين تغنت العصور باسمائهم امثال « فردريك بربروسا »، و « بلدوين بيت المقدس »، والسلطان صلاح الدين، ورتشارد قلب الاسد . بل قد سجل لنا التاريخ حملة صليبية للاحداث في العصور الوسطى ، قصة جميلة أخاذة عن نفر من الصبيان المتحمسين خرجوا من اوطانهم وسط هتاف الجماهير ليلقوا الموت في الطريق ، أو يقعوا في أسر قرصان الجزائر .

وقد باءت الحروب الصليبية بالفشل . وظلّت الارض المقدسة في قبضة الاتراك . ولكن حادثاً خطيراً حدث بعد ذلك. فانه بعد الحملات الصليبية السبع، و بعد فشل امتد الى ألف سنة — بعثت انكلترا بحملتها الصليبية الثامنة ، وفازت انكلترا في هذه المرة ! واننا نعيش في عصر حافل بالعجائب حقاً . ونحن في نهاية الحرب العظمى الاولى ، وسط هتاف النصر ، وقرقعة عروش الامبراطوريات المتناثرة ، لم نعر الى هذا الحدَث الجلل في الارض المقدسة التفاتاً . قد كسبت الحملة الصليبية الاخيرة لواء النصر . وتحررت الارض المقدسة من قيود الاسر . وعادت الى فلسطين مرة اخرى فرصتها في الحياة . ومن يدري ما تبطنه الايام في المستقبل : أتعيد فلسطين قصة عهدها القديم ؟ أتزهر ثانية فتصير جنة الرب ، الارض الجميلة التي عرفها يسوع في حياته على الارض ؟

ذلك لان في عصر يسوع كان الجليل غير الاقليم الحالي. فقد حدثنا عن جماله يوسيفوس وغيره من الرحالة. وكان في البلاد العارية الآن عن اشجارها غابات وحراج، وكان بدل المستنقعات جنات فيحاء، وكان بدل الضياع الوضيعة المتناثرة التي تراها اليوم، مدائن زاهرة تختال على ضفاف البحيرة. ولا يرى السائح اليوم الاّ بضعة من الزوارق الصغيرة، بينما كان في ذلك العصر اسطول للصيد، وصنادل الملك ونقالاته، وزوارق النزهة من مدينة طبرية العظيمة وغيرها من المدائن.

وكانت تجارة الاسماك ناشطة زاهرة، واشتهر سمك البحيرة في اورشليم ومدن سورية ورومية نفسها. وازدهرت النباتات والزروعات حول البحيرة حتى كانت تحسب معجزة من المعجزات. لان الطبيعة كما يقول يوسيفوس قد جمعت في تلك البقعة نباتات من كل الرقاع والاصقاع. فعلى شاطىء البحيرة الحار نمت فواكه المناطق الحارة. ثم يتدرج الطقس فتتعدد معه انواع الفواكه والثمار بحسب الجو الملائم لنموها، وتثمر تلك الاشجار المتنوعة عشرة اشهر في السنة. ويقول احبار اليهود: ان الرب الاله خلق سبعة بحار، ولكن بحر الجليل هو مسرّة نفسه!

فالبلد الذي يصفه البشير في قصته ليس فلسطين القفراء كما نراه اليوم، بل هو الاقليم المشرق اللامع، بهجة العين وغبطة الفؤاد.



والآن لنضع كفرناحوم في الصورة: فارجع بمخيلتك الى عصر المسيح، وقفْ عند حافة البحيرة حيث كانت تُعبّأ الاسماك لتصديرها الى المدائن الكبرى. وارفع بصرك شمالاً الى جبال حرمون وقممها المكسوة بتيجان الثلوج البيضاء. ثم انتقل في زورق الى جهة الشمال محاذياً الشاطيء الغربي. فتمرّ في طريقك بقرى زاهرة لايعنينا من أمرها شيء. وبعد ان تقطع ستة أميال تجيء الى طبرية المدينة البيضاء الجميلة، موطن هيرودس وعاصمة الجليل السياسية — وهي مدينة طروبة مبتهجة، تمتزج فيها الوثنية باليهودية، ترى في طرقاتها الجنود والموظفين في ثيابهم الرسمية اللامعة، ورجال البلاط الملكي في عظمة وخيلاء — ترى فيها العاهرات المصبوغة وجوههن، ومباهج الحياة الرومانية الخليعة الآثمة، التي تظهر فتنتها عادة في الاماكن الواقعة على مجاري المياه. ووراء المدينة مصحة

عمواس التي كان يجيء اليها المرضى الاغنياء الموسرون من كل انحاء البلاد للاستشفاء في ينابيعها الحارة . فان أنت تولاّك شيء من الدهش لكثرة المرضى الذين سجلتهم قصة كفرناحوم ، فاذكر ان مصحة عمواس كانت على مسافة بضعة أميال من هذه المدينة .

واذ ترتحل من طبرية شمالاً الى الزاوية الشمالية الغربية من البحيرة ، ترى الجروف العالية وقد أخذت في الانحدار لينبسط أمامك سهل جنيسارت الخصب . وعند بداية هذا الانحدار تقع قرية مجدل ، وهنا تدخل مريم المجدلية في القصة . وعلى مسافة ميلين تقع كورزين و بيت صيدا وكفر ناحوم ، وهي مدن ثلاث متجاورة ذكرت معاً — «الويل لك يا كورزين! الويل لك يا بيت صيدا ! وأنت يا كفر ناحوم! المرتفعة الى السماء ! ».

ثم ألقِ المرساة على بضعة أمتار من الشاطىء ، حيث زوارق الصيد الغشيمة ، الفجة في شكلها ، تتدافع في الماء ، والبحارة يتصايحون ، والأطفال يتضاحكون و « يبنون القلاع في الرمال». وانت تقف هنا حيث حدّث يسوع سامعيه، يوم داف اليه جموع كثيرة حتى انه دخل السفينة وجلس، والجمع كله وقف على الشاطىء «فكلمهم كثيراً بأمثال».

ومن هذه البقعة التي أنت واقف عليها ترى أمامك مدينة كفر ناحوم بين أشجارها وجناتها ، وعلى منحدر الجبل فوقها ثكنات الحرس الروماني التي كانت مكرهة الشعب . ولكن قائد الثكنة صديق موال ، قائد وثني يعطف و يميل الى دين الله « يحب أمتنا وهو بنى لنا المجمع » . وفي طرقات المدينة تقع العين على المجمع الابيض الذي بناه ذلك القائد لشعب اليهود ، والذي نادى فيه يسوع مراراً عديدة أيام السبوت . وعلى سفوح التل دور العظماء والكبراء ، وسط حدائقها الفيحاء . هناك سكن يا يرس رئيس المجمع ، الرجل الشريف الذي كان له ابنة مريضة . وفي دار من تلك الدور الجميلة دخل يسوع للعشاء مع سمعان الفريسي الغني، يوم دخلت عليه امرأة خاطئة « وغسلت قدميه بدموعها ومسحتهما بشعر رأسها » .

والآن ارفع بصرك وراء هذه الطرقات الصغيرة الملتوية والحوانيت المفتوحة ، ووراء تلك الميناء الصغيرة المكتظة بالشرع الرمادية المطوية . هناك ترى بيت صيدا ، ومعناها مدينة الصيادين. وقد كانت في الواقع جزءاً من كفر ناحوم. وفي هذه المدينة يسكن زبدي الشيخ العجوز ، ومعلم الصيادين . وهو يملك عدة من زوارق الصيد مع ولديه يعقوب و يوحنا

وأمهما سالومة التي سنعرفها فيما بعد ـ أما طموحة «أم ولدي زبدي» تود أن يحتلّ ولداها مكانة رفيعة في الملكوت .

وهناك ايضاً دار سمعان بطرس التي كان يقطنها مع أسرته،ومعه حماته واخوه الشاب اندراوس . وحدّق بنظرك في تلك الدار لان وراء احدى نوافذها الغرفة الصغيرة المقدسة التي كان يقيم فيها يسوع كلما جاء الى المدينة . ومن سقف تلك الدار دُلي الرجل المفلوج بحبال امام يسوع. وفي فنائها عند مدخل الباب اجتمع جمهور كفر ناحوم يوم اُلقى ذلك الكسيح العليل امام ناظريه .

ثم انظر ايضاً الى اليمين ، حيث تمتد الطريق الرومانية البيضاء ، طريق البحر ، من دمشق الى البحر الابيض المتوسط ، وتدور حول شواطىء البحيرة الشمالية . التي سار فيها اليوم كله جنود ومسافرون وقوافل سورية تحمل المتاجر الشرقية الى أوربا . وكان الرومان يفرضون الضرائب على تلك المتاجر . فهناك تقع عينك في تلك الطريق ، عند اقترابها من المدينة ، على شعار النسر الذهبي متطاولاً فوق دار الجباية ، حيث جلس متى بن حلفى المعروف لنا ، يأخذ العشور والضرائب .



ثم دُرْ الى اليمين ومدّ بصرك عبر المياه ، الى المنظر الذي رآه بطرس كلما فتح باب داره ، المنظر الذي ظلّ مرسوماً في مخيلة الرسل عند ما فكروا بعدئذ في سرد قصة يسوع في الجليل .

وعبر البحيرة ، على مسافة ستة أميال ، ترى العين بلاد الجدريين الوعرة ، تبدو في منحدرات ومرتفعات في الافق . وهناك رست السفينة في كل مرة كان يذهب فيها المسيح مع تلاميذه الى الشاطىء الآخر . وفوق تلك الجبال قضى مرة الليل كله يصلي لله .وهناك التقى به المجنون الهائم في القبور . ومن فوق تلك المنحدرات الجرداء « اندفع قطيع الخنازير من على الجرف الى البحر ومات في المياه» ، وقال الناس ان الشياطين قد مسّتها . وفي الناحية الجنوبية أرض حاصور ، حروشة الامم ، المعروفة في تاريخ اسرائيل ، حيث سارع سيسرا رئيس جيش ملك كنعان الى خيمة ياعيل امرأة حابر القيني ليبلّ شفتيه المحترقتين . وفي الناحية الشمالية «موضع الخلاء». وتقول التقاليد انه المكان الذي احتشد

فيه الخمسة آلاف الذين تبعوا يسوع يوم أخذ تلاميذه وقال لهم : « تعالوا أنتم منفردين الى موضع خلاء واستريحوا قليلاً » .

وفوق مياه البحيرة الصافية كدَّ التلاميذ لكسب عيشهم . وهناك جلس يسوع في السفينة يعلّم الجموع ، وهناك أُجريت معجزة صيد السمك الكثير ، وهناك إبان احدى الزوابع الفجائية العاتية استولى الذعر على التلاميذ فجاء السيد الى نجدتهم ماشياً فوق الماء ، وهناك ايضاً في صباح اليوم التالي للقيامة ظهر لهم السيد الذي كانوا قد رأوه مصلوباً ، فصرخ يوحنا لزملائه : « هو الرب ! » ، فارتدى بطرس مئزر الصيد واندفع اليه كالسهم خائضاً في الماء . . . . .

ارسم هذه الصورة جيداً في مخيلتك : مدأن الصيد المزدحمة والزوراق راسية على مرافئها الصغيرة ، مياه البحيرة الزرقاء وقد اكتنفتها التلال والآكام من كل حدب ، أرض الجدر بين الوعرة الجرداء في الجهة المقابلة تصور كل هذا في مخيلتك ، فتفهم قصة الانجيل عن يسوع في كفر ناحوم .

الفصل الثالث

دعوة الاربعة

يذكر البشير مرقس دعوة الرسل الاولين في مستهل قصة كفر ناحوم. والظاهر ان بطرس الذي يُعنى بهذه الحادثة كلَّ العناية قد أبلغه انها كانت بداية الاشياء. ونرى امامنا قصة مختصرة عاجلة، يردّدها البشير متى بنصها وفصها. اما كنيسة انطاكية فقد كان لديها بيان اوفى عن هذه القصة يرويه لنا البشير لوقا. فلا مناص لنا من سبك الروايتين معاً:

وليس شك في انه كان من بواعث الغبطة لدى الاصدقاء الصيادين الشبان ان يلتقوا بسيدهم المحبوب مرة اخرى في ذلك اليوم عند مجيئه الى كفر ناحوم. غير ان افراح اللقاء ومقتضيات الضيافة لا تعيق الدعوة الملحة الى الواجب والعمل. ولذا نرى الصيادين بعد ليلة أو اثنتين يخرجون مع شركائهم الى عرض البحر للصيد. وكانت ليلة نحس للصيادين وكأن البحر قد خلا من اسماكه، وتمزقت الشباك وامتلأت بالرمال. وفي الصباح التالي نرى سفينتين راسيتين على الشاطىء «والصيادون قد خرجوا منهما وغسلوا الشباك». أما يسوع فكان قد خرج الى شاطىء البحيرة وازدحم حوله سكان المدينة يتساءلون في دهشة، ويلحون عليه لسماع كلمة الله. ولم تكن قد اخذتهم بعد حمى مطالبته بالمعجزات، لانهم كانوا يشعرون بالحياء امام ذلك الغريب الطارق الذي لم يعرفوه بعد. أما يسوع فازداد حباً لهم وهم على هذه الحال، لان لديه نعماً للبشرية اعظم من مجرد ابراء الاوصاب الجسمانية.

وها أنا أراه يدخل احدى السفينتين وكانت لسمعان. ويطلب منه ان يبعد عن البر قليلاً. أما الجموع فقد وقفت على الشاطىء تمتد انظارهم الى البحيرة المنعكسة عليها اشعة الشمس، والى الجبال الصفراء المتاخمة لها. ومن السفينة اخذ يعلمهم.

وبعد ان فرغ من التعليم حدث حادث: فان يسوع يقوى على التفكير في صغائر الاشياء حتى وهو منهمك في كبار الامور. وهو لم ينس اولئك الصيادين التعابى والليلة

المضنية التي قضوها في جهد عقيم غير منتج . وقد عرف يسوع أثر هذا الفشل في نفوس طبقة العمال الفقراء . « ولما فرغ من الكلام قال لسمعان ابعد الى العمق والقوا شباككم للصيد . فأجاب سمعان وقال له يا معلم قد تعبنا الليل كله ولم نأخذ شيئاً . ولكن على كلمتك ألقي الشبكة» . ولم يكن هذا مجرد استسلام من رجل مضنى يائس . فانه قد عرف السيد حق المعرفة . وكأنه يقول : « لم نفز بخير الليلة الماضية و ولا تدل بوادر الحال على فوز اليوم ، اما وقد أمرتنا أنت فهذا شيء آخر » .

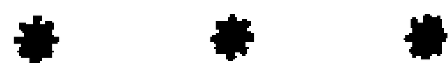
« ولما فعلوا ذلك امسكوا سمكاً كثيراً جداً فصارت شبكتهم تتخرق . فأشاروا الى شركائهم الذين في السفينة الاخرى ان يأتوا ويساعدوهم . فأتوا وملأوا السفينتين حتى اخذتا في الغرق . فلما رأى سمعان بطرس ذلك خرَّ عند ركبتي يسوع قائلاً اخرج من سفينتي يا رب لأني رجل خاطىء . إذ اعترته وجميع الذين معه دهشة على صيد السمك الذي أخذوه . وكذلك ايضاً يعقوب ويوحنا ابنا زبدي اللذان كانا شريكي سمعان . فقال يسوع لسمعان لاتخف . من الآن تكون تصطاد الناس ». (لوقا ٥:٦ ــ ١٠) .

ولا يغربنَّ عن البال ان قصداً واحداً تخلل هذه القصة ألا وهو تدريب الرجال الذين كان يزمع أن يعهد اليهم بتنفيذ مشروعه الخطير . وكان قد بدأ فعلاً أن يدربهم ، وأن يذهلهم ، على أن يزيدهم من هذا الذهول في المستقبل . وفي ذلك اليوم ما كانوا قد فطنوا بعد الى ان هذا الذي ملأ شباكهم بسحر قوته وارادته،هو بعينه الذي خلق الاسماك وكل المخلوقات التي تسبح في البحار .

* * *

وتلك الصرخة « اخرج من سفينتي ! » ــ أليست تنمُّ عن حقيقة بطرس المندفع ، وهي أشبه بقولته المضطربة التي فاه بها فيما بعد وهو فوق جبل التجلي ، يوم لم يدر ما قال. والحق ان هذا الطلب آخر ما يفكر فيه بطرس . وما هذا القول الا رعدة نفس مأخوذة متأثرة تشعر بضعفها أمام رهبة هذه القوة،وخطيتها في حضرة هذه القداسة الطاهرة البيضاء. وكان بطرس قد رأى الكثير مما ولّد في نفسه هذا الشعور الرهيب تجاه يسوع . أما الذي دفع بطرس الى ان يخرَّ عند قدمي يسوع في ذلك اليوم ، فهو شيء آخر غير معجزة صيد السمك الكثير .

وفي أحوال كثيرة لا يأخذنا يسوع هذا باقوالنا وكلماتنا . وما ان يسمع من بطرس « اخرج من سفينتي يا رب لأني رجل خاطىء» حتى يقول له : «لا تخف. من الآن تكون تصطاد الناس » . وفي هذا دليل على ان يسوع كان يرمي الى غرض أبعد من مجرد التعويض عن ليلة صادفهم فيها نحس الطالع في الصيد . فهو كان قد بدأ يدرّبهم لتوقع أيام حافلة بأسباب الخيبة والفشل . وكانت الدلائل تنبيء عن قليل من الحظ في الصيد ولكن يسوع كان معهم فامتلأت شباكهم حتى تخرقت . ومن هذا أراد أن يلقنهم امثولة . ولعلهم تذكروا هذه المعجزة فيما بعد كمثل من امثلة التشجيع والاسناد : « من الآن تكون تصطاد الناس » . بل لعلهم تذكروا يوم الخمسين ، يوم وقف بطرس منادياً في الجمع الحاشد في مدينة اورشليم ، بين الذين صلبوا سيده وربه ، فخرج بثلاثة آلاف من الانفس .امتلأت الشباك حتى تخرقت ! وأستطيع ان اتخيلهم تلك الليلة مبهوتين مذهولين ، متسائلين قائلين: ألعلّه هو نفسه معنا هذه الليلة بشكل غير منظور؟ اتذكر يا بطرس تلك الليلة في كفرناحوم يوم كنا لا نتوقع الظفر بشيء من السمك ؟ ألعله كان يقصد ما نراه اليوم في قوله : تصطادون الناس . وقد قال انه سيكون معنا دائماً . فهل كان معنا اليوم ؟ وهل عادت تلك الايام القديمة ؟



«من الآن تكون تصطاد الناس».وليس شك في ان بطرس عرف ان هذا تلميح الى الدعوة التي كان مزمعاً ان يتلقاها.وليس شك في ان ذاك الذي ارتمى عند قدمي يسوع مثقلاً بعبء خطاياه قد نهض وهو اكثر لياقة لمهمته المقدسة . ولكن لم تكن تلك الساعة فرصة ملائمة للدعوة الخطيرة . ولم يكن اولئك يومئذ قديسين معتكفين ، على استعداد للانغماس في الرؤى والاحلام الروحية . فقد كانوا صيادين منهمكين في اعمالهم . عليهم ان ينظفوا سفنهم،ويصلحوا شباكهم،ويعدوا رسالات الاسماك في عبواتها الى طبرية واورشليم. وبعد ان فرغ القوم من هذه الاعمال كلها التفت يسوع الى سمعان واخيه اندراوس وقال لهما : «هلمّ ورائي فاجعلكما تصيران صيادي الناس». ثم انتقل الى السفينة الاخرى حيث كان الشركاء يصلحون شباكهم المتخرقة ، حيث رأى يعقوب بن زبدي ويوحنا اخاه « فدعاهما للوقت فتركا اباهما زبدي في السفينة مع الاجرى وذهبا وراءه » .

وقد قبلوا هذه الدعوة لا مجرد تلاميذ ،متعلمين ، بل مساعدين وزملاء له في خدمته وعمله. وكانت تلك خطوة اخرى أعقبت ما بدأه معهم يوم التقى بهم على ضفاف الاردن منذ ستة شهور ، يوم جلس اثنان منهم معه في غرفته الصغيرة واستمعا الى آرائه الحماسية عن مستقبل العالم ، فتبدل امامهما العالم كله .

ههنا بداية ملكوت الله ! ألم تكن بداية ضعيفة هزيلة ؟ وماذا عساه أن يقول عنها رجل العالم العادي،اذ يرى خمسة من الرجال يسيرون في الطريق في قرية صغيرة،في زاوية من زوايا العالم ، احدهم تتقد في نفسه نار الحماس وهو ينظر الى نفسه كرسل لتأسيس ملكوت الله . واما الاربعة الاخرون فصيادون ، جهلاء ، قد وقعوا تحت سحر جاذبيته دون ان يدروا الى اين يذهبون او ماذا يعملون . واما زبدي الشيخ العجوز الحائر فيجلس في سفينته مع الاجرى يهز رأسه المحنكة متسائلاً : متى يعود اولاده الطائشون الى رشدهم ويرجعون الى عملهم .

ولكن الق نظرة اليوم في ضوء التاريخ الحديث ! « حقاً ان جهالة الله احكم من الناس ، وضعف الله اقوى من الناس ! » .

الفصل الرابع

السبت الاول

يذكر البشير مرقس في الفصل الاول من بشارته بياناً عن السبت الاول الذي قضاه المسيح في كفر ناحوم ، يوم ظهر علانية للمرة الاولى في المجمع ، ويوم أعلن في الجليل الغرض من بعثته . وكانت الخدمة الصباحية في المجمع تبدأ عادة في الساعة التاسعة . وكان الناس أيامئذ كما يقول احبار اليهود « يذهبون على عجل الى المجمع ويرجعون على مهل الى بيوتهم وهم يفكرون » . وها أنا أرى القرويين في ذلك الصباح يسيرون في كل الطرقات المؤدية الى المجمع الابيض القائم على التل . وهم لا يختلفون عن أي جمع من سكان القرى في هذا العصر إلا في ملابسهم التي ارتدوها . ها أنا أرى الفلاحين والصيادين يفدون زرافات مع أفراد أسرهم . وبينهم « زبدي » الشيخ العجوز في ثياب السبت مصطحباً زوجته وولديه الاكبرين يعقوب ويوحنا ، واندراوس سائراً مع بطرس وأسرته، وربما كان السيد نفسه مع هذا الفريق. وكان ايضاً « يايرس » رئيس المجمع من المدينة العليا، والقائد الذي كان ولده مريضاً بالحمى في كفر ناحوم، يصحبه بلا شك زوجته وأم الولد لترى وتسمع ذاك الذي أنقذ فلذة كبدها من الموت . . كانت الطرقات غاصة بالمارة في ألوان زاهية، وكان المجمع في ذلك اليوم بالذات حافلاً بالجموع حتى أبوابه الخارجية، لأنهم عرفوا ان ذلك الضيف الغريب سوف يكون هناك. وقد كان من عادة رئيس المجمع ان يدعو أي زائر غريب ذا شهرة للخطابة والوعظ .

والآن هم في المجمع . ولو اتسع لي المجال لأعطيت القارىء بياناً وافياً عن تفصيلات الخدمة : يقف رئيس الكهنة ويبدأ بالصلوات . فاصغ الى الصلاة الافتتاحية كما طرقت أذني يسوع في ذلك اليوم :

« مبارك أنت يا رب . ملك العالم . يا من انشأت النور وخلقت الظلمة . يا من تصنع

السلام وخالق كل شيء . . . مبارك الرب إلهنا لأجل أمجاد صنع يديه . ولأجل مصادر الانوار التي جعلها لحمده وتسبيحه. آمين » .

ثم الصلاة الثانية :

« بحب عظيم قد أحببتنا أيها الرب إلهنا . و بشفقة متدفقة قد أشفقت علينا يا أبانا وملكنا. لأجل آبائنا الذين اتكلوا عليك . . . ارحمنا وعلمنا. أنر أبصارنا بناموسك . . . وحّد قلوبنا لنحبك ونخاف اسمك. لأنك أنت إله تعدّ لنا خلاصاً . وقد اخترتنا لك من بين شعوب الارض... مبارك الرب الذي من فيض محبته، قد اختار شعبه اسرائيل! آمين» ،

وهكذا تستمر الصلوات ..ويعقبها تلاوة قانون الايمان اليهودي القديم : « اسمع يا اسرائيل : الرب إلهك رب واحد » الخ . و بعد قانون الايمان تدوي اجابة الشعب بصوت عال . و يشترك فيها يسوع.و بطرس وز بدي مع الجماهير الحافلة :

« حقاً انت إلهنا و إله آبائنا . ملكنا وملك آبائنا . مخلصنا ومخلص آبائنا . . . . الرب يملك العالم الى أبد الدهور ! مبارك الرب مخلص اسرائيل . آمين » .

وأنت تستطيع ان ترى يسوع والجماعة كلها يحنون رؤوسهم عند البركات الست التي تبدأ هكذا :

« مبارك الرب إلهنا ، إله آبائنا ، إله ابرهيم واسحق ويعقوب . . مبارك أنت أيها الرب ، ترس ابرهيم . . . . مبارك أنت أيها الرب يا من تحيي الموتى . . . . أنت قدوس واسمك قدوس . . . . آمين

هكذا يجري نظام الخدمة الطقسية ثم يعقبه «الدرس الأول والثاني ». و بعد الفراغ من الخدمة الطقسية « خدمة القداس »، أرى الكاهن يتقدم الى المنبر و يفتتح بكل وقار وخشوع « درج » سفر الشريعة ثم سفر الانبياء . و بعد قراءة سفر الانبياء تتلوه العظة اذا كان في المجمع حبر من الاحبار ، أو شخص له شهرة ذائعة . وهنا أرى الكاهن ينظر بعينيه الى الزائر الكريم الجالس في مقعد بطرس ويقول له : « أيها السيد : اذا كان لديك كلمة نصح للشعب فتفضل بالقائها » .

يتقدم يسوع والكل يترقبونه بفارغ الصبر. و يبدأ بقراءة الدرس من سفر الانبياء . وكان بودّنا لو توافر لدينا بيان واف للعظة التي ألقاها . والمرجح ان ذلك لا يصعب علينا

لو عرفنا فقط كيف نبحث عنها. لان البشائر تذكر لنا تفاصيل كثيرة من أقواله التي تفوه بها، مبعثرة وغير مقترنة، بدون تعيين الزمان أو المكان. فمثلاً قد جمع البشير متى — وكان همه الاكبر منصرفاً الى تدوين أقواله — عدداً وافراً من هذه الاقوال بعد ذكره الموعظة على الجبل . وليس من المحتمل ان تكون الاقوال التي ملأت أربعة فصول من بشارة متى قد قيلت في وقت واحد . لانه لم يكن من عادة المسيح إلقاء العظات المطولة . واذا ألقينا نظرة من خلال اجزاء تلك الخدمة الافتتاحية في مجمع كفر ناحوم، نرى مرقس البشير يصف الشطر الذي قام به المسيح بهذه الالفاظ « . . . بهتوا من تعليمه لانه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة » .

و بعض هذه الاقوال التي نذكرها الآن تبدو لنا متفقة تماماً مع عظته الافتتاحية عن رسالته في الجليل . والذي نتصوره انه بعد اعلان ملكوته أراد ان يدفع عن نفسه تهمة لصقت به بأنه ينقض الناموس :

« لا تظنوا اني جئت لأنقض الناموس أو الانبياء .ما جئت لأنقض بل لأكمل » . ثم بسلطان هادىء رزين يرفع هذا الناموس القديم و يسمو به الى معنى أسمى وأنبل . وفي هذا العمل من الجرأة والاقدام ما فيه :

« قد سمعتم في الناموس انه قيل للقدماء : لا تقتل . ومن يقتل يكون مستوجب الحكم . وأما أنا فأقول لكم ان كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم . قد سمعتم انه قيل لا تزن . لا تحنث ، تحب قريبك وتبغض عدوك . . . أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم . . . ها أنا أعلن لكم معاني أرقى وأعمق لهذه النواميس كلها » .

وانه لسلطان جريء ان يقول معلم « أما أنا فأقول لكم . . . » . واذا صح ما قلناه عن حديث كفر ناحوم ، استطعنا ان نفهم مغزى قول البشير مرقس عن جمهور كفر ناحوم : « بهتوا من تعليمه لانه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة » .

و يسوع لم يفرغ من تلك العظة ، لانه وهو يتكلم حدثت ضوضاء واضطراب . إذ كان في الهيكل رجل مجنون به روح نجس ، رجل له شخصية مزدوجة — شخصيته وشخصية روح نجس متسلط عليه. فأخذ يصرخ :« آه . ما لنا ولك يا يسوع الناصري ؟ أنا أعرفك من أنت ، قدوس الله ! » .

وتستطيع ان تصور لنفسك مقدار الهرج والمرج الذي ساد في ذلك الهيكل، والنسوة الخائفات، والجموع تنتصب لترى ما الخبر. ولكنهم حين ينظرون الى يسوع يعاودهم الهدوء والطمأنينة حالاً. لان عينيه الهادئتين الرحومتين تستعرضان هذا المخلوق البائس فيخرج من فيه كلمات قوية بسلطان شديد صارم لهدم قوة الروح الشرير « اخرس واخرج ! ».

« فصرعه الروح النجس وصاح بصوت عظيم وخرج منه. فتحيروا كلهم حتى سأل بعضهم بعضاً قائلين ما هذا ؟ ما هو هذا التعليم الجديد ؟ لانه بسلطان يأمر حتى الارواح النجسة فتطيعه ! ».

* * *

ولم ينته السبت بعد. وسار الجمهور المتحير من المجمع الى بيوتهم في ذلك اليوم، وهم يتحدثون عن الامور التي رأوها وسمعوها. وأرى يعقوب ويوحنا سائرين مع السيد ومع بطرس والذي نعلمه من كتاب اليهود انهم على الرغم من تشبثهم بفكرة حفظ السبت تشبثاً شديداً، كان من العادات الدالة على الكرم والسخاء اقامة الولائم في ذلك اليوم. والظاهر ان يعقوب ويوحنا كانا مدعوين للغذاء في بيت بطرس للقاء السيد. فجاء يسوع عن طريق المرفأ « الى بيت سمعان واندراوس مع يعقوب ويوحنا ».

ولم يكن غذاء السبت قد أعدّ بعد. وكان البيت في حالة ارتباك واضطراب. لان الحمى — وهي لعنة ذلك الاقليم الحار المتاخم لبحيرة الجليل — كانت قد سطت فجأة على ربة البيت حماة بطرس. فدخل السيد ووضع يديه عليها «فتركتها الحمى حالا وصارت تخدمهم».

وبعد ذلك حان ميعاد راحة السبت. وكانت القوانين شديدة إذ كان مفروضاً ان يراعي الناس الهدوء التام حتى غروب الشمس. ولكن حتى «إذ غربت الشمس» لم ينته المشهد، وكان السكان في منزل بطرس يتسمعون وقع أقدام القادمين واحاديث المتلهفين وأصوات الجمع الحاشد، ونظروا فاذا « المدينة كلها مجتمعة على الباب ». وعلى الساحل والى جوانب المياه حول الشباك المجففة على الشاطىء، اجتمع المحمومون مطروحين على حصر من السمار، والامهات بأطفالهن في سقم وهزال، والرجال يقودون أولادهم العميان، والمجانين تمسكهم الايدي القوية منعاً لهياجهم، ويسوع عند الباب يشهد هذه المناظر كلها.

منظر أليم قاس. منظر يثير كوامن الحس والاشفاق. عند الباب اجتمعت المحبة

الرحيمة والعطف الحنون ، والرغبة الصادقة للغوث والاسعاف ، الرغبة التي تحمل البشرية البائسة لتتماس مع الله اجتمعت هذه كلها و بدت على وجوه ذلك الجمهور المترقب المحيط بالمرضى والمتألمين من ذويه . وهنا يبدو لنا على الأقل شيء واحد في سر الألم : انه يبرز النصر الالهي في الانسان. فان الآلام التي نحس بها في قلوبنا بسبب آلام اعزائنا واحبابنا. ورغبتنا في المعونة والاسعاف. وتضحية الأم لاجل ولدها — هذه كلها صور انعكاس قلب الآب السمائي ، هي الغرائز الدفينة في قلب العالم يوم صنع الله الانسان على صورته .

وأحس يسوع يومئذ بصلة بهم ، لأن عطفهم لم يكن إلا ظلاً لعطفه الاكبر . وفي كل البشائر نرى هذا الدرس بارزاً ظاهراً، عطف المسيح الرقيق الحنون حيال آلام البشر كأفراد. واكثر من ذلك، فاننا نعلم انه شفى المرضى ببذل مجهود كبير من نفسه، حتى قال مرة عند ما لمسته امرأة وشفيت « قد لمسني واحد لاني علمت ان قوة قد خرجت مني » .

وحين كان يجول بين المتألمين كان قلبه يحنو عليهم ويتألم معهم. وها أنا أراه ينحني ليأخذ بين ذراعيه طفلاً مريضاً بينما الأم المتألمة تجثو عند قدميه . وأرى ولداً هزيلاً سقيماً يقبل اليه راكضاً . والاعمى والمقعد يمدان له الأيدي. والمرضى المحمومين ينتظرون دورهم للشفاء. وبينما يلمسهم ويشفيهم يشعر بقوة تخرج منه . ولذا نرى البشير متى عند ما يروي هذه القصة يضيف اليها معنى جديداً من نبوة اشعياء القائلة : «أوجاعنا حملها. أحزاننا تحملها»: « هو أخذ أسقامنا وحمل أمراضنا » .

* * *

لا شك في ان المسيح تعب تلك الليلة . والاطباء والرعاة يعرفون جيداً مقدار الجهد العصبي الذي يصيب الانسان بعد ساعات طويلة يقضيها وسط الآلام اذا كان القلب يشارك حقيقة المتألمين في الآلام . وفضلاً عن ذلك فان السيد كان يبذل من قوته في شفاء المرضى . ولذا يحق لنا ان نعتقد انه كان متعباً جداً عندما جلس على « الحصير » في منزل بطرس تلك الليلة ، وهو يشعر بالغبطة لانه أدخل السعادة الى القلوب ، ووهب الصحة للاجسام . ولكنه كان دائماً في حاجة الى اكثر من الراحة الجسمانية . فانه قبل الفجر «وفي الصبح باكراً جداً» أحس به بطرس يتسلل من المنزل — وهذه ملاحظة في بشارة مرقس تدل على ان بطرس كان عوناً له في كتابة بشارته — وهناك — وقد بزغت أشعة

الفجر الذهبيــة على قنن التلال المنبسطة تحت أقدامها البحيرة بجمالها الهادىء — وجد بطرس السيد جاثياً فوق تربة الارض السمراء اللون ، يريح نفسه بالاتصال الهادىء بالآب. هذه كانت حاجة المسيح المستمرة في كل حياته الارضية. ولم يستطع البقاء طويلاً دون اشباع هذه الحاجة . وما أحوجنا نحن الى ذلك ! ولذا يأمرنا دائماً ان نحافظ على صلتنا بالله على هذا النحو .

وهناك على التل وضع مع بطرس برنامج رحلته الى قرى الجليل « لأكرز هناك ايضاً لاني لهذا خرجت » . وهكذا بدأ رحلة أخرى لم يدون عنها شيء فصولا أخرى غير منظورة من حياته الارضية — ولا شك في انه تخلل هذه الرحلة أقوال ثمينة لاسبيل لنا الى معرفتها ، وأعمال القوة والمحبــة التي سوف لا نسمع عنها شيئاً . ويتبين من قصة كفر ناحوم ان الحوادث كانت تتزاحم مع بعضها في أيام عمله، ومع ذلك لم نسمع عن رحلته الانفرادية قبل مجيئه الى كفر ناحوم إلا معجزة واحدة هي شفاء ابن قائد الجند. وفي هذه الرحلة التي قضى فيها ربما شهراً أو شهرين لا نجد إلا حادثة واحدة هي شفاء ابرص .

وهذا يحدث تكراراً . فان مراحل كاملة في حياته العملية تمضي في صمت لا نسمع عنها شيئاً . وانه لغريب هذا التحفظ في قصة الأنجيل . فليس لدينا بيان مسطور إلا مجرد لمحات بسيطة عن حياة السيد . وهذه الامور القليلة في حد ذاتها كافية بلا شك . فيقول يوحنا : « كتبت هذه الامور لتؤمنوا أنتم » . ثم ذكر ملاحظة في ختام بشارته مازجها شيء من المصطلحات الشرقية تذكرنا بالفصول غير المسطورة في حياته: « وأشياء أخر كثيرة صنعها يسوع ان كتبت واحدة واحدة فلست أظن ان العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة » .

الفصل الخامس

لا كرامة لنبي في وطنه

تتبعنا المسيح وهو يتنقل في قرى الجليل من قرية الى اخرى، حتى ادت به خاتمة المطاف ذات مساء الى الناصرة «حيث كان قد تربى». وهناك وقع نظره على الطريق الذي لعب فيه مع الصبيان الآخرين، ومدرسة القرية التي تلقى فيها الدروس على يد الحبر القروي، والبئر التي حمل منها الماء لأمه، وحانوت النجارة والفلاحين الذين صنع لهم الانيرة والمحاريث، والاصدقاء القدماء الذين عطف عليهم وهو بعد صبي يافع، والتلال التي جال فوق ربوعها في ايام شبابه الاولى تحوطه الاسرار العميقة عن كنه بعثته. ومهما كانت جولاتنا. ومهما كانت اختباراتنا، فان البيت الصغير الذي نترعرع فيه هو احب الامكنة الينا واشدها أثراً في النفس.

ومع انه لما يمض عليه سنة واحدة منذ هجر هذه الربوع والتقى بالمعمدان في البرية، فقد خيّل اليه انها أشبه بسنين طويلة، لان احداثاً كثيرة قد حلّت به وغيرت حياته كلية. كيف لا وقد هجر هذه الربوع شاباً قروياً تكتنفه اسرار المستقبل، فعاد اليها بعد اختباره العجيب، بعد اذ إدرك انه مسيا الله!

وتلك الايام القليلة التي قضاها هناك تحتاج الى شرح طويل: فهل جاء اليه في تلك الليلة اصدقاء الطفولة القدماء ليحيّوا مواطنهم الشاب الذي ذاع صيته تحية الاحترام والعطف؟ وهل كانت أمه لا تزال قاطنة في ذلك البيت القديم وراء حانوت النجارة؟ لنفكّر في لقائه اياها في هذه الظروف، وجلوسه الى جانبها يحدثها الى منتصف الليل عن الشئون التي كانت «تفكر بها في قلبها» طيلة السنين منذ انبأها الملاك جبرائيل.

أما الكتاب المقدس فيلقي قناعاً على هذه الامور، ربما خشية ان نتطاول ونغلو في بحث انسانية ابن الله!.

وكل ما قيل لنا تلك القصة المخجلة الاليمة، قصة زيارته للمجمع يوم السبت. والوسط

هنا يشبه وسط مجمع كفر ناحوم. فالجمع حاشد ، والمشاعر هائجة ، والحبر يدعوه لقراءة فصل من السفر المقدس . وكانت المصادفة العجيبة ان فتح الدرج وقرأ من سفر اشعياء الفصل الحادي والستين :

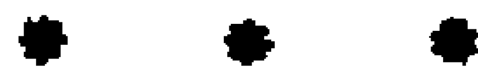
« روح السيد الرب عليّ . لان الرب مسحني لأبشر المساكين . ارسلني لأعصب منكسري القلب . لانادي للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالاطلاق . لانادي بسنة مقبولة للرب ».

ثم طوى السفر وأعطاه للخادم وجلس ، وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة اليه. وساد سكوت عميق. ولشدّ ما كانت الدهشة عندما أعلن في صوت رزين هادىء :

« انه اليوم قد تمّ هذا المكتوب في مسامعكم » .

هذا كل ما دوّن من الموعظة. وفيه الكفاية. فهو توكيد بأنه هو المسيا الذي حلم به شعب اسرائيل مدى الاجيال ، واعلان بعثته المنطوية على العطف والنعمة والبرّ .

ولا شك في ان هذا الاعلان قد ادهشهم . ولكننا نعلم انه قد مسّ قلوبهم بطريقة القائه. لانه على الرغم من تعصبهم وشبهاتهم « كان الجميع يتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فيه ». وقد بدت هذه القوة المغناطيسية الجذابة في كل اقواله. وكيف لا يكون ذلك وقلب يسوع يكشف في كل كلمة وكل نظرة موقف الله العطوف حيال الانسان !



ولكن الجمع كان من صنوف شتى من الناس . والامزجة تتباين حتى في الصنف الواحد . ففي اول الامر استطاع ان يستميلهم الى جانبه بقوة كلامه . ولكنه رأى بعدئذ تبديلاً في موقفهم . فكان يتسمع دمدمة وتهامساً بينهم : « أليس هذا النجار ابن مريم؟ أليس اخوته معنا؟ لماذا لا يفعل هنا ما صنع في كفر ناحوم ؟ ». ونستطيع أن نرى لاول وهلة عوامل عديدة للتعصب والعداء . واولها انه كان معروفاً لهم ، وليس لنبي كرامة في وطنه . وكان المنتظر ان يكون المسيا شخصية محوطة بالاسرار يظهر فجأة من عالم الغيب. اما هو فكانوا قد عرفوه منذ طفولته . وكان رفيق اللعب وزميل الدراسة لكثيرين منهم. وتقطن اسرته في زاوية قريبة . فحسبوه في نظرهم وضيعاً متعاظماً . أجل كانت ألفاظه كلمات النعمة، ولكنها ألفاظ تفوّه بها نجار القرية. وكان بين الجمع كثيرون حسبوا أنفسهم

ارقى كثيراً من نجار وضيع - من الاغنياء وارباب المهن وذوي الملكيات الصغيرة. وحتى الذين من طبقته ، سارع كثيرون منهم للوقوف موقف التعيير والشماتة ازاء عامل وضيع أقام نفسه معلماً لمن هم أفضل منه . « فامتلأ غضباً جميع من في المجمع » .

والقصة طبيعية جداً تتكرر اليوم في أية بلدة قروية : « من هو هذا الذي أقام نفسه مسيا ؟ أليس هذا النجار الذي كان يشتغل مع يوسف ، الرجل الذي كنا نستأجره لصنع مقاعدنا ومناضدنا وأنيرتنا ؟ اخوته اناس عاديون ، يعقوب ويهوذا وسمعان ، واخواته يسكنّ على مقربة من هنا » .

هذه كلها أقوال بشرية . وكثير منها لا يبدو فوق مستوانا نحن .

ثم انهم كانوا حاسدين كفر ناحوم وهذه خاصة أخرى من خواص القرى الريفية : « اذا كان مواطننا هذا عظيماً ، فلماذا لا يفعل في موطنه العجائب والمعجزات التي اشتهر بها في كفر ناحوم ؟ » .

هذه كلها ظواهر محزنة للطبيعة البشرية ، ظواهر بشرية وطبيعية ، أشبه بظواهرنا نحن . فلا حق لنا ان نقف موقف العذل واللوم تجاه مدينة الناصرة . بل هي بالأحرى أشبه بنا ، ونحن لا نفضلها في شيء . لاننا من طينة واحدة . ونحن ايضاً يلتمس لنا يسوع المعاذير كما التمسها لقومه بقوله « ليس نبي مقبولاً في وطنه » .

وفي الناصرة تطرفوا الى حدّ بعيد . فان المتعصبين التفوا حوله والقوه أمامهم حتى كادوا يلقون به من حافة التل الى الوادي السحيق . ولا شك في أن قلب المسيح قد انكسر وساورته الكآبة والخيبة ، كما ينكسر قلبه وتتولاه الكآبة والخيبة من جراء أفعالنا نحن كل يوم . ولكن المسيح اعظم وانبل من أن يحقد أو يحمل ضغينة . وعلى الرغم من كل شيء يرضى أن يباركنا إذا لم نحلْ بينه و بين ذلك ، واذا لم نضيّع الفرصة السانحة .

أما الناصرة فقد أضاعت فرصتها . واجتاز هو في وسطهم ومضى . ولم ترَ الناصرة وجهه مرة أخرى .

* * *

وعندي هنا فكرة هامة ، ناحية من نواحي الادلة المسيحية لم يلتفت اليها فيما أنا ارقب اهل الناصرة يعيرونه ويهزأون به ، أفكر في شعوره باليأس المستحكم وخيبة أمله

في المشروع الذي اقام نفسه لاتمامه . اذ كيف يمكن لانسان في موقفه أن يكمل شيئاً ما ؟ أفكر في حيرة المفكرين من أهل زمنه، والمفكرين هذا العصر الذين يحسبونه انسانا ليس الاّ ...

أما في أعين أهل زمنه فقد كان بالطبع انساناً فقط ، انساناً نبيلاً عطوفاً جذاباً غريباً في نفسه . إنساناً ليس إلا . عرفوا مكانته الاجتماعية . عرفوه عاملاً من الطبقات الوضيعة في الحياة يخالط عامة الشعب . وقصة الناصرة تبين حرج المركز الذي وضع فيه بسبب مركزه ومكانته. وقد رأوا ان معلوماته عن العالم كعامل بسيط واختلاطه بالطبقات الراقية المتطلمة لم تكن الا بقدر محدود . وكان محروماً من المؤثرات وعوامل النفوذ التي تزوده بالحكمة والتهذيب وسعة الفكر وتعدّه زعيماً بين الناس. وهو الذي قضى كل حياته تقريباً في عمل يدوي ، حياة لا مجال فيها للرقي العقلي .

ثم رأوا أيضاً هذا الصانع غير المهذب — الذي يحلم بملكوته — وحيداً لا صديق له . فلم يكن له أولياء ولا نصراء يأخذون بيده . وذوو النفوذ لم يعبأوا بأمره كثيراً . والحكومة ارتابت في أمره . والكهنة وقادة الشعب كانوا أعداءه الالداء .

يضاف الى هذا انه جاء من تلقاء ذاته متطفلاً لم يدعه أحد . ولم يُرِدْه أحد . ولم يدعَ زعيماً في أية أزمة قومية ، بل جاء من تلقاء نفسه. وكان ممكناً ان يعرفه الناس زعيماً مهيجاً يحض على الثورة والعصيان. ولكنه أثبط هذه الفكرة باستمرار، وأبى ان يُحسب بين الابطال ، بل كان يقول ان مملكته ليست من هذا العالم .

هل وُجد في العالم مصلح في مركز حرج خائب كهذا ؟

ولكن لفرط دهشتهم رأوه يضع يده على الأعين العمياء فتبصر . يضع أصبعه على الآذان الصماء فتسمع . يلمس الابرص والمريض فيبرأ . يأمر الأرواح النجسة فتطيعه . لا بل قيل ان الموت نفسه لم يقاوم له مطلباً . وقد أذاعت كفر ناحوم خبر ابنة يايرس . وأنبأ جمع في جنازة نايين عن ميت أقامه من الاموات . وكل اورشليم سرت فيها كهرباء قصة لعازر . فلا عجب ان يتحيروا ويبهتوا .

ثم رأوا ذلك الفلاح القروي الذي قضى حياته حول منضدة النجارة لا يدّعي فقط العلم بأسمى ضروب الحق الروحي ، بل يدعي لنفسه سلطاناً لم يحلم به أحد ممن سبقه من الانبياء إذ قد وضع بين يديه سلطة غفران خطايا الناس. بل قد أخذ على نفسه ان يكمل

تعاليم كتابهم المقدس : « سمعتم انه قيل (في الكتاب المقدس) للقدماء . . . أما أنا فأقول لكم أشياء أسمى وأعمق»، بل قد اجترأ على ان يقول عن نفسه أشياء تحسب اكثر من تجديف لا يمكن لرجل عاقل ان ينطق بها . ولكنه قالها بكل تعقل ورزانة وهدوء بحيث لم يجرؤ احد على اعتباره معتوهاً مجرداً من الدين .

اسمعوا ما يقوله .

« ابن الانسان يصلب . . . وفي ثلاثة أيام يقوم . الحق الحق اقول لكم من يسمع كلامي و يؤمن بالذي ارسلني فله حياة ابدية . من رآني فقد رأى الآب . كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم . ابن الانسان يجيء في مجده وجميع الملائكة القديسين معه و يجتمع أمامه جميع الشعوب للدينونة . أنا اجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً . أنا هو نور العالم . أنا والآب واحد » .

تصور فزع اليهودي المفكر وهلعه حيال هذه الادعاءآت الهائلة . كان هذا كله جنوناً ! كان تجديفاً !! كان النجار الناصري مشكلة حيرت أفهام الناس . . .

انظروا أيضاً الى موقفه المستقل عن قادة الشعب وزعمائه ،موقفه السائد عليهم .وكان المنتظر ان يتهاون ذلك القروي الوحيد الاعزل عن الانصار — مع الشعب فلا يغاضبهم . ولكن لا ! قد جاسيداً ومعلماً وموبخاً ومصلحاً لعصره . ومع انه كان في رقة المرأة وعطفها حيال الخطاة التائبين، فانه ألهب ذوي المساوىء والشرور بسياط لاذعة وكان الناس يجفلون و يفزعون امام لواذع قوله :« جيل شرير وملتو » — « ستكون أرض سدوم وعمورة يوم الدين اكثر احتمالاً منكم » . وليست هذه طريقة مثلى لكسب رضاء للناس !

وهل كان اكثر حكمة وتحفظاً مع رجال الدين وقادة الشعب ؟ اسمعوه يقول كملك غاضب حانق يؤنب عبيده الخائنين : « و يل لكم ايها الكتبة والفريسيون. انتم تغلقون ابواب ملكوت السموات فلا تدعون الداخلين يدخلون . انتم تحبون التحيات في الأسواق والمتكئات الاولى في المجامع . ايها المراؤون ! أيها القادة العميان ! يا اولاد الافاعي ! كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ . . . . . » . هبوا للمطارنة والقساوسة وحكام الشعب في عصرنا هذا ينالهم مثل هذا التأنيب المقذع : ممن ؟ ليس من رجل متقدم في السن اوكاهن وقور ناضج الاختبار عظيم السلطان . لا ! أليس هذا النجار ابن مريم ؟ كيف يعرف هذا

الانسان علماً لم يتعلمه قط ؟ فليس عجيباً ان يغتاظوا منه ويصلبوه ! وقد كان . هذه هي طريقة حلهم للمشكلة ولكنها لم تحلّ . لانهم جابهوا مشكلة اكثر تعقيداً بعد ان أعلن اتباعه قيامته من الاموات .

* * *

وهذه المشكلة ما تزال باقية حتى اليوم ولكن باكثر شدة . لانه منذ قيامته وهذا الانسان العجيب يكتسب طاعة العالم باستمرار ، حتى لقد مضى نحو ألفي سنة والعالم ينظر اليه بخوف ورهبة كاله عظيم قدير .

وفي عصرنا هذا ايضاً اناس ينظرون الى يسوع الناصري كرجل صالح ومعلم قدوس ، كانسان له اتباع جهلاء واهمون آمنوا بانه الله وتخيلوا عنه كل انواع الحوادث البعيدة التصديق : القيامة والصعود وحلول الروح القدس — حوادث لايمكن ان تكون قد وقعت .

وانا هنا لا اعتب على أي مفكر حرّ مخلص . والوهية المسيح من المسائل العظيمة الخطيرة .ولكل مفكر حرّ مخلص ان يواجه المشكلة وجهاً لوجه . ولكن عليه أن يواجه المشكلة من كل نواحيها جملة واحدة .

عدْ بالذاكرة الى مشهد مجمع الناصرة وتصور الشعب يتهكم على ادعاءات نجارهم القروي الشاب ، وضع نفسك في مركزهم .

وصور لنفسك مشهداً مماثلاً له في هذا العصر : حانوت نجار في احدى زوايا الطرقات الضيقة . وبداخله شخص في ثياب بالية يعمل أمام المنضدة. عامل عادي بيديه الخشنتين. مولود من أبوين وضيعين — يخالط طول حياته عامة الشعب . لاعلاقة له بالطبقات المتعلمة. ولا فرصة له لدرس الكتب . لاشيء يحوطه من الجاه او الجلال لاننا لم نعرف بعد شيئاً عن افكاره السامية وصفاته الرفيعة . . . .

ولنفرض ان هذا الشخص الذي كثيراً ما استأجرته لاشغال النجارة في دارك ثار لانهاض ضمائر أهل البلدة . ولنفرض اننا دعوناه يتكلم في احدى كنائسنا . ألا يقول بعضنا : أليس هذا هو النجار ؟ ألستم تغتاظون منه ؟

وماذا تفكر لو قيل لك ان هذا العامل الشاب سوف يخلق ثورة في معالم البشرية .

وانه بعد ألفي سنة من هذا التاريخ تتعلق به ملايين كثيرة . وان الناس سيحرصون على كلماته واقواله، حتى اذا أُستكشف قول ضائع من اقواله، يقوم ويقعد له العالم المتمدين! ماذا تقول لو تنبأ لك احدهم انه في مدى ألفي سنة سيُعبد ذلك الشاب النجار كاله بين أرقى وأسمى أجناس البشرية ؟

وهل في العالم شيء ابعد عن التصديق في تاريخ البشرية بأسرها من قصة ذلك النجار الناصري الذي سخر منه مواطنوه ، النجار الذي يُعبد كاله في كل الارض في عصرنا هذا ، النجار الذي بعد ألفي سنة من الدرس والبحث والاختبار يزداد البشر تعبداً له وتقرباً اليه ، النجار الذي تعتبر كلماته القليلة التي تفوه بها وقصته في الاشهر القليلة التي قضاها على الارض اكبر قوة عرفها البشر ترفع الانسانية الى ارقى مراتب الكمال ؟

مجرد انسان ليس الا ، شاب لاصديق له ، نجار قضى ثلاثة وثلاثين عاماً على الارض! ثلاث سنين قضاها في خدمة عامة جائلاً في بعض قرى ومدائن فلسطين ! رفقاء قليلون من مرتبته وطبقته الاجتماعية هم النواة الذين تألفت منهم ملكوته . لم يكن لديه وقت لتنظيم نظام ديني ! لم يترك وراءه مجموعة قوانين ولا مجلساً لاهوتياً ! تفوه ببعض الالفاظ الارتجالية عرضاً على قارعة الطريق او عند البئر او في أحاديثه مع زملائه ! لم يكتب سطراً ولا كلمة مكتوبة ! حقائق كلامية قليلة هي التي خلفها وراءه !

ثم مات ! قتلوه ! هل كان مجرد انسان ؟ حقاً انها مشكلة تسترعي التفكير الطويل والبحث المستفيض ؟ !

الفصل السادس

قم وامش ! . . . : . . . . اتبعني !

ثم « دخل السفينة واجتاز وجاء الى مدينته » أي الى كفر ناحوم. وكانت قد أصبحت موطناً له بسبب طول اقامته فيها وكثرة الاعمال التي أجراها بها. ويقول مرقس البشير انه اجتمع في البيت الذي دخله كثيرون « حتى لم يعد يسع ولا ما حول الباب . وكان يخاطبهم بالكلمة » . ويؤخذ من ظاهر القصة ان البيت المقصود كان بيت بطرس ، ولو ان كثرة الجمع الحاضر تنبىء عن دار كبيرة . وربما كان المقصود فناء داخلياً في بيت يهودي بهرواق مرتفع مسقوف ، وبالسقف فتحة الى العراء . وفي ذلك الرواق يتكلم يسوع وقد أحاط به الاصدقاء وأفراد أسرة البيت وبعض ذوي الحيثية . ويشير لوقا اشارة ذات مغزى الى ذوي الحيثية بقوله « وكان فريسيون ومعلمون للناموس جالسين وهم قد أتوا من كل قرية من الجليل واليهودية وأورشليم ». والذي نعلمه ان السلطات في أورشليم لم تكن تضمر له شيئاً من الصداقة ، وان زيارته في عيد الفصح وتطهيره الهيكل لم تكن من الاعمال التي راقت لهم. وهذا يحملنا على ان ننظر بشيء من الريبة الى أولئك الروّاد القادمين من أورشليم واليهودية .

ونحن قد نصور لانفسنا الجمع الكثير مصغياً ، والفناء مكتظاً بالجمهور الحاشد خارج الباب باعناق مشرئبة يتوقون الى سماعه ورؤيته ، وفي نفوسهم رغبة ودهشة وميل الى الايمان . أما زعماء اليهود فكانوا جالسين في مكان الكرامة على مقربة من يسوع . وطبيعي أن ينظر اليهم الشعب نظرة الجيش الى القائد . وقال احد الكتاب في وصف هذا المشهد انه أشبه بحشد اسرائيل فوق جبل الكرمل ليشهدوا نتيجة الصراع بين ايلياء وكهنة البعل . وربما كان في هذا التشبيه شيء من القسوة لان كهنة أورشليم لم يكن قد وصل بهم العداء الى هذا الحدّ . بل كانوا في هذا الموقف مراقبين ، ناقدين ، مرتابين.

* * *

وبغتة تحدث مفاجأة . وتتطاول الاعناق الى فوق . وذلك لان خبر مجيء يسوع الى ذلك البيت كان قد بلغ مسمع انسان يائس غدا ملقى على سرير مرضه : ونقرأ بين ثنايا سطور القصة ما يحملنا على الظن انه قد جلب هذا البلاء على نفسه . وانه قد هدّم جسمه بيده في حياة الخلاعة والبطر ، وانفق مادة حياته في عيش مسرف متمرد . زرع بيديه الزوان في حديقة حياته، وهو يحصد الآن ثمار ما غرست يداه. وربما كان قد هجر قريته الهادئة الطاهرة وسار في الطريق المعبدة البيضاء الى مدائن الفسق والفساد في فينيقية. سار الى كورة بعيدة . وربما كانت قصة ذلك الانسان جائلة في مخيلة السيد عند ما نطق بمثل الابن الضال الذي سافر الى كورة بعيدة . والآن ها هو طريح الفراش ، شخصية مهدمة بالية — ولكم شهدنا في حياتنا من الشخصيات المهدمة — وأمرّ ما تشعر به نفسه انه هو الذي جلب على نفسه هذا الشقاء . وتدلنا عبارات القصة على انه تاب حقاً وندم عما فرط منه. ولكن ما المنفعة في ندم بعد عدم؟ والله لن يغفر لانسان هدّم حياته بيديه، وربما هدَّم حياة آخرين معه .

والعادة ان الانسان الضال الشارد في طريق الحياة لا يخلو من جاذبية فيه . والظاهر انه كان حوله نفر من الاصدقاء أرادوا انتشاله من مهواة اليأس. فجاءوا اليه يوماً وقالوا له « يسوع في مدينته ».وكان يسوع هذا قد ابرأ حالات اشد استعصاء من هذه . قالوا له: «هو يرثي ويشفق على التاعسين الاشقياء .فتعال نحملك اليه. ومن يدري ماذا يحدث؟ ».

يجيئون به الى يسوع مقعداً بائساً وفي نفسه وخزات من الضمير أليمة . ولكن كيف الوصول اليه والجمع حاشد حتى عند الباب. هل ينتظرون حتى الغد ؟ ربما يرتحل النبي من هذه المدينة.وهم لا يريدون ان يخيبوا أمل صديقهم بعد ان ايقظوا في نفسه شعاعة الرجاء. اذن ماذا يفعلون؟خطر على بالهم فكرة .والصيادون ماهرون في استنباط الحيل للخروج من المآزق. لنجيء بالحبال من السفن الراسية على الشاطيء ولنتسلق السقف ولندله من فوق!

هذا هو الحادث الذي فاجأ يسوع في موعظته : ضوضاء فوق السطح . يرتفع غطاء السقف المصنوع من الاجرّ،ويشق النور من فوق،ويرفع يسوع بصره ليرى وجوه أربعة من بحارة السفن سمر الوجوه وقد ربطوا حبالهم الى فراش دلّوه الى تحت . وعلى الفراش ارتمى انسان بائس مقعد . واتصور يسوع يبتسم ابتسامته العذبة أمام هذه الحيلة اللبقة

ويقول البشير « رأى يسوع ايمانهم ». أحب في الاصدقاء عطفهم على صديقهم. وأحب اكثر من ذلك ثقتهم به . ولم يرد ان يردهم خائبين .

ألقى يسوع نظرة الى ذلك الوجه الشاحب الابيض المطروح عند قدميه. ولمح وراء العينين الغائرتين دلائل ضمير معذب ينخس ويؤنب . عرف يسوع مصدر شقاء هذه النفس البائسة وحنَّ عليه قلبه وقال : « ثق يا بنيَّ ! ثق ! ». وهذه كانت كلمته المألوفة للانفس الحائرة : « ثق يا بنيَّ . مغفورة لك خطاياك » .

وهذا هو الدليل على الزعم الذي ذهبت اليه بان الخطية كانت علة شقاء ذلك الانسان. وإلا ما قال له يسوع هذه القولة . وهنا نلمح على الرجل دهشة واستغراباً — « من هو ذاك الذي يعرف أعماق نفسي، ويضع أصبعه على مكمن الداء مني ؟». وفي نظرات يسوع غبطة اليقين تدخل الى نفسه المعذبة.وتدل القصة على انه أحس بغفران خطيته،وانه بمجرد ان تفوه يسوع بهذه الكلمات ، انسكبت في قلب العليل محبة الله الغافرة المتسامحة .

ولم تكن الدهشة قاصرة على المريض نفسه بل دهش ايضاً أصدقاؤه . ودهش كل الحاضرين . ونحن كنا ندهش ايضاً لو كنا هناك . لان هذا لم يكن ما توقعوه . فالرجل قد جاء ليشفى من أوصابه الجسدية . وكان شفاء نفسه أمراً ثانوياً . فلماذا هذا المطل والتسويف فيما يطلبه الرجل والاستعاضة عنه بحديث ديني عن غفران الخطية ؟

كان هذا موضع الخلاف بين يسوع و بينهم . وهو موضع الخلاف بيننا و بينه احياناً كثيرة . فاننا عند ما نسعى لخير أحد من الناس نجعل الدين عادة في المرتبة الثانية . أراد يسوع ان يعلّم الانسان قبل كل شيء محبة الله ومغفرته . والشيء الاول والاهم ان نبرىء مرض القلب في العالم . حسن ان نشيد المنازل الصحية بدل اكواخ الفقراء القذرة . هذا يأمر به يسوع . ولكن أحسن من هذا ان نهيء الانفس الصالحة لسكنى هذه المنازل الجديدة . جميل جداً ان نوفر السعادة والعزاء للمجاهدين المكافحين . هذا ما يقول به يسوع.ولكن الأجمل ان نجيء اليهم بالله ذاته. يسوع يعطف على أمثال هؤلاء اكثر مما نفعل نحن. ولكنه يعرف حاجتهم أفضل منا. هذا هو موضع الخلاف بيننا و بينه في تقدير الحياة. كان مثاراً لدهشتهم ان يفكر المسيح اولا في نفس الانسان العليل المطروح أمامه.

ولكن دهشة زوار اورشليم كانت أشد وأعظم . كان بينهم غضب ، وكانت بينهم

شبهات. ابتدأ الـكتبة والفريسيون يفـكرون قائلين: « من هذا الذي يتـكلم بتجاديف؟ من يقدر ان يغفر خطايا إلا الله وحده؟ » .

ويقول اغسطينوس: «لان المسيح كان الله — شعر بافكارهم»، وعرف فيهم هذا التحدي فاجابهم: «ماذا تفتـكرون في قلوبكم. أيهما أيسر ان يقال مغفورة لك خطاياك، أم أن يقال قم وامش؟ تفـكرون في قلوبكم اني أجدف. تفـكرون انه في وسع أي مدع ان يقول كلاماً كهذا ما دام لا يقدر على تحقيقه. ولـكن لـكي تعلموا ان لابن الانسان سلطاناً على الارض ان يغفر الخطايا أقول لك قم واحمل فراشك واذهب الى بيتك! ففي الحال قام أمامهم، وحمل ما كان مضطجعاً عليه ومضى الى بيته » .

وليس يصعب علينا تصور ما أحسوا به. ولم يقل لنا السفر المقدس ما خالج قلوب الـكتبة وقتئذ. ولـكن بسطاء القوم وهم أقل منهم تعصباً وأشد حساسية للتأثير الإلهي « أخذتهم حيرة ومجدوا الله قائلين ما رأينا مثل هذا قط » .

لماذا لم يدع اولئك المتعصبون الشعب وشأنه؟ كان ممكناً ليسوع ان يكتسب الى جانبه دائماً قلب الشعب. انما المتعصب، الضيق القلب، العديم الحب، هو لعنة الدين في كل العصور، يهوديا كان أو مسيحيا أو مسلما، وذلك لقساوة قلبه وضيق عقله. ولو كان لدى الفريسيين محبـة لتهللوا ان يروا مقعداً يائسا يشفى، ولاستقصوا في عطف كثير مصدر هذه القوة التي ابرأته. القلب الجاحد القاسي هو الذي منعهم عن الله لان الذي لا يحب لا يعرف الله لان الله محبة. وليس المتعصب هو الرجل الذي يقاوم آراءنا ويكافح ضد أفكارنا. انما المتعصب، مهما استتر وراء الالفاظ التقوية، هو الرجل ذو القلب المرتجف الذي يقاوم في غير محبة، ويعاند في غير عطف. امثال هؤلاء هم الذين جاءوا بيسوع الى الصلب. ولم يدع المسيح فرصة في كل تعاليمه لم يبين فيها ان اشنع خطية في العالم هي خطية القلب المجرد عن المحبة.

ولـكن الشعب لا يمكن إلا ان يتأثر بقادته وزعمائه. وهكذا تسللت الحية القديمة الى جنة عدن الصغيرة في الجليل. ومن ذلك اليوم بدأت الهمسات والريب والظنون تحوم حوله، حتى نظرت اليه كفر ناحوم شذراً في آخر الامر. وفي خلال ذلك كانت الاجناد السمائية تراقب كيفية معاملة البشر لسيدهم وربهم.

* * *

والى جانب هذه الصورة، صورة أخرى ذكرها البشيرون الثلاثة. صورة كان فيها صدمة أخرى لأهل أورشليم . فالآن أراد يسوع ان يضع الى جانب بطرس واندراوس ويعقوب ويوحنا وهم خلصاؤه الاوفياء — شخصاً آخر من طبقة محتقرة يكرهها أهل فلسطين قاطبة . وربما لم يرق هذا العمل في نظر التلاميذ انفسهم .

وكان في ذلك الزمن طريق روماني عظيم يدعى « طريق البحر » يمتد من دمشق محاذياً الضفة البحرية الشرقية للبحيرة . وهناك على ذلك الطريق قام بناء أبيض عليه شعار النسر — هو دار الجباية الرومانية — على مقربة من محطة كفر ناحوم . وفي ذلك المكان جلس متى العشار « عند مكان الجباية » . وكان الشخص غير محبوب من أهل كفر ناحوم ، وكان عمله مكروهاً . لان العاهل الروماني كان يفرض الضرائب على الشعوب الخاضعة لسلطانه ويستخدم أناساً من المواطنين كانوا يقسون على ابناء جلدتهم ويبتزون منهم أموالاً فوق طاقتهم . وكانوا عادة يوردون مبالغ مجمدة جملة واحدة للحكومة ويأخذون الباقي لانفسهم . وقد عرف يوحنا المعمدان ذلك ، فلما سأله العشارون الذين جاءوا للمعمودية : « ماذا نفعل ؟ » أجابهم : « لاتستوفوا اكثر مما فرض لكم » . ونحن نعتقد ان متى احتاز ثروته عن هذه الطريق العادية التي ألفها العشارون جباة العشور أمثاله . ولكنه لما وقع تحت مؤثرات يسوع اعتزم ان يفعل ما قام به زميل آخر له — زكا — «ان كنت وشيت بأحد أرد أربعة أضعاف».

قيل انه في ذات يوم « خرج يسوع الى البحر وأتى اليه كل الجمع فعلمهم » — أهل المدينة والغرباء والصيادون والمسافرون في محطة كفر ناحوم، ورجال القوافل المنتظرون على جانب الطريق الابيض عند مكان الجباية — وفيما هو مجتاز « رأى لاوي بن حلفى جالساً عند مكان الجباية . فقال له اتبعني . فقام وتبعه » .

وللقارىء السطحي تبدو هذه الحادثة موضوعاً للحيرة والتساؤل . اذ يستبعد ان يدعو يسوع على غرة انساناً من هذه الطبقة ، فينهض ويتبعه لساعته ، ويترك عمله ليسير وراء غريب لايعرف من أمره شيئاً . ولقد قال الشراح قديماً ان الملحدين سخروا من هذه القصة وقالوا : «إما ان يكون البشيرون قد استنبطوها من خيالاتهم، او ان متى هذا غر أحمق» . ولكننا نفترض بالطبع ان شيئاً كثيراً حدث قبل هذه الدعوة . وان لها مقدمات جرت

بين الداعي والمدعو . وكنا نلقى هذه الصعوبة عينها في حالة الرسل الآخرين، لو لم يفصح لنا يوحنا عن جلية الخبر . اذ تقول الرواية ان يسوع رأى اثنين من الصيادين في سفينة ودعاهما فتبعاه . ولو لم يسجل لنا البشير يوحنا — بعد هذه الحادثة بسنوات — الظروف المؤثرة التي احاطت بهذه الدعوة، وكيف عرف ذانك الصيادان يسوع وأحباه قبل ان يدعوهما رسمياً . لو لم يقل لنا ذلك لما عرفنا شيئاً من الامر . والارجح ان كثيراً من الصعاب التي تعترضنا في روايات الكتاب المقدس تزول ، لو عرفنا الظروف التي أحاطت بها .

كلا. لم يفعل يسوع هذه الاشياء غير الطبيعية، ولم يسمح بسهولة وفي غير جدّ خطير، لافراد الناس ان ينضموا الى شركة الرسل. ولكنه كان يترقب ويختبر . ويقبل أو يرفض، بعد إعمال الروية والتفكير . وهل ننسى انه جاءه مرة أحد الكتبة وهم من قادة اليهود وقال له : « يا سيد اتبعك اين تذهب » . وكنا نظن ان لمثل هذا الزعيم المهتدي خطورته وقدره . ولكن يسوع اختبره وقال له : « للثعالب أوجار . وللطيور أوكار . أما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه» . وعند ذلك أعرض عنه الزعيم وولّى الادبار . وجاءه مرة شاب غني فخرج من حضرته حزيناً آسفاً . وتقول الرواية ان يسوع أحب ذلك الشاب عند رؤيته ورغب فيه . وربما كان يصلح لان يكون رسولاً أو على الاقل تلميذاً . ولكن يسوع خاطر في دعوته واراد اختباره بمحك عظيم : « اذهب بع كل ما لك واتبعني » . عندئذ مضى ذلك الشاب حزيناً لان ثروته كانت طائلة . فالسيد لم يختر رسله اختياراً سهلاً في غير جدّ خطير . وهو في هذه القصة لم يدعُ متى حتى أنس منه استعداداً لقبول دعوته. ولا بد انه تقدم هذه الدعوة أحاديث سابقة .

وهنا قد نتساءل كيف بدأ متى علاقته بيسوع — ونلاحظ انه « لاوي بن حلفى » ، وان الرسل الثلاثة الآخرين هم ايضاً « ابناء حلفى ». وربما كان ابوهم واحداً . واذا صح هذا القول يكون متى اخاً لهم . والارجح ان بينه وبين يسوع صلات عائلية . فليس مستبعداً ان يكون قد عرف يسوع في صبوته، ثم غاب عن نظره بعد ان انقطع عن اسرته وجلب عليها الخزي والعار في اتخاذه جباية العشور مهنة له . وليس مستبعداً ان يكون يسوع قد جدد معرفته به عند ما لقيه في دار الجباية بمدينة كفر ناحوم . وأظنه كان يحس دائماً بشعور الخجل والاستحياء كلما وقع نظر يسوع عليه . واتخيل انه في ذات يوم كان

يسوع صدفة في مكتب الجباية . و بينما هو هناك حضر الى متى المشار صياد فقير متأخر في سداد الضرائب المستحقة عليه، وأخذ يستعطف متى لـكي يمهله وقتاً من الزمن ولايبيع سفينته وشباكه او كوخه الذي تأوى اليه زوجته واولاده . واظن متى لم يرد ان يكون يسوع حاضراً في المكتب في فرصة كهذه . أما هو فلم يذعن الى استعطاف الصياد البائس . والجدّ جدّ . وواجبات الوظيفة لاترحم . ولوكان متى مفرطاً في اللين مع الشعب لما أفلح في هذه الوظيفة . وأتخيل يسوع يغادر المكتب عند ذاك بعد ان يلقي نظرة على متى ، اشبه بتلك النظرة التي رمق بها بطرس يوم انكاره اياه عند الصليب — نظرة وكفى !

ولـكن بعد انطلاق الصياد ، اظن متى لم يشعر بشيء من هدوء النفس . وحال التفكير في مصير زوجة الصياد واولادها بينه و بين النوم في تلك الليلة . ولا اظنه قد حجز على سفينة الصياد وشباكه في اليوم التالى . واظنه بدأ يشعر بالخجل كلما التقى يسوع . وأخذ يبغض تدريجاً مهنته، وودّ لو يحظى برضاء يسوع الناصري .

أتخيل نفس ذلك الانسان تنمو تحت مؤثرات يسوع الصامتة . وأتخيله يقف وراء الجماهير كل يوم ليتسمع اقوال يسوع عند البحر على مقربة من مكان الجباية . أتخيله يحن الى اشياء افضل في الحياة . وأتخيله يتحدث الى يسوع عن الافـكار التي ثارت في داخل نفسه .

هذه كلها افتراضات . ولـكنها افتراضات قائمة على أسس . لاني أعرف على أية حال ان شيئاً من هذا القبيل كان يتفاعل في نفس ذلك المشار، ليجعله أهلاً لان يكون رسولاً . وقد عرف السيد ذلك كما يعرف كل شعور بالخجل أو التوبة او الرغبات الصالحة في نفس كل منا . ولذا نراه يجيء يوماً الى مكتب ذلك المشار — « محصل العشور » — يقول له : «اتبعني » — ومتى يسمعه بدهشة وسرور، و ينهض و يترك كل شيء و يتبعه . ولـكن وصمة الحياة القديمة ما تزال باقية . ومتى نفسه كان هيوباً خجولاً من هذه الوصمة . ولاسيما ان بسببها قد تهكم القوم على يسوع وحسبوه « صديق العشارين » . ومتى المسكين يكتب عن نفسه باتضاع في بشارته ، ويعطي لنفسه لقب « متى العشار » .

ويصح لنا ان نفترض انه كان في مقدور الرسل الستة الآخرين ان يرووا لنا قصصاً عن أصل تعارفهم بالسيد قبل ان يدعوهم الى خدمته . وكم كنا نود ذلك . وكنا نود بالاكثر ان نسمع من يهوذا الاسخريوطي —وهو الوحيد الذي اُختير من خارج الجليل— كيف اختاره يسوع ! ولا بد انه كان به شيء من حسن الاستعداد . ولا بدّ ان هناك اختبارات قوية شجية في قصته ، تعلل لنا سبب اختيار يسوع لهذا الاسخريوطي ووضعه في عداد تلاميذه .

الفصل السابع

حفلتان !....

فعل متى العشار بعد دعوته فعلاً جريئاً . إذ أقام مأدبة وداع لموظفي مكتبه والعشارين الآخرين في دائرته احتفاء بهذا الحادث الجلل في تاريخ حياته. لانه أراد ان يُري زملاءه ماذا فعل به المسيح،وما اكتنف نفسه من آمال جديدة ورغبات حارة . وقد شعر في دينه الجديد بجرأة، حملته على مواجهة ما قد يثيره حوله الزملاء من النكات وأقوال المزح.ولم يشعر في نفسه بصلاح ممتاز وتفوّق خاص يمنعانه عن الاشتراك مع زملائه القدماء ، الذين كانوا له أصدقاء بالامس على الرغم مما فيهم من اخطاء ونقائص.

ولكن تأمل جرأته في دعوة يسوع للعشاء معهم! ولا شك في انه عرف قلب السيد حتى تجرأ على دعوته . تأمل دهشة اولئك المنبوذين من الهيئة لدى قبولهم الدعوة ! وأنت تستطيع ان تتسمعهم يتحدثون فيما بينهم في دار الجباية قائلين : « ليست لنا أية علاقة بالانبياء الاطهار سوى لقائنا يسوع الناصري في حفلة عشاء وايناس ! انتظروا حتى يسمع الفريسيون والكتبة خبر هذه المأدبة وهم الذين لا تلمسنا ثيابهم في الطرقات . لا غرابة ان يميل الناس الى هذا النبي الصدوق . ولا غرابة ان يتبعه متى في غيرة ورغبة . ربما لو كان لدينا نبي مثله يعلمنا ديننا ، لكنا غير ما نحن عليه اليوم » .

أما يسوع فقد عرف كيف يوآكل العشارين والخطاة كصديق يوآكل اصدقاءه . وفي حضرته أحسّ الناس بزوال التكليف. وطبيعي انه كان ممتازاً بشيء خاص يمنع الناس عن الشعور بالحرية المطلقة أو التحدث بما لا يليق في حضرته . كانت فيه كرامة خاصة كامنة في نفسه . ولكنه لم يكن في وحدة وانفراد عن الباقين، ولم يُشعرهم بتفوّق وترفّع ينزلان من قدرهم أو يحقران من شأنهم . بل نظر الى كل انسان نظرة احترام وعطف . وها أنا أراه جالساً الى جانب مضيفه يغمس معه في الصحفة . وها أنا أسمعه يشترك في

الاحاديث على المائدة فيجذب اليه الجالسين ليتحدثوا معه في غير كلفة. وهو قد استطاع ان يتغلغل الى اعماق مشاعرهم و يستخرج افضل ما فيها. ولست اشك في ان كل ضيف جلس الى مائدة متى في تلك الليلة احس بانه انسان افضل مما كان بسبب وجوده في تلك المأدبة.

ولـكن تأمل الصدمة التي اصابت الكتبة والفريسيين والجمهور المتدين المحترم في كفر ناحوم . سمعوا خبر المأدبة ــ لان يسوع كان ذائع الصيت ــ فأثارت حفائظهم . تصور برهمياً من البراهمة المطهرين في الهند يجلس على مائدة واحدة مع المنبوذين المحتقرين !

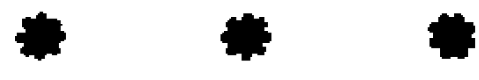
ولسنا ننكر ان الحياة الاجتماعية اليهودية قامت على شيء كثير من الحرية . ولـكن ليست هذه الحرية الواسعة . ولذلك نرى القوم في اليوم التالي على الارجح يتهجمون على التلاميذ في أحد المجتمعات على ضفاف البحيرة في كفر ناحوم قائلين : « لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة ؟ لماذا يجالس امثال هؤلاء؟ ». وكان هذا سؤالاً معقولاً من وجهة نظرهم . ولـكن الظاهر انه لم يخطر على بالهم ان يسألوا السؤال الآخر : « لماذا يميل اولئك العشارون والخطاة لان يكونوا معه ؟ وهم من طبقة لا تعبأ كثيراً بمشاركة المتدينين والائتلاف معهم » . ان قصة يسوع كلها تترك في النفس اثراً بأن العشارين والزناة والمنبوذين من كل طبقة أحبوا ان يكونوا في حضرته . لماذا ؟

لانهم أحسوا عنده بشعور العطف والاشفاق والرجاء ، الشعور الذي لم يألفوه في حياتهم والذي جذبهم اليه على الرغم منهم. لانهم رأوه في طهره الذي لا تشوبه شائبة، والذي أخجلهم وأذلَّ نفوسهم — يفكر حسناً فيهم وينظر الى الخير في نفوسهم ، الى جذوة الصلاح الـكامنة تحت رماد الشرور المحيطة بهم. جعلهم يأملون ويرجون لأنفسهم خيراً. وحملهم على ان يحسّوا على الرغم من خطاياهم وذنوبهم انهم ذات قيمة لا تقدر في نظر الله.

هذا كان سر جاذبيته . وهذا ما حمل العشارين والخطاة على ان يقتربوا اليه ، وما حمل الجماهير على ان تستمع اليه فرحة متهللة. رأى فيهم الصلاح والخير، واتخذهم اصدقاء له ووثق بهم ، وفتح لهم قلبه . وكل ما في العالم من تعاليم ونصائح وانذارات لا تساوي شيئاً إذا قورنت بشعور كهذا. فالعشار المكفهر الوجه القاسي القلب الذي نبذته الهيئة فنبذها — احسَّ بان هذا الانسان المتناهي في طهره وبرّه لا يحتقره قط ولا ينظر اليه شذراً . والمرأة الخاطئة التي طاردها اهل الصلاح كما يطاردون الابرص أحست لفرط دهشتها بانه لم يقصها

عنه ولم يطردها من حضرته ، ولـكنه تحدث اليها بما يملأ نفسها عزاء ورجاء وخيراً .

هذا هو السبب الذي حبّبهم فيه . ولا يغرب عن بالنا ان هذا هو قلب الله وشعور الله نحو بني البشر وآمال الله فيهم . واذا سئلنا عن شبه لإلهنا ، أومأنا الى يسوع .



و بعد ذلك بقليل يجيء ميعاد الحفلة الثانية :

وهي تتفق تماماً مع الموقف الودي الذي وقفه السيد حيـال الطبقة الصالحة من الفريسيين، حتى ان لوقا البشير يذكر ثلاث حوادث أكل فيها المسيح في بيت فريسي . أما الاولى فذكرت ضمن حوادث كفر ناحوم وما جاورها . والظاهر انها كانت قبل ان يشتد العداء بالفريسيين ويكشرون عن أنيابهم في وجه يسوع .

وكان بعد ان قضى يسوع يوماً من أيامه الحافلة بالمشاغل والاعمال ان ذهب في المساء في ميعاد مضروب ليتعشى مع سمعان الفريسي . فسار من بيت بطرس مخترقاً الطرقات الضيقة ومارأ بالجمع الجديد الى المدينة العليا من خلال الاشجار والبساتين حيث تقطن الطبقات الغنية. وقد ذاع نبأ هذا العشاء في أرجاء العالم ليس بسبب بيت سمعان الفخم وما أحاط به من مناظر جميلة، ولـكن بسبب « امرأة خاطئة » حزينة بائسة تطفلت على هذه المأدبة . وتدلنا القصة على انها كانت قد التقت بيسوع من قبل،وكانت تحمل له في جنبيها ما دفعها الى الامتنان والشكر . واني أتصور فتاة بائسة تاعسة قد لعبت بها ايدي الخديعة والغواية ثم قذفت بها الى الحضيض . وهي ما تزال في ألمها ووجيعة نفسها تذكر الايام البريئـة الطاهرة التي قضتها في كنف بيتها بين التلال وما تزال تذكر والدها الشيخ وامها الحنون اللذين لا تجرأ الآن على مواجهتهما . وتذكر الله الذي لا تجسر على الصلاة اليه بسبب ما اقترفت من أثم .

وللهيئة الاجتماعية ان تفزع من خطيئتها. ولـكنها لا تميز. وكثيرات من الساقطات هوَين في هذه المهواة لفجورهن . ولـكن كم من فتاة مظلومة تستطيع ان تقص روايتها المؤثرة وسقطتها المريعة على يد الحبيب الذي ركنت اليه وسلمت اليه نفسها فخانها. ونحن نقضي عليها بالطرح في الظلمة الخارجية بدون سؤال. أما يسوع فيستمع الى قصتها . ونحن لسنا ندري ماذا كانت قصة تلك الفتاة التي قدمت اليه في بيت الفريسي. ولـكننا نعلم انها

حرمت كل مورد للعطف، وأضاعت مستقبلها ورجاءها في هذه الحياة والحياة الاخرى . حتى التقت بيسوع في ذات يوم . وربما سمعته في احد مجتمعاته التي أعلن فيها قلب الله في مثل الراعي الذي يبحث عن خروفه الضال فوق الجبال وفي بطون الوهاد . أو الاب الذي يستقبل ابنه الضال الذي شرد عنه . وربما تكون قد قصت عليه يوماً ما قصتها المحزنة وسكبت امامه نفسها التائبة النادمة، وسمعت منه ذلك القول الذي انتشل به امرأة خاطئة اخرى في بشارة يوحنا « ولا انا ادينك . اذهبي ولاتخطئي » . وعلى أية حال لا بد ان تكون لها معرفة سابقة بالمسيح ايقظت في نفسها رجاء جديداً و بدّلت حياتها كلها قبل ان تتسلل الى بيت سمعان الفريسي وقلبها مليء بشعور الامتنان والعطف .

وفي القصة بعض الصعوبات، وذلك لاننا نسيء قراءتها عادة . فالمرأة لم تجيء لتعبر فقط عن توبتها وندامتها . لان موقفها هو موقف الشاكر الممتن لشيء ما.ولا شك في ان المسيح التقى بها من قبل وعلمها عن ابوة الله وغفرانه . وربما كانت على وشك ان تهجر كفر ناحوم لتحيا حياة جديدة أو لتعود الى أمها . ولم تكن لديها فرصة أخرى غير هذه تُظهر فيها محبتها وشكرها . ولولا هذا لما كان ثمة سبب لتطفلها على هذا النحو في بيت فريسي غريب عنها .

وانت تقدر ان ترى المضيف كريماً ودوداً حيال يسوع . ولكنه كان بلا شك على شيء ما من الترفع. لان هناك فرقاً بين فريسي في مكانته ورتبته، و بين مبشر شاب عُرف بين الناس كنجار الناصرة. والخدم يفهمون حالا بالتلميح مراد سيدهم أو سيدتهم، فلاحاجة ان تعطى له الحفاوة والكرامة التي تقدم عادة للضيوف الاغنياء . وكفاه شرفاً ان يحل ضيفاً في منزل رجل محترم كضيفه . وقد ظن الفريسي ان يسوع لم يلاحظ هذا ولكنه عرف كل شيء .

ويقولون ان بيت الانكليزي قلعته الحصينة التي لايقتحمها أحد . أما بيت الشرقي فليس كذلك . ويُسمح للغرباء عادة ان يدخلوا اليه ليروا الضيوف . وكانوا متكئين على مساند وأرجلهم ممتدة على وسائد الى الوراء . وفجأة يسمع الحاضرون أنات وتنهدات . واذا بامرأة مكشوفة الوجه مسترسلة الشعر — يدل مظهرها على انها من الساقطات ، جاثية على الارض عند قدمي السيد وفي يدها قارورة من الطيب الزكي الرائحة . وكانت دموعها

تتساقط على قدميه « وكانت تمسحهما بشعر رأسها وتقبل قدميه وتدهنهما بالطيب » . كانت عاطفتها شديدة متأثرة !

أحسّ سمعان الفريسي انه قد أُهين،وان كرامته قد أُهدرت. ما شأن امرأة كهذه في هذا البيت ؟ كان الموقف مخجلاً ، وكان مجرد لمس المرأة مدنساً . والظاهر ان المضيف تأدب وكبح جماح شعوره ، لان يسوع نفسه لم يعترض على ذلك . ولكنه كان يفكر ، ويفكر في السوء . «لو كان هذا نبياً لعلم من هذه المرأة التي تلمسه» . بدث أفكاره على أسارير وجهه .

أما يسوع فقرأ هذه الافكار ويقول القديس اغسطينوس : « احترسوا من افكاركم فانها تُقرأ في السماء » . لذلك اُضطر يسوع الى ان يتكلم بصراحة :

— « يا سمعان عندي شيء اقوله لك » !

فيجيبه باحترام مصطنع :

— « قل يا معلم » !

— « يا سمعان : كان لمداين مديونان على الواحد خمسمئة دينار وعلى الآخر خمسون. واذ لم يكن لهما ما يوفيان سامحهما جميعاً . ايهما يكون اكثر حباً له ؟ » .

فاجاب الفريسي المغتاظ في شيء من عدم الاكتراث .

— « اظن الذي سامحه بالاكثر »

— « بالصواب حكمت . والآن يا سمعان . أتنظر هذه المرأة ؟ اني دخلت بيتك وماء لاجل رجليّ لم تعط . واما هي فقد غسلت رجليّ بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها . قبلة التحية لم تقبلني، واما هي فمنذ دخلت لم تكفّ عن تقبيل رجلي . بزيت لم تدهن رأسي ، وأما هي فقد دهنت بالطيب رجليّ . من أجل ذلك أقول لك قد غفرت خطاياها الكثيرة لانها أحبت كثيراً . والذي يغفر له قليل يحب قليلاً » .

ولم يقصد بالطبع من هذا القول ان لكثرة الخطايا امتيازاً خاصا،كأن تؤدي الى محبة اكثر . انما اراد ان يماشي سمعان في تقديراته ، وكأنه يقول له : « انت لاتشعر بان لدى الله كثيراً ليغفر لك . أما هي فمن فرط شعورها بالخطية لم تقدر ان تضبط عاطفة امتنانها المتدفقة » .

و بعدئذ يضع يده على تلك المرأة المتنهدة الجاثية عند قدميه ويقول. « يا بنيتي ايمانك قد خلصك . مغفورة لك خطاياك . اذهبي بسلام ! » .



والذي نعلمه ان المرأة ذهبت في سلام مهما تكن قصة حياتها بعد ذلك . ويظن كثيرون انها اختفت بعدئذ من التاريخ . ولكن في الكنيسة الغربية رأياً ذائعاً منذ العصور الاولى يؤيد ان هذه المرأة التائبة هي بعينها مريم المجدلية. وسواء أصح هذا الرأى ام لم يصح ، فانه من الصعب استئصاله الآن لانه مغروس مدى اجيال طويلة في الفنون والآداب المسيحية . وقد صار اسم المجدلية مرادفاً للمرأة الساقطة التائبة . ويطلق اليوم في انحاء العالم المسيحي اسم « مريم المجدلية » على ملاجيء الساقطات .

قد يكون هذا الرأي صحيحاً لان التلمود اليهودي يقول ان بلدة « مجدلا » اشتهرت باسمها الشرير بسبب نسائها الساقطات العاهرات . واعتبر اليهود ان العهر مسٌ من الشيطان . ونحن نعلم ان مريم المجدلية هي التي اخرج منها يسوع سبعة شياطين ، وهذا ايضاً هو الرأي الثابت في الكنيسة الغربية . وربما تكون المجدلية قد تذوقت اختباراً عجيباً من فيض نعمة المسيح جعلها تظهر هذا الولاء الفائق .

ونحن نستبعد ان تكون مريم المجدلية الصديقة الوفية للسيد هي بعينها تلك المرأة الشقية البائسة في بيت سمعان الفريسي . ولكن ان سلّمنا بصحة هذا الرأي ، فهل هناك قصة في الانجيل أعمق اثراً وأرق عاطفة من هذا الولاء الفائق الذي تظهره امرأة ساقطة مدفوعة الى ذلك بشكرها المتزايد وحبها الشديد لمن خلصها وانتشل حياتها ؟ فهي قد سارت في اتضاع ووداعة مع جماعة النساء اللواتي خدمن يسوع . و بقلب منكسر منسحق شهدته يموت فوق رابية الجلجثة. وعلى الرغم من السخرية والازدراء تبعت جسده الى القبر. وكانت اول من ذهبت الى القبر في صباح يوم القيامة والظلام باق على الارض ! ورأت المشهد الاول للرب المقام .. ولما ظنته البستاني قالت له : « يا سيد . ان كنت قد اخذته من ههنا فقل لي اين وضعته حتى امضي وآخذه» . فيجيبها يسوع : « يا مريم ! ». عندئذ تسقط عند قدميه قائلة « ربوني ! ربوني ! سيدي ! سيدي ! » .

الفصل الثامن

«.... زحمته الجموع ....»

لسنا نستطيع ان نصور حياة السيد المسيح في الجليل دون ان نرسم الجماهير الملتفة حوله ، تلك الجماهير التي أحبته وسارت وراءه . ويطغى على تفكيرنا دائماً تلك الفكرة القائلة انه محتقر ومرذول من الناس . وذلك لان عقولنا رازحة تحت تأثير رفض الشعب اياه ، وقلما نفكر في تلك الجماهير الساذجة ، تلك الوجوه المخلصة المستبشرة التي تفرست فيه صاغية ، محبذة ، شاكرة .

وقد كان السيد المسيح محبوب الجماهير ، حبته بعطفها واعجابها : ويشهد بذلك كل صفحة من صفحات السفر المقدس :

« زحمته الجموع »

« ان الجميع يطلبونك »

« كانت المدينة كلها مجتمعة على الباب »

« كانوا يأتون اليه من كل ناحية »

« ولما رجع قبله الجمع لانهم كانوا ينتظرونه » .

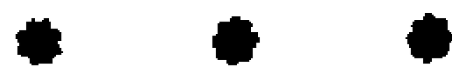
والمرأة النازفة الدم التي لمست هدب ثوبه خرجت من وسط الجمع . ومرة اطعم خمسة آلاف تبعته الى البرية . ولما صعد الى جبل التجلي انتظره الجمع عند سفح الجبل . وكانت الجماهير المتحمسة تلتف حوله في كل آن . تجيء وتروح حتى لم يكن لديه متسع من الوقت لتناول الطعام . كأنه يجتذبهم اليه بقوة مغناطيسية . ولم يجيئوا اليه مدفوعين بحب الاستطلاع بل بدافع الحب له ورغبة الاقتراب منه .

ولم يكن هذا في بدء خدمته في الجليل بل طول أيام حياته حتى نهايتها ، حتى في أورشليم المعادية المستبدة . واذا قال يوحنا البشير ان «اليهود طلبوه ليقتلوه» ، فانه يشير الى حزب الفريسيين المعادين له. أما الجماهير فلم تطلب قط ان تقتله . بل كانوا أصدقاءه وأنصاره .

ففي احد السعف زحموا الطرقات في موكبه . وفي الصباح التالي في الهيكل « اقترب اليه جميع الشعب»، حتى قال الفريسيون« ان تركناه هكذا يؤمن الجميع به». وايضاً «انظروا انكم لا تنفعون شيئاً هوذا العالم قد ذهب وراءه » .

كان هو البطل المحبوب حتى النهاية . ناصره الشعب وكان دائماً آمناً في وسطه ، ولما حاول اعداؤه القبض عليه « خافوا من الشعب » ، و « قالوا ليس في العيد لئلا يكون شغب في الشعب»، وتآمروا مع يهوذا ليسلمه في غيبة الجماهير ، وتحت جنح الظلام والناس نيام. نعم كان في الصباح الباكر يوم المحاكمة جمهور من الشعب يصرخ قائلاً « اصلبه ! »، وهم جمهرة من الناس أغراهم الكهنة والرؤساء ليطلبوا اطلاق باراباس واعدام يسوع .أما الجمهور الاكبر عند الجلجثة الذي شهد يسوع مائتاً «لما ابصروا ما كان رجعوا وهم يقرعون صدورهم».

ولو كنت مسيحياً يهودياً لتحدّيت القائلين ان الشعب اليهودي رفض المسيح . ان الذين رفضوه هم رجال السلطات ، هم الامة بصفتها الرسمية وفي مظهرها الحكومي . أما الشعب فقد جبن تحت نفوذ الكهنة ولم يستطع ان يفعل شيئاً سوى قرع الصدور وهو عائد من الجلجثة.ولو كان فيه في ذلك اليوم روح اسلافه واجداده،لمزق الكهنة والفريسيين والجنود شرّ ممزق ، قبل ان تمس شعرة واحدة من رأسه المباركة . كان قلب الشعب معه في كل أدوار حياته ولو ان الجبن قد غلب عليهم. وكلمة أقولها في وقار وخشوع: ان المسيح سوف يذكر في يوم الدينونة هذا الشعور لشعب اسرائيل .

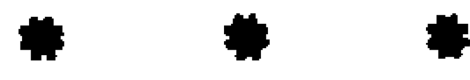


وان المرء ليشعر بالغبطة ان تتوافر لدى المسيح هذه المسرة خلال خدمته الشاقة في الجليل . وأية مسرة أعظم من ان يرى حوله وجوهاً مشرقة مشفقة ولو ان رغبتهم لم تبد ظاهرة للاستسلام له . وقليلون منهم على الاقل صاروا تلاميذ له . وكانوا شرذمة جاهلة ، شرذمة أرضية في عالم الارض . لم يقووا على تفهم مبادئه السامية . ولكن مع انهم لم يفهموا ، فقد عطفوا عليه ومالوا اليه . وفي اشتداد حماسهم فكروا يوماً في تتويجه ملكاً عليهم ولكنه اختفى عنهم لانه لم يرد عرشاً ظاهرياً في اسرائيل، بل رام عرشاً داخلياً في قلوبهم . وكان في اختفائه خيبة أمل لهم، ومع ذلك لم ينفضوا من حوله بسبب ذلك ، وكان قادتهم ينسجون حوله حبائل الشبهات والتهم .

أما هو فقد أحبهم . وقال بعضهم ان الله يحب عامة الشعب ولذلك خلقهم اكثرية في العالم . وهم ايضاً قد احبوه لانه كان انساناً صديقاً محبوباً ، كان كواحد منهم فهم صعابهم ، وعطف عليهم كما يعطف ابن الشعب على الشعب . فهو لم يكن فيلسوفاً يخطب فقراء القوم ، اذ لم يكن في الجوع أفقر منه . ولم يكن فيهم من خبر مشقة العمل والحياة اكثر منه . عرفوه فقيراً معدماً لا مأوى له ، وعرفوا ان الذي يحدثهم عن وجوب تفضيل برّ الحياة على كل متعها ، هو عامل خبر التعب المضني والحمل الثقيل ، فاستطاع أن يدعو العالم المنهوك الى راحة الله « تعالوا اليّ . . . . وأنا أريحكم » .

وكان له ميل خاص لان يستكشف أفضل ما في الناس ، وان يكن قد عرف اسوأ ما فيهم . فكر فيهم خيراً ، ورجا لهم خيراً ، وفعل بهم خيراً ، لكي يستنبت فيهم كل خير.

نعم ان المرء ليشعر بشيء من الغبطة اذ يرى الشعب الساذج يترفق به ويميل اليه وسط سوء التفاهم وخيبة الامل والكراهية والخيانة . أليس يحفزنا هذا لان نرجو خيراً من الانسانية البائسة في علاقتها مع الله ؟ لان هؤلاء لم يكونوا قديسين بل كانوا خطاة عاديين. وهذا الذي استمالهم اليه هو الله في شكل بشري . ولعل الله مستطيع يوماً ان يجذبنا اليه متى عرفناه حق المعرفة !



واذا وجب على الكنيسة ان لا تتحيز الى جانب معين في نزاع الطبقات التي تقوى على الدفاع عن نفسها ، فهناك طبقة واحدة يتحتم عليها ان تقف دائماً الى جانبها ، هي طبقة الفقراء والمظلومين والعاجزين . وهي بالأسف لم تقم بهذا . وكم من مرة تصاعدت أنات وصرخات اولئك المظلومين الى ربهم وسيدهم ، والكنيسة عنهم غافلة لاهية ، وربما كانت اكثر براً بهم وعطفاً عليهم في القرون الوسطى البالية . . . .

وان رامت الكنيسة ان تمثل سيدها تمثيلاً حقاً ، وتسير وراءها الجماهير مرة أخرى ، فعليها ان تناصر العاجزين والضعفاء علانية وان تشدد على مراعاة قواعد الدين الاجتماعي .

ولكن ما هو ذلك الدين الاجتماعي ؟

في الكنيسة اليونانية القديمة قديسان مشهوران — هما القديس كاسيان والقديس نيقولا . وكان الاول نموذجاً للمسيحية الفردية يهتم جدّ الاهتمام بنفسه وخلاصه ، ويصلي

ست مرات في اليوم، ويصوم ويعذب جسده بالسياط الاليمة. وكان نيقولا من طراز آخر أفنى حياته في الخدمة واعانة الفقراء، ومواساة المرضى، والانتصار للمظلومين، ومحبة الصغار.

وتقول الاسطورة التاريخية ان كاسيان دخل السماء وأخذ السيد يفحصه قائلاً :

— « ماذا رأيت يا كاسيان على الارض قبل ان تجيء ههنا ؟ »

— « رأيت يا سيد حوذياً يجر عربته وقد تمرغ في الوحل ! »

— « ألم تمد يد المعونة اليه ؟ »

— « كلا يا سيد . فقد كنت قادماً اليك وخشيت ان تتسخ ثيابي البيضاء » .

و بعدئذ يدخل نيقولا وقد تلطخت ثيابه بالوحل فيسأله السيد قائلاً :

— « ماذا دهاك يا نيقولا ، وما هذه الاقذار التي علت ثيابك ؟ »

— « رأيت حوذياً فقيراً يا سيد يتمرغ في الحمأة، فوضعت كتفي الى جانب كتفه وساعدته في جر عربته » .

— « لقد أحسنت يا نيقولا . وأنت يا كاسيان، لأنك حرصت على ثياب معموديتك نقية بيضاء سيخصص لك يوم واحد في السنة تكريماً لك . وأما أنت يا نيقولا فلأنك مددت يد المعونة لأخيك المتمرغ في الحمأة سيخصص لك أربعة أيام » .

هذه كلها تشابيه وكنايات رمزية . فالله يبارك كنيسته بنسبة اعانتها لابنائها الفقراء الساقطين في الحمأة الذين مات المسيح لأجلهم .

وهنا ايضاً نموذجان للدين في الكنيسة المسيحية فيهذا العصر. فالاول شديد الاهتمام بنفسه وخلاصه وحياته الروحية وتكريسه لله ، وهذا الذي نسميه بالدين الفردي . ولسنا نبخس هذا الطراز من الناس،فهو أساس كل دين،وهو وحي الابطال والقديسين في كل العصور الذين بذلوا كل شيء في سبيل قداسة الحياة . ومستقبل الكنيسة ومستقبل العالم كله يقوم على تدعيم هذا الدين الفردي وتقويته.ولكن متى تدعم وتعمق ، لا يبقى الدين فردياً ، لانه متى ارتقى الدين زها تاجه وتفتحت اكمامه وانساب اليه الكثير من شبه المسيح — ونعني بذلك روح المحبة والاشفاق والبر بجميع الناس ، والشعور بالألم حيال الشرور والمساوىء التي تعيقهم فيمضمار الحياة، والغضب المقدس امام المظالم التي يُسامونها، والغيرة المتقدة لان نبذل ونُبذل لاجلهم،والعمل الصالح المنتج لتهيئة اسباب الحياة النافعة لهم.

فان رامت الكنيسة ان ترفع شأن عامة الشعب،وان توقظ غيرة الناس فيا لله، عليها ان تسمو الى ادراك أوسع وأرقى من حيث فهمها للدين. فلا تكتفي فقط بمواساة البائسين، بل يجب ان تتمنطق لقطع دابر مصادر البؤس والشقاء . ولا تكتفي باصلاح نفر من السكيرين والفاسقين ثم تترك الظروف والاوساط التي تهيء سبيل الادمان والفساد لأمثال هؤلاء. وعليها ان تهتم بالشئون الاجتماعية المتصلة باخلاق الشعب، وان تعلّم الحكومات وأرباب المشورة ان الاخلاق القومية أهم شأناً من الثروة القومية، وان تدعو خيرة ابنائها من العلمانيين المفكرين وأرباب الاعمال والمهن الحرة والعمال لان يكرسوا لعمل المسيح بعضاً من وقتهم وجهدهم وتفكيرهم ، وان تعلّم الناس ان وراء نفوسهم وحياتهم الخاصة مجالاً اوسع يجب ان تتجه اليه أفكارهم — الى اخوة تاعسين في الانسانية، الى المستشفى الذي يئن فيه المرضى المتوجعون ، الى المصنع الذي يشكو فيه الاحداث والمكدودون ، الى الحانة التي يهرق فيها المتهوسون عصارة القلب والكبد، الى الطفولة الشاردة المهملة المعذبة في الاسر الشقية . . . الى كل هذه يجب ان تتجه جهود الكنيسة. ولسنا ننكر ان مهمة الكنيسة هي تخليص النفوس ، ولكن بالطريقة عينها التي انتهجها سيدها وربها — ألا وهي ان تمس الناس بلمسة الحياة المضحية الباذلة ، وان تعلّم الناس طريق محبة الأخ الذي يرونه لكي يؤمنوا بمحبة الله الذي لم يروه . ولعل في هذا كله ضماناً لارجاع الجماهير اليه ، كما زحمته في الجليل لتسير وراءه وتسمع صوته العذب الحنون .

الفصل التاسع

يوم في كفر ناحوم

ههنا نموذج ليوم من الايام التي قضاها السيد في كفر ناحوم . فان قصة الانجيل مؤلفة من حوادث منفصلة بعضها عن بعض ، نظمت في حلقة واحدة ، وليست دائماً في ترتيبها الزمني . وفي يوم واحد من أيام كفر ناحوم نستطيع ان نسرد بياناً متتابعاً لسلسلة الحوادث التي وقعت في ذلك اليوم ، حيث يقول البشير مرقس — وهو الناطق على الارجح بلسان بطرس — ان هذه الوقائع حدثت في خلال اربع وعشرين ساعة (مرقس ص ٤ و ٥) [1] .

* * *

حوالي سنة ٢٨ ب . م . وفي يوم من أيام الربيع على شاطىء البحيرة . وقد ألقت الشمس رداءها اللامع على المدينة الصغيرة الناضرة والآكام الخضراء وراءها ، ولامست الاشعة الذهبية مياه البحر الفضية التي تناثرت فوق سطحها الشُرع السمراء . . .

ويسوع في سفينته الراسية عند الشاطىء ، سفينته التي وضعها بطرس تحت امرته ، منبره ومستقر راحته ووسيلة انتقاله في البحيرة . وشاطىء البحيرة غاصٌ بالجماهير الى حافة الماء . منظر جذاب بألوانه الزاهية تحت أشعة شمس الصباح المشرقة . وذلك لان صيته كان قد ذاع بين القوم . فازدلفت اليه الجماهير من جميع الطبقات — أهل تلك المدن ، والزوار من الاقاليم المجاورة ، والفريسيون من اورشليم — نساء يحملن اطفالهن المرضى ، ومسافرون عابرون في الطريق البيضاء العظيمة وقفوا هناك ليشاهدوا ويسمعوا — اناس غيورون ،

---

(١) وربما ينظم لنا البشير متى في ص ٩ و ص ١٣ حوادث مسلسلة في يوم واحد . ولئن يكن هذا موضع شك .

واناس شاكرون ، واناس لا يعبأون ، وغيرهم مستطلعون ، وحائرون — و بينهم اندس الناقدون والمتشككون . وأهم هؤلاء جميعاً ذلكم النفر من الصيادين الشبان الذين قصد ان يعلمهم قبل سواهم . إذ كان من أهم أغراض حياته تدريب الذين أناط بهم ان يحملوا رسالته بعد ان يفارق العالم .

وهو يعلّم في صباح ذلك اليوم درساً خطيراً عن الملكوت، و يشير الى الموقف السليم الصائب الذي يتحتم على البشر اتخاذه قبل الانضواء تحت لوائه . وهم في عرفه المسئولون عن ذلك .

ههنا الجماهير الغفيرة ترهف الآذان الصاغية . ثم تتفرق بعد ساعة . و بعضهم يناله خير الى الابد، والبعض الآخر لا يفيد شيئاً. لماذا؟ انا الجواب جدّ خطير في أعين الشعب، وفي أعين التلاميذ في مستقبل دعوتهم . جدّ خطير لكل الذين يستمعون كلمة الله، في كل جيل . فما الفرق بين الفريقين ؟ اسمعوا الجواب من الله نفسه : لان اثر التعليم ، كما يقول يسوع، يتوقف على طبيعة السامعين أنفسهم. ولذا يقول :«انظروا ما تسمعون». فكروا فيما تسمعون ! والعالم اليوم لفي شوق الى « وعاظ صالحين » وليس في هذا من بأس . ولكن السيد يشير هنا الى ضرورة « السامعين الصالحين » . وعلى الواعظ ان يدرك مسئوليته . ولكن السيد يقول ان على السامع ايضاً تبعة خطيرة . فان النتيجة في آخر الامر تتوقف على طبيعة السامع .

وانظر كيف يعلم يسوع هذا الدرس في ايجاز و بساطة وقوة : فهناك فلاح زارع على منحدر الجبل يبذر بذار الربيع . و يسوع يرقبه صامتاً مفكراً ، والناس يحولون أنظارهم الى حيث يتجه هو بانظاره . ثم يلتفت الى الجمهور بغتة و يقول :

« اسمعوا . هوذا الزارع قد خرج ليزرع . وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق فجاءت طيور السماء واكلته . وسقط آخر على مكان محجر حيث لم تكن له تربة كثيرة. فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق أرض . ولكن لما أشرقت الشمس احترق . و إذ لم يكن له أصل جفّ . وسقط آخر في الشوك. فطلع الشوك وخنقه ولم يعط ثمراً . وسقط آخر في الارض الجيدة . فأعطى ثمراً يصعد و ينمو . فأتى واحد بثلاثين وآخر بستين وآخر بمئة . ثم قال لهم من له اذنان للسمع فليسمع » (مرقس ٤ : ٣ — ٩) .

عظة ما أقصرها! وما أبلغها! ونحن نعلم ان كثرتهم لم تفهمها، حتى ولا التلاميذ أنفسهم في أول الامر. ولكن سواء فهموها أو لم يفهموها، فهذه الصورة قد استقرت في أذهانهم. يتحدثون عنها، و يذهبون الى الحدس والتشاور فيما بينهم عن معناها ومغزاها. ومتى عرفوا معناها لن يمكن ان ينسوها. وفي هذا قيمة التعليم بامثال، لان الفكرة تتأصل في العقول، وتنساب الى مكامن الوعي والادراك.

* * *

ثم دخل الى بيت بطرس للغذاء و بعدئذ أخذ يشرح المثل للتلاميذ في اسهاب وايضاح، ويقول البشير متى ان جمعاً آخر التف حوله في عصاري ذلك اليوم. ور بما ألقى عندئذ الامثلة المتشابهة عن حبة الخردل وحبة الحنطة التي تنمو سراً. ور بما تلقى الاسئلة وأجاب عنها، وأجرى بعض المعجزات وهو يجول بين الشعب. والظاهر ان جو المدينة كله كان مكهر باً في ذلك اليوم. والظاهر ان حماساً غير مألوف دبّ في بعضهم يومئذ، فكنت ترى الناس يجيئون متطوعين لخدمته. فيقول أحد الكتبة «أتبعك أين تذهب». و يقول آخر: «أتبعك بعد ان يموت أبي». وأما هو فامتحنهما وصرفهما عنه، لانه لم يجد فيهما اخلاصاً وغيرة، وهو لا يكتفي بهزة طارئة ترتجف بها العواطف الى حين.

هكذا انقضى عصاري ذلك اليوم الحار. والآن قد أوشك ان ينصرم اليوم الذي أنهك قواه في عمل كثير. فقال للتلاميذ «هلم لنجتز الى العبر»، وكان ذلك العبر شاطئاً خلوياً أجرد، استماله اليه بما فيه من هدوء كلما اشتد به العناء. وفي بضع دقائق نُشرت الشراع ودخل يسوع السفينة وتبعه تلاميذه. ولعلهم لم يأتمنوا الجو في ذلك اليوم. ولكن السيد أراد العبور وكان متعباً منهوكاً. وقد خشي الناس عليه يومئذ، حتى ان سفناً كثيرة تبعته.

وكانت المسافة طويلة، سبعة أميال تحت مهاب الرياح الشديدة. أما يسوع فكان منهوكاً وأخذته سِنَة من النوم من فرط التعب. وفيما هو نائم كان رشاش الماء يبلل ثيابه، والزو بعة يشتد هولها، والغمائم تتكاثف جموعها. وفي وسط البحر بلغت الزو بعة أقصى شدتها. وعرف بطرس والآخرون ما سيحلّ بهم. ولم يكن ثمت متسع من الوقت ليأووا الى ملجأ أمين يقيهم غائلة العاصفة. والزوابع في تلك البحيرة تهب فجأة على غير انتظار لانها تقع في فجوة وسط آكام عالية فتنساب اليها الرياح انسياباً. وها هي ذي السفينة

الـكبيرة تتقاذفها الامواج كزورق مصنوع من الورق. أما السفن الصغيرة الاخرى «التي تبعته» فكانت تعلو وتهبط فوق المياه الهائجة كأرجوحات صغيرة. وكان بطرس ورفاقه ممن ألفوا البحر وهياجه، والعاصفة وهولها؛ ولكن الارجح انهم لم يألفوا حالة مثل هذه من قبل. ولم يسبق لهم ان استنجدوا في هلع وجزع بانسان لم يعرك البحر. ولكن إذ رأوا السفينة تغرق صرخوا قائلين: «يا سيد: نجنا اننا نهلك!» وأزعم ان بطرس هو الذي تعجل في الغضب قائلاً: «يا معلم أما يهمك اننا نهلك؟» وهم قد بدأوا الآن يهرعون اليه في كل ملمة تعبث بهم، بدأوا يتعلمون درس الحياة!

أما السيد فينهض من نومه هادئاً، مالكاً كلَّ حواسه، ينهض وينتهر الرياح ويقول للبحر: اسكت! ابكم! — «فسكنت الريح وصار هدوء عظيم — فخافوا خوفاً عظيماً (وربما يشير هنا الى مَن كانوا في السفن الاخرى). وقالوا بعضهم لبعض من هذا. فان الريح ايضاً والبحر يطيعانه!».

قلت مراراً وتكراراً انه في كل أقواله وأفعاله كان يرمي قبل كل شيء الى تدريب رسل المستقبل. وليس شك في ان تلك المعجزة الهائلة كانت جزءاً من برنامج التدريب هذا. فقد كان عليهم بعد قليل ان يجابهوا عالماً معادياً، وكان عليهم ان يركنوا اليه حتى في غيبته عنهم. والظاهر انهم لم يكونوا قد تعلموا الاعتماد عليه حتى وهو نائم الى جانبهم. أليس هذا ما قصده في قوله: «ما بالكم خائفين هكذا. كيف لا ايمان لكم؟» ولذا نراه يعلمهم تدريجاً، خطوة خطوة، تلك الثقة الكاملة به، التي ساقتهم فيما بعد الى ان «يقلبوا العالم ظهراً لقلب». وكان اختبار تلك الليلة خطوة عظيمة في هذا السبيل.

وفيما عدا معجزات اقامة الموتى، كانت هذه المعجزة أعظم معجزات قصة الانجيل، وهي معجزة لا يصدقها من لا يؤمن بلاهوت المسيح. وقد رواها الرسل بعد القيامة كحادث عادي بين الحوادث الغريبة التي شهدتها عيونهم. وكانوا قد رأوا من الغرائب المدهشات بعدها ما جعلهم يحسبونها أمراً عادياً. وان كنا نؤمن ان الله يتسلط على الكون، وان المسيح قام من الاموات، وان الذي جعل للريح بطشاً وللامواج قوة، لم يترك نفسه عاجزاً بين قوى الطبيعة — ان كنا نؤمن بكل هذا، فاننا نقبل هذه كحادث فقط في معجزة العصور الكبرى، ألا وهي معجزة هبوط ابن الله وكلمته الى عالم البشر.

* * *

والآن ننتقل من عاصفة في العالم الطبيعي الى عاصفة في العالم الروحي، الذي لا نعرف إلاّ القليل عنه، العالم المنبسط أمام أنظار المسيح،والمعلن لديه تماماً كالعاصفة في بحر الجليل.

وكانت تلك الزوبعة قد ساقت السفينة الى الجهة الجنوبية من البحيرة، الى شواطىء الجدريين. وفي شفق الصباح ينزل التلاميذ الى البر على مقربة من مدافن قديمة، يتبعون سيدهم وقد عرتهم رهبة مخيفة . وسرعان ما غادروا الشاطىء حتى أدركهم رعب عظيم . وذلك لأن صرخات مزعجة مرعبة أخذت تتجاوب بين الصخور والقبور ، واذا بمجنون فتاك ، هائل البدن ، عاري الجسم ، يخرج من بين القبور وقد كسر قيوده الثقيلة ، وأقبل نحوهم . واكبر الظن ان العاصفة العاتية قد أثارت جنونه وكان قد قضى تلك الليلة مرغياً ومزبداً وسط غضب الطبيعة وزمجرتها العالية . واذ يراه التلاميذ يعرفونه لأول وهلة : هو « مجنون كورة الجدريين » الذي أدخل الرعب في نفوس أهالي تلك المنطقة ، والذي « كان مسكنه في القبور ولم يقدر أحد ان يربطه ولا بسلاسل.لانه قد رُبط كثيراً بقيود وسلاسل فقطع السلاسل وكسر القيود فلم يقدر أحد ان يذلله. وكان دائماً ليلاً ونهاراً في الجبال وفي القبور يصيح ويجرح نفسه بالحجارة » . وكان معه مجنون آخر يطلّ من بين الصخور . وفي هذوء يتقدم يسوع لملاقاته . واذ يراه المجنون الهائج يهدأ وينبطح على الارض عند قدميه . ولعل بارقة من الوعي لاحت بعقله ساعتئذ فساقته الى الاحتماء به . ولكن تلك البارقة الخاطفة قد زالت في لحظة. وفي جهلنا التام بالعالم الروحي لا نجرؤ على شيء إلا إثبات الحادثة كما وقعت. والظاهر ان في ذلك البائس التعس شخصية مزدوجة . فان روحاً شريراً قد تسلط على عقله « ما لي ولك يا يسوع ابن الله العلي استحلفك بالله ان لا تعذبني ! » .

ولعل يسوع أراد في سؤاله عن اسمه ان يذكر الرجل نفسه ويعود الى شخصه ، فكان عبثاً ما أراد . لان الروح الشرير كان متسلطاً على نفس ذلك المسكين ، متملكاً منه : « اسمي لجئون لاننا كثيرون » . ولكن قوة أعظم منه سطت عليه و بطشت به : « اخرج من الانسان يا ايها الروح النجس ! » وفي لحظة يعود الرجل المعذب الى نفسه ووعيه ، ويقف سليماً معافى ، وعلى كتفه يد أخوية تربت عليه . وكان الناس قد جربوا أساليبهم لترويضه ، أما يسوع فقد استخدم طريق الله .

وفي وسط هذا الهياج اندفع قطيع من الخنازير من على الجرف ذعراً وسقط في الماء وغرق . فهرب رعاة الخنازير وقصوا على قومهم ما رأوا . وإذ جاء الناس من كورة الجدريين « نظروا المجنون الذي كان فيه اللجئون جالساً ولابساً وعاقلاً » .

وأما الجدريون الذاهلون فطلبوا الى يسوع ان يمضي من تخومهم . لان خنازيرهم كانت في عيونهم أجل قدراً من نفوسهم . فدخل السفينة وعاد الى كفر ناحوم . أما المجنون « فمضى وابتدأ ينادي في العشر المدن كم صنع به يسوع فتعجب الجميع » .

* * *

وبعد ساعتين عادوا الى مرفأ كفر ناحوم . ويقول مرقس البشير ان جمعاً كثيراً اجتمع اليه عند البحر . وانت تستطيع ان تراهم وقد تزاحموا على الشاطىء وعيونهم مصوبة نحو سفينته القادمة اليهم. ولا شك في ان الشائعات كانت قد ملأت جو مدينتهم عن أحداث الليلة الفائتة ، وكانت بعض السفن التي عاقتها العاصفة قد وصلت الى الشاطىء وتحدث ركابها عن اسكاته الريح، وسفن أخرى روت قصة مجنون كورة الجدريين وقطيع الخنازير. وكان الجمع الذي انتظره عند البحر متأثراً كله ، فاستقبله بالاحترام والتوقير وهو نازل من السفينة ، وأفسحوا الطريق وهم يتدافعون ويزاحمون بعضهم بعضاً .

وترى وسط الجمع انساناً يحاول ان يشق طريقه للوصول اليه ، انساناً قضى الليل كله مترقباً حائراً ، يروح ويجيء في وسط العاصفة العاتية بين غرفة المريض والشاطىء :

« يا سيد ! ابنتي الصغيرة ! على آخر نسمة ! ليتك تأتي وتضع يدك عليها فتحيا ! »

وربما عرف يسوع الصبية . لانه لم يصعب عليه التعرف الى الصغار . وكان يايرس هذا أحد رؤساء المجمع الذي علّم فيه يسوع أيام السبوت . ويقول البشير مرقس انه « مضى وتبعه جمع كثير وكانوا يزحمونه » .

« وامرأة بنزف دم منذ اثنتي عشرة سنة وقد تألمت كثيراً من أطباء كثيرين وانفقت كل ما عندها ولم تنتفع شيئاً بل صارت الى حال اردأ . . . . جاءت في الجمع من وراء ومست ثوبه » .

قصة في وضعها الطبيعي! امرأة مسكينة لم تستطع من فرط الخجل والحياء ان تصارحه بمرضها النسائي ! آه لو تستطيع ان تلمسه سراً دون ان يدري ! ولكن هيهات ذلك، فانه

أحسّ لساعته ان قوة قد خرجت منه . وقد لحظنا ذلك فيما مضى ، لان يسوع لم يشفِ المرضى دون ان يبذل من حيويته و يعطي من نفسه. ولك ان تدعو هذا اللمس ضرباً من ضروب الخرافة ان شئت . فما من نفس ، بائسة كانتْ أو جاهلة أو مسوقة بالخرافات ، تهرع اليه إلاّ واجدة سؤل قلبها.وهو أراد فقط ان يسمو بخرافتها الى ايمان حقيقي، فسلط عليهـا عينيه في اشفاق وتودد، حتى جاءت وخرت عند قدميه وقالت له الحق كله ، فناداها : « يا ابنة ايمانك قد شفاك . اذهبي بسلام وكوني صحيحة من دائك » .

* * *

تعطل السير دقائق معدودات ، كانت بمثابة ساعة طويلة لذلك الوالد المسكين الذي كانت ابنته على شفا الموت . و بعد فقد نفد السهم وضاعت الفرصة ! وها هوذا خادمه يهمس في اذنه : « يا سيد . ابنتك ماتت . لماذا تتعب المعلم بعد ؟ » .

ما أشد عطف السيد على ذلك الوالد المسكين ! ان قلبه المثقل بكل آلام البشرية يتألم الآن مع يايرس « لا تخف ! آمن فقط ! » ضع اتـكالك عليّ ! وجدّ في سيره الى الدار. والآن فـكر في دقة الموقف وهو يخرج المولولين والنائحين من غرفة الميتة ويأمر الاّ يدخل أحد معــه ما خلا بطرس ويعقوب ويوحنا وأبا الصبية وأمها . ثم انظر الى محبته المتدفقة وهو يلمس في رقة وجه الصبية : « طليثا قومي ! » وانظر ايضاً الى تعليماته الهادئة المعقولة التي يعطيها الطبيب لأي مريض : « والآن اعطوها شيئاً لتأ كل ! » .

* * *

عاد يسوع منهوك القوى ، مغتبطاً ، تلك الليلة الى غرفته الصغيرة في دار بطرس . وخطراته اللذيذة تدور حول المجنون البائس ، وأم الصبية ، وجميع المتألمين الذين أسعدهم ذلك اليوم . وهذا هو سرّ سعادة الله وغبطته، هذا هو الله الذي نلجأ اليه في كفاح الحياة، في آلامها وأحزانها ، في ساعة الموت ، وفي يوم الدين . فشكراً لله !

الى هنا تنتهي قصة يوم من أيام كفر ناحوم !

الفصل العاشر

بدء الخلاف ! . . . .

والآن قد انقضى على يسوع تسعة أشهر مذ جاء الى كفر ناحوم ، تسعة أشهر سعيدة هنيئة قضاها في ابراء أوصاب المرضى ، وانعاش قلوب اليائسين ، ونثر أزاهير السعادة والغبطة . كان يخرج كل يوم في أيام الربيع المشرقة ليركب السفينة في البحر،أو ليصعد فوق سفح الجبل وحوله القرويون في سذاجتهم وغبطتهم. كان يحدثهم عن أعمال الله الجذابة الغريبة على اسماعهم . كانوا أشبه بأطفال صغار يكشفون ألواناً واشكالاً جديدة من الجمال في الحياة. كيف لا وهنا شاب قروي يتحدث الى زملائه القرويين الفقراء . يتحدث اليهم في مرح وتهليل كانسان خلت نفسه من هموم الحياة ومتاعبها ، ولم يشعر ان الفقر عبء ثقيل وكابوس ضاغط . انسان أحسّ بقرب الله منه ، فملأ قلوب البشر بشراً وطمأنينة ، آمراً اياهم الاّ يهتموا بالغد وما في طياته من مخبئات . وليس شك في ان الحياة البشرية الحقيرة قد تبدلت في حضرته . وأبصر الناس هنا وهناك رؤى وأحلام « الحياة الجميلة » ، فكانوا في لدنه فرحين جذلين .

تلك كانت الايام الذهبية في خدمة يسوع . تلك كانت رواية الجليل بأحلامها وخيالاتها العذبة المستحبة . فالتلاميذ هاموا به ، والشعب صفق له اعجاباً . أحبه الجميع واغتبطوا به . وكان هو مغتبطاً معهم . ولم يرَ في حياته فترة سعيدة غير هذه الفترة . أما الفريسيون فلم يرق ذلك في نظرهم . لانهم لم يفهموا سرّ هذا الدين السعيد المفرح. وظنوا ان الانسان المتـدين يجب ان ينوح ويكتئب ويصوم . أما هو فأجابهم باسماً : « نحن فرحون كأننا في عرس . وهل يصوم أهل العريس والعريس معهم ؟ » ولـكنه أضاف الى ذلك برنة الحزن والاسى : « ولـكن ستأتي أيام يؤخذ العريس منهم » نعم ! ستأتي

الايام . وكانت الايام آتية التي تمحو فيها القلوب الجاحدة القاسية — الى غير عودة — تلك الايام السعيدة الذهبية في الجليل .

وها نحن الآن مقبلون على فترة حاسمة في حياة يسوع، نتسمع عن بعد دمدمة الزوبعة قبل هبوبها ، ونلمح في الافق فجر الايام التي سيؤخذ فيها العريس عن أهله .

وكان وقتئذ قد ظهر قليل من النعاج الجرباء تعدي القطيع كله . لاننا نلاحظ انهم كانوا قد اتهموه بميول ثائرة حتى اضطر ان يدافع عن نفسه قائلاً : « لا تظنوا اني جئت لأنقض الناموس والانبياء » . وعند ابراء الرجل المفلوج المدلّى أمامه من السقف أثار حفائظ الفريسيين ، وأهاج سخطهم وغضبهم باعلانه سلطة غفران الخطايا . ثم انه تعدى الحدود التي رسمها لأنفسهم الرجال المتدينون الاتقياء في مخالطة الطبقات غير المرغوب فيها. وأقام حجر عثرة في اختياره أحد العشارين في زمرة تلاميذه . وأخذ دعاة السوء في التقول وخلع الالقاب والنعوت عليه، فحسبوه نهماً اكولاً وشرّيب خمر وصديقاً للعشارين والخطاة . ولكن لم تكن هذه كلها إلا لمحات لا بد منها في حياة كل زعيم للشعب .

والآن بغتة ، وعلى غير انتظار ، نرى تبدلاً ظاهراً في الموقف . فكفر ناحوم كلها ، لغير ما سبب ظاهر ، تتهامس عنه وتحبك حوله خيوطاً من العداء . فتتهمه علناً بانه ثائر . لا شيء فيه من الدين، ومتعد على يوم السبت. لا يتشبث بالناموس والتقاليد ، وغير موال للجماعة اليهودية . لا يحفظ الاصوام ، ويجري معجزاته عن طريق الشيطان . « يخرج الشياطين ببعلزبول رئيس الشياطين » . إنها مرارة النفوس الحانقة المغيظة ! قد بدأت السحب الكثيفة تعكر صفاء أيام الجليل !

* * *

واذ نقرأ البشائر الثلاث الاولى ـ وهي المصدر الذي نستقي منه قصة كفر ناحوم ـ نحار في تأويل هذا التحول الفجائي وموقف العداء المفاجيء . ولكن بعد هذه البشائر بمدة طويلة كتب يوحنا الرسول ذكرياته فأكمل ما في القصة من نقص . وربما نجد هنا تأويلا لا بأس به . فقد جاء في الفصول الاولى من بشارة يوحنا (فصل ٥) قصة يظهر من وقائعها انها حدثت في فترة كفر ناحوم هذه. وفي القصة يقول الراوي ان يسوع صعد الى اورشليم في عيد من أعياد اليهود . وليس لنا في قصة كفر ناحوم أي تلميح الى زيارة

اورشليم — والارجح ان يوحنا نفسه كان هناك في تلك المدينة يومئذ حسب عادته ، ربما ليبرم الاتفاقات مع تجار السمك اليهود لشحن الاسماك اليهم من البحيرة .

وهو يقول في هذا الصدد : « وفي اورشليم عند باب الضأن بركة يقال لها بالعبرانية بيت حسدا لها خمسة أروقة — في هذه كان مضطجعاً جمهور كثير من مرضى وعمي وعرج وعسم يتوقعون تحريك الماء » . ويسوع كان هناك يرقبهم . ويرقب بصفة خاصة مُقعداً فقيراً مصاباً منذ ثمان وثلاثين سنة . انتظر هناك عند البركة مدى شهور يتسمع كل يوم أحاديث القوم عن أوجاعهم وأمراضهم . وفي كل يوم تزداد آماله ضعفاً ونفسه خوراً . وبغتة يحسّ يداً مشفقة على كتفه ، ويسمع صوتاً حنوناً يقول له :

— « هل تريد ان تبرأ ؟ »

— « لا أمل لي يا سيدي . فليس لي صديق يحملني عند تحريك الماء . وكل مرة يسبقني اليها آخر »

« قم . احمل سريرك وامشِ ! »

فحالاً برىء الانسان وحمل سريره ومشى وكان في ذلك اليوم سبت » .

أما اليهود فقالوا للذي شفي : « انه سبت لا يحلّ لك ان تحمل سريرك » . أما هو فأجابهم : « ان الذي ابرأني هو قال لي احمل سريرك وامشِ » .

ولاحظوا هنا التعليق الغريب من جانبهم : لم يقولوا : « من هو ذاك الذي فعل بك هذا الصنيع بعد شقائك المقيم ؟ » بل « من هو الانسان الذي قال لك احمل سريرك وامش ؟ » . لاحظوا هذا الروح — نراه تشبثاً بالتقاليد ، وغيرة على الناموس ، وتمسكا بقواعد حفظ السبت مقدساً . ولكنه روح خلا من التدين الحق . لان جوهر الدين هو المحبة . المحبة لله والناس . أما التدين والتشبث بقواعد الدين بلا محبة فهو التعصب الذميم بعينه . وما التعصب إلاّ الغلّ والحقد ، وتلمّس الاخطاء في الآخرين ، وحدة الطبع ، وخشونة مستورة تحت ستار الدين الزائف . ويسوع نفسه لاقى الشيء الكثير من هذا التعصب في البشر . فأبغضه ونكّل به وداسه تحت موطىء القدم .

— « من هو الانسان الذي قال لك احمل سريرك وامش ؟ » أما الرجل نفسه فلم يعرف ، لان يسوع كان قد اختلط بالجمع . وبعدئذ لقيه يسوع في الهيكل . في المكان

اللائق ان يوجد به ليقدم شكراً لله . وعند ما افترقا قال له : « ها أنت قد برئت ، فلا تخطىء ايضاً لئلا يكون لك أشرّ » .

ثم أخبر الرجل اليهود ان يسوع هو الذي ابرأه.ولهذا السبب بدأ اليهود في اضطهاده، لانه فعل هذه الاشياء في يوم السبت ، أما هو فاجابهم « أبي يعمل الخير في السبت وغير السبت. هو يعمل وأنا أعمل. فمن أجل هذا كان اليهود يطلبون ان يقتلوه . لانه لم ينقض السبت فقط ، بل قال ايضاً ان الله أبوه معادلاً نفسه بالله » .

طلبوا ان يقتلوه فعلاً . وكان لهم في ذلك الاسبوع مجال بسبب تعصبهم ان يعجّلوا يوم الجلجثة، و يقتلوا المسيح قبل يومه بسنة كاملة. كانت تلك الزيارة بمثابة أزمةفي حياته اتجه فيها التيار ضده. ولو كان مؤرخو كفر ناحوم رووا لنا خبر هذه الزيارة، لما تولتنا الحيرة في تعليل تبدل الموقف حياله عند عودته اليها مرة أخرى.ولا شك في ان أخبار هذه الحادثة مصحو بة بالعيون والارصاد قد تعقّبته من اورشليم الى كفر ناحوم في عودته .

قد تبدل الحال في كفر ناحوم ولم يعد المقام فيها هنيئاً كما كان. لانه في عودته تعقبته العيون من اورشليم الى ضفاف البحيرة وأخذوا يتجسسون عليه و يبعثون بالتقارير ضده الى اورشليم لاثارة الأحقاد عليه . وكان في هذا الاقليم — موطنه — حزبان مختلفان : انصار الكتبة والفريسيين وهم دعاة الشغب ، والجموع التي كانت وما زالت تابعة له ومعجبة به، ولو انها تأثرت بعض التأثر بالموقف العدائي الذي وقفه الآخرون .

وكانت زيارته هذه لأورشليم سبباً في تكوين جبهة معادية ترصدت له حتى المنتهى. وها هم الآن يطلبون ان يقتلوه ، وها نحن نرى عن بعد شبح الجلجثة .

و بعد ذلك يرسم لنا البشير مرقس صورة للمسيح بعد عودته من اورشليم سائراً مع تلاميذه في يوم السبت بين الزروع في كفر ناحوم — وربما كانوا في طريقهم الى المجمع للعبادة . ولسبب ما جاعوا لانهم لم يتناولوا طعام الافطار ـ ومتى يشدد على هذه النقطة ـ فقطف التلاميذ سنابل القمح واكلوها بعدأن فركوها بين أيديهم.ولقيهم في الطريق بعض أفراد الحزب المعادي فالتفتوا الى السيد وقالوا : «لماذا يفعل تلاميذك في السبت ما لا يحلّ ! » .

أين موضع الخطأ ؟ لماذا التفتوا اليه ؟ لماذا ؟ لراحة العبيد والعمال في الحقل حرّم ناموس الله الدقّ أو الدرس بالنورج أو التذرية يوم السبت.أما اولئك المتدينون والمتفيقهون

فقد اعتبروا ان فرك سنابل الحنطة باليدين هو بمثابة درسها ودقّها، وان نفخ قشورها بمثابة تذريتها!! ان مثل هذا التعصب الاحمق يبدو لنا نحن موضوعاً للتندر والتفكهة، لان تعصبنا من طراز غير هذا. أما اولئك القوم فحسبوه غير ذلك في نظرهم وكانوا في اعتراضهم جادّين. والمتعصب في هذا العصر يعتبر نفسه جاداً في كل موقف، وهو بليد أخرق في شعور الفكاهة والمجون بحيث يستكبر على نفسه ان يبسم في وجه نفسه. ولا حاجة الى الاطالة هنا. فاننا لا ننسى اتهامات خطيرة ثارت حول أمور تافهة لا تزيد في اهميتها عن مسئلة فرك سنابل الحنطة بين اليدين. فثُرنا وتصايحنا: ان الدين في خطر!

والآن تأملوا في صبر المسيح. ربّ الكون يتنازل لمحاجّة حماقة كهذه! وكان دائماً صبوراً أمام الحماقة وأمام الجهل. وهو قد نصب نفسه لموقف كهذا في الايام التالية. فلنعطف عليه في موقفه. ولنفكر في المهمة — التي لا شكور فيها — المهمة التي أقام نفسه لأجلها في انقاذ البشرية الجاحدة!

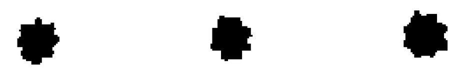
في اشفاق كثير، في صبر متناه، ينزل الى مستواهم لمحاجّتهم كما نفعل نحن مع الاطفال الصغار: « ان أفكاركم عن السبت لا تستقيم مع المعنى الذي قصده الآب. السبت انما جعل لأجل الانسان، لا الانسان لأجل السبت ».

وفي السبت التالي نصب له الكتبة والفريسيون احبولة لايقاعه فيها علناً أمام الشعب. فانه لما وصل الى مجمع العبادة في الصباح رأى أمام الباب رجلاً بيد يابسة فاخذوا يرقبونه هل يشفيه في السبت. والظاهر انها كانت خطة مدبرة. لاحظوا تبدل الموقف. في المرة الاولى وفي هذا المجمع نفسه ابرأ في يوم السبت رجلاً تملكته الارواح النجسة، فكبّر له الشعب وهلل. ولم تكن هناك رقابة ولا تساؤل.

نظر يسوع الى الرجل المصاب وذراعه العاطلة ونظرات التوسل المنبعثة من عينيه. ومما تذكره التقاليد ان الرجل توسل اليه قائلاً: « أنا بنّاء بالحجارة. اكسب رزقي بعمل يدي. فأتوسل اليك يا يسوع ان تردّ لي سلامة يدي، حتى لا ألجأ الى عار الاستجداء في التماس الخبز ». أخذ القوم يراقبون يسوع ويتحدّونه لكسر يوم السبت. ولكن تصلبهم وعنادهم أثارا مكمن الغيظ فيه. فالتفت اليهم غاضباً وقبل تحديهم. وقال للرجل: « قم في الوسط! » ثم قال لهم: « هل يحلّ في السبت فعل الخير أو فعل الشر (باهمال فعل الخير)؟

ومن منكم اذا سقط له خروف في الحفرة لا ينتشله؟ أليس الانسان أفضل من الخروف؟ »
عندئذ صمتوا . وشهد الجمع هذا الحوار في غيظ مت . ثم قال للرجل : « مدّ يدك ! »
فمدّها وعادت يده صحيحة كالأخرى .

وكنا نظن ان تؤخذ هذه المعجزة دليلا لا يقبل الدحض . ولكنها لم ترق اولئك المتعصبين . لان القلب المتعصب لا يعتقد بان أحداً على حق غير نفسه . ولا يقنعه شيء ما . فاذا أشرق أمامه النور قال عنه ظلام . واذا جاءه الدليل المقنع صيّره هباء . فهل رأيت نظائر لأولئك الكتبة والفريسيين فيمقاومة يسوع؟ حتى عن معجزاته القوية قالوا انها صنعت عن طريق استخدامه للشياطين ، وانه يخرج الشياطين بسلطان بعلزبول رئيسهم . هذه هي الخطية العنيدة ضد النور . هذه هي الخطية ضد الروح القدس التي لا تغفر كما يقول يسوع . لأن الذي يرى نور الله بعينيه الباصرتين ، ثم يرفضه عناداً وتصلباً على الرغم من نداء ضميره ، يضل نفسه و يجلب على بصره غشاوة كثيفة . وقدرفض اولئك القوم النور وحجبوه بأكفهم على الرغم من نداء ضمائرهم . وفي تعصب مرير أعمى حسبوه ظلاماً . وفي النهاية حاولوا اطفاء ذلك النور فوق رابية الجلجثة . أما يسوع فمن فرط اشفاقه على ذلك البنّاء المسكين قبل تحدّيهم وكسر يوم السبت ، واخجلهم باجراء المعجزة ، فصمتوا أمام الجمهور ولم ينبسوا بكلمة . ولكنهم امتلأوا غلاً وحقداً وتشاوروا كيف يقتلونه كما فعل زملاء لهم من قبل في مدينة اورشليم منذ أسابيع قليلة . وكان بودهم ان يفعلوا ذلك لولا ان الجماهير حالت بينهم و بينه فلم يقدروا ان يتعرضوا له . الحق انه في ظروف كهذه نطاطيء الرؤوس خجلاً من انسانيتنا المشتركة ! !



وليست هذه هي التهم الوحيدة التي قامت ضده . فلم يكن السبت إلا بعض اللجاج الحامي الذي ثار حوله — ولنحاول الآن تفهم الموقف :

نزل ابن الله الى الارض ليضع الدين على أساس صالح . وليقرر بسلطانه ما علّم به الانبياء في القدم — ليقول ان الدين هو البر والمحبة وليس الطقوس والقيود الخارجية السخيفة . وان البشر ليسوا عبيداً بل هم ابناء الآب الذي يقدّر محبتهم و يرغب فيها .

وكانت خطية اليهودية الاساسية ان استبدلت هذه المحبة بطقوس وقيود خارجية .

تأمل الدين الذي ألفاه يسوع شائعاً في الشعب المقدّر له ان يمثل الله ويعلنه للملأ : ان تصوم مرتين في الاسبوع فتحسب تقياً ، ان تعطي صدقة في العلانية فتحسب محسناً ، ان ترتدي الاحراز والتعاويذ وتكرر الصلوات عبثاً في الطرقات فتحسب متعبداً ، ان تكره العشارين وتنبذ الخطاة وتحتقر الامم فتكون مخلصاً مقبولاً في نظر الله . وكان السبت هو المحك الاساسي ، حوله حاك الكتبة شبكة من القواعد والقيود السخيفة وجعلوها المطالب الاولية في الدين .

وانت تستطيع ان تصور لنفسك كيف ابغض يسوع هذه المظاهرات التعسة والسخافات الباطلة . فأنزل سياط اللوم اللاذع على اولئك المرشدين العميان وتلك القواعد الدنيئة المبطلة . ومراراً وتكراراً كسر سبتهم . واظنه قد تعمد احياناً ان يكسره لينتهز فرصة فيها يوبخ افكارهم الباطلة ويعيد الحق الى نصابه : « جعل السبت للانسان وليس الانسان للسبت » .

ومسئلة السبت نموذج صالح للحوار معهم . جعل السبت للانسان ، اسعادته وخيره . واذا تصفحنا آيات العهد القديم ، نجدها تدور حول قصد ثنائي : ان يستريح الانسان يوم السبت من عناء العمل ، وان يفرح بالرب في يوم عطلته . ان يستريح ويعبد . هذا هو ناموس الآب الصالح لخير اولاده :

١ — كانت العطلة الاسبوعية يوم السبت ان يستريح الناس ، ويستردوا قوتهم ، ويتمتعوا ويكونوا سعداء . وقال الله للرجال والنساء في اعمالهم ، للاحداث في المدارس ، للعبيد في قيودهم ، للمواشي والحيوانات تحت نيرها: استريحوا واهنأوا يوماً واحداً كل سبعة ايام. وربما كان يؤثر قوم من اليهود ان يعملوا. ليعمل معهم عبيدهم وماشيتهم ولسان حالهم: « متى ينتهي السبت فنشتري ونبيع ونكسب ؟ » اما الله فلم يرض ان يوصم يوم راحته فقال : « انت وعبدك وامتك وثورك وبهيمتك » — كلكم تستريحون لان السبت جعل للانسان .

٢ — والراحة للانسان الكامل. ليس للجسد الذي يتعب من عناء العمل وحسب، بل للانسان بكليته كما تراه عين الله. الانسان المعد للحياة الخالدة وهو اكثر من مجرد جسد مادي بالٍ . ولذا فكر الله في خير الانسان الافضل. فلم يقل فقط : تعالوا واستريحوا على

انفراد . بل ايضاً تعالوا اليّ واستريحوا معي . فـكروا افـكاراً سامية نبيلة . اعطوا انفسكم فرصة للنمو . واذ كروا مقاصد الله المحبة لخيركم الزمني والابدي .

هـذا هو يوم السبت ، هبة الله الصالحة . ولـكن المسيح رأى شعب الله يفسد يوم راحة الله . و ينتزعون منه غبطته وهناءه — و يحيطونه بقواعد وقيود سخيفة متعبة ما انزل الله بها من سلطان . فالطبيب الشافي لا يجوز له في نظرهم ان يعمل عملاً من اعمال الرحمة ، والمقعد والمستعيد صحته لا يجوز له ان يحمل فراشه و يمشي . ولا يجوز للرجل ان يمشي الا عدداً معيناً من الامتار ، ولا للمرأة ان تضع ابرة في ثيابها ، ولا للتلاميذ ان يفركوا سنابل الحنطة بايديهم لئلا يقعوا تحت طائلة الناموس . كأن الآب سيد متسلط ، ظالم مستبد ، حقود حاسد . وكأن الانسان عبد خاضع لمضايقات السبت التي تخنق الانفاس . فلما جاء يسوع بنسمات السماء الحرة الطليقة، وتحدّى قواعدهم الضيقة الجافة ، تشاوروا لـكي يقتلوه ولعنوه كمتعدٍّ على يوم السبت باسم الرب ! !

وعلينا ان لا نخطىء في تفهم موقف يسوع هذا ازاء اليهود . فهو موقف الله . وقد حكم عليهم بعدل ولياقة .

وهل نظن ان يسوع يحكم على شخص أمين مخلص يسائله في اخلاص ، و يقـــاومه لاعتقاده ان تعاليمه ثورية ؟ حاشا لله ؟ لان موقفاً كهذا بعيد عن العدل واللياقة . وقد كان يسوع في نظرهم مجرد معلم جديد ولم يفطنوا الى اُلوهيته . فهل يسلم احد ان يسوع يحكم على انسان طيب القلب قد اساء بسبب غيرته لله، فهم المقصود من يوم السبت ؟ كلا. حاشا لله ! ولـكنه يحنو و يعطف على انسان هذا شأنه و يصلح خطأه و يبارك حياته .

ولـكن على يقين تام بان الله لا يحكم على انسان بسبب شكوك يعتنقها في اخلاص، او اخطاء يرتكبها في حسن نية. ولـكن الله يدين الاثم الروحي العميق المتأصل في النفس. ولم يحكم يسوع على القوم الا بسبب نفوسهم الخبيثة الغـدّارة وقلوبهم الحاقدة الجاحدة . وهذا هو الذي اعمى ابصارهم عن رؤية الله عند ما رأوه . لان القلب الجاحد الغادر لا يعاين الله . ويقول الرسول : « الذي لا يحب لا يعرف الله » . اما الذي يحب فهو في طريقه الى الله ، وكلما ازداد حبّك لزوج أو ولد أو صديق ، وكلما ازداد حبّك حتى للكلب الذي يتبعك ، سهل عليك الرجوع الى الطريق المؤدي بك الى قلب الله . والقلب الحاقد المجرد

من المحبة هو الخطية الاساسية الاصلية التي لا يعادلها أية خطية اخرى في نظر المسيح، حتى السكر والنجاسة : « العشارون والزناة يسبقونكم الى ملكوت الله » . هذا ما قاله لأولئك الفريسيين الحاقدين .

والقلب الحاقد يفسد السعادة في كل مكان . فهو قد افسد على يسوع هناءه في الجليل . حتى لم يعد يرى الى نهاية حياته شيئاً من تلك الايام الاولى السعيدة التي قضاها في كفر ناحوم .

الفصل الحادي عشر

ملكوت الله

والآن يأتي يوم، هو غرة ايام كفر ناحوم ، هو اليوم الذي شرع فيه يسوع في وضع الاسس الدائمة لملكوت الله على الارض . وكان خلال الاشهر الكثيرة يتأهب لهذا اليوم، فالجموع الموالية الغفيرة تعقبت خطواته، والتلاميذ يسيرون وراءه من مدينة الى اخرى . ولكن حتى الآن كانت الحركة قائمة على رجل واحد ،على حياة مفردة ، تجمّعت حولها اسباب الكراهية والعداء واخذت المؤامرات تحبك للقضاء عليها. وهو قد عرف أن موته قد دنا ، وان الوقت قد حان ليضع اركان ملكوته الدائم .

ولا ندحة لنا هنا عن أن نقف عن سرد الحوادث لنفرد فصلاً لهذا الملكوت :

سل علماء التاريخ : من هم الناس الذين أوحوا كبار الاشياء في الحياة ، الاشياء الطاهرة النبيلة المستحبة التي ذاع شأنها وعلا قدرها في تاريخ البشرية ، يجيبوك باجماع الآراء انهم هم المتحمسون ذوو المثل العليا الكريمة واصحاب الاحلام والرؤى ، هم الذين جاهدوا وتألموا وربما قضوا نحبهم في سبيل تحقيق تلك المثل العليا، فجعلوا العالم مكاناً هنيئاً يلذ العيش فيه .

هذا حق لا مراء فيه . فالمتحمسون اصحاب الرؤى والمطامح هم الذين تولوا الزعامة والتقدم في رفع شأن البشرية في كل حقب التاريخ . وقصة الانجيل الشريف تنبئنا ان كل الرؤى والاحلام والمطامح ان هي الاّ اجزاء مبعثرة وصور منعكسة لتلك الرؤيا العظمى التي شعّ نورها من افلاك السماء منذ ألفي سنة . وان وراء أولئك المتحمسين الغيورين — سيد الجميع ، ذاك الذي رأى الرؤى وحلم الاحلام وهو بعد في حانوت نجار . ثم خرج الى العالم ليعمل ويتألم ويموت في سبيل جعل تلك الاحلام الخيالية ، حقائق جلية !

وانا افكر الآن في بعض المتحمسين الغيورين الذين عرفتهم وأحببتهم، وفي مشروعاتهم النافعة لخير الانسانية . فهناك قوم تحمسوا في ارسال البعثات الدينية للبلدان الوثنية ، وفي منع المسكرات ، وفي ايواء الفقراء والمحرومين ، وفي تهيئة اسباب المسرة للاطفال الصغار، وفي

تدبير شؤون العجزة والعاطلين ..... واستطيع القول ان امثال اولئك المتحمسين يمثلون لنا من بعيد فكرة السيد المسيح الذي انطوت نفسه على فكرة خاصة تحمس لها وشغلت منه كل جهد وعقل.

أتدري ما هي ؟ هي النقطة المركزية في كل تعاليمه ، هي الرؤيا التي ملأت افق حياته وهو ينظر الى مستقبل العالم — هي الفكرة التي دارت حولها موعظته الاولى وكل اقواله وتعليماته بعد القيامة — الفكرة التي اتخذها السبعون تلميذاً موضوعاً لدعوتهم والتي شرحها كل مثل من امثال المسيح — وانت اذا اطلعت على قاموس آيات الانجيل تجدها قد وردت به حوالي مائة مرة . . . . .

وكما ان لكل زعيم متحمس من ابناء البشر فكرة معينة تدور حولها افكاره و يتخذها مركزاً لكل أقواله وتعاليمه ، كذلك نجرؤ على القول انه كان لذلك المعلم السماوي الالهي فكرة مركزية معينة . أما هذه الفكرة فقد أطلق عليها « ملكوت الله » . ففي اول دعاية نادى بها قال: «قد اقترب ملكوت السموات» . وعن تعليمه الاخير قبل الصعود قيل «... وهو يظهر لهم اربعين يوماً و يتكلم عن الامور المختصة بملكوت الله » . وقد كانت كل امثاله تقريباً تشابيه ورموزاً لهذا الملكوت. فملكوت الله اشبه بحبة خردل ، و بخميرة ، و بكنز مخبوء ، . و بشبكة الصياد — وهكذا في تشابيه عدة — ملكوت الله ! ملكوت الله !

هذه هي الفكرة الاولى : ان يسوع تحمس لفكرة خاصة كانت في نظره اهم من سواها . وهذه الفكرة قد اطلق عليها ملكوت الله .

* * *

ولكن ماذا كان معنى ملكوت الله في عرفه ؟ أكان مجرد حياة مستقبلة في السماء نترقبها بفارغ الصبر بعد الموت؟ كلا ! ثم كلا ! انما كان ذلك الملكوت مختصاً بالزمن الحاضر، كان حادثاً تعلق بالأرض قبل كل شيء ، فيها يبدأ و ينمو و ينتشر ليكون خيراً و بركة على الساكنين فيها .

والصور التي رسمتها امثاله تؤيد ذلك . فملكوت السموات اشبه بحبة صغيرة تغرس في بطن الثرى لتنبت دوحة كبيرة وارفة الظلال . وهو اشبه بخميرة تتفاعل في العجين كله حتى يختمر . وهو اشبه ببذرة تنمو سراً وفي الخفاء . وهو اشبه بحبة حنطة تنبت اولاً نباتاً،

ثم سنبلا ، ثم قمحا مملوءاً في السنبل . فهو شيء حي متحرك قابل للنماء والتقدم التدريجي في الارض لخيرها وبركتها .

مشروع جميل ليخلق عالماً جميلا . رؤيا محببة عن انسانية نبيلة تسودها الشجاعة والبطولة والبر والحق، انسانية قوامها رجال فضلاء اطهار ونساء فضليات طاهرات . لهم قلوب مشفقة رحيمة ، وايد كريمة سخية ، تنتشل العالم الساقط وتقوّم المعوج فيه — هذه هي رؤيا يسوع عن عصر ذهبي على الارض ، عن ملكوت يسيطر عليه إله بار محب ، وفيه يعيش البشر يخدم بعضهم بعضاً في تواد ومحبة .

وقد ظل يسوع سنوات يفكر في هذه الرؤيا فوق جبال الناصرة . وأخذت تتطور وترتقي في نفسه وهو يصنع الانيرة والمحاريث والمقاعد . فهل لنا ان نحاول تفهم افكاره بروح المشاركة معه . وعندنا انه حين تتحقق رؤياه تبدو الارض منشدة لخالقها أنشودة جديدة مستحبة. ومتى تنقضي الحياة من هنا يجوز اعضاء هذا الملكوت الى ما وراء الحجب، الى ملكوت الله في عالم غير منظور . هذه هي رؤيا الشاب المتحمس في حانوت الناصرة. هذا هو ملكوت السماء في نظره .

* * *

ولم يكن هذا الملك حلماً خياليا بعيد التحقيق . بل قد اعلنه مشروعا عمليا يمكن تحقيقه . فقال للناس مبدئيا ان هذا قائم فعلا، وأطلق عليه اسما آخر « ملكوت السموات » وأمرنا ان نصلي لأجله :

ليأت ملكوتك } كما في السماء كذلك على الارض .
لتكن مشيئتك }

أي كما هو قائم وموجود في السماء . وهذا القول يحمل الينا تلك الفكرة الحاسمة التي تجهلها مادية الارض، ألا وهي ان هذا الملكوت قائم في العالم الروحي الذي هبط منه المسيح ، قائم بكل شرائعه ومزاياه واختصاصاته . فكأن المسيح أراد ان ينشىء هنا على الارض مستعمرة على نسق ذلك الملكوت الأعلى في السماء . وذلك الملكوت نفسه هو العاضد وهو السند في تأييد نظم هذه المستعمرة الارضية وصوغ تشكيلاتها، كما كانت تفعل رومية العظيمة في انشاء مستعمراتها الارضية . وهذه هي الفكرة عينها التي أراد بولس

الرسول ان ينقلها الى أهل فيلبي عند قوله : « ان رعويتنا نحن هي في السموات ». وكأني به يقول لهم: « يا أهل فيلبي. انتم تتفاخرون بانكم مستعمرة لرومية العظيمة التي تشد أزركم، وبانكم تتمتعون بقوتها وامتيازاتها وكبريائها وكرامتها. أنتم من مواطني رومية واليها تمتون بصلة الرعوية . ولكن اعلموا أيها المسيحيون في فيلبي انكم أبناء انبراطورية أعظم، هي ملكوت السموات التي أسسها ملكها هنا على الارض . ورعويتكم في السماء . والعالم الروحي ، والله رئيس ذلك العالم ، والملائكة ورؤساء الملائكة ، وكل أجناد السماء — هؤلاء كلهم مسئولون عنكم » .

هذه هي الفكرة الحية المنيرة التي تحمل بين ثناياها الرجاء والشجاعة في أيام اليأس والبؤس. فكرة قد افتقر اليها المسيحيون قديماً ابان الاضطرابات والاضطهاد. ويفتقر اليها المسيحيون في هذا العصر في الايام العصيبة القاسية .وعلى الرغم من قوات العالم والجحيم ، وعلى الرغم من المعاكسات الكثيرة ، فان ملك المسيح لا بد منتصر في نهاية الامر . لان قوات الشر لا تقوى عليه .

وأنت تقف على شاطىء البحر وتلحظ ساعة بعد أخرى حركة المدّ والجزر يجيء ويروح. ولقد لحظ أبناء البشرية حركة المدّ الروحي جيلاً بعد آخر تتقدم تارة وتتراجع أخرى. ولكن الله من وراء هذه الحركة . والمدّ يتقدم الى الامام. وسيأتي يوم على الرغم من كل هذه المعاكسات « تصير فيه ممالك العالم لربنا ومسيحه وسيملك الى أبد الآبدين » .

ولعلّ في هذا الشعور ، التعليل الصحيح للثقة الكاملة، والطمأنينة الهادئة ، والتفاؤل السعيد، الذي بدا على السيد المسيح في السنوات الثلاث التي لاقى فيها من عوامل التثبيط ما لاقى وهو يؤسس مملكته هذه . وقد كانت هناك صعاب لا شك فيها . لانه كان لزاماً عليه ان يوقظ ذلك الجنس البشري المسكين اليائس، ليؤمن برؤيا السماء، وينهض الى فهمها ويشعر بحاجتها ، ويستسلم الى ندائها. ولكنه لم يكن في عجلة لان الزمن الطويل ممتد أمامه ومحال ان يكون الفشل مصيره . وهو قد شرع في غرس بذرة السماء في بقعة من الارض في فلسطين . وأخذ يجمع اليه نواة من القلوب الامينة المخلصة ليعهد اليهم في حمل لواء دعوته، ويكون لهم عاضداً الى انقضاء الدهر . وهو في مقدوره ان ينتظر في غير ملل .

* * *

ولـكنه فعل اكثر من ذلك ليجعل هذا الملـكوت حقيقة من الميسور بلوغها . فانه في ختام الثلاث سنوات على الارض بعد قيامته وصعوده، أخذ البشر يدركون ان الذي نادى بهذا الملـكوت هو الله نفسه ، وان الله قد حلَّ في هيكل بشري ليسكن مع البشر ، وان في وسع بني الانسـان ان يفهموا شيئاً من طبيعة ذلك الاله العاضد لهذا الملـكوت، و يعرفوه ليس إلهاً قدوساً لا يليق النطق باسمه وحسب، بل أباً وصديقاً محباً كريماً عطوفاً. وكان العالم البائس منصرفاً الى خمَـنٍ أعمى عن طبيعة ذلك الممسك بالعالم في يديه . ولما ان شهد البشر حولهم فواجع الطبيعة وأهوالها، والعواصف الهائجة والرياح الصرصر العاتية، والرعود والبروق والنيران ، تولتهم الحيرة وأخذوا يتساءلون عن طبيعة الاله المسيطر على هذه الحياة . ولما عرفوا ان يسوع هو الله أدركوا طبيعة ذلك الاله وذاته . وهم قد رأوه يداعب الأطفال وأيديهم الغضة الصغيرة ملتفة حول عنقـه ، رأوه ينفث روح الرجاء والاستبشار في المنبوذين البائسين الذين انقطع عنهم كل رجاء ، شهدوا محبته وتضحيته وآلام نفسه حيال فشلهم وخيبتهم. ولم يدركوا في بادىء الامر، حتى أقرب المقربين اليه، ان هذا هو الله ، بل عرفوه مبدئياً زميلا ، شجاعاً رحيماً محباً ، لم يعهد له البشر مثيلا . ورويداً رويداً أخذ ذلك السر العميق يعلن مكنوناته فينبلج نور الفجر المشرق. وما كان أبهى ذلك النور يوم عرفوا — بعد قيامته وحلول الروح القدس — ان ذاك الذي سار الى جانبهم زميلاً وصديقاً هو الله الخالد الازلي نفسه !

والاهم من ذلك انهم عرفوا انه قد جاء ليتخذ الطبيعة البشرية ، ليتجسد في الانسان، حتى يمكن ان تنساب الى الخطاة البائسين روح الله وقوته. أرأيت فتاة نحيلة مريضة ملقاة على سرير الموت لافتقارها الى دم جديد ؟ تخيل فتاة كهذه وتخيل شاباً قوياً بحيويته واقفاً الى جانبها يقدم نفسه الى الجرَّاح ليأخذ من دمه الحار الحيّ ويحقن تلك الفتاة المائتة، فيدب فيها دبيب الحياة والقوة · هذا تشبيه لما فعله المسيح في تجسده . وهذا تشبيه لما يحدث حين نتناول السر المقدس تقوية وتغذية لنفوسنا . ألم تسمع قوله للخطاة وهم يغالبون خطاياهم : « أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل » . وكأن في قوة هذا الملـكوت يستطيع أتعس الخطاة ان ينهض الى حياة جديدة ليكون في مرتبة القديسين الاولين .

واكثر من ذلك قد عرفوا انه قد جاء ليموت عن خطايا العالم « ويبذل حياته فدية

عن كثيرين ».و بعد هذا قام من الاموات فألهب في نفوسهم نار الرجاء في حياة المستقبل السعيد وأنبأهم الخبر اليقين بان لا موت بعد الآن . انما الحياة سلسلة متصلة الحلقات . وان ملكوته سائر الى الامام ليتكشف عن حياة مجيدة تسودها محبة الله .

هذه بعض معاني ملكوت الله . . . . .

* * *

وقد عهد الى البشر في تنفيذ هذا المشروع وتحقيقه. فلم تكن مهمة يسوع دعوة جميع الناس وتحويل جميع الافراد الى حقه ودينه. بل كانت مهمته تكوين جماعة صغيرة من بني الانسان لتتولى نشر دعايته مدى عصور التاريخ ، وتنادي قائلة : « قد اقترب ملكوت الله » .

ومن المؤثر حقاً ان نفكر الى أي حد وضع ثقته في البشر لتحقيق فكرته هذه . وليس شيء يوقظ مكامن الحساسية اكثر من ان تشعر بأنك موضع الثقة ومستودع الآمال، وخاصة متى عرفت انك لست أهلاً للثقة التي وُضعت فيك . ولم تكن الظواهر التي شهدها في بني البشر خلال الثلاث سنوات التي قضاها بين ظهرانيهم مما يقوي الثقة بهم، ولكنه لم ينظر الى السطح الظاهري . ولم يثق أحد قط في الانسان كما وثق به يسوع .

ومما أذكره اني قرأت مرة أسطورة غريبة قيل فيها انه عند ما عاد السيد المسيح الى السماء استقبله الملاك جبرائيل وسأله :

— يا سيد . هل أكملت غرضك و بلغت مرادك ؟ هل حولت جميع البشر فصاروا من أبناء هذا الملكوت ؟

فأجابه المسيح :

— كلا . قد وضعت فقط أسس الملكوت، وأخبرت عنه فئة قليلة من الناس وتركته ينمو بين أيديهم .

— ولكن كيف يعرف العالم يا سيد ؟

— بطرس و يوحنا و يعقوب وغيرهم يعلّمونهم !

— ولكن قد ينسون أو يهملون أو يفشلون !

— سوف لا يفشلون لاني واثق بهم ، معتمد عليهم !

كلا . لا يفشلون . والـكنيسة لم تفشل . ولـكن بالاسف قد اظلمّ نور تلك الرؤيا الاولى ! وأفجع قصص التاريخ هي التي نرى فيها المثل العليا التي وضعها المصلحون قد امتهنها الاتباع والانصار من بعدهم . نحن لم نفشل ، ولـكن في وسعنا ان نعمل أفضل مما نعمله الآن لنكون أهلاً للثقة التي وضعت فينا .

هذا كان قصد المسيح حين أقام تلك الجماعة الصغيرة من حوارييه الاطهار ليكونوا نواة تنمو وتعمل مدى اجيال التاريخ . وقد ظلّ ثلاث سنوات يجمع حوله يوماً بعد آخر تلك الجماعة المختارة معلناً لهم مبادئه ، ملهماً اياهم بافـكاره ، معلماً اياهم بنموذج حياته ، حتى اذا حان الوقت لصعوده الى السماء يترك وراءه جماعة من الرجال المدربين المجاهدين لتحقيق فـكرته في حمل لواء ملـكوت الله .

الفصل الثاني عشر

موعظة الجبل

والآن حان اليوم العظيم الذي شرع فيه السيد المسيح ان يحقق رؤياه ويثبت ملكوت أحلامه باقدام ثابتة على الارض . ولم يكن في قصده ان يفعل ذلك بنفسه، بل قد اعتزم أن يعهد بهذه المهمة الى البشر . وكما يدعو قائد حربي كريم، شخصاً موصوماً بالجبن ويجعل منه بطلاً مغواراً بان يكل اليه مهمة شاقة محفوفة بالمخاطر — هكذا فعل المسيح في ثقة كريمة متسامحة حين عهد بمهمته الخطيرة الى البشرية البائسة التي لقي منها شيئاً من خيبة الرجاء ، وفي الوقت نفسه شيئاً من الرغبة الحارة لتكون عند حسن ظنه بها . وكأنه قال : « سأوكل اليهم هذه المهمة . وسينهضون للقيام بها . وسأكون عليهم رقيباً ساهراً الى انقضاء الدهر » .

لذلك نراه يبدأ باختيار اثني عشر رجلاً ليكونوا معه على اتصال ودي وثيق . ويعلمهم ويدربهم ويضع فيهم ثقته الكاملة، ويلهب في نفوسهم نار غيرته وحماسه، ويكيفهم ليكونوا على مثاله . وبذلك يصيرون نواة لملكوته المقبل . وقد كانت هذه خطوة جريئة تنم عن ثقة الله السمحة بالانسان البشري .

ولم يختر نفراً من ذوي المكانة والجاه والعلم أو التفوق العقلي . وهنا قد يتساءل المرء مدهوشاً ، لاننا ونحن نفكر في خطورة المهمة كنا ننتظر أن يختار لملكوته نفراً افضل من اولئك الصيادين الجهلاء غير المثقفين . ولو فكرت عشر دقائق لاستطعت أن تشير بسهولة الى اثني عشر من الاشخاص الذين كنت تحسبهم افضل ممن اختارهم — امثال قائد المئة في كفر ناحوم، أو نيقوديموس، أو يوسف الرامي، أو لعازر، أو الشاب الغني، أو يايرس، أو شاول الطرسوسي الذي كان وقتئذ من طلاب الدين في جامعة اورشليم — امثال هؤلاء من ذوي الثقافة والجاه ومعرفة الامور ، الذين توافر لديهم النفوذ والمال لتعضيد المشروع . ولكنه مع ذلك لم يختر أحداً من هؤلاء .

وربما نجرؤ على القول — من وجهة تفكيرنا البشري — انه لم يستطع الظفر بهم . فالشاب الغني مثلاً الذي بدت عليه دلائل صلاحيته لأن يكون رسولاً أجفل أمام المهمة ومضى حزيناً . وليسوا كثيرين من يلبّون دعوة يسوع كما فعل اولئك الصيادون الذين تركوا كل شيء وتبعوه .

أو ربما لم يشأ في أول الأمر ان يختار رجالاً من ذوي النفوذ والمكانة. وكانت حاجته الآن الى شهود أمناء يشهدون للحقيقة التي قام عليها الملكوت : ان ابن الله الازلي قد جاء الى الارض،وعاش بين الناس،ومات لأجل الناس،وقام ثانية ونادى بملكوت الله على الارض — وخير الشهود لأية حقيقة من الحقائق هم القوم البسطاء العمليون البعيدون عن الاوهام والتصورات ، الذين لا تسوقهم الخيالات أو النظريات ، الذين متى اقتنعوا تماماً واستأثرتهم الحقيقة يخاطرون بحياتهم في سبيل تأييدها : مثلاً تقوم حول حقيقة القيامة مزاعم نفر من الملحدين يزعمون ان الشهود كانوا من رواة الاحلام والرؤى قد دفعهم الولاء الشديد الى تخيل حوادث ظهور المسيح المقام لهم.ولكن أي يقين ينقض هذا الزعم الفاسد أشد من النظر الى هـذا النفر من الرجال العمليين الذين لا يعرفون شيئاً من الخيالات والتصورات الوهمية في حياتهم العادية — وهم يغسلون شباكهم ويجففونها . ويجالدون عواصف البحر . ويشحنون الاسماك لتباع في الاسواق ! وليس سهلاً على أي انسان ان يتخيل الرؤى والخيالات وهو يعيش في وسط كهذا . يضاف الى ذلك ايمانهم العميق في الله ، وصلتهم اليومية به مدة سنوات ، واستسلامهم التام وغيرتهم على ملكوته . وربما يرى المرء بعد هذا انهم هم طراز الرجال الذين احتاج اليهم في بداية الامر . ومهما يكن الحال فهو قد اختارهم وكفى .

* * *

والآن حان يوم تنصيبهم لهذه الخدمة — في ليلة صيف هادئة ، فوق قمة الجبل على مقربة من ضفاف بحر الجليل. هناك تحت الكواكب الصامتة ترى انسانا وحيداً منفرداً يقضي الليل كله في صلة بالسماء ، بينما الجماهير التي تبعته قد استلقت في القرى تحته ، ونامت على منحدرات الجبل — « خرج الى الجبل ليصلي . وقضى الليل كله في الصلاة لله » .ولا شك في انه فعل هذا مراراً. وقد وجد في الاختلاء مع الله سلوى وتشجيعاً وعوناً

في جهود حياته على الارض بعد اذ وضع على منكبيه حمل البشرية بأسرها . ولم يمكنه الاستغناء عن هـذه الخلوة لانه عرف تأثيرها في نفسه وفي نفوس تلاميذه المجاهدين المستضعفين . ولذلك نراه يوصيهم ان يجربوا هذا بأنفسهم. ويقول ان كل مجاهد يستطيع ان يتقدم الى الآب كطفل صغير ويبسط أمامه كل همومه وأتعابه وجهوده وأمانيه . والآب يستمع اليه ويحبه ويعينه .

* * *

والآن أخذ الليل ينبلج عن صبح أغر. وأخذت الغزالة تخضب بنورها القرمزي أفق البحيرة . وأخذت الاطيار تغرد بأصواتها الصادحة مؤذنة بطلوع النهار . ورويداً تمتلىء منحدرات الجبل بالناس ويسعى الى رؤيته التلاميذ والجماهير . وعند ما يقتربون اليه يلمحون على محياه دلائل تنمُّ عن شيء خطير غير عادي. والظاهر ان التلاميذ قد عرفوا ما سيتمخض عنه اليوم بعد إذ اجتمعوا حوله فوق قمة الجبل .

« فلما جلس تقدم اليه تلاميذه » . وفي صمت رهيب خاشع نادى اثني عشر اسماً : سمعان ! فيجيء سمعان — اندراوس ! فيجيء اندراوس — ثم يعقوب ويوحنا والآخرون حسب ترتيبهم . وآخرهم يهوذا الاسخريوطي الذي أسلمه فيما بعد . دعاهم فتقدموا اليه .

وكانت تلك الحفـلة البسيطة في صباح ذلك اليوم فوق الجبل من أعظم حوادث التاريخ . فهي بداية انشاء جماعة صغيرة — الـكنيسة المسيحية — التي عهد اليها بأن تذهب مدى الاجيال منادية بملـكوته . فيها زرع حبة صغيرة رآها عن بعد شجرة وارفة الظلال تأوي في أغصانها أطيار السماء .

وبينما ينتظر التلاميذ في صمت وسكون عميق ، فتح فاه وألقى عليهم ما يصح ان نسميه « عظة تنصيبهم للخدمة » . فتح فاه وعلمهم مبادىء ملـكوته . ولم تـكن فـكرة ملـكوت الله فـكرة مستحدثة لدى اليهود . ففي أيام القدم كانوا يفاخرون بأن الله ملك اسرائيل. وفي اظلم أوقات تاريخهم اشار انبياؤهم الى عصر ذهبي فيه يعود ملـكوت الله ثانية . وكان طبيعياً أن يكيّـف الشعب ذلك اليوم بحسب افـكاره. وكان منتظراً ان يكون ذلك اليوم عهد قداسة وبرّ . لـكن الفـكرة التي سادت في أدمغتهم هي مجيء اليوم الذي فيه يقود « المسيا » شعب اسرائيل من نصر الى نصر ، اليوم الذي تخر فيه الشعوب التي أذلتهم عند

اقدامهم ويتسلط اسرائيل بمجد عظيم. وهم يؤمنون الآن ان يسوع هذا هو المسيا. وها هوذا يبدأ يكلمهم عن ملكوت الله :

ثم فتح يسوع فاه وعلمهم — ليس عن انتصار وانتقام وثروة وسلطان — فهذه كلها لم تكن مُثله العليا لسعادة العالم : —

طوبى للمساكين الذين ارتضوا ان يكونوا فقراء . فلم يتشبثوا بمقتنياتهم ولم يقعوا في أحابيلها .

طوبى للودعاء الذين لا يتفاخرون ولا ينتفخون ولا يدّعون شيئاً لانفسهم .

طوبى للرحماء لانهم يُرحمون .

طوبى لانقياء القلب لانهم يعاينون الله .

طوبى لصانعي السلام . لانهم ابناء الله يدعون .

طوبى للجياع والعطاش لاجل البر . لانهم يشبعون .

طوبى للمتألمين لاجل البر . لان لهم السماء . . . . .

وهكذا تبتدىء « عظة تنصيب الاثني عشر » باعلان ملكوت السماء فيما وراء الكواكب ، الذي كان عليهم ان ينادوا به على الارض . وبعد عشرين سنة من هذا التاريخ نسمع بولس الرسول يترجم هذه العظة ، ويصوّر الانسان الذي هو أحد رعايا هذا الملكوت بقوله :

« هو يحتمل كثيراً ويشفق . لا يحسد . لا يتفاخر ولا ينتفخ . ولا يطلب ما لنفسه . ولا يحتد . ولا يظن السوء . يحتمل كل شيء . ويصدق كل شيء . ويرجو كل شيء . . . . . . »

هذه هي الرؤيا التي اعلنها المسيح لعالم سعيد . هي ملكوت الله على الارض الذي أمرنا ان نصلي لاجله قائلين : « ليأت ملكوتك على الارض كما في السماء » . والارض بلا شك ستصبح فردوساً لو جاء ملكوته حقاً .

ثم ينتقل الى القاء التبعات عليهم ووضع ثقته الكاملة فيهم . فاسمعه يقول لذلكم النفر الجاهل الذي وَكَل اليه مهمته على الارض : انتم ملح الارض. فلا تضيعوا خاصتكم الملحة . انتم نور العالم. فليضيء نوركم أمام الناس ــ لا يثق هكذا الا القلب السمح الكريم،

قلب الله فقط هو الذي يضع ثقته في اشخاص على طراز الناس الذين وثق بهم يسوع . وكانت لهذه الثقة اطيب الثمرات في اوانها .

والظاهر ان الست عشرة آية الاولى من الفصل الخامس في انجيل متى هي « عظة التنصيب » الموجهة الى التلاميذ. و بعد ذلك يستمر في كلامه عن الملكوت، والجموع اليه صاغية ، وهو يبين كيف ان دين اسرائيل يرتبط بهذا الدين الجديد الذي يدعو اليه ، وان القديم كان تمهيداً للجديد ، وان الناموس والانبياء قامت على التمييز بين الخطأ والصواب تمييزاً خالداً. وهذه لن يمكن ان تزول— « لا تظنوا اني جئت لانقض الناموس والانبياء. ماجئت لانقض بل لاكمل ». فالاسس الاصلية وهي الله والحق والواجب والمحبة يجب ان تبقى الى الابد لانها من خصائص الملكوت الاعلى في العالم الروحي، وهو يريد ان تشمل الارض ايضاً .

لذلك أحبوا كما كنتم تفعلون من قبل . ولكن احبوا على طريقة الله — أحبوا أعداءكم . أحسنوا الى مبغضيكم — صلوا كما كنتم تفعلون ، ولكن صلوا في حق عميق— ادخلوا الى مخادعكم واوصدوا أبوابكم وتعالوا كاطفال صغار الى الآب. اسألوا تعطوا . اطلبوا تجدوا . اقرعوا يفتح لكم — اصنعوا الصدقات كما كنتم تفعلون ، ولكن في الخفاء امام الله ولاجل الله . لا تقسوا في حكمكم على الآخرين بل احكموا على غيركم في كرم وسماحة وعطف كما يفعل الله . . . . .

أنتم يا ابناء الانسانية البؤساء المقيدين في اغلالكم : ان الآب يريد ان تحيوا حياة سعيدة مغبوطة ، طليقة من الهموم في حضرته المقدسة . وهذا هو الحال في الملكوت الاعلى. انظرو الى طيور السماء التي لا تقدر أن تزرع أو تحصد والله يعتني بها . تأملوا أزهار الحقل البرية التي لا تتعب، ولا تغزل ثياب بهائها وجمالها، ولكن ولا سليمان في كل مجدة كان يلبس كواحدة منها. ألستم أنتم أفضل من هذه؟ لا تضطربوا . انتم في بيت الآب وابوكم السمائي يعلم انكم بحاجة الى هذه كلها .

لذلك لا تهتموا للغد . لان الله سيكون في الغد. فان كانت حياة في الغداة، الله يعتني بكم ، وان كان موتاً فهو يستقبلكم بذراعيه . وليس شيء في هذه الحياة الواسعة خليقـاً

بالاضطراب والقلق سوى الخطية . ولان الله في سمائه ، فكل شيء على الارض يسير في طريقه . لذلك اطلبوا اولا ملكوت الله و بره وهذه كلها تزاد لكم .

* * *

لا شك في ان هذه اسمى التعاليم التي عرفتها الارض. ولن يقدر ان ينكر ذلك اكبر المكابرين الذين يزعمون ان المسيح مجرد داعٍ عظيم من دعاة البرّ . وهنا لا بد لنا من كلمة تحذير وانذار : حاذروا موقف الشك والارتياب وهو ذائع في هذا العصر — الذي يمتدح يسوع كأسمى معلم عرفته البشرية، و يعتبر «الموعظة على الجبل» افضل ما في الانجيل.

لا . إن افضل شيء في الانجيل هو الانجيل ذاته ، هو اليقين بأن ابن الله قد جاء ، هو اعلان بر الله ومحبته وايثاره في شخص وحياة وموت الابن الازلي ، الذي به يلامس قلوبنا و يكتسب محبتنا و يسوقنا الى الرغبة في اتباع هذه المثُل العليا في حياتنا. كان مسيح الله اكثر من مجرد داعٍ للبر . و يا و يح هذا العالم المسكين ان كان يسوع قد جاء فقط لينادي « بمواعظ على الجبل » ! !

انما هو ابن الله الازلي الذي به خلقت العالمين . جاء ليخبر عن ملكوت الله في العالم الاعلى الذي منه هبط. و يصيغ ملكوته الارضي على نموذج الملكوت السمائي . و يقول لنا الملحدون ان الله لن يمكن معرفته على حقيقته .وان الله الذي نتخيله في افكارنا ان هو الاّ انسان جعلناه إلهاً جريا وراء افكارنا عن النموذج الاسمى لله.

كلا . إن الاله الذين يعلنه المسيح ليس ثمرة فكر الانسان . بل هو اعلان من الله عن الله . ولم يكن المسيح حادساً ولا متخيلا ولا مؤملا ، بل قد عرف كل شيء . ونزل ليحيا و يموت على الارض لانه أراد أن يبلّغنا هذه المعرفة — أرادنا أن نعرف الله ، أن نفهم الله ، ان نفكر من وجهة نظر الله ، ان نتعلم ناموس الملكوت الاعلى الذي علمنا اياه يوم ألقى موعظته على الجبل .

الفصل الثالث عشر

الاثنا عشر

ينظر الناس الى الاثنى عشر رسولاً كأنهم شخصيات غامضة، اسماء لا تعرف شخصياتها تماماً كأنهم نفر من القديسين يشبه بعضهم بعضا. وربما يمتازون بالهالات التي تكلل هاماتهم، كما نرى اشكالهم المرسومة على نوافذ الكنائس. بينما هم في نظر الذين عرفوهم اناس مثلنا وليسوا كلهم على شاكلة أو شبه واحد. كانوا نفراً من الاحياء ذوي الدماء الحارة، تختلف وتتباين سحنهم وصفاتهم وطباعهم وأمزجتهم. وفي هذا التباين نراهم فريقاً من الناس يلذ لنا معرفة شيء عنهم. ومتى نظرنا اليهم هكذا، استطعنا ان نميز بينهم ونعرفهم متى التقينا بهم، ونعلم كيف رغب المسيح في كل صنوف البشر يومئذ، وكيف يرغب الآن ان يخدم في ملكوته كل اصناف البشر حتى الذين على شاكلتنا.

اكتب هذا الآن في قرية صغيرة على شواطىء الغمر الاطلنطي يسكنها جماعة من صيادي الاسماك، وأمامي متسع من البحر أشبه ببحيرة تبلغ مساحتها اثنى عشر ميلا في ستة أميال في حجم بحيرة الجليل. تكتنفها جزر قائمة في عرض البحر على مسافة بعيدة. وهنا في هذه القرية ألتقي يومياً بالصيادين أصحاب زوارق الصيد، وهم قوم من طبقة بطرس ويعقوب واندراوس. يتصفون بالشجاعة والهدوء والجلد والمثابرة. واكثرهم متدينون جداً ولو انه يبدو عليهم الصمت والتحفظ في أمر الدين. ومتى تعرفت اليهم جذبتك شخصياتهم. فتذكر أحدهم بسرعة خاطره وحاضر بديهته وتذكر الثاني بعبوسته وكآبته وضيق دائرة الحق والصواب في نظره. وتذكر الآخر بنظراته الخاصة في الحياة وهي مزيج من الكآبة وخفة الروح. وقد نرى حساسية غريبة يكثر وجودها في الاقوام التي تعيش حياة السذاجة والفطرة، واحياناً تقديراً غير منتظر للجمال الصامت.

وفي كل ليلة قبل الفجر تخرج زوارقهم الغشيمة الصنعة الى مواطن الصيد. ويعودون تارة بشباك مثقلة، واخرى يتعبون طول الليل ولا يمسكون شيئاً. حياتهم خشنة خطرة.

وتبدو لمن يعيش على اليابسة حياة بليدة مملة، ويخيل اليهان الصيادين انفسهم بلداء مملون. ولـكن يزول هـذا الوهم متى نعرفت اليهم وسمعت احدهم يحدثك عن روعة الفجر في البحر ، أو جمال كوكب الصباح المنير ، أو سمعت آخر يحدثك عن اختباراته في زوبعة فجائية عاتية ، أو مصارعة كلب من كلاب البحر أو قيصانة جبارة . . . . .

هذه الصورة تمثل لنا الحياة في كفر ناحوم بجانب البحر . وهؤلاء هم صنوف الرجال الذين جعل منهم يسوع رسلاً له . هؤلاء هم الصيادون الذين عرفهم يسوع بصراحة افكارهم ومحبتهم لله ، واقاصيصهم ونكاتهم الجافة التي لا شك حملته احياناً على الابتسام في الايام السعيدة التي قضوها في الجليل قبل ان تحلّ بهم المتاعب الجسيمة .

وما كان أشدّ نفوذه عليهم وأوثق صلته بهم — يوحنا ذلك الشاب المملوء بالاحلام والاماني . توما الهادىء ذو الوجه الوديع . سمعان الوطني الثائر المتمرد . بطرس المندفع الاهوج الذي احبه بصفة خاصة على الرغم من عيوبه . الصنوان اللذان لا يفترقان فيلبس ونثنائيل. والباقون، حتى الاسخريوطي — الذي كان من بلاد يهوذا وأحس كأنه غريب وسط الآخرين وهم من سكان الشمال — كانوا كلهم بشراً فيهم كثير من العيوب والنقائص البشرية . ولـكن فيهم وجـد يسوع صحابته ، وبدونهم كان يشعر بالوحدة والوحشة . لان طبيعته تاقت الى الصداقة والالفة ، وفيهم ألفى مرامه .

وفي الفريق الاول نرى بطبيعة الحال اكبرهم مركزاً وأشدهم حماساً ، وهم الذين تولوا الزعامة فيهم، وكانوا أمتنهم اخلاقاً وأشدهم ولاء ليسوع وقصده العظيم — وكان ذلك الفريق «زوجين» من الاخوة : بطرس واندراوس — يعقوب ويوحنا — والاربعة متلاصقون، وهم أول من تعرفوا الى يسوع من صحابته . ولذا نرى أحدهم وهو يكتب بشارة يوحنا في ايام شيخوخته يذكر كل التفاصيل الدقيقة حتى ساعة اللقاء : وكان نحو الساعة الرابعة بعد الظهر بينما كان اثنان منهم — اندراوس ويوحنا — واقفين مع المعمدان عند نهر الاردن حين مرّ يسوع امامهما وسمعا المعمدان ينادي عندئذ « هوذا حمل الله » . فسار الشابان وراء يسوع بخطى متثاقلة محاذرة آملين ان يكلمهما . وقد فعل . واخذهما الى منزله الصغير ومكثا تلك الليلة عنده وتعشيا معه وعرفا أفكاره . ولما خرجا تلك الليلة تحت الـكواكب

الصامتة أحسا بأن قلبيهما قد امتلآ حباً جديداً ورجاء وغيرة . وتبدل العالم في نظرهما ، وتعلق به قلباهما الى الأبد .

وكان أحد ذينك الاثنين اندراوس أخا سمعان بطرس . هذا وجد أولا اخاه سمعان وجاء به الى يسوع . واظن ان يوحنا جاء أيضاً بأخيه يعقوب .

يسير هؤلاء الاربعة معاً . واستطيع ان اتصورهم وهم يتبعون يسوع وهو نازل من الجبل . اتصور بطرس رجلا متوسطاً في العمر ، لا شاباً ولا شيخاً (« لما كنت اكثر حداثة كنت تمنطق ذاتك. ولكن متى شخت فان آخر يمنطقك »). صياداً خشناً ضخم الجسم بوجه قد لوحته الشمس والعراء ، ميالا الى الفكاهة والمزاح ، شفيقاً محباً ، ودوداً محبوباً من زملائه ، انساناً له ضعفاته التي قواها يسوع ، سريع الانفعال والتأثر ، انساناً يأتي الاخطاء شأن أي بشري آخر يُرجى منه شيء من الخير .

وفي قلبه الكبير حب عميق ليسوع. حتى احس، مدفوعاً بغريزة كبر السن، ان عليه واجب الاعتناء بسيده الاصغر منه سناً اذا لم يعتن هو بنفسه . وقد ابيحت له حرية المعارضة والاحتجاج اكثر من الآخرين. ومرة ذهب في ذلك شوطاً بعيداً، ولكن يسوع الذي فهمه جيداً لم يسيء فهمه .

الى جانب بطرس ليس اخوه اندراوس — بل يوحنا زميله الملاصق له . « بطرس ويوحنا » يذكران دائماً معاً في رواية الانجيل . وليس يوحنا زعيماً ولكنه شخصية اعمق من بطرس . هو مفكر عميق. واتصوره شاباً حلو الملامح . رقيقاً وديعاً . له عقلية الاديب العالم، وعيون الرائي صاحب الاحلام ، انساناً ينظر وهو على هذه الارض «باباً مفتوحاً في السماء » . وكان أسرع الكل في إدراك افكار سيده السامية . وقد انطوت نفسه ونفس اخيه على جوانح متقدة مخفية، حتى أطلق عليهما يسوع لقب «ابنى الرعد». ولم ينل أحد منهم حظوة القربى لدى يسوع كما نال يوحنا، فهو «التلميذ الذي كان يسوع يحبه».

واندراوس يتمشى مع يعقوب . وأفضل ما نعرف عنه انه جاء بأخيه الى يسوع . وتقول التقاليد الكنسية انه صُلب وكان يبشر الناس بالمسيح وهو معلق على صليبه . وهذا هو الاصل الذي يرجع اليه « صليب القديس اندراوس » . أما يعقوب فلا نعرف عنه إلا القليل . وهو قد مات في مقتبل عمره . ولكننا نعلم ان يسوع أطلق عليه لقب

« ابن الرعد » وكان خطراً على هيرودس حتى انه أمر بقطع رأسه. وكان ذلك الطاغية قد قبض على اثنين من زمرة الصحابة الاثنى عشر، هما يعقوب و بطرس. ولـكن شاء الله ان يموت يعقوب و ينجو بطرس. وربما لو عاش يعقوب لـكان اعظمهم جميعاً انما دعاه الله اليه لخدمة أخرى هناك. و يعلم هو و بطرس الآن لماذا سمح الله بموته يومئذ. ولا شك في انهما تحدثا عن هذه الشئون عندما التقيا في الحياة الاخرى، يوم لحقه بطرس بعد اربعين سنة .

هذا هو الفريق الاول ، وهم الرجال الزعماء ذوو العاطفة الحارة والحماس الشديد : يعقوب الجريء المقدام الذي مات لأجل المسيح . اندراوس العملي الذي جاهد لأجل المسيح . يوحنا المفكر العميق والقليل الكلام . و بطرس الذي كان يتكلم احيانا قبل ان يفكر ، بطرس المتهور الكثير الخطأ وهو اكثرهم بشرية . و يحلو للمرء ان يفكر كيف مال اليه يسوع وأحبه مع انه كان متهوراً و بقي خائفاً حائراً ثلاث ساعات . بل هذا ما يملأ نفوس بعض منا بكبير الرجاء ، نحن المتهورين الجبناء الذين نحس في اعماق قلوبنا مع بطرس المسكين فنقول : « يا رب انت تعرف كل شيء . انت تعرف اني أحبك » .

هذا هو الفريق الاول . وربّ قائل يقول : « لست أنا واحداً من هؤلاء . لاني لست متحمساً وما أنا إلاّ بليد بارد . تساورني الشكوك . وأشعر احياناً باني لا أمتّ الى المسيح بصلة ما ، ومع ذلك لست انكره ولو قدّم لي العالم كله » .

اذن لننظر الى الفريق الثاني — الى فيلبس ونثنائيل و برثلماوس ومتى وتوما — هؤلاء يختلفون عن الفريق الاول . وهم يحبون يسوع ولـكنهم لا يصلحون للزعامة والقيادة . مفكرون ولـكنهم يرتابون احياناً . وقد انقضى زمن طويل على بعضهم قبل ان يؤمن بان يسوع شخصية إلهية . وليس هذا عيباً لانه هكذا ركبت نفوسهم وطبائعهم .

انظر الى فيلبس : سأله يسوع يوماً : « من اين نبتاع الطعام لإشباع هذه الجماهير الغفيرة في الصحراء ؟» أراد بذلك ان يمتحن ايمانه ولـكن فيلبس لم يفلح في هذه التجربة. وعوضاً عن ان يقول : « يا سيد أنت تستطيع ان تعمل كل شيء » ، أخذ يعمل عملية حسابية ليعرف ثمن الخبز في حانوت الخباز وأجاب : « يا سيد. لا تقدر. فهذا يكلفنا مبلغ كذا من النقود » .ومرة أخرى يطلب فيلبس دليلاً فيقول : « يا سيد أرنا الآب وكفانا» فيلتفت اليه يسوع و يوبخه برقة « أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس ؟ الذي

رآني فقد رأى الآب » . هذا هو فيلبس الذي نراه دائماً يسعى وراء الادلة والبراهين يريد ان يرى دائماً . وليس هذا في حد ذاته أمراً شائناً اذا لم نركب فيه متن الشطط .

وكان زميله نثنائيل على شاكلته ومع ذلك لم يكن على شاكلته . كان ايضاً بطيئاً محاذراً مرتاباً الى حد ما . يأتيه فيلبس يوماً ما برغبة حارة ليخبره عن يسوع المسيا . ولكن نثنائيل تحيط به شكوكه فيقول «وهل يخرج من الناصرة شيء صالح». ولكنه في اللحظة التي رأى فيها يسوع زالت عنه كل شكوكه. وكان انساناً صامتاً مفكراً يقضي وقته تحت شجرة التين في حديقة منزله في القراءة والصلاة والتفكير عن الله وفي مثل هذا الانسان تتولد سريعاً الرؤى الروحية . وبعد ان قضى بضع دقائق مع يسوع نسمعه يصرخ قائلاً : « يا معلم . انت ابن الله ، انت ملك اسرائيل » .

وكان نثنائيل صديقا محبوبا من فيلبس ، امينا مخلصا ، رائق الذهن شديد العطف والولاء ، صريح القول والفكر : وهو الذي قال عنه يسوع «اسرائيلي حقا لا غش فيه».

أما توما فهو المعروف في نظرنا بالمرتاب . وكان من عادته ان ينظر دائماً الى النواحي المظلمة في الاشياء : « يا رب نحن لا نعلم الى اين أنت ذاهب فكيف نعرف الطريق ؟ » ولما عرّض يسوع نفسه للخطر عند موت لعازر نرى توما يوقن ان سيده لا بد مائت . ونراه ايضا يرفض الايمان بالقيامة بشهادة زملائه الرسل . وكان مستعداً ان يبذل كل شيء لتحقيق هذا القول ولكنه لم يقوَ على تصديقه في أول الامر. هذا هو تركيبه الطبيعي، وغيره ايضا يحاكونه في هذه الطبيعة . ويجد البعض صعوبة في الايمان بالمسيح اكثر من غيرهم . وامثال هؤلاء يكونون عادة أمناء سليمي النية . ومتى عرفوا المسيح صاروا أشد الجميع تعصبا له وتشبثا به . هكذا كان توما . فمع انه لم يعرف الطريق إلا انه تبع يسوع الى المنتهى . ومع انه أحس بأن يسوع يقتل لو ذهب الى جنازة لعازر، فان القلب الامين المخلص صرخ قائلا : « لنذهب نحن ايضا لكي نموت معه » . ومع انه ابطأ في الايمان بالقيامة إلا انه بعد ان اقتنع ارتفع ايمانه فوق الجميع وصرخ قائلا : « ربي وإلهي ! » ولم يكن أحد قبل الآن قد دعا يسوع إلهاً .

ومتى يتفق مع توما — فالاثنان صامتان هيابان خجولان — ولا نعرف الكثير عنه. وقد كان ابن حلفى — والارجح كليوباس — واذا كان الامر كذلك فهو ابن خالة

السيد. وكان منبوذاً من أسرته، عشاراً وجابياً للأموال. ولـكن لما استأثر به يسوع لبىّ النداء بنبل وشمم « وللوقت ترك كل شيء وتبعه » . والارجح ان تدريبه الرسمي هيأ له مركزاً خاصا عندما تولى جمع « أقوال » يسوع التي صارت فيما بعد « بشارة متى » . وحدث في الوليمة التي أعدها متى في داره ان انتزعت دمدمة الفريسيين والـكتبة من يسوع ذلك التصريح الخطير الذي تلخص فيه انجيله : « جئت لأدعو ليس ابراراً بل خطاة الى التوبة ».

* * *

وأما أفراد الفريق الاخير فيندر ظهورهم في البشائر أو في قصة سفر الاعمال. والارجح ان أعمالهم وجهودهم كانت في اصقاع نائية . وهم نماذج للجماهير الغفيرة من الامناء في كل العصور الذين يعملون صامتين ولا يعرفهم غير الله ، واسماؤهم مكتوبة في سفر الحياة — وهؤلاء هم اخوة متى الثلاثة ابناء حلفى : يعقوب الصغير ويهوذا وسمعان الغيور — كلهم من اليهود المتشددين، ويزداد تشددهم لان أخاهم كان عشاراً . وأما يعقوب الصغير فقد صار فيما بعد أسقف أورشليم . وكتب يهوذا تلك الرسالة الشديدة اللهجة في العهد الجديد . وكان سمعان وطنياً متحمساً وثائراً ضد رومية. وربما يصح ان نعتبر هؤلاء اشداء في الغيرة ضيقي الفكر. هم الذين عابوا على بطرس ان يأكل مع الامم، وهم الذين لم يميلوا كثيراً الى آراء بولس المجددة في السعي لايجاد كنيسة جامعة يقف فيها اليهودي والاممي على قدم المساواة . قوم ضيقو الفكر ولـكنهم شديدو الغيرة. وامثال هؤلاء كثيرون في هذا العصر، وامثال هؤلاء تتسع افكارهم بفضل اتصالهم بيسوع. والواقع انهم بحاجة الى سعة الفكر ولـكن موقفهم هذا لا يخلو من الخير، فهم بمثابة السدّ لصد تيارات الاخطاء والابتكارات المستحدثة.

وآخر الكل واقلهم شأناً — يهوذا الاسخريوطي — الرجل المالي الذي قام باداء الوظيفة الادارية العملية في هذه البعثة . وليست هذه وظيفة هينة في الـكنيسة . فان رجال الادارة والعمل الذين لا يقدرون ان يعلّموا أو ينادوا يؤدون خدمات نافعة في تكريس مقدرتهم الادارية لخير الـكنيسة ، ولو اني لست أظن انهم يرتضون مقارنة أنفسهم بيهوذا هذا .

ولا يسع المرء إلا ان يتساءل قائلاً : لماذا اختار السيد يهوذا أو لماذا قبل يهوذا نفسه. وليس شك في انه لم يقبل جرياً وراء مغنم مادي، فان موارد بعثة قوامها اثنا عشر من الفقراء

شحيحه بحيث لا يتسع المجال فيها للسرقة او التلاعب. وهناك قصة شجية مثيرة للعواطف لن نعرفها عن لقائه يسوع لأول مرة، قصة تعلل اختيار يسوع اياه وضمّه الى زمرة رجاله المختارين.ولا بد أنه شعر بجاذبية نحو يسوع،أو ربما أحس بضعفه وشعر انه سيكون بمأمن الى جانبه . ولست انكر انه قد تدانى الى أحط مستوى في النذالة والشر ، ولكن لست أنسى له انه أراد أولاً ان يكون مع يسوع . ولست أنسى انه في وسط آلام وخز الضمير ظهرت فيه رجولة كافية دفعته الى ان يلقي بالرشوة في وجه الذين خدعوه،ويذهب ويشنق نفسه . والانسان الصغير النفس لا يفعل هذا . وقد كان ليسوع تأثير عليه أعظم مما عرف،حتى جنّ عند ما تخيل انه سيحكم على سيده، وشعر انه هو الذي أسلمه: «خير لذلك الانسان لو لم يولد ». ولكن هل ينساه يسوع الى الابد ؟ !

دعا يسوع كل أصناف البشر ليكونوا رسلاً له .وفي ميدان خدمته متسع لجهود كل اجناس الناس — العبقريين والغيورين والمرتابين والحائرين والجهلاء والبلداء . وفي كلنا عناصر من العظمة يهذبها ويصقلها، وعناصر من الشر يقتلها فينا ويبيدها . يريدنا كلنا ويدعونا كلنا .

وهو يرغب بين رجال الدين—في الغيور العبقري الروحي ونبي الرب.ولكنه يرغب ايضاً في الخادم المسكين الخجول المجرد عن فصاحة القول وقوة التنظيم والادارة ، الذي تكون حياته المحبّة الهادئة عظة مستمرة ناطقة.وكذا بين العلمانيين يرغب في النابغة ذي النفس الشفوقة الناعمة الذي يجعل الدين جذاباً ، وايضاً في الهادىء الصامت الوقور الذي يمتاز بالشعور السليم الصائب . يرغب في المرأة الناشطة العاملة التي ترفع العالم بأعمالها ومؤلفاتها نحو الله.ويرغب في الام البسيطة الساذجة التي هي نوريتها والتي ينهض اولادها ويباركونها. يريدنا كلنا ويدعونا كلنا. ويستطيع بنعمته ان يجعلنا للعالم بركة وفيضا عمياً .

الفصل الرابع عشر

جنازة نايين

الموعظة على الجبل عاد المسيح الى بيته « ولما أكمل يسوع أقواله كلها بعد في مسامع الشعب دخل كفر ناحوم » . وكان معه الاثنا عشر بنفوس ناشطة بعد رسامتهم، وقلوبهم مليئة بالخشوع العميق وهم يفكرون ويستمعون ويشاهدون ويهيئون أنفسهم — وهم لا يعلمون — لمهمة المستقبل العظيم .

يرون أبرص بائساً يتقدم اليه وهو سائر في الطريق قائلا له : « ان أردت تقدر ان تطهرني » فيجيبه يسوع « أريد فأطهر » .

وبعد ساعة يرون حادثا آخر أهم وأوفر في التعليم . وكانوا الآن قد دخلوا المدينة فازدحمت طرقاتها الضيقة الملتوية بالجموع المعجبة به ، الراغبة فيه التي تبعته . وبينما السيد ذاهب في طريقه الى غرفته الصغيرة التي كان يقطنها بمنزل بطرس واذا بوفد من شيوخ كفر ناحوم يستوقفونه ويتقدمون اليه برجاء غير عادي — ان يفعل صنيع احسان لجندي وثني — وكان القائد الروماني للثكنات العسكرية الرومانية القائمة على التل في حالة فزع واضطراب بسبب غلام شاب من أهل بيته يشكو آلاما شديدة وهو معذب قد أشرف على الموت .

ولم يكن أمراً مألوفا عاديا ان يطلب يهودي صنع معروف لوثني . ولكن ذلك الوثني كان رجلا غير عادي ، رجلا كبير القلب مغرماً شغوفا بعبده ، رجلا كبير النفس شعر بعقم عقيدته الوثنية ووجد في العبادة اليهودية للاله الواحد القدوس بعض الشبع لأشواق ورغبات نفسه العميقة — امثال هذا من المخلصين الامناء هم الذين يجذون يسوع. « ابناء الله الذين في الشتات » . امثال هؤلاء ينجذبون الى المسيح انجذاب الصلب الى المغناطيس.

وطبعا عرف ذلك القائد الشيء الكثير عن يسوع . فكان زميله في وظيفته ذلك

النبيل الذي كان ولده مريضاً في كفر ناحوم. وهو منذ شهور يمرّ في طرقات المدينة بشق النفس بسبب ازدحام الجماهير، وتأتيه التقارير عن أقوال ذلك النبي الشاب. لكنه لم يستطع إلا احترامه وتوقيره من بعيد. ولم يكن إلا « خاطئاً من الامم ». لذلك توسط له أصدقاؤه من اليهود قائلين: «انه مستحق ان يُفعل لههذا لانه يحب امتنا وهو بنى لنا المجمع».

أجابهم المسيح الى سؤالهم وسار معهم. ولكن ذلك القائد حين رآه قادماً اليه أحس بانه قد افرط وتجاسر في الطلب. تأمل ضابطاً رومانياً متكبراً يبدي هذا الشعور نحو يهودي ! ! ولا شك في ان المسيح قد أثر في نفسه بشكل غريب وأعاد الى مخيلته أساطير دينه عن نزول الآلهة الى الارض. والظاهر انه رأى في المسيح ما لم يكن قد أدركه بعد الرسل أنفسهم: ان يسوع الناصري اكثر من مجرد انسان بشري زائل — ولذلك حين رأى المسيح عن بعد أرسل اليه أصدقاء يقول له: «يا سيد لا تتعب لاني لست مستحقاً ان تدخل تحت سقفي. لذلك لم أحسب نفسي أهلاً ان آتي. لكن قل كلمة فيبرأ غلامي».

ولا شك في ان يسوع أحب تواضع الرجل وقوة ايمانه. لان القلب الصادق الامين يشعر دائماً بعدم جدارته واستحقاقه: « يا رب لست أهلاً. ولكن أنا في حاجة اليك. وأنا أثق بك». ومثل هذا القول أشبه «بجواز سفر» يذهب به المرء الى اعماق قلب يسوع.

والاعجب من هذا شدة ايمان الرجل. وقد تشكل هذا الايمان بفضل مرانه العسكري. فكأن العالم غير المنظور في عرفه أشبه بمعسكر من القوات الحية الجبارة تسود فيه قوة يسوع القاهرة « لاني أنا ايضا انسان مرتب تحت سلطان. لي جند تحت يدي. وأقول لهذا اذهب فيذهب. ولآخر ايت فيأتي. ولعبدي افعل هذا فيفعل ».

سرّ يسوع جداً لانه لم يصادف من قبل ايمانا كهذا. واذ يراه في رجل من الامم، يتخيل رؤيا ملكوته المقبل، الملكوت الجامع في العالم، الذي يمتد الى ما وراء حدود الشعب المختار. وهو أشبه بانذار لذلك الشعب الذي كان قد بدأ ان يخيب آماله فيه. « ولما سمع يسوع هذا تعجب منه والتفت الى الجمع الذي يتبعه وقال: أقول لكم لم أجد ولا في اسرائيل ايماناً بمقدار هذا. وأقول لكم ان كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابرهيم واسحق ويعقوب في ملكوت السموات. وأما بنو الملكوت فيطرحون الى الظلمة الخارجية، هناك يكون البكاء وصرير الاسنان ». وقد كان هذا

الكلام مؤلماً جداً في اسماع اليهود .« ثم قال يسوع لقائد المئة : اذهب وكما آمنت ليكن لك . فبرأ غلامه في تلك الساعة » .

وهكذا أُثيب قائد المئة وأُنذر اليهود وتعلم الرسل درساً نافعاً بقي معهم مدى الحياة . وأضاف السيد عثرة أخرى الى العثرات التي حسبها عليه أعداؤه وحقدوا عليه بسببها في صدورهم .

* * *

كانت هذه معجزة بارزة ولكنها لم تكن شيئاً مذكوراً بالنسبة للحادث الذي وقع في اليوم التالي. ولا بد ان السير وراء يسوع في تلك الايام كان حافلاً بالمدهشات والغرائب، وكانت لكل يوم احداثه البارزة ومدهشاته الجديدة. ونحن نحفظ للبشير لوقا حسن صنيعه في انتزاعه قصة جنازة ابن أرملة نايين من أيدي النسيان .

وفي اليوم التالي ذهب الى مدينــة تدعى نايين وذهب معه تلاميذه وجمع كثير . وكانت نايين بلدة جبلية صغيرة في جنوب الجليل ، على مقربة من مكان ساحرة عين دور، وعلى مسافة عشرين ميلاً من كفر ناحوم. ومعنى كلمة نايين :« سار وجميل » — وربما استحقت يومئذ هذه التسمية ولو انها اليوم بقعة جرداء موحشة. وما تزال بقايا هذه القرية القديمة جاثمة فوق منحدرات حرمون الصغير،وكذا بقايا الباب القديم، حيث التقى يسوع بالجنازة ، وكهوف المدافن القديمة على مسافة ميل من البلدة . ولذلك يسهل ان نصور لأنفسنا المشهد الذي اقبل فيه يسوع واتباعه نحو المدينة ، مشهداً بسيطاً هادئاً، تقع فيه العين على الماشية ترعى الاعشاب على جوانب التلال، وعلى الفلاحين وهم عائدون من حقولهم ، والاطفال يلعبون عند باب المدينة ، وأشعة الشمس المائلة الى المغيب تلامس برقة وحنان الاشجار وسطوح المنازل في تلك البلدة الصغيرة الهادئة الجميلة. كل شيء كان بهجاً هادئاً سعيداً . و بغتة تتسلل نغمات الأسى، و يسمعون عن بعد عويلاً وولولة . ثم يلمحون عند باب المدينة مقدمة موكب جنازة كبيرة ، جنازة مؤلمة حقاً . وفي النعش جثة صبي ميت ملفوف بالاكفان البيضاء، والرأس والاكتاف عارية. وأمام النعش امرأة تتعثر قد هدّت فداحة المصاب كل قوتها . « ابن وحيد لأمه وهي أرملة » . ههنا صورة للحياة

البشرية وما فيها من متناقضات السعادة والحزن . صورة تتمثل فيها المآسي الاليمة القاصمة للظهور حين تثور فجأة لتعكر صفو الحياة وهناءها .

وفي كل مكان يفسح الانسان الطريق امام الميت . ولذلك نرى يسوع وأتباعه ، في عطف كثير وخشوع رائع ، ينتحون جانب الطريق لتمرّ الأم بولدها الميت . ولم يقع عينها لفرط مرارة نفسها على ذلك الواقف الى جانب الطريق ، وقلبه يسيل نحوها عطفاً واشفاقاً .

وليسمح لي القارىء ان أتخيل هذه الصورة :

افكر في تلك الأم والأمهات الكثيرات على شاكلتها مدى أجيال التاريخ يظهرن أمام المسيح في تلك اللحظة مع ذلك الابن الميت. بل تتمثل أمامه تلك المأساة الاشدّ ألماً، ألا وهي موت الابن موتاً روحياً ، الابن الملفوف ليس بأكفان القبر البيضاء ، بل بقيود العادات الشريرة الذميمة. وحاملو نعشه، وهم الزملاء والاصحاب الطائشون يطوحون به الى بؤرة الدمار. والأم وهي تسكب قلبها سكيباً لا تنظر في ألمها وانكسارها الى المسيح الواقف على جانب الطريق . وأنا أعلم انه هناك دائماً في مثل هذه الاحوال ولو انها لا تراه وهو يتحنن عليها . وكم نرى من هذه المآسي دون ان نذهب الى نايين ؟ !

وانّ أكثر الصور ايلاماً للنفس واطولها بقاء في الذاكرة،صورة أم ثكلى تبكي ولدها الميت . أو ما هو أدهى وأمرّ ولدها المنحدر الى هوة الخراب والفساد . والدرس الهام الذي نتلقنه عن قصة نايين هو ظهور المسيح في الصورة بمظهر الحنون المشفق في كل حالة. وليس حنانه الحنان الضعيف غير المجدي ، بل الحنان القادر على كل شيء ، العطوف المحب الذي شاء أخذ الولد الميت الى حياة انبل واسمى ، والذي يرعى بعينه ذلك الابن الشارد الضال بألم اكثر من ألم أمه . وفي هـذا العالم يسعى دائبا وراء من ضلّ وانخدع لعله يظفر به ويرده الى حظيرته .

ينظر المسيح بعين الحنان الى تلك الأم المعذبة . وفي لحظة يلمس النعش فيقف حاملوه جامدين. وتتماوج كلمات القوة في قلب الميت ورأسه. ويهتز لها العالم الروحي الذي صعدت اليه تلك الروح . يجلس الميت ويبتدىء يتكلم. فيدفعه الى أمه — يدفعه الى أمه ! ألسنا نرى هنا شبها لما سيفعله الله ؟ ألا يقوّي هذا في نفوسنا الرجاء بحلول اليوم السعيد — في العالم الآتي — يوم يأخذ الله ولدك وولدي ويدفعه الى أمه ؟ !

هنا نرى قلب الله . وليست هذه القصة خيالية خرافية . بل حدثت فعلاً . لان جمعاً كان مع المسيح ، وجمعاً آخر كان في مشهد الجنازة ورويت القصة في كل مكان والرواة يعلمون انهم يقصّون أمراً بعيد التصديق . « خرج هذا الخبر في كل اليهودية وفي جميع الكورة المحيطة » واستولى على الجميع خوف عظيم ومجدوا الله قائلين « قد قام فينا نبي عظيم » و « افتقد الله شعبه » .

ولكن ربّ أم حزينة باكية تصرخ في ثكلها بقلب مرتجف قائلة : ولماذا لا يقيم هذا الاله الرؤوف الشفوق ولدي وسائر الأولاد؟ وأعتقد ان مثل هذه الأم لا تعني ما تقول. فقد كان في اسرائيل في عصر المسيح أرامل كثيرات ثاكلات كسيرات القلب مثل أرملة نايين . و يسوع تحنن عليهن ولكنه لم يدفع اليهن أولادهن . ونحن لسنا ندري لماذا فعل هذا في نايين فقط . ولم يرد ان يفعل غير ذلك. لانه اذا صدق ايماننا بان الموت هو ميلاد الى حياة اعظم واكبر، وهو تطور النفس الى وجود انبل وأوفر حرية . عندئذ يكون مثل هذا العمل أشبه برد فرخ الدجاج الصغير الى البيضة التي فقس منها . أو ردّ الطفل الى رحم أمه . أو اعادة الفراشة الى دودة مرة أخرى . وقد فعل المسيح مثل هذه المعجزة — إحياء الميت — ثلاث مرات في حياته وهو وحده يعلم السبب اليقين . ولسنا نستطيع نحن إلاّ الحدس بروح الوقار عن سبب امتناعه عن تكرار هذا الصنيع .

والآن أيتها الأم : احفظي ولدك في افكارك . احفظيه في صلواتك . اشكري الله لاجل الحياة الاسمى والاعظم التي دعاه اليها . واعلمي انه في تلك الحياة الحرة الراقية يزداد اهلية لانتظارك ، عند ما يحين اليوم الذي يرضى فيه الله ان يدفعه اليك .

الفصل الخامس عشر

في الخلاء

كانت رسامة الاثنى عشر بمثابة أزمة في حياتهم . فالى تلك اللحظة كانوا في رفقته باستمرار في الفترات التي كانوا يخلون فيها من اعمال الصيد . أما الآن فكان لزاماً عليهم ان يطلّقوا أعمالهم العالمية «ويتركوا كل شيء ويتبعوه» . ويعتمدوا في معاشهم على ما لديهم من المدّخر القليل وعلى ما يجود به عليهم سخاء الخيّرين. وكان قد عرف ان وقته معهم قصير،فحصر همّه من تلك الساعة في تعليمهم وتدريبهم استعداداً لليوم الذي يبارحهم فيه . ومن تلك الساعة نضعهم نصب أعيننا كلما نفكر في معجزاته وتعاليمه في وجودهم . وهم لم يدروا من الامر شيئاً ، ولكن كان الغرض الأهم من هذه المعجزات والتعاليم انما هو تدريبهم وترويضهم .

وبعد دعوتهم الرسمية بقليل نراه يوفدهم في رحلة لإعلان ملكوت الله. وواضح ان القصد من وراء ذلك هو تدريبهم لمهمتهم الخطيرة في المستقبل،لكي يتعلموا العمل مستقلين بدون حضوره الجسماني معهم . وكان عليهم ان يذهبوا بملء الثقة لا يحملون معهم كيساً ولا زاداً . وان يسيروا كرسل الله . وفي هذا نسمعه يقول « اعطيكم قوة وسلطاناً لصنع المعجزات والكرازة بملكوت الله أنّى تذهبون » . ومن السهل علينا ان نرى أهمية هذه البعثات التي كان يوفدهم فيها في لتدريبهم واعدادهم للمستقبل .

خرجوا من لدنه اثنين اثنين ربما بحسب ترتيبهم في قوائم الرسل: فيلبس وبرثولماوس — متى وتوما — الخ . وبلا شك كان يصلي هو لأجلهم ويعضدهم في غيبتهم .

ولكننا نراهم وقد عادوا الى كفر ناحوم أسرع مما كنا ننتظر . والراجح انهم سارعوا في العودة حاملين الانباء المحزنة التي لاقتهم . ففي الجنوب ذاعت الاخبار القاتمة

بان هيرودس العاتي قطع رأس يوحنا المعمدان . وكانت تلك الاخبار قد وصلته لان « تلاميذ يوحنا دفنوا الجسد وأتوا وأخبروا يسوع » .

جاء الاثنا عشر متحمسين مغتبطين من فوزهم في مهمتهم — «يا رب حتى الشياطين كانت تخضع لنا باسمك » وكان السيد فرحاً شاكراً . وهكذا نرى أولئك البسطاء ، الاطفال في المسيح ، قد بدأوا يتعلمون كيف يأتون ببركات الملكوت لأبناء الانسانية .

* * *

وهنا نجيء الى مظهر مبهج في حياة السيد . فها هوذا يأخذهم لقضاء أيام في راحة وعطلة . وكانوا قد جاءوا فوجدوه مضطرباً بسبب موت يوحنا المعمدان وربما مضطرباً بسبب أمر آخر. فان كفر ناحوم كانت تماوج بجموع ثائرة اجتمعت فيها من كل نواحي الجليل، و بدت عليها علائم الثورة والهياج ضد مظالم هيرودس قاتل يوحنا المعمدان . وقد أرادت هذه الجموع ان ترى يسوع وتستمع الى تعاليمه . ولكن نظراً لما حدث في اليوم التالي نظن ان الامر لم يكن قاصراً على الرؤية والاستماع . فهناك همسات خافتة ، وتقوّلات لاحداث ثورة عامة على رأسها المسيا. وقد ظنوا ان ذلك يولّد الثورة في نفسه و يدفعه الى تبوأ مكانة الزعيم السياسي لانقاذ شعب الله من نير المظالم والعدوان. و يصف البشير الهرج والمرج في كفر ناحوم ، والجماهير الثائرة الصاخبة ، وذهاب واياب الكثيرين ، والتجمهر والمناداة حول هذه الفئة الصغيرة المتعبة — بقوله « لم يتيسر لهم فرصة للاكل » .

عندئذ تفوه يسوع بالكلمة التي كانوا هم في حاجة اليها : « تعالوا أنتم منفردين الى موضع خلاء واستريحوا قليلاً » — عرف انهم في حاجة الى الراحة . وقد كانت المهمة شاقة عليهم أجهدت عقولهم وأجسادهم . وزادت الطينة بلة احاطة الجماهير بهم . فاحتاجوا الى تغيير تام والى راحة كاملة. وليس شك في انه هو نفسه كان أحوج اليها منهم. وكم يلذ لنا ان نقف هنا لنفكر هنيهة في ان يسوع احتاج الى الراحة وتغيير وسط العمل،شأن كل واحد منا . ظن انه خير لهم ان يهرعوا الى الحقول والحراج والجبال ومجاري الانهار لتخفيف وطأة الاجهاد الذي أصابهم واراحة العقل والصلة بالله . « تعالوا معي الى الخلاء واستريحوا » .

وهذه الدعوة الحكيمة العطوفة تقرّبه الينا كثيراً. فهو هكذا دائماً. يعرف تركيبنا

ويذكر اننا تراب . وخير لمن يجهدون أنفسهم بالاعمال الكثيرة ، ويتعبون أعصابهم ان يشعروا بعطفه عليهم في حاجتهم للراحة، ويعلموا ان أوقات الراحة والعطلة، وأوقات العمل والسعي ، هي تدبير ارادة الله المشفقة .

* * *

يخرجون الى الخلاء للراحة والانقطاع عن العمل —

يسحب بطرس السفينة الى شاطىء البحر . وهناك يجلس السيد والكل يحيطون به. يفردون الشرُع الحمراء السمراء ويوجهون الدفة الى الجهة الشمالية الشرقية صوب تلال الريف بعيداً عن الضوضاء والضجيج — للراحة والعطلة — وهم فرحون إذ يشعرون مرة أخرى بان سفينة تحت امرتهم . يتضاحكون ويتحدثون ، ويقاطعون بعضهم بعضاً وهم يذكّرون أنفسهم باختبارات الرحلة التي كانوا فيها . ثم بقلوب ملؤها الحزن والغضب يخبرون يسوع بكل ما سمعوا عن موت يوحنا المعمدان.

ولكنهم — شأن جميع المنهمكين في أعمال كثيرة — يجدون انه من الصعب عليهم الحصول على راحة تامة . فانه لم يمكن صدّ الجماهير المزدحمة على الشاطىء . وكان المسيح قد بلغ أوج شهرته . وعرفت الجماهير اتجاه السفينة «فتراكضوا من جميع المدن مشاة وسبقوهم واجتمعوا اليه». حتى النساء يحملن أطفالهن المرضى تراكضن الى هناك مع الجموع الغفيرة.

وسرعان ما نزلوا الى اليبس حتى أحاطت بهم الجماهير وافسدت عليهم تدبير الراحة. أما هو فلم يتعض وقابل هذا المنظر بقلب راض،ورحب بهذه الالوف الكثيرة التي عكرت عليه أوقات عزلته وانفراده وافسدت عليه تدبيره . سعوا اليه ورغبوا فيه وهذا يكفيه . نحن قلبه نحو الامهات يحملن فلذات اكبادهن المرضى،وقبلهن مرحباً هاشاً باشاً ، مطيباً قلوبهن بكلمات رقيقة عن ابوة الله «وشفى مرضاهم » .

ساعات طويلة تقضت في العمل والجهاد . واقبل المساء . وكان يسوع يفكر في هذه الجموع الجائعة المتعبة . ويفكر أيضاً في تدريب تلاميذه الاثنى عشر . ولذا نراه يلتفت الى فيلبس ليحمله على التفكير : « من أين نبتاع خبزاً لتأكل هذه الجماهير يا فيلبس ؟» يقول هذا لكي يمتحنه ولكنه لم يفز في الامتحان ويقول : « مستحيل يا سيد . فهذه الجموع لا يكفيها خبز بأقل من عشرة جنيهات ! » .

أما يسوع فلا يحاجُّه . وهو يعرف أين موضع الصمت ويترك الفكر يعمل في نفس فيلبس ويرى مبلغ أثره في الآخرين . ولكنهم ليسوا أفضل من زميلهم . ولما صار المساء تقدم اليه تلاميذه قائلين « يا سيد اصرفهم . لقد مال النهار . اصرفهم لكي يمضوا الى القرى ويبتاعوا لهم طعاماً» فيجيبهم يسوع: « اعطوهم انتم ليأكلوا » — « يا سيد كيف ذلك ؟ هل نبتاع في هذه الصحراء بعشرة جنيهات خبزاً ؟ »

ثم تقدم يسوع ليعمل . ليعمل صنيع البر والاشفاق بهذه الجماهير الجائعة ، صنيعاً كان له أعمق الأثر في نفوس تلاميذه الذين لم يتكامل ايمانهم بعد — « كم رغيفاً عندكم ؟ اذهبوا وانظروا» . فأخبروه ان لديهم خمسة أرغفة وسمكتين وهذا هو كل عشائهم . فأمر ان تتكىء الجموع صفوفاً صفوفاً مئة مئة وخمسين وخمسين «واخذ الارغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك ثم كسر الارغفة وأعطى تلاميذه ليقدموا اليهم » . ومما هو جدير بالمراعاة الكلمات الخطيرة القائلة : « رفع نظره نحو السماء وبارك ثم كسر الارغفة وأعطى تلاميذه». وتكاد تكون هذه الالفاظ هي التي استعملت تماماً عند كسر الخبز في العشاء الرباني بعد ذلك . وسنرى بعد قليل ان فكرة ذلك العشاء جالت بخاطره ، وهو الخبز النازل من السماء لاطعام الانفس البشرية البائسة . فكأنه قد بدأ عند ذاك ان يعدّ تلاميذه الاثني عشر لادراك سرّ الشركة المقدسة .

ويروي هذه المعجزة البشيرون الاربعة. وقد شهدها الاثنا عشر .ورآها الجموع. ونحن نقبلها كما هي مدونة في السفر المقدس . ونؤمن في بساطة الايمان ان المسيح أجراها بقوته كما يفعل بنا كل سنة ، كربّ الحصاد — معجزة مماثلة أعظم منها في تكثير كل حبة صغيرة ، ثلاثين وستين ومائة ضعف .

وسرعان ما انتهى العشاء حتى بدأ الاضطراب . فان الجماهير لما شهدت المعجزات هاجت وماجت، وأحس المسيح بان في نيتهم أخذه بالقوة وتنصيبه ملكاً عليهم . وكان ممكناً لخمسة آلاف من شعب الجليل الهائج احداث ثورة هائلة ، لا سيما ان أعصابهم متوترة بعد قتل يوحنا المعمدان . وكان الوقت في عيد الفصح حين تؤم اورشليم جماهير وافدة من كل شعب اليهود . وكانوا يتمنون لو استطاعوا أخذه الى أورشليم واحاطته بجماهير من عامة

الشعب تنضم اليهم في الطريق،والمناداة به ملكاً لليهود بين مندوبي الشعب الوافدين من كل انحاء الارض في عيد الفصح .

وقد كان هذا خطراً داهماً يعرّض قصده الاسمى للبوار . لانه لو بدت ملكوت الله في شكل حركة سياسية عالمية، لقضت القضاء المبرم على كل أعماله التي فعلها، ولكان خلاص العالم تحوّل الى ناحية أخرى واتخذ طريقاً آخر .

لذلك أحس بان من واجبه ان يختفي عن انظارهم . والظاهر ان التلاميذ كانوا يعطفون على الجماهير بدليل انه « ألزمهم » وأجبرهم على النزول الى السفينة بدونه والذهاب الى وطنهم « حتى يكون قد صرف الجمع » .

ثم مضى يسوع الى الجبل ليصلي . وقد كان هذا ملاذه عند اشتداد الازمة . وها هو يتوقع حدوث حادث . فان أورشليم تزداد اضطراباً وعداء ، وموت يوحنا المعمدان أثار عواطف كامنة ، وشعب الجليل يفكر في أن يجعل منه زعيما و بطلا يقود ثورة عامة

انقضى الغسق وعقبته ظلمة الليل . واشتدت الظلمة حلكا وانتصف الليل البهيم . وثارت زوابع عاتية تعصف عصفها بين التلال . وهناك ، هناك فوق الجبل نرى المسيح وحيداً يقضي الليل كله في الصلاة لله . وهنا نخمّن في وقار وخشوع انه استعرض في أفكاره مهمته في الحياة ، وهذا العالم الخاطىء البائس ، وجموع القرويين الذين اطعمهم ، والاثنى عشر الذين اختارهم لتأسيس الملكوت . وكان جميع هؤلاء لا يدرون انه يفكر فيهم في صلواته. وهذا العالم العظيم الهائج الذي حنّ اليه المسيح بقلبه ساعتئذ لم يدر شيئاً ، ولم يفكر في ذلك الرقيب الساهر في وحدته وعزلته . كان الخمسة آلاف الذين اشبع بطونهم نياماً تحته في القرى والضياع. وكان التلاميذ الاثنا عشر في اضطراب وجزع لانه لم يكن معهم في العاصفة. وهذا ما يحدث لنا نحن حين تثور العاصفة وتعاكسنا الرياح — نفزع ونضطرب ويتولانا اليأس و يتحكم فينا الجزع ، وننسى بل نشك احيانا انه ساهر يرقبنا و يعتني بنا و يتشفع فينا .

* * *

والآن اخذ الفجر الوردي يبزغ في أفق الشرق . وها هو يرقب تلاميذه في شدة العاصفة و يراهم « معذبين في الجذف لان الريح ضدهم » . كانوا في خطر عظيم . وكان

الخطر يتفاقم . وهنا نراه ايضا يعلمهم بطريقة عجيبة خطوة فخطوة . ففي الزوبعة السابقة كان الوقت نهاراً وكان هو معهم في السفينة وقد عرفوا ان في حضرته لا يحيق بهم مكروه. ولـكن عليهم ان يتعلموا كيف يثقون به و يعتمدون عليه وهو بعيد عنهم وغير منظور لهم، وان يسيروا بالايمان وليس بالعيان . وكان يعلم ان الـكنيسة الفتية ستعيش في عالم عاصف بعد ذهابه الى الآب، فماذا هم فاعلون بدونه عند هبوب العواصف؟ وكما يدفع النسر صغاره من على الجرف ، فاذا تولاها الفزع ينقض عليها و ينقذها — كذلك يدفع بهم المسيح الى الخطر تشبيهاً لما سيحلّ بهم في المستقبل بدون حضوره المنظور لهم ، حتى يعلموا أنه معهم ولو أنه غير منظور بينهم . وإذا ما دهشت أيها القارىء الـكريم — عند النظر إلى الايمان الجريء الذي بدا على ذلـكم القوم في أخريات حياتهم ، فاذكر أن هذا هو ثمرة التدريب المتقن الذي نالهم على يد سيدهم وهو على الأرض .

والآن فجأة في شفق الفجر « في الهزيع الرابع من الليل » يرون يسوع ماشياً على الماء . وفي بادىء الامر يفزعون و يضطربون و يصرخون من الخوف كما يحدث عادة عند ما يجيء الينا المسيح في ساعة من ساعات الظلمة أو الهلع ، ربما ليأخذ عزيزاً علينا الى الحياة الاخرى . فنجزع ونصرخ من الخوف ولـكنهم يسمعون صوته وقد علا فوق أزيز الريح كما تعلّم ان يسمعه بعضنا بعد انقضاء العاصفة : « ثقوا انا هو . لا تخافوا » .

ولـكن التعليم لم ينته بعد . فانه في وثبة الثقة الفجائية عند رؤيته يصرخ أحدهم — هو بطرس بالطبع — بطرس المتهور المحب ، الذي قلما يفكر قبل ان يتكلم . فيقفز في الماء أولاً و يجد نفسه وسط الامواج الخطرة و يصرخ « يا سيد ان كنت انت هو فمرني ان آتي اليك».وكان قد شعر بالخجل حين بدا عليهم الخوف والاضطراب وأحس بدافع أن يسبق الجميع في الثقة بسيده . أليس هذا هو بطرس تماماً ؟ أليس يمثل هنا موقفه في ليلة الصلب : « يا سيد ان تركك الجميع فأنا لا اتركك ! ! » .

وقال له يسوع ! تعال — كان يعطف حقاً على بطرس هذا ، المندفع المتهور . وهو يحب اولئك المتهورين الاشداء الذين يرتكبون الاغلاط احياناً . « فنزل بطرس من السفينة ومشى على الماء ليأتي الى يسوع ». استطاع ان يمشي على الماء وهو ناظر الى سيده ولـكنه لما أدار بصره والتفت الى الرياح الصاخبة خاف وابتدأ يغرق فصرخ : « يا رب

نجني ! ها أنا أهلك !». ففي الحال مدَّ يسوع يده وأمسك به . ولما أنقذه وجّه اليه هذا اللوم الرقيق « يا قليل الايمان لماذا شككت ؟ » كنت تستطيع الفوز في هذه التجربة لو لم يساورك الريب . ألم يكن هذا درساً نافعاً للتلاميذ ؟

* * *

كل هذا وتعليم ذلك اليوم لم ينتهِ بعد . وكان لا بد لهم ان يدركوا معنى سرياً اعمق في اشباع هذه الجماهير. والبشير يوحنا يذكر ما أغفله البشيرون الآخرون . فانهم لما وصلوا كفر ناحوم واستراحوا واكلوا ، خرج يسوع بعد الظهر الى البحر وهناك التفت حوله الجماهير الثائرة . ولم يفكروا ويتحدثوا إلاّ في موضوع معجزة الارغفة ويسوع يسايرهم في حديثهم وتفكيرهم . ولكنه يفاجئهم مفاجأة غريبة مدهشة لم يفعلها من قبل —

« اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الابدية الذي يعطيكم ابن الانسان.... أنا هو خبز الحياة . . . أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء . . . . ان لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم » .

لا غرابة ان يفزعهم مثل هذا الكلام. وتبدو على وجوههم علامات الحيرة والارتباك. ويمطرونه وابلاً من الأسئلة والاعتراضات . وحتى الرسل انفسهم يشعرون بان هذا الكلام بعيد عن مداركهم . وربما لم يذكر لنا في رواية السفر المقدس الا خلاصة مقتضبة للحديث الذي جرى . فهل لنا ان نتجارى الآن ونفصح عن الفكرة التي شرحها لهم يومئذ ؟

. . . . . هناك غذاء للنفس كغذاء الجسد. وبالأمس كانت أجسادكم ضعيفة هزيلة، فلما اطعمتكم بالأرغفة جاءتكم قوة جديدة وشجاعة. وهكذا أيضاً في حياة النفس. وبطريق لا تفهمونه الآن، أعطي حياتي وقوتي للناس . أتيت ليكون لهم حياة وليكون لهم افضل. من يأكلني فهو يحيا بي

ولسنا نستغرب ان يصمت السامعون في دهشة وحيرة. ونحن الذين عرفنا كيف يعطي المسيح في خدمة السر المقدس حياته وقوته للناس، لا يصعب علينا الآن فهم هذه الاقوال . ولكنها كانت الغازاً صعبة لسامعيها في ذلك اليوم، حتى ان كثيراً من أتباعه رجعوا الى الوراء ولم يعودوا يمشون معه . وهنا التفت يسوع آسفاً إلى تلاميذه وقال لهم : « ألعلكم

أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا ؟ ». فاجابة الرسل الحيارى: « كلا يا سيد ! إلى من نذهب وكلام الحياة الابدية عندك ! » ولكنهم عرفوا معنى هذا الكلام بعدئذ الى حدّ ما . ونحن نعرفه الآن الى حدّ ما : « جسد ربنا يسوع المسيح الذي بذل لأجلك يحفظ جسدك وروحك الى الحياة الابدية . خذ هذا كله تذكرة ان المسيح مات لأجلك واغتذ به في قلبك بالايمان والشكر » .

الفصل السادس عشر

قيصرية فيلبي

الآن نأتي الى اسبوع دقيق في تدريب الاثني عشر رسولاً: وها نحن نرى في الافق علائم أزمة تقترب في خدمته بالجليل. فالجماهير لم تعد موضع الاهتمام. ونسمع اكثر عن التلاميذ. ويقترب الزمن الذي « ثبّت فيه وجهه لينطلق الى اورشليم ». ومن ذلك الوقت يزداد تفكيره في النهاية والاستعداد لها. ويدور هذا الاستعداد حول الرجال الذين سيأخذون على أنفسهم حمل رسالته بعد ذهابه عنهم. وها هم قضوا معه اكثر من سنتين، ولكنهم باقون الى الوراء ولم ينتقلوا من الفكرة اليهودية الضيقة في توقع مسيح زمني ينتزع مجداً لشعبه. ولم يخطر ببالهم ان طريق التضحية، سيختتم بموت ذليل وقيامة من الاموات، تكون فاتحة الملكوت الروحي الواسع النطاق. واذ تقترب النهاية يجب ان يكونوا لها متأهبين —

ونراه يميل الى الاختلاء بهم اكثر من قبل. ولم يكن هذا هيناً. وما اليوم الذي دعاهم فيه للخروج معه الى الخلاء، واقتفاء الجماهير آثاره ومتابعته على شاطىء البحر إلاَّ نموذج لأيام كثيرة حدثت من هذا القبيل. فان صيته كان قد بلغ أوجه، واسترعت معجزاته أنظار كل الشعب. فلم يكن مستطاعاً له العزلة والاختفاء عن الانظار.

وربما كان هـذا هو السبب الذي حدا به وقتئذ الى أخذ تلاميذه معه خارجاً عن فلسطين والذهاب بهم الى أرض الكنعانية — الى اقليم صور وصيدا حيث ابرأ ابن المرأة الفينيقية السورية. وبعد ذلك الى اماكن أخرى منعزلة لسنا ندري ما هي. ويقول البشير مرقس: « جاء الى نواحي دلمانوثة ». وربما كانت تلك في الاقاليم الجرداء المحيطة بالبحيرة. وهناك لا نرى منه إلا لمحات متفرقة.

وههنا لمحتان فقط في بداية ونهاية ذلك الاسبوع الخطير: واللمحة الاولى نراها في

شمال الجليل عند منابع نهر الاردن، وفي وسط المناظر الطبيعية الاخاذة عند منحدرات جبل حرمون، حيث تقع المدينة الصغيرة الجميلة التي يطلق عليها اسم « قيصرية فيلبس ». هناك في أحد منحدرات الجبل المطل على المدينة يختلي مع الرسل الحواريين . و يقول عنه البشير لوقا انه اختلى وحده ليصلي منفرداً. و بعد الفراغ من صلاته يقترب الى هذه الجماعة الصغيرة و يسألها قائلاً : « خبّروني ماذا يظن البشر فيَّ . ومن تقول الجموع اني أنا ؟ ». فيجيبه اولئك : « يا سيد . يظن البعض — مثل هيرودس الملك — انك يوحنا المعمدان بُعثت حياً . و يقول آخرون انك ايليــاء جاء الى الارض مرة أخرى . وآخرون يقولون انك أرمياء أو أحد أنبياء القدم » .

وليس شك في انه عرف ماذا يظن الناس فيه، ولـكنه رام قصداً من وراء هذا السؤال لانه وجه اليهم بعد ذلك سؤالاً آخر فقال : « وأنتم مَنْ تقولون اني أنا ؟» .

هذا هو لباب الامر. لانه كان مزمعاً ان يترك بين أيديهم ملـكوت الله . فأراد ان يقف على مدى ما تعلموه أو فـكّروا به في تينك السنتين اللتين قضوها في التعليم بين يديه والاتصال به . وهنا أيضاً نسمع بطرس في سرعة و بغير توقف ينطق باسم الجماعة : « أنت المسيح ابن الله الحي ! » .

كان هذا كشفاً هائلاً وأزمة خطيرة في تدريب الاثنى عشر . ولو قدّر للمسيحية ان تفقد قوتها. فلا يكون ذلك إلا حين تخور العزائم حيال هذه الحقيقة المركزية الخطيرة. وان المرء ليؤلمه في هذا العصر ان يرى ميولاً نزاعة الى جعل الايمان أمراً سهلاً ، وتأويل المعجزات حسب الهوى ، والاقلال من شأن عقائد الايمان . وأخشى ما نخشاه ان يكون هذا اقلالاً من شأن المسيح ذاته . هـذه هي الصخرة التي تستقر عليها كل الاشياء : « أنت المسيح ابن الله الحي ! » .

ولا شك في ان هذه الاجابة قد أثرت فيه كثيراً حتى قال : « طوبى لك يا سمعان بن يونا . ان لحماً ودماً لم يعلن لك . لـكن ابي الذي في السموات ». وكان هذا الكلام ذا مغزى كبير في نظره . وقد وثق الآن برجاله لانهم بدأوا أخيراً أن يروا النور و يدركوا ان سيدهم ليس مجرد زعيم لثورة قومية . بل هو الهابط من السماء الى الارض، ملك ملكوت الله الروحي . فتح جديد بدا له اليوم !

ولم يكن هذا الا خطوة اولى . لانهم ما زالوا يتوقعون ان يقود اسرائيل إلى العزة والمجد بسبب عظمته ، وترقبوا ان يجيء ملكوت الله بقوة ومجد عظيمين. لذلك كان عليه أن يعدهم لسماع أمر كريه على اسماعهم، لو قيل لهم على غير انتظار قد يهدم ايمانهم . وكان قد ألمح الى هذا الامر تلميحاً بدون جدوى . والآن أخذ يشرق على قلوبهم المضطربة «سر يسوع» الهائل ومن كان هو . ولكنه يسارع الى تحذيرهم بالا يجاهروا به لان وقت ازاحة القناع لم يحن بعد — المسيح الأزلي الخالد سوف يموت كانسان قبل أن يعرفه العالم إلهاً !

وكان معنى هذا ازاحة القناع عن معلومات أليمة مرعبة . ومن ذلك الوقت اخذ يعلمهم « ان ابن الانسان ينبغي ان يتألم كثيراً ويرفض ويقتل وبعد ثلاثة أيام يقوم » .

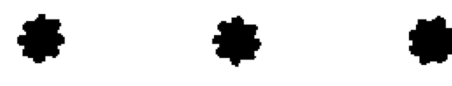
وقد يظن المرء ان هذا كان كافياً لهم . بيد أن الامر على نقيض ذلك . فقد ازعجتهم وحيرتهم هذه الاقوال ولم يستسيغوها حرفياً . وكيف يقبلونها وهوذا سيدهم الذي أحبوه وعبدوه ، وحسبوه إلهاً نزل من السماء — يقول عن نفسه في بداية الامر انه سيموت ! لا شك انه يقصد معنى خفياً غامضاً . وأنت لا تنتظر من رجال كهؤلاء أن ينهضوا فوراً لادراك فكرة عن إله تقوم عظمته على التضحية بنفسه، إله يسلم نفسه لأجل البشر إلى العار والبصق والالم والموت، ثم يقوم منتصراً على الموت، فيستميل الى طاعة المحبة أبناء البشرية. كلا! صعب عليهم قبول هذا المعنى حرفياً. فتولاهم الجزع عند سماعه ، ولم يفهموا ماذا قال، وخافوا أن يسألوه ، ولم يريدوا التوغل في البحث والاسئلة . بل حاولوا النسيان .

أما يسوع فلم يترك الأمر في زوايا هذا النسيان . ولذا نراه بعدئذ يكرر القول . وهنا أخذ منهم الفزع كل مأخذ . وأحس بطرس المسكين كأن قلبه يتمشى بين اضالعه خوفاً وهلعاً . وفي تهور وعدم تصديق أخذ يحتج قائلاً : « حاشا يا رب ان يكون لك هذا ! »

ولكن لماذا التفت اليه يسوع في شدة وعنف؟ هل أعاد هذا القول إلى ذكراه التجربة في البرية، حين ألمع اليه الشيطان أن النصر مستطاع بدون هذه المأساة ؟ وتوسلات المحبة المشفقة قد تجعل القيام بالواجب عسيراً . وهل كان المظهر البادي على وجه بطرس البائس هو الشيطان يعيد تجربة المسيح ؟ لا بد لنا من تأويل هذا التعنيف الأليم الذي صوبه يسوع إلى الشخص الذي أحبه : اذهب عني يا شيطان . لانك تفكر تفكير الناس وليس تفكير الله . « لا تهتم بما لله لكن بما للناس » .

وترى ماذا يقصد بالاهتمام بما لله ؟ كأني به قد التفت اليهم وقال . « الاهتمام بما لله معناه الاستعداد لبذل النفس في سبيل الحق . انتم تفكرون على نمط تفكير البشر. تريدون ان اخلّص نفسي. ومن يريد أن يخلص نفسه يهلكها . أما من يريد أن يهلك نفسه لاجل المثل الاعلى فهو يخلصها. هذا هو طريقي في الحياة . ومن أراد أن يسير ورائي، فلينكر نفسه ويتبعني في هذا الطريق » .

درس سام رفيع بالحق . والظاهر أنه كان أرقى مما يستطيعون فهمه . لانهم بعد كل هذا لم يصدقوا في دخيلة أنفسهم أن يسوع سوف يموت . وقد يبدو لنا هذا بلادة من جانبهم. ولكن علينا الا ننسى شدة عناد البشر وتشبثهم بالآراء المألوفة، وميلهم الى نبذ الافكار التي لا تروقهم . وما في الطبيعة البشرية من جنوح يميل بها دائماً إلى أن تترجى وتأمل عدم حدوث الحوادث الاليمة المحزنة . و بعد هذا كله نراهم يوماً ما يتنازعون فيما بينهم عمن يكون الاعظم في الملكوت القادم . ونرى أم ابني زبدي تطلب أن يتسلط ولداها الواحد عن اليمين والآخر عن اليسار . بل بعد هذا كله نراهم يجفلون أمام الصليب كأنه حادثة مباغتة غير متوقعة ، ويتولاهم اليأس بعد أن وُضع يسوع الميت في القبر . ما أغرب اطوارنا وطبائعنا نحن البشر ! !



وقد كانت تلك اللمحة الخاطفة التي رأوها منه خلال الاشجار فوق سفح ذلك الجبل فاتحة اسبوع لم تمحُ الايام ذكرياته، قضوه معاً وسط معازل جبل حرمون . وليس لدينا بيان عما جرى بينهم من الاحاديث. ولكننا نعلم انه كان اسبوعاً خطيراً في تدريب الرسل وتعليمهم. ويفتتح الاسبوع بهذا المشهد الذي وصفناه والذي انتزع فيه منهم الاعتراف الخطير: « أنت هو المسيح ابن الله الحي ! » واختتم بمشهد أعظم منه — هو مشهد التجلي — هو تلك اللمحة الخاطفة التي رأوا فيها من وراء القناع ، العالم غير المنظور الذي جاء منه ليسوع .

ومما قيل عن اليوم الأخير في ذلك الاسبوع : « و بعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب و يوحنا وصعد بهم الى جبل عال . وتغيرت هيئته قدامهم » . وقد روى اولئك الرجال هذه الحادثة بعد القيامة لانهم أمروا بالا يبوحوا بها قبل ذلك. واذا وضعنا الروايات

الثلاث للبشائر التي ذكرت هذه الحادثة نستطيع أن نكوّن فكرة عن الصور التي ارتسمت في ذكريات الكاتبين . كانوا منفردين في ليلة مظلمة من ليالي الصيف فوق منحدرات جبل حرمون . وكان السيد بعيداً عنهم مغموراً في الصلاة . و بعد ان فرغوا من صلواتهم القصيرة تدثروا في عباآتهم وغالبهم النعاس فناموا . وفي وسط الليل استيقظوا وقد أحسوا بلمعان شديد ومجد عظيم. وكثيراً ما يحس الانسان بحادث جلل حتى وهو غارق في النوم .... انفتحت اعينهم ورأوا مشهداً لم تألفه عين بشر من قبل . وخيل اليهم انهم في عالم جديد . وربما ظنوا أنهم قد ماتوا وانتقلوا إلى علياء السماء .

كان السيد مستمراً في صلاته . وفيما هو يصلي تغيرت هيئته . واذ قد اقترب نحو الآب وتماسّ مع العالم غير المنظور أشرق اللاهوت في داخله . و بدا نوره لامعاً في الجسد . وابيضت ثيابه وتلمعت. ومن وراء حجب العالم الذي بعث به الى الارض، برزت اشباح ارواح، ارواح موسى وايليا زعيمي شعب اسرائيل العظيمين . وكانا قد جازا الى ذلك العالم منذ أمد بعيد . ظهرا في المجد وتحدثا عن رحيله ، عن « خروجه » الذي كان عتيداً ان يكمله في اورشلم . تكلما عن خروجه ، كما شادت تلك الاشباح الروحية بدخوله — لثلاثين سنة خلت في سهول بيت لحم . أجل كان العالم الروحي متصلاً به متماسكاً معه ! فمنذ ظهور الجمهرة الروحية التي شادت عند مولده في سهول بيت لحم، حتى مظهر الرجلين بلباس ابيض « اللذين ظهرا عند صعوده » — حدثت غارات روحية ، وسمعت أصوات، و بدت ظواهر واشارات — من عالم غير هذا العالم أبدى شديد اهتمامه برواية فداء البشرية. وكل قارىء منصف في الانجيل لا ينكر ذلك .

ونحن نعتقد ان هذا العالم الروحي ما زال يحيط بنا . واذا كنا لا نستطيع رؤيته ، فما ذلك الاّ لان النور المشرق حولنا غير ملائم،ولان بهارج هذا العالم تطمس معالمه . كما يحدث كل يوم اذ يخفي عن أنظارنا ضوء الشمس ذلك الكون العظيم الذي يبدو للعين في ظلمة الليل البهيم ، لان نور الشمس لا يلائمه. ولو لم نعرف ظلمة الليل لما آمنا قط بالعالم المرصع بالكواكب فوقنا . وربما عند ما تغمض اجفاننا في ظلمة الموت ، وليس قبل ذلك، نجتاز إلى النور الذي يرينا عالم الأرواح . إنما لنا يقين ثابت بان هذا العالم يحيط بنا كما كان في حياة يسوع .

* * *

تفرس الرجال الثلاثة الحيارى المذهولون . تفرسوا في صمت للمأخوذ حتى غاب هذا المشهد عن أبصارهم . وعندئذ لم يستطع بطرس المتهور ضبط نفسه . وهو قد شعر بانه في السماء من جلال هذا المشهد . والمسكين لم يكن قد استمتع بالسماء مؤخراً بعد اذ سمع تلميحات عن سيده، و بعد إذ صدمه ذلك التعنيف القارس. فليس شك في أنه أراد إطالة مشهد السماء أمام نظره بقدر الامكان :

« يا سيدي . جيد أن نكون ههنا . فلنصنع ثلاث مظال . لك واحدة ولموسى واحدة ولايليا واحدة » . وكان هذا قولاً خشناً جافاً . ومما يستدعي النظر هنا أنه يروي الرواية عن نفسه (ولا يفوتنا ان انجيل مرقس هو في الحقيقة انجيل بطرس) . ثم يعتذر بقوله : « لاني لم اكن اعلم ما اتكلم به لاننا كنا مرتعبين » .

« وفيما هو يتكلم اذا سحابة نيرة ظللتهم وصوت من السحابة قائلاً : هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت له اسمعوا. وسقطوا على وجوههم ولم يدروا شيئاً حتى جاء يسوع ولمسهم. فرفعوا ورأوا نور الفجر قد انشق من فوق الجبل. ولم يروا أحداً إلا يسوع وحده».

انتهى المشهد. واغلقت أبواب العالم غير المنظور وشعروا بانهم لم ينتقلوا فعلا الى السماء.

وقد كان «التجلي» من التعاليم الذائعة في الكنيسة الاولى ، حتى دونت القصة في البشائر الثلاث —عدا بشارة يوحنا— فماذا نظن فيها نحن؟ هل كانت مجرد رؤية وحلم لا حقيقة فيه ؟ كلا ثم كلا . فان الرجال الذين أبصروا هذا المشهد لم يفكروا شيئاً من هذا قط . و بعد حدوث هذه الحادثة بزمن مديد، يذكر يوحنا الشيخ تلك الليلة كأنها حقيقة عظمى عند قوله : « ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب ». وظل بطرس يروي الحادثة للكنيسة في قوله : « . . . كنا معاينين عظمته . . . ونحن سمعنا هذا الصوت مقبلاً من السماء إذ كنا معه في الجبل المقدس » (٢ بط ١:١٦ — ١٩) .وكل شك في حقيقة هذه الحادثة انما يتسرب الينا من عقولنا المادية وعدم شعورنا بالعالم الروحي المحيط بنا ، والذي أحاط بيسوع دائماً ، وكان في تماس شديد معه كما يتضح لنا في الانجيل .

فكر — ايها القارىء — هنيهة بروح الوقار والخشوع في هذا المشهد. تصور السيد نفسه مغموراً في الصلاة، مثبتاً وجهه للذهاب الى اورشليم ليلاقي الموت هناك. وهل نسمح لأنفسنا ان نقول في وقار واحترام انه أحسّ بحاجته الى الصلاة لاجل نفسه، لكي تهدأ

نفسه وتستقر في سلام الآب، وان هذه الحادثة بمثابة استجابة لصلاته،فأُعيد الابن لحظة الى موطنه الاصلي، وتسمع ثناء الآب وتمجد «بالمجد الذي كان له قبل تأسيس العالم» .

فكر في معنى هذا للرسل الحيارى المذهولين، وكيف سما هذا المشهد بأفكارهم حيال السيد، بعد إذ رأوا ان هذا الذي يسايرهم يوماً بعد آخر في زمالة بشرية قد أحاطت به هالة من الاحترام والسجود من العالم وراء السحب.ألم يُعِنْهم هذا على تفهم سرّ تفاؤل السيد وهدوء نفسه،وثقته بظفر ملكوته على الرغم من الفشل الظاهري؟وكيف يفشل والعالم القادر على كل شيء «الله والملائكة الاطهار وأرواح الابرار المكملين» تعضده وتضمن له النجاح والفوز . ولم ينفك ذلك العالم الروحي عن محادثته والعطف عليه. فها هنا اثنان من أرواح العظماء الذين رحلوا منذ قرون ، قد ارتفعا فوق الافكار البشرية وامتلآ بحماس شديد من الحياة الاخرى . فموسى لم يتكلم عن فرعون ولا البحر الاحمر . وايليا لم يفكر في كرم نابوت اليزرعيلي، لأن كل هذه الذكريات كانت تافهة لا قيمة لها.انما «تكلما عن خروجه (موته) الذي كان عتيداً ان يكمله في اورشليم » . ألا ينبئنا هذا بانهما وزملاءهما وراء الحجب يرقبون باهتمام شديد حياة سيدهم على الارض والحادثة العظمى لفداء الانسانية . وهي اكبر حادثة في تاريخ جنسهم البشري ؟

ثم ننتقل الى نتيجة أخرى تمسُّ أنفسنا : ألا يعيننا هذا الفكر — الذي أيده السيد الكريم من احاطة العالم الروحي بنا وعطفه علينا — على الايمان أو على الاقل الرجاء بأن أعزاءنا أحياء اليوم في عالم الارواح، وهم يشعرون ويذكرون،ويرقبون ويفكرون في حياتنا على الارض ، ويحبوننا ويعضدوننا ويصلون لأجلنا نحن الاحياء في عالم الظلال هذا ؟ كانت هذه عقيدة لذيذة منيرة ملأت قلب الكنيسة الاولى . وكانت أروقة العالم غير المنظور مليئة بجمهور النظارة ، أشبه بالأولاد « القدماء » في المدرسة الذين يحضرون الحفلات السنوية لمشاهدة الالعاب والمسابقات التي اشتركوا فيها يوماً ما . وهذه هي الفكرة التي جالت بمخيلة كاتب الرسالة الى العبرانيين عند قوله: «لذلك نحن ايضاً إذ لنا سحابة من الشهود مقدار هذه محيطة بنا . . . لنحاضر بالصبر في الجهاد الموضوع أمامنا».

الفصل السابع عشر

الوداع ايها الجليل !

كان ذلك الاسبوع الذي انتزع المسيح في أوله من تلاميذه ذلك الاعتراف الخطير، والذي تجلّى في آخره بمجد وبهاء — اسبوعاً خطيراً، بمثابة أزمة جديدة في تاريخ السيد. فهو يبدو غير ما كان، كأنه يسمو الى مرتبة أعلى وأعظم. ويفكر ملياً في الخاتمة المنتظرة . « وحين تمت الايام لارتفاعه ثبّت وجهه لينطلق الى اورشليم ». ولكن لا يليق بنا الآن ان نسبق الحوادث .

وما كان أسرع وأشد الانتقال بعد التجلّي، من مشاهد السماء المتناسقة الى مظاهر الارض المتنابذة. ظن بطرس انه خير له لو يبقى في سلام في الاوساط السمائية . ولكن هيهات ، وحياة الارض وأتعابها تدعوهم للعمل والجلد .

وهم نازلون نسمعهم يسألون سيدهم قائلين . « لماذا يقول الكتبة ان ايلياء ينبغي ان يأتي أولاً ؟ » فأجابهم : « ان ايلياء قد جاء ولم يعرفوه ، بل عملوا به كل ما أرادوا». وقتلوه في زاوية سجنه .

وعند ما نزلوا الى منحدرات الجبل، لقيهم التلاميذ الآخرون. وهناك تسمّعوا أصواتاً مقلقة ، ضوضاء الجموع ، كلمات السخرية والاصوات المنكرة . والظاهر ان الجموع قد عرفت مقرهم وهم في خلوتهم، وان حادثاً مكدراً قد حدث. لأن التلاميذ التسعة الآخرين كانوا صامتين مضطربين . وكان الكتبة يهزأون ويسخرون . وبغتة يراه الجمع « ولما رأوه تحيروا » ربما لتغيير في منظره وشكله، لما بدا عليه من علائم الجلال والمجد بعد ليلة العجائب المدهشة فوق جبل التجلي .

تقع عيناه على أولئك ، ذوي النيات السيئة المريبة . ويأخذ التلاميذ المنكمشين الخائفين تحت كنفه وحمايته . « ماذا تقولون ؟ وبماذا تحاورونهم ؟ » فيتراجع الكتبة

ويصمت التلاميذ. ولكن واحداً من الجمع يلقي بنفسه جاثياً عند قدميه قائلاً: « يا معلم. أطلب اليك . أنظر الى ابني . فانه وحيد لي ». ثم يروي قصة ذلك الغلام الالمية المصاب بروح نجس أخرس . يأخذه فيصرخ بغتة ، ويلقي بنفسه في النار أو الماء «وطلبت من تلاميذك ان يخرجوه فلم يقدروا ». وهذا يعلل سر استهزاء الكتبة بالتلاميذ ، وبلا شك بسيدهم . ما أعظم الفارق بين هذا المشهد الاليم المقبض، وبين رؤيا السماء الجميلة العذبة التي رأوها بالأمس ؟

— « أيها الجيل غير المؤمن . الى متى اكون معكم ؟ قدم ابنك الى هنا . وقل لي كم من الزمان منذ أصابه هذا ؟ » .

— « منذ صباه . ان كنت تستطيع شيئاً فتحنن علينا ! » .

— « ان كنت تستطيع ! ألست تقدر ان تؤمن بي اكثر من ذلك ؟ » .

وللوقت يصرخ أبو الولد بدموع : « اؤمن يا سيد فأعن عدم ايماني » — وكانت صرخة من صرخات الايمان ، تسللت الى قلب يسوع الشفوق، صرخة ما اكثرها شبهاً بصرخات المرتابين التي تصاعدت اليه منذ ذلك الحين . وحالاً خرج الروح النجس بعد أن صرع الولد . وأقامه يسوع وردّه الى أبيه .

وطبيعي ان يسأله التلاميذ المهزومون بعد ذلك « لماذا لم نقدر نحن أن نخرجه ؟ ». فيجيبهم يسوع ان اخفاقهم راجع الى قلة ايمانهم وانخفاض مستواهم، ولأنها معجزة ذات صعوبة خاصة. وهذا درس نجرؤ نحن على تطبيقه على أنفسنا. ألا تجيء علينا أيام ينخفض فيها مستوى حياتنا الروحية بسبب اهمالنا وتراخينا، ونكون في أوقات أعجز من أن نخرج شياطيننا . ان لكل منا شيطاناً يصعب عليه إخراجه . شيطاناً لا يفلت منا إلاّ بالجثو على ركبنا . « هذا النوع لا يمكن أن يخرج إلاّ بالصلاة والصوم ! » .

* * *

والآن لم يعد مجدياً أن يبقوا في خلوتهم بعد أن عرفت الجموع مكمنهم . لذلك نراهم يواصلون السير الى موطنهم في كفر ناحوم . وهناك تمضي الايام سراعاً . ولأن الوقت قصير أراد أن يوجه عناية خاصة الى الاثنى عشر. وأحس بان من واجبه اجتناب الجماهير وصنع المعجزات العامة ، وتوجيه العناية الخاصة الى مختاريه الذين اصطفاهم . ويقول لنا

البشير مرقس انه لم يرد أن يعرفه الناس وهم نازلون وكان يحدثهم في الطريق عن موته العتيد ان يكمل .

وهم قد افتقروا الى دروس كثيرة قبل أن يبلغوا درجة الفهم . وقد يخيل الينا اننا لو كنا في مكانهم لكنّا اسرع منهم فهماً . ولكن لنتصورهم سائرين في طريق الجبل عائدين الى موطنهم ، والسيد يسير في المقدمة منصرفاً الى افكاره السامية وهم يتخطرون وراءه اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة . يتهامسون معاً ولا يريدون ان يسمعهم . « لانهم كانوا يتحاجّون في من هو أعظم » في الملكوت الجديد . والظاهر أن فكرة اختمرت في ادمغتهم، قوامها ان أزمة خطيرة سوف تحدث في تطور هذا الملكوت. والارجح انه كان هناك شيء من التحاسد ظناً منهم أن بطرس ويعقوب ويوحنا قد أُختيروا لعلاقة ودية.. لا تكن قاسياً في حكمك عليهم أيها القارىء ! لان سيدهم لم يقف حيالهم هذا الموقف . وهم لم يصيروا بعد قديسين باذلين النفس والنفيس ، بل هم حتى الآن شرذمة من الفلاحين البسطاء . وكل ما في الامر أن فكرة عن المستقبل جالت في أخيلتهم ، وكلّ منهم صورها لنفسه كما شاء .

يسوع لم يتدخل . وهو لا يتدخل عادة في أفكار الناس الخاصة . ولم يتكلم إلا في الفرصة الملائمة . ظنوا أنه لم يفطن الى حجاجهم . ولكنه في المساء التالي وهم جالسون للراحة في دار بطرس يباغتهم بهذا السؤال : « بماذا كنتم تتكالمون فيما بينكم في الطريق؟ » وهنا ألجمهم ينظرون بعضهم إلى بعض نظرات الخجل . ينظرون إلى كل شيء حواليهم، أما الى وجهه فلم يستطيعوا رفع البصر فيه . ادركوا انه قد عرف كل شيء . وفي اضطراب وحيرة عقلت ألسنتهم عن الكلام . وهنا أرى ولد بطرس الصغير يتأرجح على ركبتي السيد . وكان الولد شغوفاً به . لذلك يرفعه السيد على ركبتيه ويبدو الولد الصغير الجاثم بين أحضانه مثلاً للناظرين : « انظروا اليه . من يضع نفسه مثل هذا الولد فهو الاعظم في ملكوت السموات » .

من قلب هذا الولد علمهم درساً ضد الحسد وارضاء الذات . وكان قلب الصغير أحب الاشياء لديه اذ هو نموذج لأجمل نعم ملكوته . لان الطفل الصغير غير المدلل لا يشعر بانه يذلّ نفسه في أداء اوضع الخدمات . وهو لا يسعى وراء كبائر الأمور ولا يطلب مجداً .

لنفسه . ولكنه يذهب انىّ يؤمر ويأخذ ما يُعطى له . يستطيع أن يكيف نفسه تكييفاً حسناً مرضياً لكل أوضاع الحياة. ولا يشعر بشيء من الاعتداد الذاتي . لا يملك شيئاً لنفسه بل يحيا سعيداً في ثقة مطمئنة بابويه. ويقول يسوع ان الدين الحق هو ان يكون الانسان مثل هذا الولد في بيت الآب . وان الشرط الاول للعظمة في نظر الله ان يكون للمرء قلب الطفولة العذبة .

ولكن هناك دروساً أخرى عليهم أن يتلقونها من أمثولة ولد بطرس الصغير . فالسيد وهو يحتضن الطفل ينظر الى المستقبل ، الى الاطفال البررة الذين يكبرون الى طور الرجولة الشريرة بسبب الغوايات والنماذج المضلّة في الأخرين. ونحن أنفسنا نحسّ بمرارة في النفس عند ما نرى طفلاً بريئاً جذاباً تعبث به الحياة في بيت أبوين بعيدين عن الله . وندهش كيف عهد الله إلى أمثال هؤلاء بأنفس الطفولة الغضة . وهنا يليق بنا التفكير في أن الله ينظر هذه النظرة عينها . وفي هذا يقول المسيح : «خير له أن يعلّق في عنقه حجر الرحى ويغرق في لجة البحر من أن يعثر أحد هؤلاء الصغار، لاني أقول لكم ان ملائكتهم في السموات كل حين ينظرون وجه أبي الذي في السموات » .

والاثنا عشر انفسهم كانوا في افتقار الى مثل هذا الانذار . ولم يكن للمرأة والطفولة قيمة تذكر قبل مجيء يسوع . وهنا أرسم في أحد أيامه الوداعية في كفر ناحوم صورة أخرى تمثل الاولاد الصغار يجيئون اليه ليباركهم قبل رحيله. وتُذكر هذه القصة في الانجيل دون تعيين زمان ومكان حدوثها سوى انها كانت حوالي هذا التاريخ الذي نحن بصدده في وقت كان ذاهباً فيه الى مكان ما . وهنا افكر في أمهات كفر ناحوم آسفات لرحيله، وهن يقدمن أولادهن المحبوبين ليباركهم بركة الوداع. أراهن واقفات عند الباب متسكعات بينما يلقي هو دروسه على تلاميذه . أما التلاميذ المعتدّون بأنفسهم فيغتاظون اذ يرون النساء والاولاد يقلقون راحة السيد في مثل هذه الظروف . وهذه مرة من المرات القليلة التي غضب عليهم فيها . « فلما رأى يسوع ذلك اغتاظ وقال لهم دعوا الاولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم لان لمثل هؤلاء ملكوت السموات . ثم احتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم ومضى من هناك » .

ونلمح آثاراً أخرى لتعاليمه قبيل الرحيل . ففي ذات يوم سأله يوحنا : « ألم نكن

على حق يا سيد اذ منعنا واحداً كان يخرج الشياطين باسمك وهو لا يتبعنا ؟ » فأجاب يسوع : « لا تمنعوه . لان من ليس علينا فهو معنا » .

وفي يوم آخر يريد بطرس أن يعرف شيئاً عن الغفران فيقول : « كم مرة يخطىء إليَّ أخي وأنا أغفر له ؟ هل الى سبع مرات ؟ » فيجيبه يسوع : « كلا . بل إلى سبعين مرة سبع مرات ». لان مرات الغفران ليست محدودة . وكيف يجوز للانسان الذي يغفر له الله — ويتنازل عن عشرة آلاف وزنة — كيف يجوز له أن يمسك بتلابيب أخيه المدين له بدراهم معدودات ؟

* * *

وهكذا تقضّت الايام الاخيرة في كفر ناحوم في تعليم دقيق وأحاديث ودية . ولم يكن فيها الا القليل من المعجزات والتعاليم العلنية العامة . كان يسوع والاثنا عشر معاً .

والآن لنلق نظرة على الموقف قبل رحيله . فمن وجهة بلوغ قصده الاعظم كانت خدمته في الجليل فشلاً على ما يظهر ، ولو أنه قد اصطفى هناك الاحد عشر من صحابته . وفي اول الامر قبله الناس بابتهاج لانه كان يختلف عن أحبارهم المتعجرفين. وكان صديقاً لعامة الشعب . وكان بطلاً للوطنيين المتحمسين الذين تاقوا إلى جعل اسرائيل أمة مستقلة وكانوا يمنون النفس بمجيء آخر مثل يهوذا مكابيوس يقودهم إلى الحرية والاستقلال . ولكنهم وقعوا تدريجاً في حيرة ولم ترضهم مبادئه وتعاليمه . وهذا هو العناء الذي يلاقيه المصلحون دائماً . لان الناس المشغولين بمطامعهم المحلية المحصورة لن يقدروا على رؤية المعنى السامي في ملكوت الله . وهو لم يفعل شيئاً للقضاء على أعدائه أو استرداد ملك اسرائيل. وكان للتهم والترهات التي أثارها حوله أحباره المكرمون وكتبة أورشليم أثرها في أنفسهم. كيف لا وقد اتهموه بأنه اعتدى على ناموس موسى وكسر السبت واخرج الشياطين باسم بعلزبول رئيس الشياطين . لذلك نرى الناس قد نفروا منه . ولما قضى على آمالهم في جعله ملكاً بعد معجزة اطعام الخمسة آلاف، وأدار اتجاه افكارهم إلى نواح أخرى عن الخبز النازل من السماء، عدل كثيرون عن السير وراءه حتى من أخلص اتباعه . وفي ذلك اليوم بدت علائم النقص مجسمة . وحتى الاثني عشر اهتزت عقائدهم مما أساء كثيراً إلى

السيد وحمله على الالتفات اليهم وعلى محياه أمارات الوجوم قائلاً : « ألعلكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا ؟ » .

والمحك الذي تختبر به النفس العظيمة هو قدرتها على مجابهة الفشل . ولقد وقف المسيح هنا موقف الثقة الاكيدة . ليس لأنه كان إلهاً ، بل لانه كان إنساناً يسير في طريق الواجب ويوكل كل شيء إلى الآب . والنفس العظيمة هي التي تلقى الفشل هادئة مطمئنة ، وتسير في طريقها حتى الموت تاركة النتائج لله .

وهو الآن ذاهب ليواجه ما خبأه له مصيره بين طياته . « وحين تمت الايام لارتفاعه ثبَّت وجهه لينطلق إلى أورشليم » . وفي أسف عميق يودع الاقليم الذي نبت منه ، والذي خاب فيه أمله . وكما حزن فيما بعد على أورشليم ، حزن الآن على هذه المدينة الجميلة القائمة على اكتاف البحيرة ، والتي اتخذها موطناً له اكثر من سنة في تقلبات كثيرة . ونستطيع أن نتخيله وهو سائر في طريقه إلى أورشليم يلتفت إلى الوراء ليلقي على ذلك الاقليم النظرة الأخيرة :

« ويل لك يا كورزين ! ويل لك يا بيت صيدا ! وأنت يا كفر ناحوم المرتفعة إلى السماء ستهبطين إلى الهاوية لانه لو صنعت في سدوم القوات المصنوعة فيك لبقيت إلى اليوم » .

الكتاب الخامس

ذكريات طريق أورشليم

الفصل الاول

ذكريات الطريق

ودع يسوع كفر ناحوم «وحين تمت الايام لارتفاعه ثبَّت وجهه لينطلق الى اورشليم » وههنا ذكريات الطريق :

والمصدر الاصلي الذي نستقي منه معلوماتنا عن الرحلة الى اورشليم هي الذكريات التي سجلها البشير لوقا في منتصف قصته عن حياة السيد. وقد نضدّت هذه الذكريات في ثلاث مائة آية اختص بها لوقا وحده، ولم يذكرها أحد سواه من البشيرين . فكلّ من متى ومرقس يصف خدمته في الجليل . ثم يمر مروراً عاجلاً على هذه الرحلة وينتقل سراعاً الى اسبوع الآلام ، كأنه لم يحدث إلا القليل في هذه الفترة . أما لوقا فيتمشى معهما في وصف خدمة الجليل واسبوع الآلام . ولكنه يدون بين الوصفين ذكريات الطريق التي جمعها وجعلها بمثابة وصلة بين كفر ناحوم والجلجثة . وهو يبدأ هذه الذكريات بعبارة يقول فيها : « وحين تمت الايام لارتفاعه ثبَّت وجهه لينطلق الى اورشليم » .

ويحلو للمرء ان يفكر في ذلك المؤلف الشاب بملكته الادبية وشغفه الشديد بكتابه الجديد الذي ألفه. واني أتصوره مسافراً مع بولس الرسول وهو يحمل في حقيبته مسودتين ثمينتين . احداهما مذكرات يومية سوف تظهر فيما بعد كسيرة للرسول بولس ويطلق عليها « سفر أعمال الرسل » . ولكن هذه المسودة في نظره ثانوية الاهمية . والذي يعتز به هي المسودة الاخرى،وهي مجموعة المذكرات التي جمعها للغرض العظيم الذي شغف بهمنذ سنوات ألا وهو تأليف سيرة السيد المبارك الجليل . وفي نيته أن ينشر هذه المسودة قبل تلك . والظاهر أن بولس نفسه كان مشاركاً له في هذا المجهود . بل المرجح أن تأليف هذه القصة كان بايعاز بولس.وقد بذل الاثنان مجهوداً مشتركاً في جمع المعلومات من كل مكان. وفي سفراتهما كانا يلتقيان بالتلاميذ القدماء الذين كانوا مع يسوع منذ ثلاثين سنة . ويلتقطان الحوادث والاحاديث من المصادر الموثوق بها . وبهذه الطريقة التقطا قصة الملائكة والرعاة ربما من العذراء نفسها، والمثلين القيّمين عن الخروف الضال والابن الضال، وسائر الذكريات الاخرى التي حدثت أثناء الرحلة الى اورشليم،وقد استغرقت ستة أشهر مذ ترك يسوع الجليل وسار صوب اورشليم ليلاقي هناك موته .

وأستطيع أن أتصور شغف الكاتب الشاب في استقاء المعلومات وجمع المواد . وأشعر بمقدار سروره عند عثوره على قصة الابن الضال . أتصوره ذات يوم يبدأ بتدوين « ذكريات الطريق » ويصدرها بعبارته المأثورة « وحين تمت الأيام لارتفاعه ثبّت وجهه لينطلق الى اورشليم » .

ومتى درسنا وصف هذه الرحلة (١) لا نجده كما ننتظر وصفاً لرحلة « طوالي » الى اورشليم . لأن مثل هذه الرحلة لا تستغرق اكثر من أيام معدودات ، بينما الواقع أن حوادث هذه الطريق امتدت الى ستة أشهر . وقد سجل الكاتب الحوادث التي وقعت في الطرقات خارج أسوار مدينة اورشليم خلال ستة أشهر، كان المسيح في خلالها كأنه يحاصر المدينة ويبذل الجهود المتكررة لدخول عاصمة شعبه . ولا يخفى أن العاصمة في كل أمة

---

(١) وهي تقع في الفصول ٩:٥١ — ١٨:١٤ ولو انه قد أدخل فيها بعض الحوادث القليلة مما وقع في تاريخ متقدم .

هي مركز النفوذ والسلطان . ويستطيع في اورشليم خلال الاعياد والمواسم القومية ان يُسمع صوته للعالم اليهودي المحتشد من كل البلدان والأمصار . أراد ان يدخل الدائرة المركزية في أمته ليجمع أبناءها كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها .

« وهم لم يقبلوا » !

لم يقبلوا . وكل مرة دخل اليها كانوا يحاولون قتله، وكان يهرب هو منهم لأن ساعته لم تكن قد حانت. وكان عليه قبل موته ان يعلن رسالته وان يبلّغ شعبه حنان قلب الآب. وإذ قد حالت اورشليم بينه وبين ايصال رسالته هذه، كان عليه ان يذيعها في أي مكان آخر استطاعه—في البرية، في القرى المجاورة. ويترك الى تلاميذه أمر حمل الرسالة من بعد. ولذلك ظل ستة أشهر مطروداً من اورشليم وهو يذيع رسالته في الريف المحيط بها . وقد حاول ثلاث مرات ان يدخل المدينة ابان المواسم والاعياد . وفي مرتين طرده أعداؤه بعسف وقوة . وفي المرة الثالثة أمسكوه وقتلوه لان ساعته كانت قد حانت .

* * *

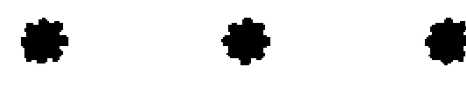
وبعد ثلاثين سنة يسجل يوحنا ذكرياته عن هذه الفترة عينها، واذا بها ذكريات تختلف كل الاختلاف عن هذه. ومن غريب الامر أن ذكريات لوقا تقصر على الحوادث خارج أسوار اورشليم . وأما الحوادث التي دونها يوحنا عن الفترة عينها فتقصر على الوقائع داخل أسوارها. ويصعب تفهم هذه بدون تلك. وكأن القصة أشبه بقصة حصار باريس سنة ١٨٧٠ يرويها كاتبان، احدهما خارج المدينة يتعذر عليه الدخول اليها، والآخر داخلها لا يستطيع الخروج منها .

ولنا هنا قصتان : احداهما قصة المدينة والاخرى قصة الريف نقرنهما معاً . فقصة المدينة يرويها يوحنا وهي لا تشير الى شيء من احداث الطريق أو مما وقع خارج المدينة . ولكنها تلتقي بيسوع كلما حاول الدخول الى اورشليم وتصف ما يجري عندئذ الى ان يطرده أعداؤه خارجاً وتترقب مجيئه للمرة الثانية، ولا تتبعه الى خارج ولا تتعدى أبواب المدينة .

أما قصة الريف فيرويها لوقا . ويبدأ من كفر ناحوم متتبعاً يسوع في الطريق الى اورشليم ولكنه لا يتعقب حتى المنتهى. بل يتركه عند أبواب المدينة وهناك ينتظر خارج

الابواب حتى يلاقيه مرة أخرى. ويتعقبه حتى يبدأ محاولته الثانية ثم يتركه الى أن يلاقيه مرة اخرى . وعلينا نحن أن ننسج في ثوب واحد هاتين القصتين .

ومتى استطعنا ذلك نرسم أمامنا صورة مؤثرة لحوادث تلك الستة أشهر الاخيرة التي قضاها ابن الانسان على الارض . وهو قبل ان يغادر الجليل قد تألبت عليه المتاعب وأحاطت به الافكار . ومما قيل عن أيامه الاخيرة في كفر ناحوم : « وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل لانه لم يرد أن يتردد في اليهودية لان اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه ». وها نحن الآن في شتاء سنة ٢٨ ب . م حين ثبّت يسوع وجهه لينطلق الى اورشليم، واذا بنا نقرأ قصة انسان مضطّهد ، قصة تستغرق ستة أشهر قام فيها يسوع بأعمال جليلة حقاً ونادى بتعاليم مأثورة . ولكنها ستة أشهر حافلة بعناء التجولات المضطربة في الشتاء والزيارات القصيرة الى القرى البعيدة الواقعة على الحدود، ستة أشهر قضاها، ان لم يكن في هرب فعلي، فعلى الاقل في محاولات مستمرة لاجتناب التدابير المهلكة التي كانت تحاك حوله ، والتي كانت قد أوشكت ان تبلغ منتهاها . وفي هذه الطريق الى اورشليم قيل لنا انه خاطب يوماً ما أحدهم بكلماته المأثورة قائلاً : « للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه » .



والآن لنقتفِ آثار خطواته في الايام الاولى في هذه الطريق :

يقترب عيد الحصاد القومي لليهود . وهو عيد المظال في اورشليم . وهنا يودع يسوع كفر ناحوم. ولم يبين لنا لا هو ولا تلاميذه نيته في الظهور أو عدم الظهور في العيد. والواقع ان أشياء كثيرة لم تكن متيقنة في تلك الرحلة . لان يسوع اعتزم أن يجعلها رحلة تعليمية تبشيرية. فأرسل قدام وجهه رسلاً ، اثنين ، اثنين ، ليمهدوا الطريق أمامه. ووصل اثنان من هذا الفوج — هما على الارجح يعقوب ويوحنا — الى قرية في حدود السامرة. وهناك قوبلا بجفاء وطردهما السامريون الغيورون « لم يقبلوه لان وجهه كان متجهاً نحو اورشليم » وعندئذ استشاط التلاميذ غضباً وطلب يعقوب ويوحنا — ناراً من السماء تسقط على تلك القرية كما فعل ايلياء . ولكن يسوع قبل الجفاء بهدوء وأجاب : « لستما تعلمان من أي روح أنتما ». ومضوا الى قرية أخرى . والارجح ان اثنين آخرين وصلا

الى قرية بيت عنيا القريبة من اورشليم. ودخلا أشهر بيت في القرية حيث كان لعازر مع اختيه مرثا ومريم. وكان استقبالهما مختلفاً. وعلى الرغم من المعاندات الدينية التي قامت ضده في المدينة القريبة اورشليم. فان المعدات قد أعدت بفرح وتهليل لاستقبال النبي الشاب القادم من الشمال الذي كان يثير البلاد، والذي تحدثوا عنه كثيراً بلا شك.

كان يسوع في الطريق وراء رسله ولا نعلم هنا شيئاً معيناً عن حوادث هذه الرحلة. لان الوقت كان قصيراً وربما كانت الحوادث قليلة. ولما وصل بيت عنيا كان البيت معيداً فرحاً بسبب العيد القومي، وكانت المظلات الخضراء منصوبة في فناء الدار وفي الحديقة، والسيدات منهمكات في الاستعداد لاستقباله. وههنا نرى صورة جميلة لكرم الضيافة الشرقية يوم استراح يسوع في هذا البيت وسط اصدقائه الجدد، ويوم اهتمت مرثا بخدمته وجلست مريم عند قدميه تستمع لكلامه.

لنقف هنيهة في هذا البيت الذي كان له شأن يذكر مع السيد في أيام الحزن والكآبة التي جاءت بعدئذ. وكانت هذه على ما نعلم المقابلة الاولى مع هذه الاسرة، التي توثقت بها ربط صداقة جميلة، حتى انجذبت انظار المسيحية في كل العصور إلى هذا البيت الهادىء الجميل في بيت عنيا، الذي قضى فيه السيد بعضاً من أسعد أيام حياته. وههنا نرى يسوع في حياته الخاصة يستريح من فرط العناء الشديد في كنف الأسرة وفي أحضان الصداقة العائلية. وحسن جداً أن يحظى الانسان العامل المجاهد بنصيب من هذه الراحة وهذا الانعطاف. وقد كان يسوع بانسانيته في حاجة إلى الصداقة والمعاشرة الانسانية. وحتى في بستان جثسيماني — وهو معضد بصلته بالآب — احتاج الى عضد الاصدقاء الذين رافقوه، فطلب اليهم الاّ يذهبوا بعيداً « امكثوا ههنا واسهروا معي ».

مثل هذه الصداقة لقيها يسوع في بيت عنيا. ونحن نعلم كيف استمتع بها وبادلهم حباً بحب. والظاهر انه كان يمكث في ذلك البيت كلما اقترب من أورشليم. وفي أسبوع الآلام استراح ليلة بعد أخرى في ذلك البيت واراح نفسه المتعبة. ثم عاد اليه بعد قيامته ليودع الارض منه. لانه في يوم الصعود « أخرجهم خارجاً إلى بيت عنيا »: ومن هناك صعد عنهم الى السماء وجاز الى الامجاد التي نزل منها.

« وأحب يسوع مرثا وأختها ولعازر » .

هم نماذج الاصدقاء الذين أحبهم يسوع والذين تذكرهم أجيال التاريخ . وكلنا يعرف مرثا الاخت الكبرى العاملة ، مدبرة المنزل الحكيمة ، النشيطة دائماً ، ذات الطبع الحاد أحياناً ، وفي الوقت نفسه ذات القلب الذهبي . ونعرف ما جبلت عليه من الاحترام والوقار للسيد . وفي عنايتها به كانت مسوقة بغرائز الامومة الطبيعية التي حنت على نبي شاب مضطهد لم يكن له أين يسند رأسه . وأمثال مرثا في عصرنا هذا هنّ ملح الارض ، المدبرات الصالحات ، المرضات الحاذقات ، السيدات القديرات النشيطات اللواتي يقع عليهن عبء العمل كله . ولامثالهن اخطاؤهن ، فهنّ لا يتكلمن كثيراً عن الدين الذي هو القوة المسيطرة في الحياة . ويخفين مشاعرهن ويبغضن العاطفة . ولا يفسحن مجالاً للسخف والحماقة . ولكنهن يخفين تحت هذا الطبع الجاف المنتقد قلوباً محبة شفوقة . والشباب قد يهزأ بهنّ ولكنهم يأتون اليهنّ للاستشارة اذا ادلهمت الخطوب . وفي أمثال مرثا اكبر عون للعالم.

وبعضنا قد التقى بنظيرة مريم — المرأة الوادعة ، الجليلة ، المفكرة ، المصلية، ذات النفس الرقيقة الحساسة التي تشبه الطفل الصغير . تثور فرحاً وهياماً عند التأمل في أفكار السيد الذي أحبته . وبعض الذين لا يعرفونها حق المعرفة يحسبونها عائشة في عالم الأحلام عند مقارنتها بأختها العملية الاخرى. لانها تهمل الواجبات العادية وتستعيض عنها بالانغماس في التأملات العميقة عن الله . وفي صداقتها ليسوع جواب كاف . ونعتقد ان كلتا الاختين أجدت على يسوع العطف الشديد والود الخاشع، مما هون عليه عبء الحياة في أشد أيامه نصباً وتعباً . وفيهما تتمثل أفضل نماذج السيدات المسيحيات في هذا العصر . ولئن اختلفا في الطباع، الا أن محبة السيد شملتهما معاً على السواء .

ونحن لا نعلم الا قليلاً عن أخيهما لعازر الصامت ، الذي لم ينطق بحرف واحد في هذه القصة . وكل ما نعرفه أن يسوع أحبه أيضاً . لان مرثا ومريم قد عرفتا أن لاخيهما مكانة غالية عنده، بدليل قولهما عند موت لعازر : « يا سيد الذي تحبه . . . . » .

هذه هي الاسرة الصغيرة التي جعلت بيتها « موطناً » ليسوع حين طارده العالم وقسا عليه . وبعد قليل قد أعدّ لهم هو بدوره موطناً في الملكوت الخالد « حيث اكون أنا تكونون أنتم أيضاً» . وهذا ما يحملنا على التفكير أننا حيال حقائق ثابتة وليست أفكار

روائية . فمريم ومرثا ولعازر أحياء الآن وأصدقاء في العالم غير المنظور . ويسوع ما يزال عاملاً في بناء ملكوته على الأرض وما يزال العالم قاسياً عليه . وفي العالم اليوم أسر قليلة ، أسر محبّة ساذجة في حياتها تضع يسوع قبل كل شيء ، أسر يشعر فيها السيد كأنه في موطنه، كما شعر من قبل في بيت عنيا .

* * *

استراح السيد في مساء ذلك اليوم وقضى وقته يتحدث مع لعازر في الحديقة ومع الاختين قبل أن يذهب الى النوم . وربما خرج وسار حتى وصل الى منحنى الطريق ليقع نظره عبر الوادي على أنوار المدينة المقدسة التي اجتمع فيها من شتات الشعوب مليون من اليهود لاحياء عيد المظال القومي . وفي الغد يذهب اليها ليحضر العيد . . . . .

الفصل الثانى

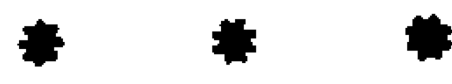
في اورشليم لاول مرة

في الثامن عشر من شهر تشري — أو شهر اكتوبر — وفي سنة ٢٨ ب. م. كانت أورشليم والقرى المحيطة بها محتفلة بعيد المظال — أو عيد الحصاد — وهو أبهى وأجمل أعياد السنة، فيه تستريح الأمة من عناء العمل وتبتهج فرحة متهللة: «وعيد الجمع في نهاية السنة عند ما تجمع غلاتك من الحقل». وكان ذلك العيد العظيم موضوع اهتمام الجميع. كنت ترى فيه الجماهير الغفيرة تتزاحم في الطرقات قادمة من بلدان مختلفة، من ضفاف الدانوب الى ضفاف الفرات. كنت ترى الأصدقاء يحيون أصدقاءهم بعد غياب طويل بلغ سنة كاملة. وكانت الجماهير المتزاحمة تعيش في الهواء الطلق وتسكن المظال والأخصاص. فكنت ترى على جوانب الطرق، وحول أسوار المدينة المقدسة، وفي الميادين الواسعة، أخصاصاً مصنوعة من أغصان شجر الزيتون والكرم. وفوق كل خص عناقيد من الفواكه الناضجة. في هذه المظلات قضى القوم أيام عطلتهم يحيون بأساليب تمثيلية، ذكرى أيام البرية، التي قضاها أسلافهم في المضارب والخيام.

وفي هذه السنة بالذات تبدو على الجموع الحاشدة مظاهر اهتمام غير عادية. وكان وراء الحفلات ومظاهر التهليل وتبادل التحيات، شعور جاثم متوثب، هو شعور الانتظار وتوقع حادث طارىء. لانهم كانوا يتهامسون في كل مكان عن يسوع الناصري. ولم يكونوا يجزأون على التكلم عنه جهرة خوفاً من الكهنة. وكانت السنة للنصرمة قد أذاعت شهرته، فثار الحوار والجدل الكلامي عنه بين أبناء اليهودية وأبناء الجليل. وتسمّع الحجاج الغرباء من البلدان البعيدة أشياء مستغربة عن ذلك النبي الشاب الذي أخذ يوقظ الآمال القومية القديمة عن المسيا المنتظر. ويا حبذا لو كانت تلك الآمال أشبه بآمال وأحلام انبيائهم. فلو كان الامر كذلك، لكان الجمع المحتشد فرصة سانحة لاعلان ملكوته والمناداة

به . ولـكن أحلام اسرائيل كانت أحلاماً أرضية وعن الأرض ، أحلاماً عن عزة قومية تمازجها شهوة الانتقام والاخذ بالثأر، وليست عن ملـكوت الله .

وكان في ذلك اليوم ، الثامن عشر من شهر اكتوبر ، قد انقضت نصف أيام العيد، وأخذت تنسحب خيبة الأمل على وجوه المترقبين لان يسوع لم يجيء . أما الشيوخ الحكماء من اليهود فقد أحسوا بأن أمن المدينة وراحتها مكفولان بدونه، وان مجيئه الآن قد يكون مبعثاً للخطر . لان الجليليين ينادون به مسيا وملـكاً ، بينما الزعماء ورجال الدين موطنون العزم على سحقه . ومواد الثورة الملتهبة كانت متوافرة في المدينة المقدسة في ذلك اليوم الذي اجتمع فيه مليون من اليهود الوافدين من كل شعوب الارض بنفوس تلتهب فيها نيران التعصب والوطنية والحماسة الدينية المتأججة .



ولـكن يسوع قادم . والآن لنطرح جانباً الى حين رواية البشير لوقا التي يقص فيها أحداث الريف خارج أورشليم . ولنوجه النظر الى رواية البشير يوحنا التي يختص فيها بذكر حوادث المدينة وما جرى داخل أسوارها . وها نحن أولاء نقدم للقارىء الـكريم بعض الصور التي لاحت بمخيلته يومئذ :

في اليوم الرابع من أيام العيد ، وفناء الهيكل الخارجي غاص بالعابدين ينتظرون دورهم للدخول الى الخدمة ، وأبناء اليهودية والجليل يتشاحنون و يتحاورون فيما بينهم، والحجاج الغرباء يصيخون بأسماعهم لعلهم يفهمون موضوع الجدل والحوار ، و يوحنا التلميذ والبشير منبث وسط الجموع المتدافعة، يتسمع ما يدور حوله من الـكلام—

— أين هو ؟

— ما تظن ؟ هل يجيء الى العيد ؟

— هو انسان صالح بالحق !

— كلا . انه يخدع الشعب ويضله !

— أتظن انه المسيا المسيح حقاً ؟

— كلا ! كيف يأتي المسيح من الجليل ؟

— ألم تقل الاسفار المقدسة انه يأتي من نسل داود ومن بيت لحم مدينة داود ؟

— نحن نعلم من هو هذا الانسان ومن أين جاء. والمعلوم انه متى جاء المسيح المنتظر يجيء من عالم مجهول، ولا يعرف انسان من أين جاء .

وبغتة يدرك المتحاوران أن شيئاً غير عادي قد حدث . كأن نسيماً عليلاً هادئاً قد رفرف على هذا البحر المائج بالبشرية . وفي لحظة تجحظ العيون وتشرئب الاعناق لرؤية انسان واقف في وسط فناء الهيكل العظيم مستنداً الى عمود من أعمدته . ويرى غرباء اليهود لأول مرة ذلك الشاب القروي الطويل القامة الجذاب الملامح، في ثيابه الزرقاء يبدو عليها غبار السفر . وعندئذ يسقط على الجموع صمت رهيب ، هو صمت الدهشة والتوقير، أشبه بذلك الصمت الذي تصفه البشائر عادة عند طلوع مظهر يسوع. ولقد قال تشارلس لمب : « لو ظهر شكسبير فجأة في هذه الغرفة، لوقفنا كلنا على أقدامنا . أما لو دخل المسيح لاندفعنا بشعورنا الى الجثو أمامه ». وأظن هذا كان شعور الناس عند اجتلاء طلعة يسوع .

ثم يقول البشير يوحنا : « علّمهم » . ولسنا نعرف ما الذي علمهم اياه . ولكننا نعلم انه منذ تلك الساعة تخللت تعاليمه حقيقة اعلان نفسه رب السماء . ففي الجليل جال كانسان، زميلاً للبشر آمراً الناس حتى تلاميذه ان يصمتوا حيال ما عرفوه أو دار باخيلتهم عن لاهوته . أما الآن فنراه يميط اللثام تدريجاً عن نفسه، ويعلن ذاته كالابن الازلي النازل من عند الآب لخلاص العالم .

ومع أن هذا الاعلان الهائل كان فوق متناول ادراكهم، إلاّ ان المعروف لدينا انهم قد تأثروا به . ومع انه كان غريباً عن الكثرة الغالبة من الروّاد في العيد إلاّ اننا نقرأ مراراً « ان كثيرين آمنوا به». لان من بين شفتيه تساقطت جواهر حكمة العلاء، والقلوب الامينة تلبي دائماً نداء الدعوة السامية ، ولان جرثومة الالوهية كامنة في قلب الانسانية . ومهما ساء حالنا ، فاننا على صورة الله في الاصل صنعنا .

ولكن كثيرين لم يلبّوا دعوته . وها هنا نرى حقاً خطيراً — فان مجرد حضرة المسيح كانت يومئذ — كما هي الآن — محكاً لاختبار الانفس البشرية . وقد كان فيه قوة تمس أفضل عناصر الانسان وتتوغل الى أعماق الغرائز البشرية لتوقظ شعلة الخير الكامنة التي أودعها الله قلب الانسان. فمتى كنت انساناً صالحاً والتقيت بيسوع لا يسعك رفضه. ومتى كان في نفسك مثل أعلى عن الله فلا يسعك إلا ان ترى هذا المثل عينه في يسوع .

هذا هو العامل الذي حمل القلوب الصالحة الى تلبية ندائه . وهذه هي الدينونة التي حلّت على الذين نبذوه وقاوموا دعوته . ولم يكن هو مثلهم الاعلى لان الله نفسه لم يكن لهم مثلاً أعلى . وهو القائل : « لو كان الله أباكم لـكنتم تحبونني . لاني خرجت من قبل الله وأتيت » . وايضاً : « تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني . ان شاء أحـد ان يعمل مشيئته يعرف التعليم » .

وهنا نراه يضع المبدأ المنير ألا وهو ان الارادة والقلب — وليس مجرد العقل — هما اللذان يجدان الله. وان شوق القلب الى الحقيقة الالهية هو الذي يحظى بهذه الحقيقة. فالفلاح الساذج البسيط التائق الى الحق يدرك صوت الآب كطفل صغير ، وأما أحكم الحـكماء بدون هذا التوق النفساني فلن يسمعه ولا يبلغ الى أذنيه . هذا هو الحق العذب الجميل في دين يسوع ، هذه هي عوامل التشجيع للبسطاء والجهلاء : ان ما نفتقر اليه لمعرفة الله ليس حكمة الحـكماء والفهماء بل قلب الصغار والاطفال .

* * *

ألقِ نظرك بعد على هذه الجماهير: والظاهر انه أحدث تأثيراً هائلاً . لانه وهو خارج ، و بينما تتنفس الصعداء تلك الجموع الذاهلة يتسمع يوحنا البشير همسات قائلة « أليس هذا هو الذي يطلبون ان يقتلوه ، وها هو يتكلم جهاراً ولا يقولون له شيئاً ؟ ألعـل الرؤساء عرفوا يقيناً ان هذا هو المسيح حقاً ؟ » .

بالاسف لا ! وانما لهم أفكار أخرى بعيدة . ولم يستطيعوا إلقاء الايدي عليه خوفاً من هذه الجماهير الحادبة عليه والمحيطة به. ولئن كانوا قد ذهلوا الى حين فانهم استفاقوا عاجلاً بعد ان غادرهم ، وأخذ غيظهم يشتد من تصريحات بعض الحاضرين، لانه كان بينهم قوم لم يخشوا الـكلام ، هم أبناء اسرائيل الاحرار القادمون من بلدان بعيدة والساخطون على اورشليم المستسلمة الخاضعة لمواطىء أقدام الـكهنة . و يسوع كان قد أثر فيهم حتى قيل : « آمن كثيرون من الجمع وقالوا ألعل المسيح متى جاء يعمل آيات اكثر من هذه التي عملها هذا ؟ » .

ولم يكن هذا قولاً مقبولاً لدى آذان الرؤساء ولذا قيل : « ولما سمع الفريسيون الجمع يتناجون بهذا من نحوه أرسل الفريسيون ورؤساء الـكهنة خداماً ليمسكوه » . ولمـا وقف

ثانيةفي فناء الهيكل كان بين الجمهور رجال الشرطة بيذلاتهم الرسمية، وعرف يسوع القصد من وجودهم ورأى فيه شبح المستقبل، فالتفت الى الشعب بنظرات الاسف وقال : « أنا معكم زماناً يسيراً بعد ثم أمضي الى الذي أرسلني » . ولـكن رجال الشرطة كانوا بشراً رأوا وسمعوا ، فلم تطاوعهم قلوبهم على تنفيذ الامر وتملـكتهم مؤثرات يسوع .

والآن يتبدل المشهد. ويظهر رجال الشرطة أمام مجلس السنهدريم فيوجه اليهم الاسئلة:

— « لماذا لم تأتوا به ؟ » .

— « لم يتـكلم قط انسان هكذا مثل هذا الانسان » .

— « ألعلـكم أنتم أيضاً قد ضللتم ؟ ألعل أحداً من الرؤساء أو الفريسيين آمن به ؟ ولـكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون؟». هذا كان كلام مجلس السنهدريم الساخط الحانق .

والظاهر ان الامر لم يكن هيناً على الرؤساء . فليس الشعب وحده هو الذي مال ، بل رجالهم وجند السنهدريم . لا بل ان المجلس نفسه لم يكن مجمعاً في الرأي حيال يسوع . ويرى يوحنا البشير واحداً منهم على الاقل جالساً في صمت، ولـكنه يخالف زملاءه في الرأي ويعطف على رجال الشرطة اكثر من الرؤساء الآخرين — وذلك هو الحبر الجليل نيقوديموس الذي لم ينس المعلم الشاب الذي كان قد ذهب اليه خفية في احدى ليالي الفصح المقمرة . وقد وقع هـذا أيضاً تحت مؤثرات يسوع ولـكن أعوزته الآن — كما أعوزته يومئذ — الشجاعة ليقف الى جانبه صراحة . وهو يحمل له بين جنبيه اعجابا ومودة دفعاه الى التفوه بكلمة خائفة من بعيـد في صالح مَنْ كان معرضاً للخطر . وقد قوبلت تلك الكلمة بتعنيف وازدراء من جانب الرؤساء الآخرين الذين حملقوا فيه تهكماً قائلين : « ألعلك أنت ايضاً من الجليـل ؟ فتش وانظر انه لم يقم نبي من الجليل ». وقد خانته شجاعته فلم يحتجّ على هذا الـكلام .

* * *

والآن لننتقل الى صورة أخرى في ذكريات البشير يوحنا : وها نحن في اليوم الاخير ، اليوم العظيم في العيد . وكان أهم مظاهره جرّ المياه . ويرى يسوع في صبيحة ذلك اليوم حفلاً من الناس سائرين الى بركة سلوام . وعلى رأس هذا الحفل الـكهنة بثيابهم البهية

المتلمعة يتقدمهم أحدهم حاملاً الجرة الذهبية . ووراء الكهنة جمع زاخر من الحجاج الوافدين يلوحون بأغصان النخيل والصفصاف في أيديهم ، وينشدون مزامير الحمد والتسبيح ليهوه ربهم . و بعد أن يسير هذا الموكب في طرقات طويلة ملتوية ، ووسط حدائق غناء جميلة ، وتحت مشارب مكتظة بالمتفرجين ، يصل أخيراً الى بركة سلوام و يسحبون منها الماء وهم ينشدون أهازيج التهليل . ور بما كان يسوع في ذلك الموكب مشاركاً القلوب الهاتفة في التسبيح للآب .

والآن يتبدل المشهد : وتعود الجماهير الى الهيكل . و يرى يوحنا الآن مشهداً مثيراً للنفس — المذبح الهائل في الهيكل يقف أمامه الكهنة في ثيابهم الكهنوتية ، الجمع الزاخر من البشرية المتزاحمة ، الالوان المتنوعة المتنافرة ، سعوف النخيل المرفوعة ، أزياء الشعوب المتعددة ، الوجوه الراغبة المتسائلة ، السمراء الشاحبة المتأثرة ، والبيضاء التي لوحتها حرارة الشمس — هذه كلها أُثيرت في أعماقها ولو الى حين، فارتفعت الحناجر باصوات التهليل والتسبيح للرب . ولم يكن هذا كله طقوساً خارجية جوفاء . بل كان اسرائيل في تلك الساعة أقرب ما يكون الى ربه والهه .

والآن تتجه العيون وتشرئب الأعناق لمشاهدة الاجراء الطقسي عند ما يسكب الماء والخمر على المذبح اشارة الى تفجر المياه في البرية منذ أمد بعيد ، وشكراً لله لأجل غيث السماء المنسكب على الارض المتعطشة ، وفوق ذلك توسلاً اليه لان يسكب غيث بركاته على النفوس الظامئة . ولهذه الفكرة الاخيرة أهمية خاصة في نظر الكتاب الذين عالجوا شئون الناموس وطقوسه . وليس شك في انه كان يومئذ في وسط الهيام والتهاليل الخارجية ، نفوس ظامئة تفتقر الى الله وترغب في اشباع شهوات القلوب التي لم يقو على اشباعها الكهنة الاشرار والطقوس الخارجية الجافة . . . . . . وعندئذ تضرب الابواق الفضية، وتتجاوب أصداء التهليل في جوانب الهيكل مرتلة : « قدموا للرب شكراً ، لانه صالح ، والى الأبد رحمته » .

وعند تقديم الذبائح يسود صمت هائل ، فيه يرن صوت رائق منفرد : « ان عطش أحد فليقبل اليّ ويشرب، من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه انهار ماء حي». وها هو ينظر الى النفوس الحائرة الجائعة، و يعدها باشباع رغباتها وحاجاتها. ولم يكن هذا القول

مقاطعة لاجراءآت الطقس . بل كان تأويلاً لمعناه. ولا ريب في أن يوحنا لم يفهم معنى هذا الكلام عند سماعه يومئذ . ولكن وهو يكتب بعد ذلك التاريخ بسنين كثيرة، وعلى ضوء الاختبارات التي عرفتها الكنيسة في انسكاب الروح القدس يضيف الى كلام يسوع تذييلاً من عندياته : « قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه » .

فكر — أيها القارىء الكريم — في مدى تأثير هذا الكلام في السامعين في الهيكل : أكان قائله الهاً ؟ أ كان معتوهاً ذاهل العقل ؟ هوذا نبي وحيد ، حياته غامضة ، يقول عن عطية الله للنفوس الظامئة في العالم : « ان عطش أحد فليقبل اليّ » ! !

وكانت خدمة للسماء ضغثاً على ابالة في تزايد حيرتهم . ونحن نفترض أنه عند اشعال الثريات الذهبية ، وعندما انشد الساجدون — والمشاعل الملتهبة في أيديهم — أناشيد التهليل لعمود النور الذي سار أمام آبائهم في البرية ، عند ذلك رنت في آذانهم كلمات يسوع القائلة : « أنا هو نور العالم ، من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة » .

كان هذا تجديفاً مذموماً . ولكن الذي تلاه كان ادهى وأمر . وهنا ثارت في الجماهير ثائرة لالقاء القبض عليه، ولكن مشاعر الرهبة والدهشة منعتهم عن ذلك وقد قيل: « لم يمسكه أحد لان ساعته لم تكن قد جاءت بعد ». وفي جد ورزانة يستمر في كلامه قائلاً: « أنا أمضي وستطلبونني ولا تجدونني. وحيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا... أنتم من أسفل . أما أنا فمن فوق . أنتم من هذا العالم أما أنا فلست من هذا العالم ... ان لم تؤمنوا اني انا هو، تموتون في خطاياكم » .

يستولي ذعر على السامعين : —

— « من أنت ؟ »

— « أنا من البدء ما أكلمكم أيضاً به . أنتم لا تفهمون الآن . ولكن متى رفعتم ابن الانسان . فحينئذ تفهمون اني انا هو ولست افعل شيئاً من نفسي . بل كما علمني الآب ».

وفي اليوم التالي نسمعه يكرر هذا اللقب بعينه : « قبل ان يكون ابرهيم انا كائن » .

وليس شك في ان اولئك الحجاج الوافدين من بلدان كثيرة عادوا الى اوطانهم يحملون قصة غريبة مدهشة . لم يتكلم أحد قط بمثل هذا الكلام . ولم يكن كلامه بلا ثمر فانه « بينما هو يتكلم بهذا آمن به كثيرون » .

أما الآخرون فحسبوا هذا تجديفاً وإثماً « ورفعوا حجارة ليرجموه . أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل » .

* * *

وهل في الامكان ادراك خطورة هذا الموقف : « يا أورشليم لم تعرفي زمان افتقادك ! في وسطك يقف من لا تعرفينه ». وذاك الذي جاء برهة وجيزة الى الارض، الذي مخارجه منذ القدم ومن الازل ، وقف متخفياً بينهم في شكل بشري في ذلك العيد الذي مثلوا فيه أيام البرية القديمة. وقد كان مع آبائهم في القفر، ودعا اسرائيل من القدم ليلقنوا الدين للعالم، وهو الآن يدعو اسرائيل الى معرفة قلب الله نحو البشر اكثر مما عرفوا من قبل . ولكن من المؤلم المحزن أنهم لم يعرفوا ، ولم يريدوا ان يعرفوا . كانوا بليدي الافهام ثقيلي القلوب، فلم يدركوا حقيقة الامر قبل أن يقدموا على قتله .

هكذا تنتهي محاولته الاولى لدخول أورشليم !

ولان ساعته لم تكن قد جاءت ، كان عليه أن يهرب من أمام وجوههم بعد أن استخدم الثلاثة أيام التي قضاها في المدينة خير استخدام . واذ قد تفرقت الجماهير الموالية له لم يكن في بقائه أمن على حياته . لذلك يهرب الآن الى البرية مع جماعته الصغيرة و يستمر في رسالته التي سوف يتركها الى العالم ، الرسالة التي وقرت عن سماعها آذان أورشليم .

الفصل الثالث

قصتان من اسبوع العيد

ذات يوم كان المسيح سائراً مع تلاميذه فشهدوا شاباً كفيف البصر، واقفاً يستعطي عند باب الهيكل. ولما وقع نظرهم على عينيه الغائرتين المظلمتين قال أحدهم ان هذا مولود أعمى. وأخذوا يتطارحون فيما بينهم متسائلين عن مصدر هذه العلة. ولما كان الزعم السائد عليهم ان آلام الحياة هي نتيجة الخطية، ثارت أمامهم مشكلة خطيرة فاتجهوا الى سيدهم بهذا السؤال: « يا معلم! من أخطأ. هذا أم أبواه حتى ولد أعمى؟ »

وكثيرون في الحياة يتساءلون عن آلام الحياة ومتاعبها، ولكنهم لا يحركون أصبعاً لتخفيفها. وأما قلب يسوع الحنون العطوف فلم يلجأ قط الى مثل هذا التساؤل وكان جوابه: « لا هذا أخطأ ولا أبواه، لكن لتظهر أعمال الله فيه ». وطبعاً لم يقصد المسيح من هذا القول ان هذا الانسان وُلد أعمى لتتاح له فرصة اجراء معجزة. ولكن الذي قصد اليه ان آلام الحياة هي بمثابة دعوة إلهية للاشتراك في أعمال الله — أعمال العطف والاشفاق والمعونة. وكأنه يقول ان آلام الحياة هي دعوة من الله للانسان، للعمل على تخفيفها وازالتها. هذا هو عمل الله بين البشر، ونحن شركاء عاملون معه متى ساهمنا بنصيب في مثل هذا العمل. وكان يسوع في تلك اللحظة، وهو ناظر نظرات العطف والحنان الى ذلك الضرير البائس يمثل لنا موقف الله الآب. ونحن نمثل هذا الموقف عينه متى جعلنا الآخرين يشعرون بان الله يفكر في أمرهم ويمد اليهم يد الغوث والاعانة عن طريقنا و بأيدينا. وكم من مضنى متألم ساقته محبة الاخ البشري الذي رآه، الى الايمان في محبة الله الآب الذي لم يره!

وهنا نرى أمامنا فرصة سانحة لعمل من أعمال المحبة المشفقة فاقتنصها يسوع فوراً. فهو لم ينتظر حتى يجمع الاموال لتأسيس مؤسسة للعميان — وهذا عمل جليل في حد

ذاته — ولكن العظة الماثلة أمامنا هنا هي الآ نتوانى في الاعمال الصغيرة التي نلتقي بها كل يوم في طريقنا. كان يسوع «مجتازاً» صدفة ووقع نظره على أعمى، فوجه اليه كل همه وعنايته. والحياة مليئة بمثل هذه الفرص الصغيرة السانحة . وأنت مجتاز في طرقاتها تشهد اكداساً من الآلام والاوجاع البشرية ، ولا ترى إلا كومة صغيرة من السعادة والغبطة . فاذا استطعت ان تنقل ذرة صغيرة من اكداس الآلام الى كومة الهناء ، فأنت في نظر يسوع تعمل أعمال الله .

سمع الاعمى حديث يسوع هذا عن أعمال الله . ولم يدرِ معنى هذا كله حتى أحسّ بلمسة يده الحنون على كتفه، والاخرى تطلي عينيه بالطين وصوته يقول له: «اذهب اغتسل في بركة سلوام» ، فذهب واغتسل وعاد ثانية . ومن ذا الذي يستطيع ان يصور لنا مقدار فرحه وبهجته وهو يدخل فجأة عالماً جديداً من النور والجلال والجمال . وتتفتح عيناه الغائرتان لتريا الفضاء الواسع والابنية الشاهقة ووجوه الرجال والنساء. لا شك في ان انساناً كهذا لم ير العالم من قبل أحس بانه اجتاز الى السماء عندما تفتح بصره . فهل يمكنه الآن اظهار شيء من حسن الصنيع لقاء هذا الجميل نحو الانسان الذي فعل به هذا ؟ !

عند ذلك يلتفت حوله جمهور قليل قائلين :

-- « أليس هذا الشحاذ الأعمى الذي كان يستعطي عند باب الهيكل ؟ » .

— « هذا هو بلا شك » .

— « لا . انه يشبهه » .

وليس يخفى ان العينين تحدثان اختلافاً في شكل الوجه ، أما الرجل الحائر الثائر بالفرح في عالمه الجديد فيصرخ قائلا :

— « نعم . أنا هو » .

ـ « ولكن قل لنا . كيف فتحت عيناك ؟ » .

ـ « الانسان الذي يقال له يسوع صنع هذا ! » .

— « أين هو ؟ »

— « لست أدري أين هو . ولست اعرف شيئاً غير هذا »

وهنا يفـكر أحدهم — وربما يقصد شيئاً معيناً — ويقترح قائلاً : « لنأخذه الى الفريسيين في مجلسهم ! » .

فأتوا الى الفريسيين بالذي كان قبلاً أعمى ، ويقول يوحنا ان ذلك اليوم كان سبتاً. فلا مناص من احداث الشغب لان اولئك المتعنتين في حفظ السبت ، وهم لعنة الدين اليهودي ، سيجدون فرصة لزج يسوع في المخاطر .

يقف الرجل أمام مجلس الفريسيين تحيط به جموع الشعب وتلقى عليه الاسئلة :

— « من هو يسوع هذا ؟ قل لنا ماذا حدث ؟ »

— « وضع طيناً على عيني . ثم اغتسلت فأبصرت » .

وهنا يحدث انقسام في الرأي في المجلس نفسه فيقول البعض :

— « هذا الانسان ليس من الله ، لانه لا يحفظ السبت »

— « ولـكن كيف يقدر انسان خاطىء ان يعمل مثل هذه الآيات ؟ »

وفي حيرتهم يسألون الرجل نفسه قائلين :

— « وأنت ماذا تقول عنه ؟ »

ويعرف الرجل موضع الخطر في هذا السؤال ، ولـكنه لا يرتد على عقبيه فيقول :

— « انه نبي ! »

— « انت تظنه نبياً ! انت مخادع كاذب . اذهب واحضر لنا أبويك » .

يجيء الابوان . وهما لا يتورطان في الاجابة لانهما يعرفان سطوة هذه الفئة المستبدة الغاشمة ، ويعلمان ان قراراً كهنوتياً قد صدر بحرمان كل من يعترف بان يسوع هذا هو المسيا . فيجيبان :

« هذا هو ابننا . وهو قد ولد أعمى ، ولـكننا لا نعلم شيئاً غير ذلك . هو كامل السن . اسألوه » .

اجابة خائفة مرتجفة تأبى التورط !

يُستدعى بعدئذ الشاب الشحاذ ويُقال له : —

«اعط مجداً لله. نحن نعلم ان هذا الانسان خاطىء» . ولـكنه في دهشة العالم الجديد الذي وجد فيه غبطة الحياة المنيرة ، لا يجد الخوف إلى نفسه سبيلاً . ويشعر ان الواجب

يقضي عليه بان يكون مخلصاً لذلك الصديق المجهول الذي يبغضونه ، الصديق الذي قلب أوضاع حياته كلها .

« أخاطىء هو لست اعلم . انما اعلم شيئاً واحداً اني كنت أعمى والآن أبصر . ونعلم ان الله لا يسمع للخطاة . منذ الدهر لم يُسمع ان احداً فتح عيني مولود أعمى . لو لم يكن هذا من الله ،لما قدر ان يفعل شيئاً » .

فيجيبونه قائلين : « في الخطايا ولدت انت بجملتك ، وانت تعلّمنا ! » . واخرجوه خارجاً . . . . . وقعت عليه لعنة الحرمان . و بعد اليوم لا يجوز له ان يجلس امام الهيكل، ولا ان يعبد في بيت الله . لا يجوز ان يدخل في خدمة انسان خائف الله . نُبذ كأبرص مصاب ، وطرد كيهودي محروم . ولـكنه يتحمل كل هذا لاجل يسوع المجهول الذي لم يعرفه .

سمع يسوع خبره فاستدعى اليه هذا الطريد المنبوذ.و بينما هو يسكب أمامه فيض امتنانه وشكره،علّمه يسوع عن محبة الآب التي بعث به الى العالم لصنع اعمال الله.ولما نضجت نفسه بالتعاليم وجّه اليه يسوع هذا السؤال :

— « أتؤمن بابن الله ؟ » .

فاجاب : « اؤمن يا سيد » . وسجد له .

وهكذا في اليوم الذي أوصدت فيه الـكنيسة اليهودية ابوابها في وجهه ، تفتحت له ابواب ملـكوت السموات . وأبصر شحاذ بائس نور وجه الله الذي لم يستطع رؤيته معلمو اسرائيل في عجرفتهم وكبريائهم ! !

* * *

الآن يختفي الشحاذ الاعمى من المسرح . والمرجح أن لهذه الحادثة معنى كبيراً للعالم. لانه اذا صحّ ما ذهب اليه أهل الحدس من ان يسوع اذاع هذه القصة علانية أمام الملأ ، واشار فيها الى موقف الرعاة القساة الذين طردوا هذا الحمل البائس من حظيرة الخراف — نقول اذا صح الحدس فـكأننا مدينون الى ذلك الشحاذ الأعمى بالمثل الجميل عن الراعي الصالح والراعي الأجير . وكأن باب حظيرة الله لا يغلق امام الناس بأيدي اولئك الرعاة

القساة الذين يظلمون القطيع ويتعسفونه : «انا باب الخراف . الأجير لا يبالي بالخراف. انا هو الراعي الصالح . والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف . لهذا يحبني الآب لاني اضع نفسي . ليس أحد يأخذها مني . بل أضعها أنا من ذاتي . كما ان الآب يعرفني انا اعرف الآب وأنا أضع نفسي عن الخراف » .

يأتينا هذا المثل الجميل عن طريق ذلك الشجاذ الاعمى !

* * *

وكما تستعرض الرواية القصصية في هذا العصر المشاكل الجنسية المسيخة التافهة، هكذا استعرضها الفريسيون في عصر المسيح . فبينما كان واقفاً ذات يوم في احدى فترات العبادة في فناء الهيكل، قدموا اليه في خشونة مستقبحة امرأة أمسكت في فعلة الزنى . ولا يصعب علينا ان نتصور النظرات الخفية ، والغمزات العقيمة ، والمرأة المتنهدة تخفي وجهها بكلتا يديها . كان المشهد كله مخجلاً ممجّاً تعافه النفس. ولكن اذ قد اختار يسوع ان يكون نصيبه مع البشرية الخاطئة البائسة لم يسعه التنصل من الاحتكاك بامور مخجلة يمجها الذوق. ولم تكن هذه المرة الاولى او الثانية التي يرى فيها أمثال هذه المرأة . ونحن نذكر المرأة الساقطة في وليمة سمعان ، والزانيات اللواتي كن يختلطن بالعشارين ويهرعن لسماع أقواله .

وكانت التهمة الموجهة اليه انه مفرط في اللين والتساهل مع الساقطات الطريدات، فكان يحدثهن في لين وعطف ويقتادهن احياناً الى التوبة والندم . وهو قد عرف ان كثيرات منهن قد وقعن فرائس في ايدي الرجال، وانه مُساء اليهن اكثر منهن مسيئات . وليس شك في انه أبغض الآداب الكاذبة في ذلك العصر كما يبغضها في عصرنا هذا ، الآداب التي تلعن وتدمغ بالعار المرأة الساقطة ، وتطلق الرجل الساقط حراً لا غبار عليه .

ولكن تهمة أخرى غير هذه كانت لاصقة به ، فانه أعلن على الملأ ان خطايا ذوي المقام والحيثية — خطايا الطمع ومرارة النفس والقلب الجاحد — أشد سواداً في نظر الله من الخطايا الناجمة عن ضعف الارادة الجسمانية . فالفريسي المتورع المتعجرف ، في ريائه واحتقاره عامة الشعب ، لأشد بغضاً في نظر الله من تلك المرأة الخاطئة في عارها. وقد قال

ذات مرة في صراحة جريئة لأولئك الكهنة المتظاهرين بالتقوى : « ان العشارين والزواني يسبقونكم الى ملكوت الله » .

هذا كلام خطر يتفوَّه به مصلح أمام الناس. وهيّن جداً ان يسيء الناس فهمه أو يسيئون تأويله . واكثرنا يخشى الجهر به لئلا نتهم بالتهاون والتساهل في خطايا النجاسة الشخصية. أما يسوع فلم يتوقف عن قوله في جرأة وصراحة، لان المقام اقتضى ذلك .وليس من قبيل التهاون في خطايا الجسد ان يقول المسيح إن في الروح خطايا أشر وأشد خطراً وأعصى علاجاً ، لا سيا متى كانت النيات مستترة على الاقلال من شأنها والتهاون فيها . فالتاجر الماهر الذي يهدم عمداً منافسيه ويجرهم الى الخراب ، والمرأة المغيظة الحقود التي تكيد لجارتها وهي مبتسمة ، أمثال هذه وأمثال ذاك قد يجيئون الى الكنيسة في ثقة وطمأنينة،ويفزعون إذ يرون أنفسهم يوضعون في مستوى أحط من مستوى امرأة سقطت في عارها . ولكن يسوع يضعهم في هذا المستوى . وهم لا يرضونه كما لم يرضه الفريسيون من قبل !

وهينا نرى الاحبولة التي نصبوها له : « يا معلم : موسى في الناموس أوصانا ان مثل هذه ترجم . فماذا تقول أنت ؟ » وهو قد عرف دخائل نفوسهم . فلم يكونوا أناساً طاهري الذيل سليمي النية أخذتهم هذه الخطية الشنعاء مأخذاً شديداً . لانهم لو كانوا كذلك لما جرّوا المسكينة في عنف وقوة أمام الملأ. بل كانت أقوالهم مكيدة خبيثة أرادوا بها اظهاره بمظهر المستهتر أمام الشعب .

أما هو فلم يتورط في احتقار المرأة البائسة بالنظر الى عارها كما نظروا هم اليها شزراً . بل أدار وجهه كأنه لم ير شيئاً . وانحنى وكتب على الارض . وفي هذا الصمت الاخاذ نستطيع ان نتصور أفكاره عنها وعنهم : أيهما أشر وأضرّ سبيلاً — العمل المخجل الذي ارتكبته هذه المرأة ، أم الموقف الخبيث المسيء الذي يقفه متهموها المتظاهرون بالتقوى ؟ ولما أصرّوا عليه على الرغم من صمته،رفع نظره اليهم وأوغلت نظراته الى أعماق قلوبهم،فرفعوا أنفسهم أمام محكمة ضمائرهم « وكانت ضمائرهم تبكتهم » : « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر . فلما سمعوا خرجوا واحداً فواحداً مبتدئين من الشيوخ الى الآخرين

وبقي يسوع وحده والمرأة واقفة في الوسط » . لم تخرج ، ولم تستطع ان تخرج وهي ترى حاميها والمدافع عنها يلقي نظراته على الارض كأخ قد انحنى ظهره تحت خطيئة أخته الشنيعة المخجلة. والقصة تدلنا على انه قد نفذ ايضاً الى ضميرها. وان قلباً منسحقاً كسيراً يمثل أمامه ، قلب امرأة تحسُّ بألم عارها . ثم رفع رأسه ونظر اليها قائلاً : « يا امرأة . أين هم . اولئك المشتكون عليك ؟ أما دانك أحد ؟ » — فقالت : « لا أحد يا سيد » . فقال : « ولا أنا أدينك . أذهبي ولا تخطئي ايضاً » .

هنا نرى قلب الله . هنا طريق يسوع لعلاج الخطية . فاننا لا نقدر ان نقضي على الزنا برجمه بالحجارة . ولكن المسيح يستطيع ان يلمس القلب البشري بلمسة العطف والغفران ، فتنهض الساقطة امرأة جديدة ، تذهب ولا تخطىء .

الفصل الرابع

تعاليم الطريق

أبوة الله

حاول يسوع أن يدخل أورشليم في ذلك الاسبوع الحافل بالاعياد، فكانت النتيجة طرده من المدينة كما توقع هو . والآن لنضع جانباً سجل حوادث المدينة ذاتها كما رواها البشير يوحنا، على ان نعود اليها بعد انقضاء شهرين من هذا التاريخ، يوم آب الى المدينة في عيد التكريس ، لان يوحنا لم يتعرض لسرد الحوادث التي وقعت في خارج المدينة .

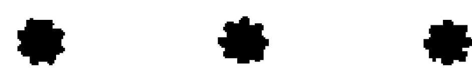
لنعد الآن الى البشير لوقا الذي يسرد لنا احداث الريف . ولنقتف آثار يسوع في البرية . أما الاماكن فلم تذكر ولسنا نعرف الى أين ذهب . وربما ارتحل الى ما وراء نهر الاردن . كما أننا لا ندري ترتيب الحوادث والتعاليم، فان لوقا يرسم صوراً متفرقة من هذه الحوادث. وقلما يشير الى زمان صريح أو مكان معين . ولعلها منضدة بحسب ترتيبها الزمني ولو أن الارجح كثيراً انها ليست كذلك . فيقول : في يوم حدث هذا . وفي يوم ثان حدث ذاك . و بعد هذا حدث شيء آخر .

والذي نلحظه ان هذه الفترة كلها حفلت بالتعاليم اكثر من الحوادث . وكأن السيد ، وقد عرف قرب مصيره ، أراد أن يودع ذكريات تلاميذه الاقوال التي ودّ اعلانها، والتي حيل بينه و بين المناداة بها في اورشليم . ولا يسمح لنا ضيق المجال بالتبسط في كل الدقائق والتفاصيل . وخير لنا هنا أن نستجمع بعض الافكار البارزة في تعاليم الطريق دون النظر الى ترتيبها الزمني .

وكان من أبرز وأظهر تعاليم يسوع أبوة الله . وأبهى صفحات تلك الذكريات هي التي سجل لنا فيها تعاليمه في هذا الصدد ، وهو مصوب وجهه الى أورشلم ليلاقي الموت .

وأتخيّل لوقا، المؤلف الشاب، يستجمع وهو يؤلف كتابه الجديد، الاقاصيص التي غفل عنها الرواة. وافكّر في موقفه المثير الحافز يوم سمع لاول مرة على لسان من كانوا مع يسوع في طريقه الى اورشليم — قصص الخروف الضال والابن الضال. وكان قد عرف ان يسوع يعلم عن أبوة الله. ولكنه لم يكن ليدري شيئاً عن هذه الطريقة الصريحة في عبارتها، المثيرة في حنانها. فما أشد اغتباطه وهو يكتب فصلاً عن هذا في انجيله الجديد!

والارجح أن القصة قيلت في أريحا قبل ختام الطريق، يوم تعشى يسوع مع زكا واصحابه، «فتذمر الفريسيون والكتبة قائلين هذا يقبل خطاة ويأكل معهم». وكان قد حامت حول اسمه أحدوثة سيئة بسبب هذا، لانه كان يقبل العشارين والزناة والمنبوذين من كل طبقة ويتحدث اليهم. فكان هذا مثاراً للدهشة من جانب الفريسيين والكتبة الذين تساءلوا كيف يتنزل لمشاركة امثال هؤلاء. والظاهر انهم لم يدهشوا للناحية الأخرى وهم يرون هؤلاء ميالين الى معاشرته. فانه من غير المألوف أن يميل المنبوذون والخطاة الى معاشرة انسان هو المثل الاعلى في القداسة والطهر. أما هم فقد مالوا اليهم بكليتهم.



ثم نسمعه يروي للفريسيين لماذا يودّ هو ان يخالط قوماً كهؤلاء. فأشار الى ما في أبوة الله من معاني المحبة والالم. وذكر لهم أمثاله الصغيرة الثلاثة عن الراعي الذي ملك مائة من الخراف، والمرأة التي اقتنت عشراً من قطع الفضة، والآب الذي كان له ابنان — وكلٌ من هؤلاء الثلاثة قد اضاع واحداً مما ملكت يداه. وبسبب هذا يشتد شجنه ويهتم بذلك الواحد الضائع اكثر من الباقين. والامر المهم في هذه القصص ان شيئاً ما قد ضاع مؤقتاً، شيئاً له قيمته وقدره في نظر مالكه، ولانه قد ضاع اهتم به جدّ الاهتمام كما كنا نفعل نحن.

والامر كله قائم على شعور المالك. لان الامثال تدور حول أبوة الله. فهي ليست متعلقة بالخروف الضال، أو الدرهم المفقود، أو الابن الضال. ويسوع لم يفكر في الخروف أو في الدرهم أو في الابن، بل بالاحرى في شعور وعواطف الشخص الذي فقد الشيء. فالامثلة عن الله، وهي اعلان لقلب الآب. فهو الراعي الذي ضلّ عنه خروفه فهام على

وجهه في الفيافي والقفار لعله يعثر عليه ، وهو المرأة تبحث جادة دائبة على درهمها المفقود ، وهو الآب الذي جرح قلبه لتيهان الابن الضال في الكورة البعيدة .

ففي أبوة الآب عطف غير محدود ، واشفاق لا نهاية له . ويشير يسوع الى محبة الله لأبنائه الامناء بقوله في مناسبات أخرى : « لا تخف ايها القطيع الصغير لان أباكم قد سُرَّ ان يعطيكم الملكوت » و « لان أباكم السماوي يعلم انكم تحتاجون الى هذه كلها » و « متى صليتم فقولوا أبانا » .

وهذا كله مصدر عزاء الابناء الامناء . على انه لا يمس مكامن الحس فينا كما تمسه هذه الصور المثيرة — آلام الآب وشعوره بالفقدان ، قلب الآب الذي يسيل حناناً الى رجوع الابن الشارد :

واسمع هنا الى اعلان قلب الله يكشفه للبشرية ، لا مجرد انسان ، ولا رسول من الرسل، بل الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خبّر. ففي ضلالتك خسارة لله، اكثر من خسارتك. لان الله يتألم من شرودك وشرك اكثر مما تتألم أنت، وهو يُعنى برجوعك الى طريق الخير اكثر مما تُعنى أنت بنفسك . وقد كانت هذه فكرة ذاهلة للفريسيين ، وهي فكرة مذهلة بل تكاد تكون مستحيلة في نظر بعضنا . بيد ان شيئاً من هذا ينبغي ألا يكون ، إذ يأمرنا يسوع ان ننظر الى صورة الله في كثير من أوضاع المحبة البشرية المحيطة بنا .

والمحبة التي تشعر بفقدان المحبوب هي التي تتألم كثيراً ، والآب الشيخ الفاني الذي يبيضّ شعر رأسه من فرط الالم على ضلالة ابنه ، هو الذي تخترمه الهموم اكثر من الابن نفسه . فما أوجع الحسرة التي رأيناها في وجوه الآباء والامهات الذين يتألمون في هذه الحياة، بل يودون ان ينصرم حبل الحياة،لو كان في هذا انقاذ للولد العاق من بؤرة الفساد! وتحضرني الآن قصة صديقة عزيزة جاءت اليّ يوماً وقالت : « قد عرفنا بعضنا البعض منذ سنوات . ولكن لم أسرّ اليك قبل الآن حزني الدفين ، ولم أقص عليك قصة ولدي الوحيد الذي ضلّ السبيل وهرب من الوطن . ولم أعد أسمع عنه شيئاً منذ عشر سنوات . ولست أدري أحي هو بين الاحياء ، أم دفين في أطباق الثرى . ومع ذلك فلم يبرح قط مخيلتي ليل نهار » .

وقد يبدو لنا بعيد التصديق انهذا ما عنيه يسوع عند تلميحه الى شعور الله بالخسارة. وفي قلب كل أم ، ولو لم تكن قد عرفت الكتاب المقدس ، مظهر لحنان الله وعطفه. وهذا ما قاله يسوع. فارسموا صورة الله الآب كما ترون أنفسكم في أفضل الاوضاع والمظاهر. فان كنتم وانتم اشرار تعرفون كيف تعنون باولادكم ، فكم بالحري يفعل هذا أبوكم السماوي؟ ومتى آمنا بهذا هل يخرج انسان من دائرة محبته !

وهو أيضاً يمس اعماق قلب كل أب وأم . فالآب يفرح بابنائه الأمناء . ولكن كل الاولاد لا يعوضون خسارة الابن الشرير العاق . ففي المائة خروف ، تسعة و تسعون في أمن . وفي العشر قطع من النقود ، تسع باقية في مكانها . وفي الولدين أحدهما باق في حضن الآب . ومع ذلك لا يكتفي الله بهذا. ولا يرضى أن يشرد واحد عن المجموع . لان آلام الآب واشواق نفسه تسيل الى كل فرد على حدة . وهل يقدر القارىء الكريم أن يصور لنفسه شقاء الابوين وهما يريان ابناً واحداً ينزلق الى حمأة الرذيلة بينما الآخرون في خير وهناء؟ وهل يجدان عوضاً عنه وسلوى لنفسيهما في صلاح الاولاد الآخرين ؟ أليس يحزهما الالم حزاً بسبب هذا الابن الخاطىء الشارد؟ وان كنت أنت ذلك الوالد أو تلك الأم، أفليس يصرخ قلبك بين أحشائك ، وهو صدى قلب الله فيك ، قائلاً : « ولدي ! ولدي ! » ؟ فشكراً لله على اعلانه هذا الذي يكشفه لنا يسوع . هذا هو الله . ولو لم يزح يسوع نفسه هذا القناع عن طبيعة الله ، لكنا نستبعد تصديقه لما انطوى عليه من فرط الحب !

* * *

ثم يشير الى غيرة الله في بحثه وسعيه . فالمرأة تكنس بيتها جادة دائبة ، والأب يقف عند الباب متجهاً بافكاره وارادته نحو قلب ذلك الابن الضال الهائم بين الخرنوب والخنازير، والراعي يخرج فوق النجاد والآكام يبحث عن الضال «حتى يجده»، كما يقول يسوع . فالله الآب لا يجد سلوى نفسه عن فقدك بالالفة والانس مع الخلائق التي اليه لم تخطىء . وهو لا يقنع بوضع الآخرين لسد هذا الفراغ الحادث ، لان الله ليس «مخدّماً» عظيماً يستأجر الايدي العاملة لسدّ النقص بين عماله ! انما الله هو الآب كما يقول السيد الكريم . وهو اليك لفي عوز ، وهو لفقدك لفي وحشة . وهو يسعى وراء مَنْ ضلّ وانخدع حتى يجده .

«حتى يجده» والله وحده يعرف معنى هذا . واحياناً تمتلىء النفس بالرجاء القائم على ان هذه المحبة لن يمكن أن تفشل في نهاية الأمر . وليس يهزمها الاّ شيء واحد، هو ارادة الخاطىء نفسه واصراره .

* * *

قرأت قصة عن أب غرق ابنه في اوحال الرذيلة والاثم في مدينة كبيرة . وتمادى في شره وأفاعيله غير عابىء بالشقاء الذي جلبه على بيته وأسرته . وقد صوّر الكاتب ذلك الوالد الشيخ المتهدم ، المكلوم الفؤاد ، رجلاً كبير العقل ، وجندياً نبيلاً ، يبذل ما في وسعه ، ليلة بعد أخرى . وشهراً بعد آخر ، جائلاً منقباً في كل ماخور من مواخير الاثم، وفي كل حانة من حانات الفجور . ولم يعبأ قط أن يرتاب الناس في آدابه وأخلاقه وهم يرونه يرتاد هذه الاماكن الموبوءة في غير انقطاع . ولم يكن له من همّ سوى العثور على ابنه الذي صدّع قلبه الباسل الكبير .

هذه صورة ، صورة باهتة ولكنها صادقة ، تمثل الله الآب يبحث عن الضالين والشاردين . وذلك الابن العاق لم يحلم يوماً أن والده الشيخ يتجشم في سبيله كل هذا العناء . بل تخيله أمامه غاضباً عابساً يلعنه وينقم عليه لانه جرّ وبالاً على اسم أبيه الكريم . وهو موقف أشبه بموقفنا نحن عند ما نعصى الله . فان أول فكرة تتبادر الى أذهاننا هي غضبه ونقمته ، وبروده وعدم مبالاته ، وهو يرقب أحزاننا ووخز ضمائرنا . وآخر ما يجول بالخواطر من الفِكَر هي الآب المتألم ، المؤمل المرتقب . . . . .

وهذه الفكرة الاخيرة هي الحقة الصادقة . ويقول يسوع هنا ان أعماق قلب الله تثور من جرّاء شرورنا وآثامنا . فهو يبحث ، ويجدُّ في البحث . لا يترك حجراً فوق حجر في التنقيب والسعي ، وهو أمامنا في ندامتنا وتوبتنا ، يبتعث فينا الضمير الذي يوخز ويؤنب ، والشعور الذي يندم ويؤدب ، والرجاء الذي يأمل ويرتقب .

قد يكون هذا أبعد مما أصدق ، وقد يكون هذا اكثر مما انتظر ، ولكني أومن به حقاً ويقيناً . لان امامي قولة المسيح الصادقة عن الراعي الذي يفتش ، والمرأة التي تكنس ، والأب الذي يبتئس . ولان احساسي الدفين يؤيده ، اذ افكر فيما عساي أن افعل لو ضلّ عني ولدي وشرد . وقد قالت لي أم ذات يوم : « لو ضلّ ابني وأنا في الأرض المباركة المقدسة، فان كل ملائكة السماء لن تقدر ان تحول بيني و بين خروجي الى الظلمة الخارجية لابحث عنه حتى أجده » . ولم يكن هذا خروجاً عن جادة الوقار ، بل هو انعكاس قلب الله . وحاشا ان يكون الله أقل صلاحاً من هذه الأم . ولديّ ما يؤيد هذا الشعور من الناس أنفسهم. فلطالما سمعت عن الاضطرابات والثورات النفسية ، عن الآلام ووخزات الضمير ، عن الرغبات والمقاصد — توطد العزائم مرة والف مرة ثم تُكسر وتذهب هباء . وقال لي أحدهم يوماً ما « هذا جحيم لا يطاق ! » كلا ! فليس هذا جحيماً . انما هو الراعي يفتش ، والمرأة تكنس ، والآب الثائر في محبته الهائجة يدأب ساعياً لعله يجد مَنْ ضلّ عنه . واذ سمعت ذلك الانسان يتحدث اليّ تذكرت لأول وهلة هذا المثل ، وهو اعلان المسيح لأبوة الله وأحسست أننا في أرض مقدسة . وهذا العالم الروحي محيط بنا . فلو كانت أعيننا مفتحة للنور الروحي ، ولو كانت آذاننا بمنجاة عن ضوضاء العالم ، لرأينا في مناح كثيرة آثار اقدام المسيح ، وسمعنا في كثير من المنازعات النفسية توسلات الله، جاداً في سعيه للعثور على الضال حتى يظفر به .

ومتى ظفر به علت رنات الفرح في حضرة ملائكة الله . اما فرح الآب فيمثله لنا المسيح يوم رجوع الابن الضال . و يمثله ذلك الكاتب — مع الفارق العظيم — في القصة التي ألمحت اليها آنفاً عن الوالد الشيخ الذي قضى شهوراً مكتئباً ، مصلياً ، باحثاً ، في أزقة المدينة ومنعطفاتها الموبوءة حتى وجد ابنه اخيراً . أما ذلك الابن فقد عراه ذهول ودهشة اذ عرف شيئاً عن قلب المحبة التي لا تكل ، وتبدلت حياته كلها ، اتخذ فيها طريقاً جديداً أعاد فيها الكرامة الى أبيه الشيخ ، الذي سوّد حياته من قبل باعوجاج حياته .

ومن ذا الذي يعبّر لنا عن مدى فرح ذلك الشيخ، وهو يسمع من كل جانب كلمات المديح والاطراء على ولده ؟ لقد سعى وراء الضال حتى ظفر به .

هذا هو الله . هـذا هو الآب بقدر ما تستطيع ان تفهمه العقول البشرية البائسة . وقد يصعب علينا الايمان به : ومع ذلك فهو الحق بعينه ، الحق الذي اعلنه المسيح نفسه. فلسنا بعد يتامى لان الله أبونا . وهو يقول للمجاهد المغلوب في صراعه . « لا تخف أيها القطيع الصغير لان أباك قد سُرّ ان يعطيك الملكوت». وهو يقول لكل بائس خاطىء تاه في ظلمات الارض البعيدة : « قم ، وانهض ، واذهب الى الآب ! » .

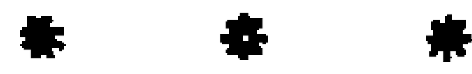
الفصل الخامس

الاخاء بين البشر

لابوة الله المكانة الاولى في أفكار يسوع التي ساقها الى البشرية ليعيد بها نظام المجتمع . ويتبع أبوة الله حتماً اخوة الانسان . فاذا كان الله الآب يعتزّ بأبنائه بني الانسان ويُعنى بأمورهم ، فهو يُسر ويغتبط ان يُعنى بعضهم بأمور بعض، ويسوءه ان يخرج من بينهم منْ يجبب على غيره شقاء أو خطية . ولذا كانت الاخوة البشرية من المبادىء التي نادى بها يسوع ، وكانت الروح المضادة لها من أشنع الاخطاء في نظره .

وهنا أستعيد الى الذاكرة مرة أخرى الوقت الذي قضاه البشير لوقا في استجماع ذكريات الطريق الى اورشليم . فأراه تارة يعثر على قصص الخروف الضال والابن الضال وما اليها من بدائع الاقاصيص التي تنبيء عن أبوة الله. وأخرى يجد نفسه أمام قصة الغني ولعازر التي يرسم فيها المسيح صوراً تنبيء عن انكار الانسان وجحده الاخوة البشرية . ولهذه القصة روعة روائية تجعل لها مقاماً خاصاً لما تضمنت من التعاليم الاخرى . . . .

وهي رواية تقع فصولها في عالمين ، مأساة تتمثل في مشهدين : فالمشهد الاول في هذا العالم ، والمشهد الثاني في العالم الآتي :



المشهد الاول: دار فخمة أنيقة، تحفها الثروة والنماء، وتكتظ قاعاتها بأسباب الرفاهية والكمالات، ويحتشد في أبهائها ضيوف في مرح وطرب ، وفي غرفها الداخلية عبيد وخدم وحشم. وفي وسط المشهد سيد الدار « انسان غني يلبس البز والارجوان وهو يتنعم كل يوم مترفهاً». وعلى مسافة منه «مسكين اسمه لعازر طرح عند بابه مضروباً بالقروح يشتهي ان يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغني بل كانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه» . . .

صورة بسيطة في تصويرها تجذب اليها الانظار، وهي صورة المجتمع الذي عاش فيه المسيح، وبالاسف هي صورة المجتمع الذي نعيش فيه نحن في هذا العصر — فها نحن نرى الفقر والحرمان ورقة الحال تقف جنباً الى جنب مع الغنى والرفاهية وتخظم المعيشة !

سلطوا أبصاركم على ذلك الغني في الصورة، فهو بطل القصة ومحورها. وأما الشخصيات الاخرى فهي مكملة فقط. واذكروا انها قصة رجل غني مجرد. لم يكن رجلاً غنياً شريراً، ولا رجلاً غنياً خادعاً، ولا رجلاً غنياً قاسياً، بل هو انسان غني عادي.

ولم ير العالم فيه، ولم ير هو في نفسه، ما يجعله موضعاً للتأنيب واللوم. ولم يُتهم بسوء ... ، ولا باحتياز الثروة باساليب خادعة غير شريفة. بل لم تُسند اليه القسوة على ... . ولم يكن لعازر المسكين ليقبع عند باب داره، لو لم يحظ كل يوم بكسر الخبز ... . وكان الرجل لطيف المعشر يميل اليه الاصدقاء من طرازه الذين استضافهم عنده. ... كان يذهب الى هيكل العبادة ويدفع العشور من ماله، ولعله كان محبوباً محترماً ... أسرته ومجتمعه.

فماذا كانت خطيته اذن ؟ كان يحمل بين أضالعه قلباً لا يحب، قلباً لم يعبأ شيئاً ... الأخاء الذي شرعه الله. ارتضى ان تُقدم الكسر الى لعازر مع الكلاب عند ... لكنه لم يفكر قط في أية علاقة أخرى. ولم يدر بخلده يوماً ان لعازر هذا أخوه، ... مطالب العطف والمودة ما تتطلبه الاخوة. وكان بينهما تلك الشقة الواسعة بين الغني والفقير، شقة تزداد كل يوم اتساعاً. ولم يفكر يوماً في تخطيها بكلمة عطف أو فكرة ... . هذه كانت خطيته قلب لا يحب، وعين لم تتفتح لرؤية حقيقة الاخاء الالهية.

وحلَّ به يوم أدرك هذا، ورأى الشقة الفاصلة بعينيه. ولكن بعد فوات الاوان.

* * *

المشهد الثاني : يُرفع الستار عن عالم آخر « فمات المسكين وحملته الملائكة الى حضن ابرهيم ومات الغني ايضاً ودفن ».

ويرسم يسوع صورة عن العالم الازلي الخالد كبحر يحيط بهذا العالم. يرتفع الستار فيُرى مشهد بعيد تحفه رهبة العالم الآتي. وكأني به هنا يعلّم الناس أن الموت ليس ختام مأساة الحياة. بل الحياة تمتد، والصفات تبقى، والتبعات تستمر، وينتقل الانسان بذاكرته

وضميره الى العالم الآخر الرهيب . والنور في المشهد ما برح مسلطاً على الغني لان القصة قصته . واذ يرتفع الستار نلمحه من بعيد على نور ضئيل في وحشة الفضاء العظيم ، نفساً حقيرة مرتجفة في وحشة لانهائية . هناك يتعذب لان الضمير قد استيقظ بعد أن خمد واستكان في السنوات الطويلة التي كان يرفل فيها في نعماء المادة . ان كأس الموت قد أيقظ ضميره . فهو الآن يرى ، وهو الآن يعرف . وليس لهذه النفس البائسة العارية الخائفة ملجأ تأوي اليه أو سلوى تفرج عنها . « رفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب ». يا لها من صورة رهيبة مرعبة التي يرسمها يسوع هنا ! في وحشة الفضاء الفسيح اللانهائي تتعذب النفس المستوحشة حين يخلو الانسان الى ضميره .

وترى هل أدرك في ذلك « المكان الموحش » شيئاً ما عن وحشة الحياة التي يعزّفيها الاخاء وتنتفي فيها الالفة ؟ وفي تلك الوحشة المريعة يرفع عينيه ليرى وجهاً ألف رؤياه . يرى لعازر من بعيد في حضن ابرهيم . وهو الآن يلتمس ان يجيء اليه لعازر حاملاً له العزاء والعطف ، وهو لم يفكر على الارض ان يمنح لعازر شيئاً من هذا العزاء والعطف . «ارسل لعازر ! » وكأنه قد نسي لساعته انه لم يعُد بعد ذلك الغني الذي يأمر لعازر فيمتثل لأمره . وفاته انه محظور عليه ان يفعل هذا « يا ابني اذكر انك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر البلايا » .

وهنا يذكر ، يذكر نفسه ولعازر ، يذكر نفسه المجردة عن كل مودة وأخاء ، ووحشة ذلك الشحاذ المريض المسكين. ويرى في فزع وهلع تلك « الهوة العظيمة » التي اصطنعتها يداه ومن على شاكلته. وعلى نور الابدية يرى ان من يحفر هوة بينه و بين أخيه انما يحفر هوة بينه و بين الله . «بيننا و بينكم هوة عميقة قد أُثبتت» . ولعله يذكر الآن انه قد مضى زمن كان ممكناً له فيه ان يتخطى تلك الهوة بكلمات العطف والاشفاق . أما الآن فقد اتسعت الهوة وأمست سحيقة لا قرار لها .

* * *

ولي هنا كلمة ليست في صميم موضوع هذا الفصل.ولكن لا بأس من ايرادها: وهي ان القصد الرئيسي الذي يرمي اليه المسيح هنا ليس الكشف عن أسرار العالم الآخر. انما يرمي هنا الى تلقين أمثولة الاخاء كواجب اجتماعي . وقد رفع الستار هنيهة وتتبع الغني في

العالم غير المنظور ليبين لنا النتائج المحتومة للحياة العاطلة عن عواطف الاخوة . فليس من حق أي انسان ان يحمّل الالفاظ من المعاني ما لا تحتمل . واليوم نرى « هوة سحيقة » بين الاغنياء في جفائهم وبين الفقراء في هذا العصر ، شقة واسعة بين الاشرار والاخيار في هذا العالم أو أي عالم آخر . بين الغني الذي جاز الى العالم الآخر بنفس جرداء محبة لذاتها ، وبين أنفس القديسين الذين استراحوا في الرب .

وهنا نرى يسوع يرسم لوحته الخالدة التي تمثل النفس الجاحدة حق الاخوة، ويضع الغني نموذجاً فيطوح به الى موضع العذاب بسبب هذا . ويقول صراحة انه اذا لم يرد الناس الوقوع في هذا المصير عينه فعليهم ان يرعوا شريعة الاخاء الالهية .

وفي مجال آخر نراه يمسّ هذا الموضوع مرة اخرى في قصة السامري الصالح حيث يرسم صورة لسامري محتقر،ليعلّم الانسان معنى القرابة البشرية. والمرة تلو المرة نسمعه يفصح عن هذه الفكرة كأن يقول مثلاً : اغفر زلات أخيك سبعين مرة سبع مرات . وكن به رحيماً شفوقا ولو كان هو كارهاً جحوداً . لأن الله الآب في السماء يشفق على الأشرار والصالحين ويمطر على الابرار والظالمين . «وهذه وصيتي ان تحبوا بعضكم بعضا» . وايضا « واحد هو سيدكم المسيح وأنتم جميعا اخوة » . ولا حاجة بنا لاقتباس اكثر من ذلك فان ناموس الاخاء ماثل في كل تعاليمه .

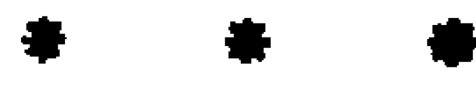
ولعلّ ألمع ناحية في صورة هذا الغني التي رسمها المسيح هي دينونته . وكأني به يضع الاخاء والمودة ، والجفاء والقسوة ، من أبرز العوامل في تقرير مصير الانسان . اما القاضي الديان فهو ابن الانسان ، وأخو البشرية ، وكأن الاخاء أو الجفاء لاحد اخوته الاصاغر موجه اليه شخصياً . وقد جال وسط الحياة البشرية ، دون أن يلحظه أحد ، متفرساً في عيون المستوحشين الذين أعوزهم عطف الاخاء . ولم يدر البشر انه كان يتفرس بعينيه الثاقبتين . أما القلوب الرحيمة فلم تر في حسناتها الصغيرة شيئاً يستحق الذكر . والقلوب الجاحدة القاسية قد دهشت بعد اذ عرفت أن هناك من يرقب قسوتها وعدم مودتها : « كنت جائعاً فأطعمتموني ، عطشاناً فسقيتموني ، مريضاً ومحبوساً فزرتموني. تعالوا يا مباركي أبي . بما انكم فعلتم بأحد اخوتي هؤلاء الاصاغر فبي فعلتم » .

* * *

وههنا انذار هائل يوجه أبصارنا الى مراعاة ناموس الاخاء . فان لعازر عنـد الباب يمثـل آلام وحاجات البشرية التاعسة الجاثمة عند ابوابنا ، والغني هنا يصوب الينا هذا التحذير .

وفي هذا العصر نرى مدننا الـكبيرة وقد اكتظت فيها جماهير الفقراء في الاحيـاء الحقيرة ، وحشرت حشراً كما تحشر الارانب في أجحارها ، في مساكن حقيرة دنيئة ، وبأجور باهظة مرهقة ، وليس من يحرك ساكنا . وفي كل سنة يموت اطفالنا في الاحياء القذرة لنقص الوسائل الصحية وقلة الغذاء . ويُهمل العجائز في شيخوختهم وليس من يأخذ بناصرهم في هذا الدور العصيب من الحياة . ويعيش الشبان والفتيات في أحوال تـكثر فيها وسائل الغواية والاغراء . ان الفقر والآلام جاثمة عند ابوابنا والمسيح ينظر ويتفرس ونحن لا نعيره التفاتا . وكأن هذه الاسر التي تعيش في المساكن الحقيرة القذرة ليست منا في شيء ، وكأن اولئك الاطفال والشبان الذين نعصف بهم اعاصير الموت والغوايات لا يمتون الينا بصلة من القربى . ولـكن هم أسر المسيح ، وهم اولاد الله المساكين !

فهل من غرابة ان يقسو المسيح في حكمه على روح الجفاء وعدم المودة ؟ وهل من غرابة أن يطرح الغني القاسي في مكان العذاب !



« كلكم اخوة » . وليس يقتصر هذا على العلاقة بين الغني والفقير . فان العطف والصداقة والمودة من الروابط التي يجب ان تسود كل اوساطنا وتـكون لنا ناموسا وهدى . لان الله يريد عالماً سعيداً . وهو يضع على كواهلنا عبء القيام بهذا الواجب المقدس لادخال البسطة والسرور الى النفوس .

وختام الامر كله ان العالم في اعادة تنظيمه الاجتماعي يفتقر في هذا العصر اشد افتقار الى المسيح . وأهل العالم مأخوذون بتعلم النواميس الاقتصادية ، ومبادىء مذاهب المنفعة ، واساليب الحث الاخلاقي لفعل الخير والصلاح ، ولـكنهم عن المسيح غافلون ، ولذا هم لا يفلحون . وهم يعلمون ذلك ، ويشعر قادتنا وزعماؤنا في ميادين السياسة والصنـاعة والاجتماع بعجزهم وافتقارهم الى وازع روحي قوي لتنفيذ مشروعاتهم تنفيـذاً عملياً والحاجة هنا ماسة إلى الدين . فليس كافياً ان يقولوا لنا افعلوا الخير . بل نحن نفتقر ايضا

إلى وازع يردع ، والى قوة تدفع . ويهيء لنا يسوع هذه القوى اللازمة في تعاليمه عن ابوة الله ، وفي عنايته بالبشرية جمعاء لا سيما الاحوة الاصاغر الذين لاجلهم ارتفع فوق صليب الجلجثة. وبقوة روحه القدس، والصلاة، والسر المقدس، تسمو اخلاقنا وتصقل ، ونرضى ان نفعل عن طيبة خاطر ما قد يعكر مزاجنا ويقلق راحتنا لاجل الآخرين . لان « محبة المسيح تحصرنا » . والرسالة التي تلقيناها عنه هي ان : «من يحب الله يحب اخاه ايضا » .

الفصل السادس

المسئولية

من التعاليم البارزة بين ذكريات الطريق، ذلك المثل المأثور الذي ألقاه يسوع عن مسئولية الحياة . ولعلّه قد قيل اكثر من مرة في أوضاع مختلفة تتفق وعقليات السامعين . ويقدم لنا البشير لوقا وضعاً من هذه الاوضاع قبيل نهاية الطريق إذ «كان قريباً من اورشليم وكانوا يظنون ان ملكوت الله عتيد ان يظهر في الحال». ويقدم لنا البشير متى وضعاً آخر يجمله بعد هذا باسبوع في مثل الوزنات ، ولهذا الوضع الاخير تعليم أوفى وصورة أبهى .

أما الفكرة الاساسية فهي ان مهمة البشر في الحياة ان يكونوا وكلاء أمناء في اداء وكالة عهد اليهم بها الله نفسه . والبشر في ذلك اليوم حسبوا الثروة وكل ما ملكته أيديهم من مزايا أخرى ، ملكاً لهم يستخدمونه لخير أنفسهم . والبشر في هذا العصر يفعلون هذا بعينه. ونحن نبذل الجهود للحدّ من هذه الميول الجامحة بالقوى الخارجية، بفرض الضرائب على الدخل والحاجات الكمالية . أما يسوع فقد أوغل الى عمق الاعماق ورأى ان العلاج هو تجديد في القلب وتبدل في وجهة النظر نحو الحياة . فيحق للناس ان ينظروا الى الحياة كما هي في نظر الله ، وكما هي في نظر الخلود . ويقول السيد المسيح ان الله آب لنا وكلنا اخوة . وموقفنا تجاه الله وتجاه بعضنا البعض أشبه « بانسان مسافر دعا عبيده وسلّمهم أمواله ، فأعطى واحداً خمس وزنات وآخر وزنتين وآخر وزنة ، كل واحد على قدر طاقته » ليتاجروا بها.

وتأويل هذا ان الله يبعث بكل منا الى هذا العالم ليؤدي رسالة ، ليقوم بعمل معين ، وليتعاون معه في تقويم ما اعوجّ في هذا العالم البائس . وانه عزّ وجل يهب لكل انسان كثيراً أو قليلاً من هذه المواهب لبلوغ هذا المأرب . وانه سيسأل يوماً ما كل انسان عما

فعلت يداه : كيف أديت رسالتك، وكيف استخدمت المواهب التي منحتك اياها ؟ أي خير فعلت في العالم ، وأي خير فازت به نفسك في رحلة الحياة ؟

فها هنا رجل ، مالك غني ، يقتني عبيداً . ولان الله خلقنا وافتدانا وحبانا بالهبات والقوى، فنحن ملك له جسداً ونفساً . ومن منطوق هـذا المثل لا يحق لرجل كريم ان يقول : « لجاري ان يختار شرعاً ان يخدم الله ، ولي أنا ان أختار شرعاً ألاّ أخدمه » كلا . فاننا لسنا ملكاً لأنفسنا ، بل لله ، أردنا أم لم نرد .

و يعتزم ذلك الغني ان يرحل الى كورة بعيدة فيدعو اليه عبيده ليسلمهم عمله. وها قد تفتحت أبواب القصر على مصاريعها ووقفت العربة بجيادها المطهمة . وفي البهو تقع العين على منضدة طويلة يكسوها غطاء أحمر ، ووُضع عليها اكداس صغيرة من الذهب والفضة — وزنة ووزنتان وخمس وزنات — ويقف ذلك الرجل متفرساً في كل عيون عبيده ليتفهم مقدرة كل منهم، فيعطيه من رأس المال ما يقدر على استخدامه. وهو يعرفهم معرفة جيدة،وكان اولئك العبيد قد ترعرعوا في داره منذ صغرهم،وكبروا أمام ناظريه فعرف مقدرة كل منهم . وقد كان اليهود ، ولا يزالون ، شعباً محباً للتجارة والكسب ، فليس مثل آخر يمس عواطفهم من حيث المسئولية كهذا المثل .

والآن ألقِ نظرة على العبيد حول المائدة الطويلة الحمراء وهم يتناولون هذه الوزنات . لمن هذه الوزنات ؟ للسيد بلا شك، وما هم إلا وكلاء عنه يتاجرون لحسابه « يا سيد خمس وزنات سلمتني . . . وزنتين سلمتني الخ » .

ثم ألقِ نظرة على عبيد الله حول المائدة الطويلة في هذا العصر : لمن الوزنات التي عهد اليهم بها ؟ الثروة ، النفوذ ، الجاه ، العقل ، الكفاية ، الجمال ، الاخلاق ، الصحة — كل هذه الوزنات والهبات لمن هي ؟ لله — ولماذا أُعطيت لنا ؟ للمتاجرة ، وليعود ربحها على الله . وأي ربح يشاء ؟ ان لله قصداً عظيماً نحو هذا العالم البائس ، ليجعله اكثر غبطة ، وأوفر قداسة، وأسمى نبلاً ، وهو لا يفعل هذا إلا عن طريق عبيده. فان لم يعملوا تعطل هذا القصد . هذا هو الغرض من الوزنات التي نُعطاها .

وان صح ان جميع مواهبنا هي منح من الله ، فماذا يحدث ؟

ماذا يحدث للثروة التي تغدق علينا ، أو لحقوق الارث التي نمتاز بها، او لهبات العقل

التي تتوافر لنا ؟ — ولدت غنياً ، وتحدرت من أسرة طيبة عريقة ، ومُنحت مواهب عقلية — حسناً ! فاشكر الله على كل هذا، لان هذه هبات عظمى، ولـكنها تحمل معها تبعات خطيرة. وليس فيها ما يبرر ان تنظر شزراً، أو نظرة امتهان ، الى انسان آخر لم ينل من الآب الاّ صغار المواهب . فليس لك حق اكثر من الآخر لان تجيء الى العالم مزوداً بالغنى وطيب الارومة وعراقة المحتد . ولـكن الآب قد دبر هذا لـكي يكون واجبك في الاعانة أوفر . ان للامارة تـكاليفها وتبعاتها كما يقول المثل الفرنسي .

أو كيف يسوغ لانسان ان يستخدم المواهب التي سلّمها اليه السيد لجرّ المغانم لشخصه، لتقدمه الذاتي ، ونسيان الله ، ونسيان الآخرين ؟

أو كيف يعزّي الانسان نفسه وهو على سرير الموت بزعمه انه لم يؤذ احداً قط في حياته ؟ ان هذه ظاهرة يلقاها رجال الدين عند تشخيص حالة الانسان الروحية . فأنت اذا حاولت سبر غوره لتعرف حالته، تسمعه يقول لك في برود: « لست اظن ان لله شكاوي كثيرة عليَّ . فانا لم اوذي عمداً أحداً من الناس » — تصور انساناً يقول هذا ! فكأن الله قد بعث به الى العالم وحباه بالمواهب ليمتنع عن الضرّ وحسب! تصور أحد كبار المقاولين يجيء لمناظرة عمله فيجد عاملاً ممن نقدهم أجورهم جالساً على السقالة كسولاً لا يعمل شيئاً. واذ يدهمه على هذه الحال يقول له : « أنا لا أفعل ضراً بأحد ، ولا ألقي بالطوب على رءوس المارة في الطريق ! ». فـكأن المقاول ينقده أجره لهذا الغرض ليس الا . ان الحياة تتخذ أوضاعا مختلفة لو أدركنا معنى تعليم المسيح في هذا المثل، ونفهم بأكثر جلاء مغزى كلمات الاعتراف: « تركنا اعمالا وجب علينا عملها » .

هذه هي النقطة الاولى : ان كل مواهبنا قد اعطانا اياها السيد لنستخدمها في الخير.

واليكم فكرة أخرى — رب قائل يقول في قلبه : هذه المواهب ليست موزعة توزيعاً عادلا . فلماذا لا نبدأ بداية عادلة ان كنا مسئولين معا ؟ فلسنا كلنا في مكانة اجتماعيـة واحدة ، ولسنا كلنا في درجة واحدة من الغنى أو القوة أو النشاط أو الجاذبية في الاخلاق. وقد يكون ولدان في فصل واحد ، أو شخصان في مقعد واحد ، ويختلف الواحد عن الآخر كل الاختلاف في القوى الجسمانية والعقلية والادبية والروحية .

نعم . حتى في القوة الادبية والروحية ! وهذا أعوص ما في السر . فانه أسهل على قوم

منه على الآخرين أن يكونوا لطفاء كرماء مشفقين، يضبطون عواطفهم ويعملون على اسعاد الآخرين. وانه هيّن على انسان أن يؤمن بالله، بينما يصعب ذلك على آخر بسبب مزاجه المتشكك المرتاب. هذا سر عويص لا أفهمه ولا اريد التبسط في تأويله، لانه يقودنا الى اسرار الوراثة وما الى ذلك من العوامل المحيرة.

ولكن يسوع لم يجهل هذه الصعوبة. فهو يراها أمامه حقيقة، ويصرح بان الله يمنح انسانا وزنة، وآخر وزنتين، وثالثا خمس وزنات. وهو لا يعلل لنا سبب هذه التفرقة. ولكنه يشير علينا الا نضطرب حيالها. فالانجيل، البشرى الطيبة في المثل، هو ان هذا التوزيع ليس مجرد صدفة عمياء، بل الله يعرف، والله يعبأ، والله يميز. ورويداً رويداً يحظى ذلك الانسان ذو الموهبة الضئيلة بعين الجزاء الذي يفوز به غيره لو أحسن عمله وكان أمينا في ادائه. ولذا يقول الله « نعما أيها العبد الصالح والامين! » — الصالح والامين، ليس الصالح والنابه، وليس الصالح والفالح - فلسنا نقدر ان نكون كلنا نابهين فالحين، بل نستطيع، شكراً لله، أن نكون أمناء، كلٌّ في دائرته الصغيرة المحدودة. هذا كل ما يريده الله.

فلا تفشلوا ولا تأسوا، ولا تشتكوا ولا تتذمروا، ولا تقولوا هذا غبن وحيف، ولا تظنوا كل شيء مجرد صدفة عمياء. فان الله قد دبر ان تتوافر لدى هذا الانسان مواهب اكثر من ذاك، ويترتب على هذا التمايز طبعا تبعة اخطر واشد. ويخيل الينا ان تنوع هذه المواهب ضرورة من ضرورات تدبير الله وعمله. ولقد شاهدت يوما صانعي الاورغن في الكنيسة، وكانت كل المزامير « الانابيب » مبعثرة على مقاعد الكنيسة، ذات مقاييس واطوال مختلفة ـ من المزمار الطويل البالغ ثمانية عشر قدما، الى الصفارة الصغيرة التي لا يزيد حجمها عن الاصبع الصغير. وقد شاهدت الصانع الفنان يهتم في شدّ ووزن الصغير منها اهتمامه بالكبير تماما. لان لكل منها صوته الخاص لتكون المجموعة الموسيقية متناسقة متزنة. ولعل هذا هو الحال مع الفنان الاعظم وهو يلعب بأنامله على أوتار الكون الذي صنع. ولعله لا يخرج ابدع الاصوات الموسيقية الا بتنوع الانغام والالحان!!

* * *

وانظر الى الفكرة الثانية في المثل. ذهب الرجال لانماء الوزنات. فاثنان منهم استخدما

وزناتهما واما الآخر فلم يفعل شيئاً . وههنا يبدو امامنا ناموس الله في المتاجرة بالوزنات التي يعطينا اياها، ناموس الله في المكسب والخسارة روحياً. و يتلخص هذا الناموس في عبارتين: من يستخدم مواهبه يزدد ، ومن لا يستخدمها يخسر . هذا هو ناموس الله الساري من حيث الجسد والعقل والروح .

١ — من يستخدم المواهب يزدد : هذا حق في أية ناحية من نواحي الطبيعة. فلماذا ترى ذراع الحداد اقوى من ذراعك ؟ لان الذي يستخدم يزداد . بل انظر الى الكفيف الاعمى، وتأمل دقة حاسة اللمس فيه بحيث يستطيع التمييز بين القطة البيضاء والسوداء بمجرد لمس شعرها . وانظر الى التاجر الماهر وانقلابه السريع مع السوق . ان الذي يستخدم شيئاً ما ، يبرع فيه .

وهكذا أيضاً في الحياة الروحية . فالمسيحي الصادق الذي يستخدم قوى نفسه، ومواهبه الروحية ، وشعوره بحضرة الله ، وحاجته للصلاة — يتزايد في هذه كلها فتنمو نفسه في القوة ، والنبل، و يصير الله اقرب اليه من نفسه ، والكتاب المقدس مصدر فرحه وسلامه. وكل ما يفعله ، وكل ما يُفعل به او ضده ، انما يؤدي الى تعمق حياته الروحية وتقربه الى الله .

٢ — ومن لا يستخدم يخسر : وأحد اولئك العبيد لم يستخدم وزنته. هو لم يسرقها او يسيء استعمالها ولكنه أهملها فقط. لانه شعر بصغار الحياة، فهو لم يفز الا بوزنة واحدة ولم يرَ فيها ما يبرر العناء الذي يبذله . فأخفاها ولم يرغب في احتمال المشقة والسعي .

هذا ناموس قائم في الحياة كلها. فانظر الى الفقير المتصوف الهندي الذي تجفّ ذراعه من جراء عدم استعماله . وانظر الى الانسان الذي يصاب بالعيّ من جراء عقل لسانه، و إلى الحيوانات التي تعيش في احجار تحت الارض المظلمة فتفقد أبصارها لحرمانها النور . وفي كهوف الماموث بولاية كنتكي الامريكية أجناس من الاسماك والضفادع العمياء لانها تعيش في الظلمة. وتبدو أعينها كأن لا شيء فيها، فاذا مسستها بسكين انهارت تراباً. هذا هو ناموس الطبيعة ، فانك إذا لم تستخدم شيئاً ما لا تلبث طويلاً حتى تفقده . لان من لا يستخدم شيئاً يخسره .

وهذا حق لا شية فيه في الحياة الروحية. فالانسان الذي يهمل الصلاة سنوات طويلة،

وقراءة الكتاب المقدس، والذهاب الى الكنيسة او تناول الشركة المقدسة، والتأمل في الروحيات — مثل هذا الانسان لا حق له ان يدهش اذا احس يوماً ان نفسه قد تحجرت وساورته الشكوك والريب. لان من لا يستخدم مواهبه يخسرها. هذا هو ناموس الحياة.

والآن لنأت الى الصورة التي تمثل رجوع السيد. وانظر اولاً الى موقف العبيد. « يا سيد سلمتني . . . . » وزنتين أو خمس وزنات. وكل عمل صالح نفعله لله يحمل معه جزاءه الصالح، لان كل شيء من لدن الله. وكل العاملين الامناء ينظرون الى الله بمثابة المعطي الوهاب. واما غير الامناء فينظرون اليه بمثابة المطالب السائل: « يا سيد عرفت انك انسان قاس الخ ».

ثم انظر الى موقف السيد المشجع في المثال: أحب ان يمتدح، وكره ان يتلمس الخطأ. وقد توقع الخير من عبيده. ولذا يفرح لانهم لم يخيبوا أمله كلية. نعم كانوا بلداء مخطئين اذ كان في وسعهم أن يفعلوا افضل مما فعلوا. فالانسان الذي فاز بالخمس الوزنات قد يشعر نفسه حقيراً اذ يجيء بعد زميل ملك عشر وزنات. ولكن اسمع الثناء الكريم السمح، الكلام المبهج المفرح: « حسناً فعلت! ». وهذا قول من يسر في المديح، ويكره اللوم والتعنيف. ما اعظم التشجيع الذي يلقاه العبد المسكين حين يضع السيد يده على كتفه قائلاً: « حسناً فعلت! حسناً فعلت! » هذا هو السيد الذي نخدمه. فلا ننسى هذا في أوقات اليأس والعناء. لأن الله لا يتلمس الاخطاء فينا ولا ينصب الاحابيل أو يحفر الحفائر في طريقنا. بل هو يبحث عن بصيص من الخير فينا، ويفرح اذ يجده.

* * *

بقي شيء واحد: فما هو ثواب الله للانسان الذي يهذب مواهبه ويستخدم قواه؟ هل ثوابه ان يقف عن العمل الصالح في المثل؟ أليس هو عملاً أعظم ومهمة اكبر؟ والانسان اذا أحسن عمله على الارض في وظيفة صغرى، يرقى الى أعلى منها ويضطلع بمسئولية اكبر. وهنا نرى يسوع يرفع الستار عن العالم الابدي ليرينا اننا في عالم اكثر اتساعاً مما عهدنا. ومتى انتهت هذه الحياة، تستمر الحياة ولا ينقطع حبلها. وما الموت الذي هو نهاية الفترة الارضية، إلا ميلاد في حياة جديدة لنا فيها من الآمال الكبار ما يثير حواسنا وينشط

الدم في عروقنا. والحياة بعد الموت ليست مجرد راحة راكدة ونهاية صامتة ، بل هي تطور مستمر بهيج . والعبد الامين لا يصل بها الى هدفه، بل يشرئب عنقه الى هـدف اكثر جدة ، وأعمق روحانية ، فيسير في رحلته فارحاً مغبوطاً.« نعما أيها العبد الصالح والامين . كنت أميناً في القليل فاقيمك على الـكثير ». اقيمك على خمس من المدائن ، وعلى عشر من المدائن . هذا هو جزاء الله: ليس ان نجلس خاملين هادئين في السماء كما يفعل موظف الحـكومة مثلاً عند ما يُحال الى المعاش، بل ان نثابر فيخدمة خالدة لا تعرف الكلال أو الملل، يتجدد شبابها ونشاطها، خدمة لخير الآخرين. فتذوب النفسحنيناً نحو الغير لاسعاد عالم الله وخيره . هذا هو فرح الرب الذي يتذوقه كل من يستخدم مواهبه ، فرح الخدمة المجردة عن الهوى ، المنزهة عن الغاية ، من دور الى دور ، والى نهاية الدهور .

الفصل السابع

تعاليم الطريق

المحكمة العليا

في كل التعاليم التي بقيت لنا من « ذكريات الطريق »، قد نسجت فكرة عن العالم الازلي الخالد ، وقد أحاط بعالمنا هذا كما يحيط الماء باليابسة . ففي أمثال لعازر والغني ، والغني الغبي ، والعذارى ، والوزنات ، وفي غيرها نحس كأن يداً تمسك بنا لتأخذنا الى العالم المجهول وراء الستار . ويسوع يرفع هذا الستار لنظفر بلمحات خاطفة في الافق البعيد، ونرى أنفسنا كأننا في كون عظيم فسيح يتلاقى فيه العالمان. وأبهى من هذا كله الصور التي رسمها عن الدينونة. وفيها يرى الناس الحياة البشرية وقد أحاط بها الخلود، فيقررون مسالكهم ومناهجهم بالتلويح دوماً الى أحكام الله النهائية .

ولم يلقَ تعليم آخر من تعاليمه ما لقي هذا التعليم من تغوّر الى ضمائر السامعين . لانه ما من انسان حي الشعور ، مسيحياً كان أو غير مسيحي ، تخامره ريبة في نوع ما من أنواع الدينونة النهائية . وانت تستطيع ان تتحدى الوثنيين والكافرين، الذين يرتابون في كل شيء آخر في الكتاب المقدس — تتحداهم لعلهم ينكرون العقيدة القائمة على دينونة الاعمال التي يأتيها الانسان في الجسد ، فلا يستطيعون الى ذلك سبيلاً . لماذا ؟ لان لهذه العقيدة أثراً في النفس أبعد غوراً وأعمق أصلا من الكتاب المقدس نفسه . هي عقيدة قد نسجت خيوطها في كياننا الادبي كله. فالضمير الذي أودعه الله فينا يوحي الينا بأنها ضرورة لازمة . والمنطق السليم، والعقل السليم ، حتى في أوضاعه الفجة، يحدثنا لن النهاية سوف لا تكون واحدة لهيرودس ويوحنا المعمدان ، لايزابل الشريرة ومريم في بيت عنيا ، للآب دميان الذي بذل حياته لاجل البرص ونبوليون الذي خاض في بحر من الدماء ليستوي على عرشه ! !

ويقول الضمير : « هذا ما ينبغي ان يكون ». ويضع يسوع على هذه العقيدة صك التأييد فيقول : « وهذا ما سيكون » . فالذين عملوا الصالحات يذهبون الى قيامة الحياة ، والذين فعلوا السيئات الى قيامة الدينونة . وهــذه حقيقة لا يتسرب اليها شك من أحد جوانبها. ولسنا بحاجة الى التبسط في التفاصيل كأن نأخذ مثلا بمعنى حرفي صورته التمثيلية التي رسمها لنا عن العرش الابيض وقد اجتمعت حوله كل الاجناس البشرية . وكل ما يهمنا في الامر انه — سواء في يوم أو في جيل ، سواء في لمح البصر أو في تطور بطيء تدريجي نحو اليمين أو اليسار — سيكون يوم ما للدينونة ، كما يقول الضمير، وكما يقول المسيح ، يوم تفرز فيه الانفس البشرية .



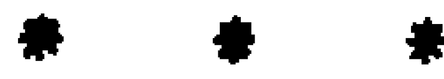
وهنا يعترضنا سؤال : على أي أساس ستكون هذه الدينونة ؟ ويسارع الضمير هنا ايضاً الى اعطاء الجواب ، كما يسارع الذي وهبنا الضمير الى تأييد الاجابة : « ستكون الدينونة بحسب الاخلاق » — وسيكون السؤال في ذلك اليوم : « ماذا صرت ، وكيف تطورت؟أصرت سمكاً جيداً أم رديئاً،من الخراف أم من الجداء،من الحنطة أم من الزوان؟». هذا هو تعليم المسيح الذي لا شك فيه . فالله في الابدية سوف يدين كل انسان على مقتضى الحالة التي وصل اليها في تطوره الاخلاقي ، ليس بحسب الظواهر أو آراء المهن أو العقائد أو المتشبثين بالحرف ، بل بمقتضى كياننا الحقيقي وما بلغنا من تشبه بالمسيح أو تباعد عنه .

وهنا ينبغي ان تسمو افكارنا عند التفكير في معنى التشبه بالمسيح . فان دينونة يقوم أساسها على التشبه به ستطوح بكثرة الناس الى مهواة اليأس، لولا تلك الحقيقة الهللة الرائعة التي سيشعُ علينا نورها في الفصول المتأخرة من هذا السفر . ومنها يتضح ان الانسان لن يقدر ان ينال من حياة المسيح نصيبه الذي سيبدّل كيانه الداخلي ، ويخلق فيه قوة لبلوغ مستوى التشبه بالمسيح الذي تتطلبه الدينونة — لن يقدر ان ينال هذا هبة مجانية بجدراته واستحقاقه ، انما عن طريق القاء نفسه بين أذرع محبة المسيح والاتكال عليه .

اذن ستكون هذه الدينونة أخطر من مجرد سؤال يلقى علينا — كأن يُقال : « أتؤمن بالرب يسوع المسيح ؟ » والايمان به أهم شيء لدى أي انسان ، لانه أسمى قوة في الكون تعمل على تجديد القلب ونبل الحياة. على ان السند هو هذه الحياة النبيلة بالذات. ومع ان

هذا السؤال هو أهم ما يلقى على امرىء في حياة الارض، فاني أشك في ان يوجه الى انسان يوم الدينونة سؤال كهذا : أتؤمن بيسوع المسيح ؟ وذلك لان المحك الاخير هو هذا : ماذا فعل هـذا الايمان بك ؟ وماذا صرت أنت ؟ — ومن غريب الامر ان السيد وقد تحدث كثيراً عن هذا الايمان به والاتكال عليه ، لم يلمح اليه قط في معرض حديثه عن الدينونة. أما المقياس فهو ما صار اليه الانسان — أمحب هو أم جحود ؟ أحنطة أم زوان؟ أمن الخراف أم من الجداء ؟

وأرجو ألاّ يسيء أحد فهم ما أقول . كما أرجو ألاّ يضطرب تلميذ خائر العزم وهو يفكر في الدينونة التي يدينه بها الله اليوم . لا تخافوا. فالدينونة لن تجيء قبل ان تتأهبوا لها . والله يرى اتجاه كل حياة، وهو يديننا اليوم ليس بحسب ما وصلنا اليه ، بل بحسب ما نحن صائرون اليه . والذي يديننا يُعنى بأمر خيرنا الابدي اكثر مما نُعنى نحن بنفوسنا .



وهذا يجيء بنا الى فكرة خطيرة أخرى: وهي ان الدينونة ليست مجرد حادث في المستقبل . بل هي آخذة في سيرها اليوم . وكل يوم تتشكل ، وكل يوم تتطور أفعالنا فتصبح عادات فينا ، وتصير العادات أخلاقاً، والاخلاق تقرر مصيرنا الابدي الخالد. وفي كل يوم نتطور الى اعتناق طرائق من الفكر والشعور، في محبة أو كراهية أشياء معينة، في الاعتصام بالله والحق في حياتنا أو التراخي في هذا . نحن هنا نتشكل ونُصاغ لنكون أما على اليمين أو على اليسار .

ولا يؤخذ من الكتاب المقدس ان الله نفسه ينتقل من مكانه ليضعنا على يمينه أو على يساره . بل نحن نعيّن المكان لأنفسنا . ولنأخذ لذلك قطيعاً من الاغنام والخنازير ترعى معاً في مرعى واحد. واذ يجيء المساء تذهب الخراف من تلقاء نفسها الى حظائرها، وتذهب الخنازير من تلقاء نفسها الى زرائبها. فالذين تلمسوا المسيح في حياتهم على الارض سيكونون الى جانب واحد، لانهم اختاروا بأنفسهم ان يكونوا من صنف واحد . والذين عاشوا للذات وللخطية سيكونون ايضاً في جانب آخر لانهم بمحض اختيارهم أرادوا أن

يكونوا من صنف آخر. ففي كل يوم نتطور ونتشكل، لنكون اما على اليمين أو على اليسار، يوم نقف أمام محكمة الديان العليا .

* * *

ولكن يسوع ينبئنا عن شيء آخر غير مبادىء الدينونة. ينبئنا عن ذلك الشيء الذي ينزع من رهبة الموقف كل خوف وجزع . لان ابن الانسان نفسه سيكون ديانا . وهو الذي يفهم ضعفاتنا، ويحبنا، وقد مات عنا على الصليب. وهو الذي لا يشاء ان يهلك أحد منا . فهو ليس قاضياً يبحث ويحقق في برود وعـدم مبالاة ، بل هو الاخ الاكبر ، الانساني الالهي ، وهو الذي في كل صلاته بالانسان قد استخرج منه أفضل ما فيه ، ورجا له خير ما عنده . وقدّر أضأل بصيص من الخير في وسط يعجّ بالشرّ ، هو الذي يرى الباعث الصالح وراء العمل الخاطىء ، ويفطن الى أحزان القلب البشري وندامته ووخزاته ، في حين لا يرى سواه غير الفشل والخطية . ارقبوه وهو يرسم صورة الدينونة . يبحث وينقب عن الاعمال الصغيرة التي نسيها أخيار الناس « يا سيد متى رأيناك جائعاً . . . . . » .

« نحن نؤمن انك ستأتي لتكون ديانا » ! !

الفصل الثامن

في اورشليم للمرة الثانية !

هذه هي بعض التعاليم البارزة في ذكريات الطريق .

والآن قد حلَّ شهر ديسمبر ، من سنة ٢٨ ب . م — وكان قد مرَّ شهران على طرده من اورشليم في عيد المظال . و بعد ان قضى شهرين في التجول أدت به خاتمة المطاف مرة أخرى الى خط النار ، الى بيت لعازر ومرثا ومريم . وكان الوقت عيداً في اورشليم ، هو عيد التجديد لاحياء ذكرى الجهاد القومي الذي فاز فيه اليهود قبل مائتي سنة بزعامة بطلهم يهوذا المكابي . وكان النير الروماني في ذلك الوقت يحزّ في اعناقهم ، وكان بينهم أبطال وطنيون اشتركوا اكثر من مرة في ثورات العصيان ضد رومية . وها هو بين ظهرانيهم « مسيا » محاط بالغموض والابهام فلم يكن بد من ان يتحدث الناس عن يسوع و يفكروا فيه .

وفي هذا الصدد يقول يوحنا : « وكان عيد التجديد في اورشليم ، وكان شتاء . وكان يسوع يتمشى في الهيكل في رواق سليمان » . وربما قد تجاسر على أن يدخل الهيكل في ذلك الصباح منفرداً على الرغم من مخاوف وجزع اهل بيت عنيا عليه . وكان عليه ان يحاول مرة اخرى دخول اورشليم حيث تجتمع الجماهير ايام العيد لعلهم يستمعون اليه قبل ان يدركه الختام .

نراه متمشياً في رواق سليمان ربما ليقي نفسه من زخّ الامطار . وهناك لمحه الوطنيون المتحمسون . فقالوا في انفسهم: أهذا نذير من السماء ؟ هل ظهر المنقذ فجأة في عيد التجديد؟ وهم لم تذهب ابصارهم الى ابعد من الفوز السياسي . ولم تجنح عواطفهم الى ما هو ارفع منه شأناً واجل قدراً .

— « هل أنت يهوذا مكابي آخر ؟ » .
— « الى متى تعلّق انفسنا ؟ » .
— « ان كنت انت المسيح فقل لنا جهراً ! » .

بهذه الاقوال احاطوا به . وهو المسيح فعلاً . ولكن ماذا يجديهم ان يقول لهم ذلك، وهم لا يطلبون إلاّ زعيماً للثورة . وهو لا يطمح الا في أمة نبيلة كريمة تسمو الى ملكوت البر والله . كانت ارادة الله نحو اسرائيل متجهة الى أمور اسمى من المطامع القومية الهزيلة. فما وجه الخير في أن تفوز أمة صغيرة ضالة عن الله بقوة سياسية تسيء استخدامها كما فعل الرومان انفسهم ؟ وماذا تنتفع أمة اسرائيل لو تسلطت على كل العالم وخسرت نفسها ؟

— « هل انت المسيح ؟ قل لنا جهراً ! » .

ولكنه يجيبهم في صبر كثير : « اني قلت لكم ولستم تؤمنون . لو كنتم خرافي ، ولو كانت قلوبكم تنبض برغائب وميول سامية ، لكنتم تعرفونني . حتى الاعمال التي اعملها باسم ابي هي تشهد لي» . ولسنا نعرف ما الذي تفوه به في حديثه معهم بعدئذ، غير انه قد افزعهم في نهاية الحديث بتصريح هائل عن ألوهيته في قوله لهم : « انا والآب واحد » .

بعد هذا صمت مذهل، يعقبه انفجار هائل، وجموع صاخبة مهتاجة تبحث عن الحجارة الكبيرة. وفي لحظة يقف المسيح وحيداً أعزل يواجه الموت . ونحن نذكر قصة استفانوس، ونعلم ان الموت يدنو متى هاجت الغوغاء في الشرق . وكأنهم بهذا الموقف قد حاولوا تعجيل يوم الجلجثة مرة أخرى . ولكن ساعته لم تكن قد حانت بعد . وفي هدوء واطمئنان يواجه الجمهور الصاخب والحجارة مرتفعة فوق رأسه .

— « اعمالاً كثيرة حسنة فعلت بكم ، بسبب أي عمل منها ترجمونني ؟ » .
— « نرجمك لاجل تجديف . لانك وانت انسان تجعل نفسك إلهاً » .

و بعضهم يرتاب في هذا العصر قائلاً ان المسيح نفسه لم يدّع بانه إله. وها هو الجمهور الساذج الممسك بالحجارة لم يخامره شك في هذه الدعوى التي افزعته واغضبته . وأحس القوم عندئذ ان به شيئاً استولى على عقولهم الحافلة بالخرافات والخزعبلات . لذلك القوا الحجارة من أيديهم واجتاز المسيح في وسطهم وخرج من المدينة للمرة الأخيرة . أما في المرة التالية فهو يمكنهم من نفسه ليفعلوا به ما شاءوا .

يذهب وهو شاعر بعطف المتألم حيال اورشليم . وفيما هو نازل من سفح الجبل الى طريق ضيعة بيت عنيا، يلقي نظرة الى الوراء على المدينة الجميلة التي أقصته عنها للمرة الثانية قائلاً : « يا اورشليم. يا اورشليم . يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليها . كم مرة اردت ان اجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا . هوذا بيتكم يترك لكم خراباً . لاني اقول لكم انكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب » . وقد صدقت هذه النبوة في يوم أحد السعف ، يوم دخوله اورشليم في موكب الانتصار .

ولما وصل الى ضيعة بيت عنيا هدأت القلوب الجزعة عليه، لانهم لم ينتظروا عودته حياً اليهم. ولم يطل به المقام في تلك الضيعة لانه تركها وخرج إلى البرية ليستعد لخاتمة الحياة . واذ يودعونه لم تحلم مريم ومرثا ان حزناً عظيماً سوف يخيم بأجنحته على ذلك البيت السعيد، وانهم سيشعرون بحاجتهم الى السيد قبل أن يروه ثانية .

يقول السفر المقدس انه مضى الى عبر الاردن ، الى المكان الذي كان يوحنا يعمد فيه أولاً . وهناك أيضاً التفت حوله الجموع قائلة : «ان يوحنا لم يفعل آية واحدة . ولكن كل ما قاله يوحنا عن هذا كان حقاً » . وآمن به كثيرون هناك . وها هو يعود الآن الى المكان الذي بدأ منه حياته العملية ، المكان الذي هبطت عليه فيه حمامة السماء . وهناك حدثت ايضاً في هذه المرة احداث خطيرة . وقيلت عنه أقوال كبيرة . لا يمكننا تبويبها إلا بطريق الحدس والتخمين :

ففي ذات يوم ، وفي مجمع ريفي، اضطر الى ان يواجه ، كما واجه في الجليل ، قوماً من المتعصبين للسبت ممن افسدوا الغرض من العطلة المباركة التي هيأها الله للانسان . وكان بين الجمع امرأة بها روح ضعف ثماني عشرة سنة . وكانت منحنية مصابة بتصلب في المفاصل فلم تقدر ان تنتصب البتة. ولما رمقته بعينيها المفكرتين دعاها يسوع اليه ، ووضع عليها يديه، ففي الحال استقامت ومجدت الله . وهنا احتج ، في حنق وغضب ، الاحبار والشيوخ ذوو الافهام البليدة . فنظر اليهم يسوع نظرات ملؤها الغيظ قائلا : « أيها المراؤون . الذين تقولون ما لا تفعلون . ألا يحل كل واحد منكم في السبت ثوره أو حماره من المذود ويمضي به و يسقيه ؟ وهذه وهي ابنة ابراهيم قد ربطها الشيطان ثماني عشرة سنة ، أما كان ينبغي

ان تحل من هذا الرباط في يوم السبت؟ ». وعلى الرغم من التعصب الكامن في قلوبهم اهتزت نفوس الجمع عطفاً عليه، وفرح بجميع الاعمال المجيدة التي أتاها بينهم .

وفي يوم آخر تحدّوه في مشكلة الزواج فأعطاهم ذلك التصريح الخطير الذي ظل مدى الاجيال حائلاً قوياً ضد الطلاق والحياة السائبة : « من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته . ويكون الاثنان جسداً واحداً . فالذي جمعه الله لا يفرقه انسان » .

ومرة أخرى جاءه عالم من علماء الشريعة بنيّة منطوية على الشر والخبث فقال له : «ماذا أعمل لأرث الحياة الابدية ؟ .. » فوضع أمامه الدين كله في عبارة واحدة : « تحب الرب إلهك من كل قلبك. وقريبك كنفسك». ولكنه إذ أراد ان يبرر نفسه سأله قائلاً . « ومن هو قريبي ؟ ». وقد تسلمنا جواباً على هذا السؤال ، تراثاً مجيداً خالداً يشرح لنا اخوة الانسان في مثل السامري الصالح .

وفي يوم آخر كان يتعشى في بيت فريسي . وكان الضيوف قوماً اعتزوا بالطبقة التي ينتمون اليها. وأخذوا يتحدثون فيما بينهم عن أهمية العشور والطقوس وغسل الايدي قبل الطعام وما الى ذلك . أما يسوع فقد تغوّر كعادته الى جوهر الامر . فقال لهم ان هذه الامور حسنة صائبة متى كان وراءها الدين يسندها . ولكن بعضكم ممن يراعون هذه الطقوس بدقة يتجاوزون عن أمور أخطر شأناً تمسّ جوهر الناموس. ولا يعبأون شيئاً بالبر ومحبة الله . كان ينبغي ان تعملوا هذه ولا تتركوا تلك .

* * *

ويذكر لوقا البشير في سجله جملة من هذه الحوادث التي يضيق بنا المقام عن سردها كلها بالتفصيل . ولكننا نفسح المجال لحادثة واحدة هي التي يدعوها دانتي الشاعر الايطالي : « الرفض الاكبر » ، وهي قصة ذلك الشاب الغني الذي مضى حزيناً .

هو شاب من طراز الناس الذين كان يسعى المسيح اليهم ليظفر بهم . شاب بقلب طيب صالح يسعى جهده الى الحق . وكان فريسياً متديناً زعيماً في جماعته ، ورئيساً في المجمع. وهو من عينة شاول الطرسوسي يعتصم بالناموس، ولكن في نفسه رؤيا كامنة تنبىء عن مصير آخر في المستقبل، أشبه بتلك الرؤى التي تجوس خلال أحلام شبابنا . في ذات

يوم جاء هذا الشاب الى يسوع بروح الوقار والخشوع . وجثا عند قدميه وسأله قائلا : « أيها المعلم الصالح ماذا اعمل لأرث الحياة الابدية ؟ » .

ونحن لا يسعنا إلا الميل بانعطاف نحو ذلك الانسان . هو شاب والشباب دور الآمال والمطامح . هو أمين مخلص وفي نفسه مُثل عليا ومبادىء سامية . وحالاً مال اليه قلب يسوع بعد إذ رأى أشواق نفسه واخلاصها وقوتها وضعفها . وكطبيب ماهر يعالج هذه الحال الخاصة بعلاجها الخاص — « لماذا تدعوني صالحاً. ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله . ولكن ان أردت ان تدخل الحياة فاحفظ الوصايا » .

يا لها من خيبة أمل مرّة! هذا ما كان يفعله الشاب منذ سنوات. كان خاضعاً لدقائق الناموس وأحكامه التفصيلية ، متمماً الظواهر الخارجية ، ساعياً جهده لارضاء نفسه . فهل هذا كل ما نسمعه من ذلك النبي العظيم ؟ !

— يا سيد هذه كلها حفظتها منذ حداثتي . فماذا يعوزني بعد ؟ » .

وقد عرف يسوع ان ذلك الشاب كان يجاهد ويصارع . وعرف سرّ حيرة نفسه . ولم يمل قلبه الى سائل آخر كما مال اليه . نظر اليه وأحبه وقبّله في جبهته . ثمة شيء واحد يشبع أشواق نفسك . ان أردت ان تكون كاملاً مرتاح البال ، فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء وتعال اتبعني ! . .

ولم يكن هذا القول بالطبع مقصوداً به جميع الناس . فانه طبيب النفوس الماهر يعطي النصيحة الخاصة التي تفتقر اليها النفس بحسب حاجتها الخاصة . ويسوع هنا كاخصائي في علم الامراض الروحية يعالج حالة نفسية خاصة . يعالج نفساً غيورة جديرة بامتحان يتفق مع غيرتها وكبرها: اترك ثروتك ومكانتك المكرمة في العالم، وتعال ألق بنفسك في زمرة اتباع فقراء موالين لانسان فقير ليس له أين يسند رأسه. انها لمخاطرة كبيرة جريئة. ولكن جزاءها الصداقة مع ابن الله. وربما فكر فيه يسوع ساعتئذ ليكون أحد الشعبة الرسولية . فلو فاز الشاب الغيور المتحمس في هذا الامتحان الخطير، لكان ذلك بداية رجولة نبيلة باسلة. ومن يدري لعلّه يكون أنبل الرسل جميعاً .

كان عليه ان يفصل في أمره بنفسه. ولم يكن يحلم قط ان أعين العالم ستتجه في المستقبل

الى هذا القرار الذي اتخذه. راقبه يسوع. وكانت الفرصة ازمة في حياته. أيقبل هذه الدعوة؟ في لحظة خُيِّل الى الناظر اليه انه سيقبل، وتلمّعت امام عينيه أومضة من الآمال الكبار ولكنه يقف — ويفكر — ويتردد — ثم يفشل ! ويجد نفسه امام شيء ما اعظم في نظره من مَثله الاعلى ورغبات قلبه السامية. عندئذ ينطفىء بريق النور في عينيه «ويمضي حزيناً لانه كان ذا أموال كثيرة» .

مضى حزيناً . واحزن قلب يسوع ، كما فعل كثيرون منا مدى العصور والاجيال . ويوماً ما ، حين نعرف كما عرفنا ، ستكون اشد آلامنا اننا خيَّبنا أمله فينا مرات كثيرة. ولم نسمع شيئاً بعد ذلك عن الشاب الغني . وربما سِيق بسبب هذا الرفض الى حياة الخطية والطيش كشاب غني . أو ربما يكون قد عاد الى يسوع قبل نهاية حياته .

ولكننا نعرف شيئاً واحداً ان ذلك الشاب لن يمكن ان ينسى تلك اللحظة الخطيرة في حياته . ونعرف شيئاً آخر ان يسوع لا ينسى الى الابد ذلك الشاب الغني الذي أحبه وقبّله في جبهته .

وهكذا يتتبع لوقا يسوع، ويسرد في روايته الحوادث والتعاليم خلال ذينك الشهرين اللذين قضاهما يسوع في عزلة حتى يأتيه ذات يوم خبر مفاجىء يحمله رسول قادم على جناح السرعة من الاختين في بيت عنيا قائلاً : «يا سيد هوذا الذي تحبه مريض» .

الفصل التاسع

الميت يقوم !

اذا رجعنا الى الوراء وتأملنا تطورات حياتنا ربما ألفينا احداثاً تافهة الشأن كان لها خطورتها في النتائج التي ترتبت عليها. ونحن يصعب علينا ان نحكم فنقول : هذا عظيم وذاك حقير في حياتنا . ففي ذات يوم بينما كان المسيح في خلوة هادئة على ضفاف نهر الاردن تلقى رسالة عاجلة من الاختين في بيت عنيا تنبئه : « يا سيد ان الذي تحبه مريض» . ولم يكن لهذه الرسالة الا أثر ضئيل في نفوس التلاميذ. وربما أسفوا الى حين، غير انها لم تبدُ في نظرهم على شيء من الخطورة . ولكنهم بعدئذ عند ما عادوا إلى الوراء بخيالاتهم رأوها بمثابة دعوة الى الجلجثة .

وقد عرف يسوع حين جاء الرسول ان لعازر مات . ولكنه بقي في مكانه هادئاً يومين مستمراً في اعطاء تعاليمه الاخيرة الى العالم . ولكان لعازر لم يبرح من ذهنه طيلة هذه المدة التي كان يستوحي فيها الارشاد الالهي . وكان قد أزف الوقت ليذهب إلى الآب . فليعمل حادثاً غريباً يبهر أنظار اورشليم المتكاسلة البليدة قبل ان تطوى آخر صفحة من حياته.

وفي صباح اليوم الثالث أيقظ التلاميذ قائلاً : « لنذهب إلى اليهودية أيضاً » .

« إلى اليهودية أيضاً ! يا معلم الآن كان اليهود يطلبون أن يرجموك وتذهب أيضاً إلى هناك» . فاجابهم: «ساعات النهار اثنتا عشرة التي ينبغي على الانسان ان يعمل فيها. والانسان خالد ما دام الله قد أعدّ له واجبات يعمل فيها. لعازر حبيبنا قد نام وانا أذهب لاوقظه ».

— « يا سيد . ان كان قد نام فهو يُشفى ! » .

— «لعازر مات . وانا أفرح لاجلكم اني لم اكن هناك لتؤمنوا. والآن لنذهب اليه».

ذهبوا معه على مضض وفي تمنع ، وكانوا يخافون على حياة سيدهم . ولذا نسمع توما المخلص البائس يقول : « لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه » .

وهناك في قرية بيت عنيا، ابان فصل الربيع النضر ، نرى امرأتين حزينتين تبكيان عزيزاً قضى . وفي بستان البيت أزاهير يانعة زاهرة ، وأطيار طروبة مغردة . ولكن في « البستان قبراً » ، وكان عالم الله المتألق غبطة وبشراً ، يهزأ بآلام الاختين الباكيتين ، وكأن الطبيعة كلها لا تعطف ولا ترثى، فكل شجرة مخضرة ، وكل سياج مورق ، وكل عصفور مغرد، وكل زهرة مفتحة — كلها تنبىء عن الحياة . أما لعازر فقد مات ! ويسوع وحده هو الذي يقدر أن يعلم الباكين النائحين أمثولة الربيع التي تعرفها النفوس العاقلة الكريمة في العالم الآخر ، الامثولة القائلة ان الشتاء يعقبه دائماً الربيع ، وان الموت معناه الميلاد إلى حياة اكثر سعة وأوفر خصباً .

أما الاختان فلم تشذا عن الطبيعة البشرية . فهناك مريم تبكي في غرفتها المظلمة تحيط بها أفكار محيرة مربكة . وكان قد جاءها الرسول حاملاً قولة غريبة « هذا المرض ليس للموت بل لاجل مجد الله». ومع ذلك فلعازر قد مات وانتهى! أما مرثا العمليةفكانت تعنى بشئون الضيوف الذين جاءوا لمشاركة الاسرة في مصابها وتعزيتها في آلامها. وبغتة يجيء بعضهم وينبئها ان يسوع قادم . فلم تتمالك المرأة الهادئة الصامتة نفسها وهرولت للقائه في الطريق خارج القرية . وهناك تسكب عصارة قلبها أمام أعز اصدقاء أخيها .

« يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخي » !

— « مرثا . سيقوم أخوكِ ! » .

وأنت تقرأ بين ثنايا سطور القصة ان هذه الاجابة قد خيبت كل أملها، اذ ظنتها كالتعزيات المبتذلة التي سمعتها طول اليوم . فنسمعها تقول : « أجل . أنا أعلم يا سيد انه سيقوم فياليوم الاخير ». وكأنها تقول بعبارة أخرى : ليس في هذا شيء كثير من العزاء لانالامد طائل— ومتى كنا أمناء مخلصين لا يسعنا الا العطف على مرثا في هذا الشعور . فقد لا يكون فيه شيء من الدين ، ولكنه شعور بشري على أية حال . لان القيامة في اليومالاخير لا تعزينا متى تلقناها كما نتلقنها عادة—حقيقة معزولة متباعدة عنهذهالحياة، لا شيء بينهما . ونحن نعتقد انها أزمة غامضة خطيرة في قصة حياتنا المستقبلة، يوم تنهض حياة الروح غير المنظورة الىطور مناطوار الحياة اكرم وانبل . ولكننا بشر صغار لا بد لنا منشيء يعيننا في هذه الفترة الطويلة الهائلة . واذا كان لعازر قد مات فليس ثمة تعزية

لاخته ان تعلم انه سيحيا في يوم بعيد في المستقبل . أما يسوع فلا يشير في كلامه إلى يوم المستقبل البعيد . لعازر حيّ الآن في عالم الروح . حياته مستمرة لم تنقطع . ولن يموت «لاني أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا ». والحياة في تماسّ مع الله خالدة. أما الحياة المنفصلة عن الله فلا يذكرها هنا بشيء لان الحياة منفصلة عنه لا تسمّى حياة البتة. لعازر حي وسيعود الآن ليُظهر هذه الحياة .

تحار مرثا وترتبك لانها لا تفهم كل هذا — ولكنها تؤمن تماماً بيسوع فتتكل اليه كل حيرتها قائلة : « نعم يا سيد . انا قد آمنت انك أنت المسيح ابن الله الآتي الى العالم ».

* * *

والآن تسرع مريم الى لقائه بنفس الصرخة المنبعثة من القلب الكسير المجروح — وهي نفس الفكرة التي امتلأ بها خلدا الاختين منذ يوم الوفاة — « يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخي ». ولكن شيئاً في مظهره يرهبها و يسكتها — نظرة اضطراب ، واجهاد نفسي، وثورة داخلية : « انزعج بالروح واضطرب » . وعند القبر يرى في نفسه هذا الاضطراب الروحي . وفي طريقه إلى القبر يرى الدموع تترقرق في عينيه .

لسنا ندري معنى هذا البكاء. ولا يستقيم المعنى لو عللنا ذلك بحزنه حيال آلام سيعمل الآن على إزالتها ورفع كابوسها. ربما كان بكاؤه بسبب تمنعه واحجامه في اعادة صديقه— حتى ولو كان ذلك لقصد عظيم — الى شقاوة هذا العالم الخاطىء ! وربما كان بكاؤه لان معجزاته لم تجرَ عادة بمجرد كلمة قوته، بل كانت بمجهود غامض عنيف—ببذل نفسه كلها. ولما كانت هذه أعظم المعجزات، فانها تطلبت أعظم الاجهاد النفسي — ونذكر انه لما لمسته المرأة البائسة في كفر ناحوم أحس بقوة خرجت منه . ويحلو لنا ان نؤمن ان معجزاته لم تكن رخيصة ومجرد عمل من الاعمال. بل كلفته نفسه. بذل قوته ليعطي حياة للآخرين. فهو قد بذل نفسه ليس على الصليب وحسب، بل كان يبذلها كل يوم طيلة ايام حياته.

وعندئذ كان الجمهور المحتشد في البيت قد التف حوله —

— « أين وضعتموه ؟ » .

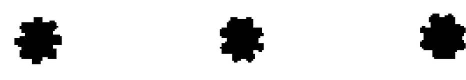
— « يا سيد . تعال وانظر ! » .

والظاهر ان لعازر لم يدفن نظراً لمكانته في مدفن عام، بل في قبره الخاص «في البستان»

وهو المكان المحبوب لمثوى الموتى . فاقتادوا يسوع الى البستان وسط ازهار الربيع اليانعة . وربما لم يفكروا انهم بعد قليل سيدفنون يسوع هذا وسط أزهار الربيع « في بستان » ليس بعيداً عن ذلك المكان .

وقال يسوع : « ارفعوا الحجر » . وقد ارتاعت مرثا لئلا يهان جسد الميت في تعرضه للانظار . ولكنه اسكتها بكلمة اهتاج لها قلبها وقلوب جميع الحاضرين : « ألم أقل لك ان آمنت ترين مجد الله ؟ » .

وبعد شكر الآب علانية رنّت قوة كلمته القاهرة في ذلك القبر وفي عالم الارواح الذي كان فيه الصديق الراحل : « لعازر هلمّ خارجاً ! » وعقب هذه الصرخة صمت هائل مريع انحبست فيه الانفاس هلعاً وانتظاراً . وخلال ذلك الصمت حدثت احداث هائلة في تلك الحدود غير المنظورة التي يلتقي عندها العالمان . والذي كان ميتاً خرج خارجاً ملفوفاً في أكفانه فقال يسوع : « حلوه ودعوه يذهب ! » .



الى هنا تنتهي القصة. ويليق بنا ان نلقي نظرة، هنيهة من الزمن، على المسيح المنتصر الفائز، وعلى الميت الذي قام حياً بين ذراعي اختيه، وعلى الجمهور المشاهد وقد تولاه دهش عظيم ورهبة هائلة . ثم يسدل الستار ، ويتفرق الجمهور الحاشد ، ونمضي نحن لحال سبيلنا، مفكرين ، متعجبين ، وربما مرتابين . . .

والناس يرتابون قائلين : هل القصة صادقة ؟ وليس عيباً ان يرتاب الناس. فان القصة تتحدى ما في النفس من شكوك . ويتساءل الناس قائلين : لماذا سجل يوحنا وحده دون سواه هذه الحادثة الهائلة ؟ ولكن مثل هذا الاعتراض ينطبق ايضاً على اقامة ابن ارملة نايين — لماذا سجل لوقا الحادثة وحده ؟ ولماذا سجل متى ومرقس دون سواهما اقامة ابنة يايرس ؟ لسنا ندري. ولكن قد نقول من باب الحدس والتخمين فقط ان البشائر كتبت بعد حادثة قيامة المسيح نفسه من الاموات . وفي ذلك الوقت كانت الحياة في نظر صحابة المسيح قد امتلأت بالمدهشات المستغربة حتى لم يكن شيء ما في نظرهم غريباً . ونحن من ناحيتنا قد نظن ان إقامة لعازر يجب ان تكون ابرز حوادث الأناجيل . ولكن لا . فان

إقامة لعازر من الاموات ، وإقامة ابن الارملة ، من حوادث المرتبة الثانيـة، اذا قيست بالاحداث المدهشة التي وقعت بعد الصلب .

والآن لننظر الى الناحية الاخرى . متى وجدت نفسك في حالة يصعب معها تصديق حادثة ما، فربما يحسن ان تسأل نفسك: أيسهل عليَّ ان أسلِّم بعدم حدوثها ؟ فهل اختلق يوحنا هذه القصة المسبوكة اختلاقاً ؟ أم هي حلم من أحلامه أو خيال من خيالاته ؟ وهو قد ذكر فيها كل تفصيل دقيق كالرسالة التي تلقاها السيد وهو في البرية، وذهابه الى بيت عنيا ، ولقاء مرثا ومريم ، وجمهور النظارة واليهود ، وكثيرون منهم من عداة المسيح الذين يسهل عليهم تحدي القصة لو كانت مختلقة .

ويقول يوحنا انها الحادثة العلنية العظيمة التي أدَّت الى الصلب . فأيهما أهون : ان تعتقد ان القصة كاذبة ، أم ان تؤمن بان ابن الله الذي قام من الاموات، هو نفسه أقام لعازر من الاموات ؟

* * *

ثم لايسعنا هنا الاّ ان نفكر في لعازر أيضاً . ونحن في حضرة المسيح الفائز المنصور عند القبر لا يسعنا اغضاء الطرف عن لعازر نفسه . وكم كنا نود ان نعرف شيئاً ما عن حياة القوم الذين عبروا وادي الحياة مع يسوع. وكم كنا نود أن نعرف الكثير عن لعازر خاصة، لعازر الانسان الذي ذهب الى العالم وراء القبر ثم عاد منه ثانية . ترى كيف وجد ذلك العالم ؟ ولماذا لم ينبئنا عن العالم الذي صوره لنا يسوع في قصة الغني وأرانا اياه عالماً يبقى فيه شعورنا وأحاسيسنا وأفكارنا وذكرياتنا ؟ لماذا لم ينبئنا لعازر وعنده الخبر اليقين؟ ربما لم يكن لديه شيء ما يقوله . وربما بعد صراع الموت وجهاده توجد فترة قصيرة من الراحة لا يعرف فيها شيء ، يستيقظ الانسان بعدها منتعشاً كطفل يصحو في الصباح . او ربما كان متعذراً عليه في ذلك الاختبار القصير المذهل أن يحصر أفكاره ويرتبها ، او أن يجد من الالفاظ البشرية ما يعبر به عن هذه الافكار . لنفرض ان أعمى اصم — في عالم من العمي والصم — استعاد فجأة بصره وسمعه ساعة من الزمن، ثم عاد الى سابق عهده. فماذا عساه أن يقول لزملائه ؟ وماذا عساه أن يدرك مما حوله ؟ اغلب الظن أن الرجل يذهل فلا يستطيع

ان يعبّر عن نفسه . واذا حاول انباء الآخرين بما رأى و بما سمع فانه يتعذر عليهم ادراك ما يسمعون أو تصوّر ما يقال لهم. فالأعمى لا يقدر أن يميز الالوان والأصم لا يدرك شيئاً من انغام الموسيقى مهما قلنا وأسهبنا في القول. ونحن عمي صمّ في عالم الله . فاذا اجتاز أحدنا إلى ذلك العالم حيث تتفتح أعين العميان وترهف آذان الصم، فانه يصعب عليه في بادىء الامر ان يدرك ما حدث ، وأصعب أن ينبىء الآخرين بما رأى و بما سمع فيما لو عاد إلى عالم الأرض مرة أخرى .

وأتصور لعازر انساناً قد هاله وأذهله النور الذي شعّ عليه لحظة من الزمن . ولا شك في أنه قضى بقية حياته بعد عودته إلى الأرض هادئاً صامتاً، وفي عينيه نظرات بعيدة كانسان قد حلم حلماً غريباً لا يستطيع أن يستذكره .

وهنا قد انبأ يسوع أن الموت ليس نهاية كل شيء . و بقي درس واحد أعلنه يوم قام مسيح الله نفسه من الأموات ، وأنار طريق الحياة والخلود ببشارة الانجيل .

الفصل العاشر

خير ان يموت انسان عن الشعب

استمر الرعب ، وخيّم السكون ، على ذلك الجمع الذي وقف عند قبر لعازر . جمدت أحاسيسهم وهم وقوف على أبواب العالم غير المنظور . وكما في حلم يرون يسوع ينصرف عنهم ، وكما في حلم أيضاً يمضي كلّ منهم لحال سبيله وكأن على رأسه الطير . والالفاظ في هذا المقام تعجز عن كل بيان .

«آمن كثيرون» . وكانوا قد ارتابوا وتعجبوا ، وخافوا من الـكهنة ، وخشوا عواقب الثورة التي قد يثيرها يسوع هذا . أما الآن ، فلا الـكهنة ولا رجال السياسة يستطيعون كبح جماحهم . « ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات إن لم يكن الله معه » .

ولـكن المؤرخ يضيف إلى ذلك أن بعضهم انصرف حانقاً وأسرع إلى الفريسيين لينبئهم بما فعل يسوع . وهنا نستعيد إلى الذكر انذاره المريع في قصة لعازر والغني: « ولا ان قام واحد من الأموات يؤمنون » .

وان كان ثمت شيء يخجلنا من انسانيتنا المشتركة ، ويبرز لنا شرّ العالم وصبر الله ، فهو سوء المعاملة التي لقيها يسوع من العالم . والعالم يفعل بيسوع الآن ما فعله به أهل أورشليم يومئذ . ويرسم البشير يوحنا صوراً متتابعة ، مصغرة ، لبيان ذلك : فهو قد أعلنه نور العالم والظلمة لم تدركه ، وراعي الخراف فلم يسمعوا صوته ، وحياة الناس وهم يباعدون بينه وبين أنفسهم حتى لا تـكون لهم حياة ، ومحبة الله وبسبب هذا يزداد بغضهم له ، والحق الذي يطلق الناس أحراراً وهم يختارون أبا الاكاذيب ، والآن حين يجاهر بانه القيامة والحياة يأتلفون معاً للقضاء عليه .

وفي ساعة من الزمن تلقّى رؤساء الفريسيين النبأ . وقبل حلول الليل كانت أورشليم كلها تضطرب بهذه الانباء . فاهتاج الشعب وغدا الموقف جدّ خطير . وخيل الى الناظرين أن

هذا الحادث سيشعل نار الحماس في الشعب، فيساق الى ان يحمل يسوع الناصري ويتوجه ملكا في نصر عظيم، ويزيح النير الروماني.

وكان ضرورياً ان يُستدعى مجلس السنهدريم على عجل. فاجتمع تلك الليلة في دار قيافا رئيس الكهنة. ولم يكن قد طرأ على اورشليم منذ سنوات أزمة حادة كهذه، فحضر جميع شيوخ السنهدريم. وكان الخوف قد ملأ كل نفس خشية ان تشعل نيران ثورة شعبية وعلى رأسها يسوع في ذلك الظرف الدقيق الذي اجتمع فيه كل الشعب اليهودي في عيد الفصح. وعندئذ تحل الطامة الكبرى، وتنفث رومية القوية سموم انتقامها فتنهار سلطة رجال الدين ويحرمون تلك الخيرات الوافرة التي كانوا بها ينعمون.

وأنت ترى في هذا المجلس وجوهاً مضطربة، مرتابة، حائرة. وجوهاً قد علتها صفرة الخوف الممتزجة بالغضب: «ماذا نحن فاعلون؟ هذا الانسان يعمل معجزات كثيرة. وزمام الشعب يفلت من أيدينا. فان تركناه وشأنه يؤمن به الكل. وتلجأ جماهير الفصح الى التمرد والعصيان فتتوّجه ملكاً. وعندئذ يقوم الرومان فيدمرون هيكلنا وأمتنا».

اشتد الجدل والحوار في المجلس. وكلّ أبدى رأيه. ولم يكن ذلك الاجتماع للجدل، بل للعمل. ولم يكن في الوقت متسع للاخذ والرد. وهذا الانسان قد أمسى خطراً قومياً، صنع المعجزات أو لم يصنع.

ثم نهض رئيس الكهنة، وهو رئيس المجلس، من مكانه. وكان رجلاً غيوراً أسمر اللون، زعيماً للشعب، تدل سيماء وجهه على ذكاء وفطنة. نهض وقال: —

— انتم لا تدرون شيئاً. وليس إلاّ مخرج واحد من هذا المأزق. ألستم ترون انه خير ان يموت انسان واحد عن الشعب حتى لا تهلك الامة كلها. هذا الانسان يجب أن يموت!

«خير ان يموت انسان واحد عن الشعب» — والبشير يوحنا يقتبس هذه العبارة في لباقة. وكأن رئيس الكهنة قد تنبأ وهو لا يدري ان يسوع هذا سيموت عن الشعب، وليس ذلك الشعب وحسب، بل عن كل أولاد الله المشتتين في كل أنحاء العالم.

هذا هو القرار النهائي الذي عقدت عليه النية: يجب ان يموت يسوع في غير ابطاء، سواء أكان ذلك باغتياله سراً أم بمحاكمته قانوناً — خير الهيئة الدينية وخير الامة يقتضيان هذا.

وبعد اربعين سنة من ذلك التاريخ، تعلّم الشعب اليهودي بعد ان قاسى هول الحصار المريع الذي لم يبق عليهم ولم يذر — ذلك الدرس القاسي الذي تفتقر اليه كل شعوب الارض — ألا وهو انك لا تقدر أن تخلص الهيئة الدينية أو الامة بفعل الخطأ، وان الاخلاق السيئة المعوجة لا تصلح أن تكون سياسة صائبة سليمة. وذلك لان الله يسيطر على شئون الناس. وفي تلك القاعة، قاعة المشورة الشريرة الخاسرة، جلب رؤساء اليهود بقرارهم لعنة على شعبهم. وفي شرهم وخبث قلوبهم أجروا وهم لا يدرون مشيئة الله، بأن يموت انسان واحد عن الشعب، وان يبذل الراعي الصالح نفسه عن الخراف.

وكان عالم الروح يتعجب ذاهلاً وهو يرى ما يفعله الناس بسيدهم وربهم. والله في السماء قد صمت! . . .

من تلك الساعة حُكم على يسوع بالموت. ولكن كان على السلطات ان تسير في حذر. وهم لا يقدرون ان يقبضوا عليه جهرة. لان كل محاولة من هذا القبيل وسط حماس الشعب والتفافه حوله بعد إقامة لعازر من الاموات — ستعجل الثورة التي كانوا يخشونها. وقد هدأت حيرتهم قليلاً بعد إذ علموا ان يسوع اختفى عن الانظار. والظاهر ان ذلك القرار الخطير قد تسربت انباؤه. وهنا قد نفكر في نيقوديموس مرة أخرى، ذلك الشيخ العجوز الجبان، الذي لم يفتر شعوره الرقيق نحو ذلك النبي الشاب. فربما يكون قد أرسل اليه سراً منبئاً اياه بهذا القرار. ولذلك يهرع يسوع الى البرية، الى مكان يدعى افرايم لا نعرف بالضبط مقره، ليقضي مع تلاميذه في هدوء أسابيعه الاخيرة ويعدّ نفسه لخاتمة المصير. ولم يكن بدٌّ من الاختفاء الآن، لان كلاب الدماء كانت تتعقبه، وقد صدرت الاوامر بأن يدلّ عليه مَنْ يراه، ليذهبوا ويمسكوه.

ولو عرفنا موقع ذلك المأوى الخلوي الذي لجأوا اليه في جبال افرايم، لكان اليوم في نظرنا مزاراً مقدساً نحجُّ اليه. وأغلب الظن انه كان في ناحية من برية اليهودية على مقربة من المكان الذي وضع فيه برنامج حياته منذ ثلاث سنوات، يوم اصعد «الى البرية ليجرب من ابليس». وقد استطاع يومئذ ان يسترجع في خيالاته احداث الفترة التي أعقبت ذلك. ولا بد انه تذكّر قول الشيطان له: «لو سجدت لي واتخذت الطريق الهين! لوهبتك ممالك الارض وامجادها». والآن لو ارتضى ان يساير رغائب رؤساء الشعب ويتغاضى عن

شرورهم ولا يمس كرامتهم الكهنوتية، فليس ثمت داعٍ الى الصلب . ولكنه قد اختار الطريق الآخر وهو الآن يجابه الموت، وكان قد سبق ورآه، واختاره عن رضى: « نفسي ... ليس أحد يأخذها مني بل أنا أضعها من ذاتي » — هذه هي الايام الاخيرة الهادئة التي يتأهب فيها يسوع للصعود الى رابية الجلجثة !

واذ يقترب الفصح الذي يُقدَّم فيه حمل الله ، يثبت وجهه نحو اورشليم ليموت .

* * *

وألقِ نظرة هنا على صورة خيالية رائعة : المسيح كحاجّ بين الحجاج يسير فوق آكام افرايم « مثبّتاً وجهه » نحو اورشليم .

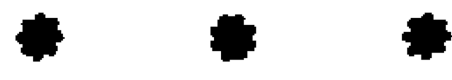
والعالم اليهودي كله يزدحم للقائه ، وهم لا يدرون . وكان عدد شعب اسرائيل المشتت في رقاع الارض يربو على الساكنين منه في فلسطين . وكلهم يحسبون أنفسهم منفيين ، غرباء عن أرض الوطن ، فكانوا يجتمعون معاً، ربوات فوق ربوات كل سنة في عيد الفصح . وأرقب عن كثب الجماهير المختلفة المتزاحمة من كل رقعة من رقاع الارض : بقايا السبي الذين بقوا في بابل ، والنازحين من المستعمرات اليهودية في الاسكندرية ، والتجار من رومية واليونان وآسيا الصغرى ، من كل ميناء من موانيء البحر الابيض المتوسط ، ومن كل بلد من بلدان العالم المتحضر — « فرتيون وماديون وعيلاميون والساكنون ما بين النهرين واليهودية وكبدوكية و بنتس وآسيا وفريجية و بمفيلية ومصر ونواحي ليبية التي نحو القيروان والرومانيون المستوطنون يهود ودخلاء كريتيون وعرب » — هؤلاء جميعاً تزاحموا معاً وهم لا يدرون ليشهدوا على مسرح الحياة اروع « دراماً » شهدها التاريخ .

الفصل الحادي عشر

نهاية الطريق

أوشكت الطريق الآن ان تصل بنا إلى آخر مراحلها . وقد عرف يسوع ان ساعته قد دنت ، وانه ذاهب إلى أورشليم ليموت، وكان عيد الفصح على الابواب . وتدل الدلائل على انه سوف يكون من اخطر الأعياد التي شهدتها عاصمة اليهود . لان الجماهير وقد تأثرت بما فيه الكفاية، تزايد الآن استفزازها بسبب اقامة لعازر من الاموات . ولم يكن للقوم من حديث في الطرقات ، وفي الاسواق، غير هذه المعجزة التي بهرتهم . وازدحمت طرقات قرية بيت عنيا بالغادين والرائحين ليشاهدوا القبر الفارغ ودار الرجل الذي عاد من الاموات . حقاً لقد افتقد الرب شعبه ، وجاء المسيا الذي سيطلق اسرائيل من قيوده !

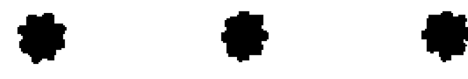
أما الحكام ، وهم لا يجرأون على انكار المعجزة ، فيبذلون الجهد لامتلاك قيادة الشعب . لانه إذا سرى هذا الاستفزاز في الجماهير القادمة من كل أجناس الشعوب، كان ذلك نهاية كل أمر . ورجاؤهم الوحيد الآن أن يختفي يسوع عن الانظار. وكان السؤال الدائر على ألسنة الاصدقاء والأعداء في أورشليم : « ماذا تظنون ؟ هل سيجيء في العيد ؟ » .



نعم سيجيء ! لو رأته عيونهم ! سيجيء ، ليس الزعيم الثائر الذي خشوا جانبه أو راموا دخوله في كبرياء القوة الى عاصمة ملكهم . بل ذلك الانسان الهادىء الصامت الوديع الذي تشع من عينيه انوار الأبدية وهو سائر منعزلاً في عالم خيَّب له كل رجاء . وههنا صورة رائعة يرسمها بطرس من ذكرياته كما لقنها إلى مرقس : « وكنا في الطريق صاعدين إلى أورشليم . ويتقدمنا يسوع. وكنا نتحير . وفيما نحن نتبعه كنا خائفين. وابتدأ يقول لنا عما سيحدث له » .

هذه صورة واضحة. فامامنا الجبل و برية افرايم، وجمع من التلاميذ الحيارى الخائفين. وقد سلطوا عيونهم عليه وهو سائر أمامهم في عزلة صامتاً. ومن قبل ألفوا أن ينتقلوا معه في ربوع الجليل الهادئة الهنيئة. والآن قد تبدلت علاقتهم به. وتعمقت محبتهم له واعجابهم به حتى أصبحَ خشوعاً وتعبداً. واستولى عليهم شعور الرهبة والحيرة والتساؤل حول سرّ دفين. وكأن أزمة سوف تحلّ بهم. وهو قد أخذ الآن يبتعد عن مدى ادراكهم وهم لا يفهمون. ولا يعرفون ماذا يتوقعون. وأبعد الافكار تصديقاً لديهم فكرة الفشل والموت.

وكنا نظن انهم لا يسيئون فهمه الآن. ففي مرتين، وان كان في إيجاز، قد انذرهم بما سوف يحدث. ومع ذلك قد أساءوا فهمه وظنوا أنه لا يعني ما يقول حرفياً. فلهذا الموت ولهذه القيامة معنى خفي غير مفهوم لديهم. فكيف يموت مَنْ أقام لعازر من الاموات؟ وهم أنفسهم شأن بني قومهم، ترقبوا فرجاً عن الأمة. ومعجزة بيت عنيا قد قربت مجيء الملكوت المنتظر. ويوم مجد اسرائيل أضحى على الابواب. ولعله يجيء الآن وسط الجماهير الزاخرة في أورشليم « ويعطيه الرب الاله كرسي داود أبيه. ويملك على بيت يعقوب إلى الابد. ولا يكون لملكه نهاية» — وفي وسط هذه الغمامة الذهبية، لم يكن مستغرباً ان يسيء فهمه الغيورون المخلصون.



وبينما نتعقبهم في الطريق نرى إلى أي حد وصل بهم خداع الفكر والوهم. وليس أدلّ على ذلك من الحادثة التالية التي وقعت بعد يوم أو يومين.

وصل بهم المطاف إلى المرتفعات في الشمال حيث التقوا في طريقهم بزرافات الحجاج القادمين من الجليل. وها أنا أرى أقوام كفر ناحوم يلتفون معاً ويتسامرون سوياً في المساء. وفي ضوء القمر أرى امرأة تقترب نحو يسوع. وكنا قد رأيناها قبل سنتين في طرقات كفر ناحوم سائرة إلى المجمع يوم السبت لتستمع الى عظته الاولى ومعها زوجها زبدي وابناها. وفي قلبها المتكبر مطمع كبير، هو مطمع امرأة أمينة تبعت يسوع إلى الصليب، مطمع أمّ، لا تطلب شيئاً لنفسها بل لولديها. وقد تخيّلت أن يوم النصر ليسوع وملكوته قد أزف. وولداها بين الثلاثة الذين جعلهم يسوع موضع ثقته وعطفه. وقد سمعتهم يتراهنون فيما بينهم عمن يكون الاكبر والاعظم. تقدمت المرأة اليه وقالت:

— يا سيد ! هل لك ان تجيب سؤل قلب أم تلجأ اليك ؟
فيجيبها بلهجة سامية كأنه ملك :
— ماذا تريدين أن أفعل بك يا سيدتي ؟
— أرجو أن ينال ولداي حظوة لديك. فيكون الواحد عن يمينك والآخر عن يسارك في ملكوتك ؟

ويا لها من نظرات اشفاق وعطف رمق بها الام وولديها ! وما أقلّ ادراكهم للواقعة التي توشك ان تحدث !

— لستما تعلمان ما تطلبان ! أتستطيعان أن تشربا الكأس التي أشربها أنا ؟ وان تصطبغا بالصبغة التي اصطبغ بها أنا ؟

ويعقوب ويوحنا يفكران هنا في المتاعب التي تنشأ عادة عن الثورات . وعن تعريض حياتهما للدفاع عنه اذا لزم الحال . ولذا يجيبان في جرأة « نستطيع ! ».

وقد عرف هو أنهما يستطيعان . عرف أنهما يموتان لأجله ان اقتضى الحال . عرفهما أفضل مما كانا يعرفان نفسيهما . وهو يرى فينا أشياء لا نعهدها نحن في أنفسنا . وترى هل سبق فرأى فيهما في ذلك انيوم ، وهما أمامه في موقف الأثرة وحب الذات ، ما حلّ بهما بعد سنوات، يوم «قتل هيرودس يعقوب أخا يوحنا بالسيف »، ويوم خطا يوحنا الشيخ إلى ميتة الاستشهاد بقدم ثابتة وقلب جريء في سبيل الوفاء لسيده؟ ليس شك في ان الحنان المنبعث من تلك الرؤيا قد بدا في جوابه اللين الرزين : —

«أما الكأس التي أشربها أنا فتشربانها، وبالصبغة التي أصطبغ بها أنا تصطبغان. وأما الجلوس عن يميني وعن يساري فليس لي أن أعطيه الا للذين أعدّ لهم » .

ومع ذلك لم يفهما ! ألم تفهم أمهما ؟ ان غريزة الام حساسة دقيقة في الامور التي يفطن لها قلبها. ألم تفطن الى هذا التحذير وهي تنظر الى محيا السيد المحبوب وقد زالت عنه غبطة كفر ناحوم وافراحها، وبدا أكثر جداً ورزانة، واكثر بعداً عن عالم الارض، وأشد ميلاً إلى العزلة . ولم يعد كملك يسعى الى ملكه ، بل كملك يخطو إلى موته. وترى ما هي تلك الكأس ، وتلك الصبغة المريعة التي يعد بها نفسه وولديها ؟

يا أم ابني زبدي ! سوف تدركين هذا كله ان لم تكوني قد عرفته الآن . سوف

تفهمين أنت وولداك الباسلان اللذان طلبت لهما ان يكونا عن يمينه وعن يساره . وعما قريب سيحل بك اليوم الرهيب يوم تجثين عند قدمي السيد وهو معلق فوق صليب العار ، وعلى يمينه وعلى يساره لصان زنيان !

لم تنته القصة عند هذا الحد . وليس شك في أن يسوع قد تضاعف ألمه في تلك الازمة الخطيرة اذ يرى حب الذات حتى في أخلص خلصائه بين الاثني عشر . وهو في الاحتكاك بنا ، قد تعود خيبة الامل منا . لانه « يعرف جبلتنا و يذكر أننا تراب نحن ». وهنا يبدو الغيظ على باقي الرسل. و يقفون من يعقوب و يوحنا موقف التردد والـكآبة. فاولئك الرسل بشريون ، و بشريون جداً . ولـكن هذه الميول لن يكون لها أثر في حضرة يسوع . فيدعوهم اليه . وكان قد وبخ تحاسدهم من قبل، بان اقام في وسطهم ولداً صغيراً. والآن يكرر أمامهم الدرس في تعنيف لين رقيق . وانصافاً لهم لم ينسوا في المستقبل هذا الدرس :

« رؤساء الامم يسودونهم . وعظماؤهم يتسلطون عليهم . فلا يكون هذا فيـكم . لان الخدمة هي مقياس العظمة الحقيقية : ومن أراد أن يصير فيكم عظيماً فليكن لـكم خادماً . ومن أراد أن يصير فيـكم اولاً فليكن للجميع عبداً — لان ابن الانسان أيضاً لم يأت ليُخدم بل ليخدِم و يبذل نفسه فدية عن كثيرين ».

يسير الموكب في طريقه . . . . .

و بعد أيام تبـدو لنا صورة اخرى من احداث الطريق . وهم قد اقتربوا الآن من اورشليم . وأخذ الحجاج القادمون من الشمال يقتربون الى اريحا. فيخرج أهل المدينة عند الابواب للقائهم . لان اشاعة طارت في الجو بأن يسوع الذي أقام لعازر في بيت عنيا من الاموات قادم معهم. و يقول الناس عنه انه المسيا المزمع ان ينقذ اسرائيل من النير الروماني. وهذا الاستقبال الحار خير شاهد على مبلغ تعلق الشعب به . فـكيف يستطيع تلاميذه في مثل هذه المشاهد الحماسية ان يتوقعوا شيئاً غير الفوز المبين لسيدهم ؟

وفي وسط تدافع الجماهير ، وصرخات الهتاف والتهليل ، ترى العين رجلاً اعمى تـكاد تدهسه المواكب تحت مواطىء الاقدام. فيسأل قائلاً : علامَ هذا كله؟ واذ يجيبه العابرون: « يسوع الناصري عابر من هنا » . يمتلىء قلبه بحرارة الرجاء . لان و يسوع هذا هو

الذي أبرأ الاعمى في اورشليم. وكرجل غريق يتعلق بأهداب الرجاء الاخير يصرخ صرخة عالية تعلو فوق ضجيج الجماهير قائلاً :

— يا يسوع ابن داود ارحمني !

مرة بعد اخرى تصاعدت هذه الصرخة من اعماق قلبه. وقد حاول الجمهور ان يسكته ولكنه لم يفلح — يا ابن داود ! يا ابن داود ارحمني !

وعندئذ رقّ له قلب يسوع الحنون . وهو يرقُّ كذلك لكل نفس تلجأ اليه في لهفتها . وصراخ الجماهير لن يمكن ان يسدَّ سمعه . فأوقف الموكب كله وقال :

— دعوه اليَّ : فجاء الاصدقاء الى الاعمى وقالوا له :

— برتيماوس ؟ افرح وتهلل ! قم ! فهو يدعوك !

ثم تدثر بردائه القديم واقتادوه من يده وهو يرتجف نحو يسوع .

— ماذا تريد ان افعل بك يا بنيَّ ؟

— أريد ان أبصر يا سيد !

وللوقت عاد اليه بصره وتبع يسوع في طريقه .

يسود على الجمهور صمت خاشع اذ أصابه الذهول أمام حادث خارق للطبيعة . ثم يعاودهم الحماس أشد مما كان، وتتأثر قلوبهم بهذا العمل الانساني العظيم . لان سياسة المسيح ان يربح البشرية بالمحبة لا بالقوة . وقد ذاع خبر قصة برتيماوس واجتمعت المدينة كلها لتشهد يسوع .

وأنت تبصر وراء الجموع الزاخرة شخصاً في ثياب فاخرة يحاول ان يراه لانه كان « قصير القامة ». ومع انه رجل غني فان أحداً لم يفسح له الطريق. وكيف يكون ذلك وهو زكا الرجل العشار ، رئيس جباة الاموال في أريحا ، الذي يقولون عنه ان ثروته جاءته بطريق الابتزاز والظلم . وظاهر القصة يدلّ على ان الرجل يحاول مشاهدة يسوع لشيء آخر غير مجرد حب الاستطلاع لأنه أراد التغلب على كل الموانع . وأنت ترى صبيان القرية ، كما هي العادة القديمة منذ أجيال التاريخ ، يتزاحمون لتسلق الاشجار لرؤية الموكب من علٍ . وذلك الرجل الوجيه الرزين صاحب الثروة والمكانة يضحي بكرامته فيصعد مع الغلمان فوق الشجر لرؤية وجه يسوع. وليس شك في ان قصة متى في دار جباية الأموال بكفر ناحوم

قد بلغت مسامع دار الجباية في أريحا . فكانت في قلب الرجل ميول واشواق لرؤية صديق زميله متى

اذن هذا هو يسوع ! ذلك النبي ، الطويل القامة ، الناصع البياض، الشجاع، الحنون يسير في هدوء وصمت ووقار وسط ذلك الجمهور الزاخر . هذا هو اليهودي العظيم الذي لا يحتقر العشارين والخطاة ! وما أقل ما نعرفه نحن من اشواق قلوب الناس العاديين الذين نعرفهم ! ان لذلك الغني ، الوحيد في عزلته ، نفساً تائقة جائعة ، اشبه بكثيرين ممن يسيرون حولنا ونحن لا نعبأ بهم . وليس أحد يشبع هذه الرغائب الا الله نفسه . ولولا ذلك لما وقف يسوع ورفع عينيه الى الشجرة وتكلم إلى ذلك الرجل كأن لا غرض له من المجيء الى أريحا سوى لقاء ذلك الانسان . « يا زكا اسرع وانزل لانه ينبغي أن امكث اليوم في بيتك» . وهنا عرف زكا لفرط دهشته ما يجب ان نتعلمه نحن : وهو أن كل نفس تطلب يسوع يعرف هو رغباتها .

فكّر في معنى هذا لذلك العشار المحتقر — ان يجيء المسيح اليه ويأكل معه ويتحدث اليه، ليفهم ليس ما فيه من شر وحسب ، بل ما في قلبه من التعطش للخير . وان في المحبة التي تفهم المرء وتثق به على الرغم من عيوبه واخطائه — لقوة عجيبة ساحرة .

وفي كل منا انسانان : الانسان الذي يعرفه العالم، والانسان الحقيقي الذي يعرفه الله. فاهل أريحا عرفوا زكا رجلاً عشاراً خاطئاً ، لا يذهب الى مكان العبادة ، انساناً ابغضهم وابغضوه. أما يسوع فقد عرف خجله ، وميله الى الصداقة، وشوق نفسه الى الخير والصلاح. وعرف يسوع أيضاً لماذا لم يذهب ذلك الرجل الى مكان العبادة ليصلي بين أناس نظروا اليه والى عشيرته نظرة حقيرة دنيئة . فثق أيها القارىء بان الله لا يسيء فهمك ، حتى ولو أساء فهمك جميع الناس .

وكل شر في نفس زكا قد تفشّى وتضاعف بسبب احتقار جيرانه له وامتهانهم اياه. ولكن تلك القسوة قد تحطمت أمام القلب الذي فهمه وأحسن الثقة به . ولسنا نعرف ما دار بينهما من الحديث في تلك الليلة المأثورة . ولكن الذي نعرفه ان يسوع قد جعل منه صديقاً ولياً من أخلص الاولياء مدى الدهر . وتظهر نتيجة ذلك في النذر الذي قطعه على

نفسه عند افتراقهما في الصباح التالي : « ها أنا يا رب اعطي نصف اموالي للمساكين، وان كنت قد وشيت باحد أرد اربعة اضعاف » .

* * *

ولكن هذا التصرف يغيظ أهل المدينة فيبرد حماسهم ويتقولون : «دخل ليبيت عند رجل خاطىء ! » وفي هذا الموضع اللائق أضع مثلي الخروف الضال والابن الضال اللذين يحشرهما لوقا ضمن ذكريات الطريق . واذا افترضنا ان زكا نهج خطة زميله متى، واقام مأدبة وداع للسيد دعا اليها اصدقاءه ، فالارجح أن تكون قيلت في تلك المناسبة كلمات الانجيل : « وكان جميع العشارين والخطاة يدنون منه ليسمعوه . فتذمر الفريسيون والكتبة قائلين هذا يقبل خطاة ويأكل معهم » .

هذه كانت معصيته في نظرهم : ان يأكل مع العشارين . وان صح هذا الحدس ، وان كانت تلك المأدبة قد اخرجت منه قصتي الخروف الضال، والابن الضال، فانّا مدينون إلى « زكا » بدين اكبر مما نظن .

وان كان انسان في المسيح فهو خليقة جديدة. ولذا يقول يسوع: «اليوم حصل خلاص لهذا البيت» . وبعد هذا افترق زكا عن صديقه الجديد ولم يعد يرى وجهه مرة أخرى على الارض، لانه بعد أسبوعين سمع أنهم قد صلبوه في أورشليم .

وهذا كل ما نعرفه عن زكا. انما هناك اسطورة تاريخية تنبئنا بانه صار شخصية بارزة في الكنيسة الاولى، وانه صار فيما بعد اسقف قيصرية. وهناك أيضاً اسطورة اخرى قرأتها ولا أزال محتفظاً بها في لفائف ذاكرتي : وهي أن رجلاً شيخاً ، قصير القامة ، كان يتعهد كل صباح الارض المحيطة بشجرة جميز شاخت في الايام على مقربة من أريحا . فسأله مرة عابر سبيل : «أيها الشيخ ! ما بالك تعنى بهذه الشجرة الشامخة؟» فيجيبه الشيخ العجوز وفي عينيه بريق الشباب : «لان من بين أغصان هذه الشجرة رأت عيناي ربي لاول مرة » .

* * *

إلى هنا تنتهي ذكريات الطريق . وحين تقع انظارنا على يسوع في المرة التالية نراه داخلاً إلى أورشليم ليموت . . . . .

الكتاب السادس

أورشليم

الفصل الاول

الملك في موكبه

في الطريق بين اورشليم وأريحا على مسافة اثني عشر ميلاً ، حيث وقع المسافر بين اللصوص في مثل السامري الصالح، احتشدت جماهير الحجاج والقرويين على جوانب الطريق لرؤية يسوع الناصري، الذي أقام لعازر من الاموات. وهناك تشهد وجوه افراد اسرة بيت عنيا وقد جاءوا للترحيب به . ولذا يتخلف يسوع وصحابته عن الموكب الذي يتابع سيره الى اورشليم. كان هذا يوم الجمعة « قبل عيد الفصح بستة ايام » .

وفي المساء التالي ، بعد انقضاء السبت، تقام في بيت عنيا مأدبة تكريماً لمن أقام لعازر من حفرة القبر. وحسب العادة « كانت مرثا تخدم. وأما لعازر فكان أحد المتكئين معه»، ومريم في غرفتها الصغيرة تخرج من اللفائف قارورة طيب غالية الثمن . وقد شحب لون وجهها من فرط الالم، لانها اكثر من سواها قد تغورت الى أعماق قلب السيد

وأحسّت بقلب المرأة انه قادم الى اورشليم ليبذل حياته فيها. وكان الاثنا عشر من حوارييه بين المدعوين. و بينهم تقع العين على شخص لم يذع له صيت ولم يرتفع له شأن من قبل ، رجل أحمر الشعر تعلو وجهه مسحة الـكآبة والغم ، رجل قد شاب اسمه ، قبل ختام الاسبوع ، وصمة عار لصقت به أبد الدهر . وهو بطبيعته المهتاجة ، ونظراته الخادعة ، وخيبته المرّة ، لم يكن على اتفاق أو حسن وداد مع زملائه الآخرين . وفي تلك اللحظة يزداد حنقه عليهم، ويود لو يصب عليهم جامات سخطه وخبث طويته .

واذ يرى ذلك الانسان الساخط الحاقد ، مريم تبـذل عطفها ، وتهرقه مع الطيب المسكوب على قدمي السيد، لا يفطن في هذا العمل الى شيء من الجمال ، ولا أحسّت نفسه الجامدة بلمسة من لمسات العطف . وهذا العمل في نظره اسراف احمق ، وتبذير ممقوت . « كان يمكن ان يباع هذا بأكثر من ثلاث مئة دينار ويعطى للفقراء » . وفي خبث نية يلوم السيد نفسه بطريق غير مباشر لسماحه بعمل كهذا . . . . أجل . كانت نفسية يهوذا في تلك الليلة خبيثة ، سوداء ، كخافية الغراب الاسحم .

أما يسوع فيؤنبه على ذلك ، ويمتدح هذا العمل الجليل . فان الاعتبارات المادية ليست كل شيء في الحياة. بل ان للعواطف الرقيقة مكانتها وشأنها. و بعض قصص التاريخ الشائقة قامت على هذا الاتلاف « والضياع هباء » . والحياة قد تجملت فازدانت بما بذله السيدات من حياتهن في تضحية صابرة ، وانفاق في الهواء ، بدون نتيجة ظاهرة . وانفاق المحبة ليس ضياعاً ، وسكبها ليس اتلافاً . فان هذا الطيب قد أُهرق عبثاً في ولاء عميق ، ولـكن عبيقه الزكي قد عطر الهواء حوله ، وملأ الجو اريجاً مستحباً. وهذا الاتلاف الذي لم يرق عيون الناس قد أرضى يسوع فامتدحه وقبله . ولو دروا ان تلك كانت آخر مرة ينال فيها هذا العطف ، وانه بعد أسبوع سيكون جسده المائت في قبر الرامي، لما انـكروا عليه هذا « الاتلاف » الذي تمثل في امرأة تسكب نفسها سكيباً عند قدميه . . . . . .

لم يعرفوا الملك ، أما هو فقد عرف . « اتركوها انها ليوم تـكفيني قد حفظته . لان الفقراء معكم في كل حين ومتى أردتم تقدرون ان تعملوا بهم خيراً وأما أنا فلستم معكم في كل حين . قد عملت بي عملاً حسناً . وحيثما يكرز بهذا الانجيل في كل العالم يخبر أيضاً بما فعلته هذه تذكاراً لها » .

* * *

وفي الصباح التالي استيقظت بيت عنيا متأثرة بنشوة الفرح . اذ علم أهلوها أن قريتهم محط الافكار . فهي قد آوت يسوع الناصري نبي الله ، الذي أقام ابن بلدتهم من الاموات ، والذي يقول عنه الناس انه محرر اسرائيل . وكانت قوافل الحجاج تعرج في طريقها على القرية لتلقي نظرة عاجلة . وكانت مضارب العيد المنصوبة على جوانب الجبل تقذف بالساكنين فيها الى بيت عنيا . وساد الهرج والمرج القرى المحيطة كلها . وحتى من اورشليم ذاتها وفد جمهور النظارة الى تلك الضيعة التي أضحت بين ليلة ويوم محط أنظار الغادين والرائحين .

واني اتخيل يسوع في ذلك الصباح المشرق نازلاً من فوق الجبل بعد الصلاة ليتناول طعام الافطار . اتخيله عابراً وسط الجموع وقد أقبل عليه تلاميذه للقائه في لهفة وترقب . فان سلطانه لم يبلغ أبداً ما بلغه في ذلك اليوم . ولم يخامرهم من قبل شعور الزهو والفخار وسط العالم كما خامرهم ذلك اليوم . ترى ماذا هو معتزم ان يفعل؟ ان شيئاً ما لا بد حادث الآن! ويشتد تأثرهم اذ يرون بطرس ويوحنا قادمين وهما يقولان : « نحن مرسلان الى قرية بيت فاجي لنستحضر جحشاً لم يركبه أحد قط . لان السيد يزمع ان يدخل اورشليم اليوم في موكب ! » وحالاً سرى الخبر وسط الجماهير الثائرة . وليس من عجب ان يحلم التلاميذ الآن أحلام اليقظة — ويتوقعوا في أزمة عاجلة — حلول ملكوت الله عن قريب! فان القضاة في اسرائيل قديماً ركبوا حميراً بيضاء . وفي بطون السفر المقدس نبوة عن المسيح : « يا ابنة صهيون . هوذا ملكك يأتيك وديعاً ، راكباً على اتان وجحش ابن اتان » . فلا لوم على التلاميذ اذا هم حلموا أحلاماً في ذلك اليوم وسط جموع زاخرة ثائرة في بيت عنيا .

وبطن الوادي المؤدي الى اورشليم حاشد بجموع هائجة لان الحجاج الغرباء قد سمعوا ما تطارح به أهل الجليل . وجنس اسرائيل كان كله ممثلاً في ذلك الفرح . فالمدينة مائجة بالغرباء النازحين اليها ، واكتاف التلال مغطاة بالمضارب المنصوبة . . . مليون من الوطنيين المتعصبين المتحمسين ، قد وفدوا الى تلك المدينة الخالدة من كل رقاع العالم . وكل منهم يتحدث عنه . وكثيرون كانوا قد رأوه وسمعوا عنه في أعياد سابقة وأذاعوا خبره في بلدان سحيقة . فكانت الاخبار عنه متضاربة . ولم تتأثر تلك الجموع حين بلغهم ان السلطات الدينية قائمة عليه . والآن سرت الشائعات سريان النار في الهشيم ، وتناثرت

القوافل في طرقات بيت عنيا ، وعلم الجميع ان يسوع الناصري ذاهب للعيد ، وهو الذي أقام لعازر من الاموات . والذي يقول عنه الجليليون انه المسيح !

* * *

نعم . ها هو قادم ، قادم ليلقى الموت . مرتين جازف بالدخول الى اورشليم ، ومرتين طردوه عنها وكادوا يقتلونه. أما الآن فسوف لا يقصونه عنها. فقد فرغ من أساليبه الهادئة غير المزعجة . وهو اليوم يعلن في صراحة غرض بعثه كمسيا، ويصر على ان تعترف أمته بذلك . وهو يعلم ما يؤدي اليه هذا .

ولذا نراه يركب من بيت عنيا في مشهد وديع متواضع وحوله أنصاره وأتباعه يحلمون الاحلام ويسيرون في زهو وخيلاء وسط الحماس الشعبي العظيم . وأمامه ووراءه جموع هاتفة . ثم يتقدم جمهور آخر من المدينة للاحاطة به، وهم يخبرون بعضهم بعضاً عن إقامة لعازر من الاموات . وفي كل لحظة يتزايد الحماس . والطريق العادي ليس صالحاً لسيره فيفرش الجليليون ثيابهم أمامه، و يلوح الجمهور بالاغصان الخضراء، وترتفع الحناجر بأصوات الهتاف صارخة : « اوصنا ! اوصنا ! اوصنا لابن داود ! مبارك ملك اسرائيل الآتي باسم الرب ! اوصنا في الاعالي ! » .

و بينما تتصايح الجماهير هاتفة « ملك اسرائيل الآتي ! ».يسهل علينا ان نتخيل أحلام اليقظة والآمال الكبار في نفوس تلاميذه ، ولكن هذه كلها صرخات خادعة، واعداؤه يتسمعونها في غيظ كثير. و بعدأيام تعلق هذه الالفاظ عنواناً فوق صليبه امعاناً في السخرية والهزء به . وهذه الصرخات بالاسف تنبيء عن سر الحماس المنبعث من النفوس الثائرة . فلم تكن صادرة عن شوق للبر ، ولا عن تحبيذ لمبادئه ودعوته، ولا حتى عن ميل اليه، ولو ان هذا العامل الاخير كان من الدوافع في نفوس بني أهل الشمال . لا ، لم تكن الصرخات منبعثة عن شيء من هذا القبيل ، بل عن رجاء حار يترقب مجيء ملك اسرائيل ، عن أحلام خيالية جنونية تملكت عقول جماهير نسيت اتزان العقل في هياج الساعة ، عن أحلام حول خلاص شعب اسرائيل بيد الله ، عن رؤى وخيالات حول صانع المعجزات العظيم الذي أقام لعازر من الاموات، وها هو الآن يهبط الى اورشليم العاصمة بقوة لا تدحر، قوة يتقلص أمامها بطش رومية الانبراطورية ، و يهرب أمام وجهها بيلاطس وجنده

كعصافة تحملها الرياح ... ومع ذلك ربما لم تبلغ هذه المظاهر الثائرة حد الجنون ونزوات الخيال كما نظن . فان بين الحاضرين من شهد بعد أربعين عاماً من ذلك التاريخ ثورة دموية عنيفة لم يكن فيها من الآمال والاحلام ما توهمه القوم الآن، ولكنها اكتسحت على حين غرة قوة رومية من اورشليم . نعم اكتسحتها ولكن على ان تعود اليها بنقمة مريعة شنيعة ، دمرت فيها للدينة الجميلة تدميراً .

* * *

وكان يسوع قد عرف ما سيحل حتماً بشعب كهذا، حاد عن مصيره الرفيع كقائد روحي للعالم أجمع ، وآثر الدخول في منازعات مع رومية العظيمة حول السلطة الزمنية . ألم يلحظ أحد وجهه وهو راكب في عظمة هادئة ؟ لم يكن وجهه ينم عن فرح الكبرياء الذي يلازم الزعيم عادة تتجاوب حوله هتافات شعبه ، بل كانت على محياه امارات الاشفاق والعطف كأنه ينظر الى أطفال في جهل الطفولة . وقد خرج من عينيه بريق لامع بنظرات عميقة تمتد إلى مسافات بعيدة . وعلت وجهه مسحة الكآبة الصامتة كوطني صادق يحزن على وطنه ، وكملك قد خاب أمله يساق إلى حتفه .

والآن تنحرف الطريق فجأة الى ناحية الشمال. وعند هذا المنحنى تبدو المدينة الجميلة التي كانت قد اخفتها عن الانظار اكتاف الجبال ، تبدو اورشليم في مجدها وجلالها ، مدينة أحلام اليهود ، مدينة الله ومقدس العلي ، ومستودع الذكريات القومية لشعب اليهود ، « اورشليم بهجة كل الأرض » . وليس منظر آخر يثير مكامن القلب اليهودي كمنظر هذه المدينة . ولذا نتخيله الآن قد ثارت نفسه ، انما بعوامل الحزن والألم لأنه لم يقدر ان يخلص شعبه ومدينته العظيمة من قضائها الصارم . ويا حبذا لو قبله ذلكم القوم الذين تعينوا منذ فجر تاريخهم لاسمى مصير بين البشر ! ويا حبذا لو رحبوا به مرسلاً من قبل الله ليرقى بهم الى بلوغ هذا المصير ! ما كان أزهر مستقبل اسرائيل وهذه المدينة الجميلة ، مركز الانبراطورية الروحية في العالم — لو كانوا قد فطنوا !

وها هو الآن يفصح عن أفكاره بكلمات مسموعة ، فيضطرب اتباعه اذ يسمعونه يقول : « انك لو علمت أنت أيضاً حتى في يومك هذا ما هو لسلامك — ولكن الآن قد أُخفي عن عينيك ! فانه ستأتي ايام يحيط بك أعداؤك بمترسة . . . . . ويهدمونك

و بنيك فيك . . . . . لانك لم تعرفي زمان افتقادك ! ». رؤيا رهيبة مفزعة تمثلها امام عينيه . وقد رآها عياناً قوم ممن كانوا بين تلك الجماهير بعد أربعين سنة. فالمدينة كلها قد اكتسحتها الجحافل والكتائب الرومانية . وأمست المدينة الجميلة خراباً يباباً ، تحوم فوق خرائبها المهدمة العقبان والنسور، لتلتهم طعاماً شهياً جثث اليهود المعلقة فوق صلبانها التي لا تعدّ ولا تحصى . خربت البلاد خراباً نهائيا ، وقُضي على الشعب قضاء مبرما ، وبيع كثير منهم عبيداً في اسواق النخاسة . « وآسفاه ! لم تعرفي يا أورشليم زمان افتقادك ! ».

* * *

كان هذا التصريح شديد الوقع على من سمعوه، حتى كادت تجمد قلوبهم بين أضالعهم من شدة الصدمة . والارجح أن الذين سمعوه ، لم يكونوا كثيرين . فان البشائر الاولى لم تذكره، ولم يبلغ مسامع لوقا البشير الا بعد مضي مدة طويلة. فسار الموكب في طريقه في حماسة ولم يدر القوم شيئا. ثم أخذت الهتافات تتزايد حتى اضطر نفر من الفريسيين الغاضبين إلى التدخل فقالوا له : « يا معلم انتهر تلاميذك ! » فأجابهم : « انه ان سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ » .

واذ تتدفق الجموع إلى أبواب المدينة يخرج الحجاج الغرباء متسائلين، فيسمعون أنشودة الظفر « يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل ! ». وأخذ الكهنة والفريسيون الحانقون يتقولون فيما بينهم : « هوذا العالم قد ذهب وراءه ! » .

وليس شك في أن السلطات ارتعبت واضطربت. فقد كان زعيم تلك الجماهير الحاشدة الصاخبة مستطيعاً — لو أراد — تطهير اورشليم من القوات الرومانية . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . فلا ثورة ولا هياج . وظل بيلاطس وجنده في طمأنينة لم يتعرض لهم أحد. وأما يسوع فقد صرف الجمع لحال سبيله، ودخل الى الهيكل. ولا يسع المرء هنا الا ان يتساءل عن شعور تلك الجموع. هل أصابتها خيبة الرجاء، أم تمنّت حدوث عظائم الأمور بعدئذ ؟

وليس لدينا بيان عما حدث في بقية ذلك اليوم. وينتظر المرء خاتمة ظاهرة لهذه الحوادث كتطهير الهيكل مثلاً ، وهي الحادثة التي يضعها البشيرون الثلاثة في هذا اليوم، او اليوم الذي يليه . واما يوحنا وحده فيذكرها قبل ذلك بزمن . واغلب الظن ان هذه الحادثة وقعت

مرتين. واذا استبعدناها من مشاهد هذا اليوم، فان خاتمة أحد السعف تكون تلك الصورة الجميلة البديعة التي رسمها متى ليسوع مع الاولاد الصغار : « ودخل يسوع هيكل الله »، الى بيت أبيه الذي جاء اليه من قبل، وهو صبي صغير في الثانية عشرة من عمره. ولا ريب في انه استذكر ذلك اليوم اذ رأى على غير انتظار عند دخوله جمعاً من الاولاد الصغار كانوا قد اجتمعوا ربما لحضور عبادة فصح للصغار. وتحت تأثير ما سمعوا في الطرقات — كما هي عادة الصغار دائماً — وقفوا عند رؤيته وأخذوا يهتفون : « اوصنا ! اوصنا لابن داود ! » وكان هذا كلّ ما تذكروه من النداءات. فسرّ بهم يسوع، ولكن الكهنة اغتاظوا فقالوا له حانقين : «أتسمع ما يقول هؤلاء ؟ » فأجابهم : « نعم. أما قرأتم قط من أفواه الاطفال والرضع هيأت تسبيحاً ؟ » .

الفصل الثانى

اتهامات

انه موكب أحد السعف قد أدخل الرعب الى نفوس رؤساء الكهنة . و بدا لهم يسوع الناصري أقوى مما ظنوا وتوهموا . وخيل اليهم انه مستطيع ان يجمع حوله الأمة كلها و ينفخ نار الثورة ضد رومية. وعلى الرغم مما انطوى عليه هذا من خطر محدق، فلم يكن هذا وحده باعث خوفهم ومصدر هلعهم. ولو كان هذا مأربه، لأسرع الى نصرته الفريسيون أنفسهم لأنهم كانوا من غلاة الوطنيين . اما الخطر الذي خشوه فهو تعرضه للدين وجنوحه إلى قلب اوضاع النظام الديني القائم . ولقد كان محطماً للاصنام ، ومصلحاً يقلم الجذوع والفروع معاً. وكان في ميوله مضاداً لنظام ديني جامد سيطر عليه طبقة من الكهان الجامدين المستبدين .

كان الأمر واضحاً : فاما أن تنقلب وتصلح أوضاع النظام الديني اليهودي ، أو يموت يسوع الناصري ، وقد استقر بهم الامر : ان يتكاتفوا لصيانة هذا النظام ، وأن يموت هذا الانسان !

وكانوا ماكرين حاذقين ، فان ألقوا القبض عليه جهرة أثاروا عليهم ثائرة الشعب . اذن فليتربصوا ويتحينوا الفرص . وربما تسنح لهم بعد الفصح عقب عودة الجماهير إلى أوطانها .

ولكن انهم افلحوا في الوقت نفسه بتشويه سمعته أمام الشعب وتصويره أمامه انساناً لا يبالي بالآمال والرغائب القومية ، خائناً عهد الولاء لموسى والهيئة الدينية ، ومجدفاً على الله رب الجنود ، بل ان هم افلحوا في فضح أمره امام الحكومة واظهروه أمامها بمظهر الانسان الخطر المكدر لصفو الامن، انهم افلحوا في شيء من هذا — مهدوا السبيل لانفسهم. وعلى أية حال فعليهم أن يسيروا بحذر ويقدروا لأرجلهم قبل الخطو موضعها .

« حينئذ ذهب الفريسيون وتشاوروا لكي يصطادوه بكلمة » . هذه كانت الخطوة

الاولى — ان يصطادوه بكلمة — أن يوقعوا بينه و بين الشعب أو بين السلطات الرومانية — ان ينصبوا له أحبولة، وكلهم قد اغتروا بسذاجته الصادقة، وظنوا أن فلتة لسان منه قد تتخذ سلاحاً ضده .

* * *

ولذلك نراهم في يومي الاثنين والثلاثاء وقد دسّوا اناساً من صنائعهم ليسألوه وهو يعلّم في الهيكل . وقد سجلت البشائر بعض هذه الأسئلة .

وكانت فكرة الجزية ، الغريبة ، فكرة نابهة حقاً . فاليهود كرهوا الضرائب كما يكرهها الكثير منا . ويزداد المقت للضريبة متى كانت مظهراً للاستعباد تفرضها قوة أجنبية دخيلة. ولم يذهب القادة الماكرون لالقاء الأسئلة بانفسهم، والا كان عملهم مفضوحاً. ولكنهم بعثوا بشبان من أنصارهم مع خصومهم الهيرودسيين كأنهم يتحاجّون فيما بينهم . وتجيء هذه الصنائع المسخّرة الى السيد العظيم ليفصل فيما بينهم : « يا معلم نعلم انك صادق وتعلم طريق الله بالحق، ولا تبالي باحد لانك لا تنظر الى وجوه الناس. فقل لنا ماذا تظن : أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ؟ » .

أحبولة محبوكة . فان قال « نعم » هاج عليه الرأي العام . وان قال « لا » اتهموه بخيانة السلطة الحاكمة . وفي معرض الجدل قد يقال شيء ما في صالح الوطنيين ، وقد تقال أشياء في صالح قيصر الذي يقوم بتكاليف الحكم وصيانة الطرق الكبيرة المعبّدة . ولكن يسوع تحاشى هذا الجدل : « لماذا تجربونني يا مراؤون ! اروني معاملة الجزية ؟ لمن هذه الصورة والكتابة ؟ » — « لقيصر ! » — « اذن باستعمالكم عملته تعترفون بسلطانه عليكم. فاعطوا اذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله ». ولم يجرؤوا أن يتحدثوا بشيء ما أمام الشعب في هذا الأمر .

و بعد قليل يجيء اليه الصدوقيون ، الذين ينكرون قيامة الاموات ، ليهزأوا منه بذكر أحدوثتهم القديمة عن المرأة التي تزوجت من سبعة أزواج . « في القيامة لمن من السبعة تكون زوجة ؟ ». ولم يكن يسوع في حالة نفسية تسمح له بالخوض في هذه السفاسف . لان الشعب كان يستمع اليه . وفي لحظة يسمو بهم الى مستوى ارفع ، الى ذلك الوسط الطاهر الذي تصقل وتهذب فيه روابط المحبة . « تضلون اذ لا تعرفون الكتب ولا قوة

الله . لانهم في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون . بل يكونون كملائكة الله في السماء . وأما من جهة قيامة الأموات ، أفما قرأتم في كتاب موسى كيف كلمه الله قائلا : أنا اله ابرهيم واله اسحق واله يعقوب . ليس هو اله أموات بل اله أحياء . فأنتم اذاً تضلون كثيراً » — كان هذا القول حجة ايجابية ارعوى لها الشعب . وحتى بعض الكتبة أنفسهم لم يسعهم الاّ التصفيق له : « يا معلم حسنا قلت ! » .

ثم يتآمر الفريسيون معا، ويوفدون اليه ناموسياً من رجال الشرع ليجرّبه بسؤال يحار فيه علماء الناموس . فان دستور الكتبة والناموسيين تضمن ٦١٣ بنداً من الاحكام والوصايا ، كان بعضها هاماً وبعضها ثانوياً ، وثار الجدل بين المتفيقهين حول مراتب هذه الوصايا وأيها الاعظم وأيها الاصغر . فارادوا أن يجربوه علناً امام الشعب : « أية وصية هي العظمى في الناموس؟ » . وهنا أجاب يسوع جوابا مفحما . فنسي كل المماحكات والمراوغات الكهنوتية اذ أسمعهم قولا نبيلا : « تحب الرب إلهك من كل قلبك . هذه هي الوصية الاولى والعظمى . والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك . وهاتان الوصيتان هما جوهر الدين وخلاصته » .

تأثر السامعون في أعماق نفوسهم . وحتى السائل الناموسي نفسه، قد خجل من نفسه، والظاهر انه كان أنبل نفسا من المتآمرين الذين أوفدوه : « جيداً يا معلم . بالحق قلت . فمحبة الله من كل القلب، ومحبة القريب كالنفس، هي أفضل من جميع المحرقات والذبائح » . ولمح يسوع في وجهه رجلا أمينا مخلصا فقال له : « لست بعيداً عن ملكوت الله » ولم يجسر أحد بعد ذلك أن يسأله .

ولكن يسوع لم يدعهم يفلتون من يديه بسهولة . فالآن قد جاء دوره ليسألهم :

« ماذا تظنون في المسيح؟ ابن من هو؟ وان كان داود يدعوه رباً فكيف يكون ابنه » .

— واليكم سؤالاً آخر : كان لانسان ابنان . أمرهما ان يذهبا للعمل في كرمه . فالاول رفض ولكنه ندم اخيراً ومضى . وأما الثاني فقال ها أنا يا سيد ولم يمضِ . فاي الاثنين عمل ارادة الآب ؟

— فأجابوا بعد تفكير وقد عرفوا مرماه : الاول !

— نعم . الاول ! وانتم هو الثاني ! الحق اقول لكم ان العشارين والزواني الذين ندموا

وذهبوا يسبقونكم الى ملكوت الله. ثم التفت الى الشعب المنصت له، وأخذ يتحدث اليهم بمثل قاس عن الاله العظيم الذي سلّم كرم اسرائيل الى اولئك الكرامين الاشرار الأردياء الذين رجموا عبيده عندما جاءوا يطالبون بالاثمار، ثم لوثوا ايديهم اخيراً بفعلة شنعاء بأن قتلوا ابنه المحبوب. فماذا يفعل صاحب الكرم؟ يأتي و يهلك الكرامين و يعطي الكرم الى آخرين.

— حاشا ! لا سمح الله ! — بهذا صرخ السامعون الباهتون .

— كلا ! فليسمح الله ! « لذلك أقول لكم ان ملكوت الله يُنزع منكم ويعطى لأمة تعمل اثماره » .

* * *

وقف أمامه اولئك الرعاة المأجورون الذين أقامهم الله على شعبه منحنين خائرين . واذ تتأجج في نفسه ثورة الغضب المقدس يلتفت اليهم ، وكسيد يؤنب عبيده الخونة يشهّر بهم أمام الجماهير، ويلهبهم بسياط غضبته اللاذعة، حتى انهم لم ينسوا قط في حياتهم ذلك الموقف الشائن :

« ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون، لانكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس، فلا تدخلون انتم ولا تدعون الداخلين يدخلون ، لانكم تطوفون البر والبحر لتكسبوا دخيلاً واحداً . ومتى حصل تصنعونه ابناً لجهنم اكثر منكم مضاعفاً . ويل لكم ايها القادة العميان الذين يتورعون عن البعوضة ويبلعون الجمل، الذين يعشرون النعنع والشبث والكمون ويتركون اثقل الناموس — الحق والرحمة والايمان، الذين ينقون خارج الكأس والصحفة وهما من داخل مملوءان اختطافاً ودعارة . ويل لكم ! لانكم تبنون قبور الانبياء الذين قتلهم آباؤكم وتقولون لو كنا في ايام آبائنا لما شاركناهم في دم الانبياء . فاملأوا انتم مكيال آبائكم . فالله مرسل اليكم انبياء وحكماء وانتم تقتلونهم وتطردونهم من مدينة الى مدينة. لكي يأتي عليكم كل دم زكي سفك على الارض، من دم هابيل الصديق الى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح . الحق اقول لكم ان هذا كله يأتي على هذا الجيل ! » .

« ثم خرج يسوع ومضى من الهيكل ». ولم يدخله مرة اخرى !

* * *

بهذا تكلم المسيح الغاضب لقوم خانوا عهد الامانة والوكالة. وههنا مظهر خطير يمثل لنا ناحية من المسيح. فبين ابناء هذا العصر فكرة بليدة ناعمة مؤدّاها ان الله لا يغضب قط من خطايانا، لانه شفوق صالح طيب القلب، يحكم على آثامنا وشرورنا كأنها ضعفات فقط، وانه أشبه بأب يريد ان يسكت ولده عن البكاء وكفى! — حاشا لله !! فكما تكلم قديماً يكلمنا في هذا العصر، نحن ابناء هذا الجيل. وكم من انسان في آلام الضمير ووخزاته الشائكة، قد قال لنفسه اشياء قاسية جافية كهذه، إذ سمع صوتاً إلهياً يحدثه من الداخل. ومثل هذا الانسان قريب من الله. فطوبى لمن يستمع وينذر نفسه!

الفصل الثالث

الخائن

وإذ غادر الهيكل للمرة الاخيرة كان قد بصم بيده صكّ الحكم بموته. وهو قد كشف امام الجماهير المجتمعة عورات الرئاسة الدينية، فاذا تغاضوا عن ذلك ليس لهم ان يرفعوا رءوسهم مرة اخرى في اورشليم. فإما هو أو هم.

و بينما كان مستريحاً في تلك الليلة مع تلاميذه كان أحدهم غائباً. وكان رجال الدين والكهنة قد عقدوا جلسة مستعجلة ليفكروا في اخماد صوت يسوع الناصري على عجل. ولكن ماذا يفعلون؟ كان الشعب العقبة الكأداء. وقد خاب أملهم لانه لم يحدث شغب من جرّاء موكب يوم الاحد. نعم ان حماس الجماهير قد خفّت حرارته. وأخذ البعض يقف ضده موقف العداء. ولكن ما برح يسوع متسلطاً على عواطفهم. فاذا كان لا بد من القاء القبض عليه،وجب ان يكون ذلك فيغيبة الجماهير. ولم يكن سهلاً في ذلك الاسبوع المثير انتهاز فرصة كهذه لان الجماهير كانت في كل مكان. وربما كان ضرورياً ان يتريثوا حتى تعود الجماهير الى أوطانها. و يتحينوا فرصة ملائمة لتنفيذ مآربهم.

أما الفرصة فكانت أقرب مما توقعوا. ففي خارج قاعة الاجتماع كنت ترى شبحاً يتهادى تحت ضوء القمر بين الظلال و يقف امام حارس المكان قائلاً له: « خذني الى المجلس. فان لديّ امراً يتعلق بيسوع الناصري! ».

يدخل الخائن في حضرة المتآمرين. ما أروع هذا الموقف! واحد من صحابته المخلصين يقدم نفسه ليمسكه لهم في غير عناء. « ففرحوا وعاهدوه ان يعطوه فضة. فواعدهم، وكان يطلب فرصة ليسلمه اليهم خلواً من جمع ».

وفي هذه الكلمات الوجيزة يروي البشير قصة افظع خيانة في تاريخ البشرية، ويصم

امام عالم مرتعد ذلك الانسان الذي حنث بيمين الولاء للمسيح، ذلك الخائن الذي مثّل دور الصديق ، ليسلّم للموت سيده الذي أحبه .

وهل يمكن لانسان ان يعلل هذا ؟ قيل لنا ان الطمع قد تملك شهوته فأسلم سيده للموت المريع لقاء ثلاثين قطعة من الفضة . وان المرء ليتردد كثيراً قبل التسليم بهذا التعليل الضعيف الواهي . والحق ان يهوذا كان خسيساً دنيئاً . ولكن الانسان لن يرتكب مثل هذه الخسة لقاء قبضه رشوة دراهم معدودات يعود فيلقيها نادماً في احضان معطيها . ثم ان هذا التعليل لا يتسق ووقائع الحال وحالة الرجل .

فان ذلك الانسان لم يكن مجرد محب للمال ساع وراءه . ولثلاث سنوات خلت كان شاباً يهودياً تقياً نابهاً شغف بدينه وكبرت آماله في المسيا المنتظر . ويوماً ما التقى بيسوع الناصري ومال كل منهما الى الآخر. ولولا هذا لما دعاه يسوع الى شركة الرسل، ولما لبى هو هذا النداء. ولم يكن في ذلكم النفر القليل الذين جابوا لنشر دعايتهم ما بهر أنظاره أو اشبع في نفسه شهوة الطمع. والواقع ان يهوذا، اسوة بالآخرين ، ترك كل شيء وتبعه واستمر سائراً معه بعد ما تركه الآخرون ولم يعودوا يتبعونه . فلم يكن ذلك الانسان وحشاً خبيثاً ، بل كان انسانا مثلنا فيه من ممكنات الخير الشيء الكثير، ولكن فيه ايضا من ممكنات الشر شيئا كثيراً . ولسنا نحاول هنا ان نطليه بلون أبيض بل ان نفهمه فقط .

وليس شك في انه كان طامعا. ولكن هذا وحده لا يعلل الموقف . واكبر الظن ان المطامع كانت شهوته المالكة عليه ، وان هذه المطامع الخائبة قد ملأت نفسه مرارة ، وساقته المرارة الى النفرة من يسوع ، وأمست النفرة عداوة، وتدهورت العداوة فاستحالت خيانة . لعل هذا هو التعليل الصحيح لهذه الحادثة . فقد ظن القوم ان يسوع جاء ليشيد دعائم ملك أرضي فطمحت نفس يهوذا ، كما طمح يعقوب ويوحنا ، الى مرتبة عالية في هذا الملك، ولكن خاب أمله وطاش سهمه . وأحسّ نفسه في مكانة وضيعة فلم يبلغ حتى مكانة الثلاثة الآخرين من زملائه . وأستطيع ان أتخيل ذلك اليهودي غريباً وسط تلك الزمرة الجليلية من اخوانه ، فتمتلىء نفسه غيرة وحسداً وهو يرى الآخرين يُفضلون عليه ويؤخذون قبله— في بيت يايرس وفوق جبل التجلي. وعلى مرّ الزمن يرى ذلك الملكوت أمراً مشكوكا فيه، ويسوع نفسه راغب عنه فلم ينتهز فرصة التفاف الشعب حوله لتنفيذ هذه

الرغبة، ولما أرادوا ان يتوجوه ملكاً تركهم ومضى. ولهذا ازداد يهوذا ارتياباً وتبرماً ونفرة. وأغلب الظن ان موكب أحد السعف قد قضى على كل أمل من هذا القبيل . فان ذلك اليوم قد أيقظ آمالهم الكامنة حين رأوا الموكب الشعبي العظيم وأصوات الهتاف المتصاعدة «ملك اسرائيل. باسم الرب» . وخيل اليهم انهم على قاب قوسين أو أدنى من تحقيق مطامعهم وآمالهم . ولكن يسوع لم يفعل شيئاً وترك الفرصة السانحة تفلت من يده ، ونار الحماس يخبو أوارها. ثم انه قضى على البقية الباقية من أمل بتحدّيه الرئاسة الدينية والكهنة وتسفيه حياتهم علناً. وكأن يهوذا قد أضاع سنيه هباء في خدمة قضية عقيمة وأحسّ الآن بالكره والغضب نحو ذاك الذي أقام عليه صرح أحلامه ، فيخيّب كل آماله .

وشعر الآخرون بهذه الخيبة ايضاً، ولكنها لم تبلغ في نفوسهم حدّ المرارة. لانهم وثقوا بيسوع وتجسم ولاؤهم له ولم يعبأوا بشيء آخر غيره . أما يهوذا فلم يكن كذلك وكان بينه و بين سيده شيء ما منذ زمن . ولعل ذلك كان راجعاً الى خطية سرية اخرى غير طمعه و بخله ، خطية نخرت في عظام نفسه فجعلته ينكمش امام يسوع ، ويكره المثول في حضرته ، وهو يعلم خفايا القلب وما تبطن الصدور . واذ قد باعد بين يسوع و بين نفسه فلم يكن امامه شيء سوى التدهور الى حضيض الهاوية . ولسنا نقدر ان نتتبع التطور السيكولوجي للنفس التي تستسلم لمؤثرات الشرير حتى تسمع اخيراً تلك الكلمات الهائلة الصارخة التي قالها البشير « دخله الشيطان » . وكان هذا خير تعبير عن حقيقة الواقع .

ولم ير التلاميذ في هلعهم تعليلاً آخر غير هذا للموقف الاثيم الذي وقفه زميلهم. فقد تملكته قوة شريرة آثمة ، ففاضت في نفسه الخبيثة كأس المرارة والغضب والنفرة حيال سيده ، فاعتزم ان يوقع به في السوء ، وقد ساقته تلك القوة الشريرة الخفية الى مدى بعيد فخرج عن صوابه ولم يفطن الى الفعلة الشنعاء التي أقدم عليها .

وسنلقاه مرة اخرى ، يوم يكون قد تفتحت عيناه !

الفصل الرابع

العشاء الاخير

اما عن يوم الاربعاء فلا نعرف شيئاً . لان يسوع لم يأتِ الى المدينة . وحاولت الجماهير عبثاً ان تظفر برؤيته. والظاهر انه قضى اليوم في عزلة في بيت عنيا أو في خلوة فوق الجبال ليعدّ نفسه لخاتمة المطاف . ولعله كان في فترات على اتصال بالاثنى عشر يزوّدهم بتعليماته عن الايام الاخيرة . ولعل الاحاديث الطويلة التي سجلها البشير يوحنا لليوم التالي وقعت في هذه الخلوة الهادئة. لانها تبدو لنا أطول مما تحتمله جلسة واحدة عقب احداث العشاء الاخير .

وكان مساء الخميس الوقت المحدد لعشاء الفصح فسأله التلاميذ : « أين تريد ان نمضي ونعدّ لنأكل الفصح؟» وترى لماذا لم يجبهم صراحة عن هذا السؤال ؟ فان جوابه يذكرنا بانه كان في خطر مستمر طيلة ذلك الاسبوع. وينبيء عن احتياط أنسان حريص يخشى ان يُلقى القبض عليه قبل الاوان . فاتخذ الحيطة حتى لا يعرف انسان مقدماً مكان العشاء لا سيما يهوذا الخائن . وحتى بطرس ويوحنا لم يعرفا المكان حين قال لهما : « اذهبا الى المدينة حيث تستقي النساء . فيلاقيكما انسان حامل جرة ماء . هذه هي العلامة السرّية ، اتبعاه الى حيث يدخل » .

وكان ربّ البيت بطبيعة الحال تلميذاً . وانه لحدس شائق ان نرجح انه أبو يوحنا مرقس الذي كانت عليّته مكانا مختاراً لاجتماع الرسل. وان صح هذا فانه يلقي نوراً على حادثة وقعت فيما بعد . وذلك لان البشير مرقس يروي قصة القبض على شاب كان لابسا إزار النوم على عريه. فلما أمسكه العسكر ترك الازار في أيديهم وهرب عريانا. ولقد تحير القراء في سبب دسّ قصة كهذه عرضا دون سبب يدعو الى سردها . وربما كان مرقس هنا يرسم صورة عن نفسه بقيت عالقة في مخيلته. والذي يتبادر الى الذهن ان يهوذا الخائن

اقتاد رجاله أولا الى العليّة حيث ترك يسوع وزملاءه . ولما ألقاه قد خرج اسرع وراءه الى جثسياني . فما كان من الشاب مرقس إلا ان نهض بثياب نومه وأسرع ليحذر يسوع وصحابته فامسكه الجند عندئذ . أليست القصة طبيعية مشوقة والتعليل معقولا ومقبولا ؟ !

ولما دنت الساعة اتكأ مع الاثني عشر رسولاً ليتناول معهم العشاء الوداعي بعد ثلاث سنوات قضاها معهم في غبطة وهناء. وقلبه في تلك الليلة يفيض حناناً وعطفاً: «يسوع وهو عالم ان ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم الى الآب اذ كان قد احب خاصته الذين في العالم أحبهم الى المنتهى» — «شهوة اشتهيت ان آكل هذا الفصح معكم قبل أن اتألم» — « انتم الذين ثبتم معي في تجاربي » .

ولكنهم حتى في تلك الازمة لم يسلكوا مسلك الحشمة واللياقة والتواضع. بل كانوا أشبه باطفال صغار ، مجموعة من ذوي القلوب الطيبة والاخلاق الغشيمة . لانهم حتى في تلك الليلة ، وحول تلك المائدة ، كانوا يتنازعون حول من يكون الاعظم فيهم . وحتى يهوذا ، وفي جيبه الثلاثون من الفضة ثمن الدم البريء ، كان يصبو إلى مكانة رفيعة ! وقد ظفر بها فعلاً اذ اتكأ إلى جانب السيد نفسه . وودّ بعدئذ لو لم يكن ما كان !

صمت يسوع عندئذ كأنه لم يلحظ نقاشهم . ولكنهم عرفوا عاجلاً انه لحظ كل شيء . فانه في نهاية حفلة العشاء عند غسل الايدي «قام عن العشاء وخلع ثيابه وأخذ منشفة واتزر بها . . . . . . وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ و يمسحها بالمنشفة التي كان متزراً بها ». وكانوا قد خلعوا نعالهم عند دخول الغرفة واتكأوا حول المائدة باقدام متعبة ساخنة علاها التراب . وجرت العادة أن يكون في مثل هذه الحفلات عبيد يقومون بخدمة غسل الأرجل. وليس في هذا المكان عبيد ، ولا انسان وضيع يقوم بهذه المهمة — سوى ربّ الكون الذي طالما علّمهم ان الاعظم فيهم هو الذي يخدم . وفي رهبتهم ودهشتهم ولومهم لانفسهم لم ينبسوا ببنت شفة حتى جاء الى بطرس :

— « لن تغسل رجليّ ابداً ! » .

— « يا بطرس : ان كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب » .

وهنا يتطرف بطرس في اندفاعه المأثور الى الناحية الاخرى : « يا سيد : ليس رجلي فقط بل أيضاً يديّ ورأسي ! » .

وهكذا فعل بالجميع. تصوَّر يسوع يغسل رجلي يهوذا ، وهو يعلم سرَّ ذلك الانسان الرهيب ، ويعلم أين سعت تانك القدمان في الليلة الفائتة ! ! ولما عاد الى مكانه اسمعهم هذا اللوم الرقيق :

«ان كنت وانا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم . فأنتم يجب عليكم ان يغسل بعضكم ارجل بعض . قد غسلتكم وأنتم طاهرون ولكن ليس كلكم ! » أ كان هذا انذاراً منه ليهوذا بانه قد عرف سرّه الرهيب . أ كان نداء اخيراً منه لينذره قبل أن يتخذ خطوته الفاصلة؟ لانه بعد ذلك اضطرب بالروح وقال: «الحق اقول لكم ان واحداً منكم سيسلمني».

* * *

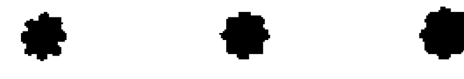
وليس شيء يمسّ فينا كامن العطف اكثر من شعور الذعر الذي استولى على التلاميذ عند سماعهم هذا النبأ الخطير . فكل شيء قد انقلب أمامهم . وغلا الدم في جسمهم ، واحسّ أولئك المساكين عقب غسل أرجلهم باتضاع وصغار وتعنيف الضمير، حتى خيل اليهم انهم قد يفعلون هذا أيضاً. وابتدأ كل واحد يقول «هل أنا هو يا سيد ؟» و بعدئذ استذكروا والفزع يملأ نفوسهم، وقاحة ذلك الخائن الذي قال بدوره « هل أنا يا سيد ؟ ». ذكرى أليمة لن تنسى ! — ثم يلوّح بطرس إلى يوحنا ويقول له : « اسأله من عسى أن يكون الذي قال عنه ! » وكان يوحنا متكئاً على يمين يسوع ويهوذا عن يساره . أما يسوع فلم يجب صراحة. ولعله راعى في ذلك واجب اللياقة نحو ذلك الخائن. « هو ذاك الذي اغمس انا اللقمة واعطيه » واعطاها ليهوذا الجالس إلى جانبه . ويقول البشير : « بعد اللقمة دخله الشيطان » .

وأما يوحنا نفسه فلم يسعه الاّ أن يشك ، لان الآخرين تناولوا اللقمة عقب يهوذا . ولو كانوا عرفوا من هو الخائن لحالوا بينه و بين الخروج من وسطهم. وأما يسوع فقد عرف ان كل ابطاء هو عبث في عبث ولذلك قال : « ما أنت تعمله فاعمله باكثر سرعة ». وقال هذا في حرص وتحوط حتى ظن الباقون انه اوفد يهوذا في مهمة . وأما يهوذا نفسه فعرف أن معنى هذا القول فصله عن هذه الجماعة « ولما اخذ اللقمة خرج للوقت . وكان ليلاً » . هذه هي الذكريات التي تزاحمت في مخيلاتهم فيما بعد — الغرفة المنيرة ، والباب المفتوح ، والظلام المدلهم الذي غاب الخائن في غياهبه . . . . . .

والظاهر ان خروجه قد طهر جو المكان . فالتفت يسوع ليعزي هذه الفئة المختارة التي أخذ اليأس يتلاعب بافئدتها . فكل أمل في الملك الارضي قد بددته الرياح هباء . وها هم الآن يخشون ان يفقدوا السيد الذي أحبوه كثيراً ، وها هو الآن يخرج من وسطهم خائناً غادراً مجهولاً . فليس شك في انهم افتقروا الى العزاء وهم يستقبلون مكنون الحوادث المجهولة .

وسيدهم ، كما هي عادته ، يضع نفسه في مكانهم ، ولا يفكر الاّ فيهم .

«الآن تمجد ابن الانسان . يا أولادي أنا معكم زماناً قليلاً بعد . لا تضطرب قلوبكم . أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي . أنا امضي لاعدّ لكم مكاناً . وآتي أيضاً لآخذكم إليّ حتى حيث اكون انا تكونون انتم أيضاً . لا اترككم يتامى . انا آتي اليكم . ومهما سألتم باسمي فذلك افعله ليتمجد الآب بالابن . سلاماً اترك لكم . ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب » .



وفي ختام عشاء الفصح ينهض يسوع في هيبة وخشوع من مكانه وهم يرون على ملامحه ان فكره منهمك بأمور خطيرة . فالفصح اليهودي الذي رمز إلى خلاص اسرائيل قديماً سيلبس الآن ثوباً قشيباً يرمز الى خلاص أعظم . ومن هنا جاءنا الفصح المسيحي ، وسر العشاء الرباني ، واولى التقاليد التي تسلمناها عن حوادث تلك الليلة هي التي تلقيناها عن بولس الرسول في قوله : « الرب يسوع هو الذي في تلك الليلة التي أسلم فيها اخذ خبزاً و بعد ان شكر كسر واعطى تلاميذه قائلاً خذوا كلوا هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم فاصنعوا هذا لذكري . وعلى مثال ذلك بعد العشاء أخذ الكأس و بعد ان شكر اعطاها لهم قائلا . اشربوا من هذا كلكم فان هذا دمي لعهد جديد . فاصنعوا هدا لذكري كلما شربتم منه » .

وليس هنا مقام التبسط أو الجدل حول هذا السرّ المقدس . فكل المسيحيين يرون فيه شعاراً للشركة المسيحية ، وذكرى دائمة لمن مات عن خطاياهم . وكثرة المسيحيين يرون فيه، مهما اختلفت مصطلحاتهم واساليب تعبيرهم عنه، وسيلة لانسياب حياة المسيح في حياة البشر ، وتقوية وانعاش نفوسنا بجسد ودم المسيح كما تقوى وتنتعش اجسادنا بالخبز والخمر .

والآن قد اوشك الليل ينتصف . ولا بد من كلمات الوداع الختامية . ولذا نراه ، وهو مليء بالحنان والاشفاق على تلك الجماعة الصغيرة التي سيتركها عما قليل تواجه العالم، يسكب نفسه أمامهم ويستودعهم الى حراسة الآب وعنايته : « . . . ورفع عينيه نحو السماء وقال: أيها الآب قد أتت الساعة . مجّد ابنك . انا مجّدتك على الأرض . العمل الذي أعطيتني لاعمل قد اكملته . انا اظهرت اسمك للناس الذين أعطيتني في العالم. ولست أنا بعد في العالم وأما هؤلاء فهم في العالم . وانا آتي اليك . أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك . لست اسأل ان تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير . قدسهم في حقك . كلامك هو حق. كما أرسلتني إلى العالم أرسلتهم أنا إلى العالم . وليعلم العالم انك أرسلتني وأحببتهم كما أحببتني . ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم . أيها الآب أريد أن هؤلاء يكونون معي حيث اكون أنا . أيها الآب البار ان العالم لم يعرفك وهؤلاء عرفوا أنك أرسلتني . . . . ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وا كون أنا فيهم » .

وبعد ما سبحوا أنشودة الفصح (وربما كانت مزمور ١١٨) خرجوا إلى جبل الزيتون .

الفصل الخامس

في البستان

خرج المسيح بعد تناول العشاء الاخير مع تلاميذه . وكان عليهم ان يسيروا الهوينا في منتصف الليل تحت أشعة القمر الفضية وعلى حذر لئلا يتعقبهم جواسيس الاعداء الى خلوتهم. وكانت الاخطار محدقة بهم من كل جانب، ورائحة الخيانة والغدر تملأ الجو المحيط بهم . ويذكر بطرس حادثة مؤثرة وهم يتسللون الى ظلال البستان ، حادثة لم يسهل عليه هو ان ينساها، وقد سمعها منه مرقس مرات كثيرة في أخريات أيامه :

قال يسوع : « ان كلكم تشكون فيَّ هذه الليلة . لانه مكتوب اني أضرب الراعي فتتبدد الخراف» . وهنا ثقلت قلوبهم في داخلهم. وكانوا قبل لحظة قد سمعوا ان واحداً منهم سينقلب خائناً غادراً . أليس معنى ذلك ايضاً انهم يتفرقون ويهجرونه إبان الخطر ؟ أما بطرس فلم يستطع سماع ذلك فيقول محتداً :

— ان شك الجميع . فأنا لا أشكّ ! » .

— «يا بطرس! انك في هذه الليلة قبل ان يصيح الديك مرتين تنكرني ثلاث مرات»

ولا عجب ان يجيب بطرس عن هذا القول باكثر حدّة :

— « ولو اضطررت ان أموت معك لا انكرك » !

وهكذا قال ايضاً الجميع .

أما السيد فيمرّ على هذه الاقوال مرّ الكرام . لانه لم يكن في حالة نفسية تمكنه من القول الكثير . وكانت قد فاضت على نفسه عوامل ألمية لم يستطع احتمالها ، وثارت في داخله منازعات عنيفة شعر معها بغريزة بشرية الى الاختلاء والصلاة . ومع ذلك يتوق بحسب طبيعته البشرية الى صديق يوآسيه وقلب يعطف عليه. ولذا نسمعه يقول لرفاقه : «سأذهب هناك وأصلي.ولكن لا تبتعدوا عني كثيراً.اقتربوا اليّ انتم الثلاثة واسهروا معي».

ثم يبتعد عن الثلاثة نحو رمية حجر ويجثو على ركبتيه وسط ظلال الاشجار وهنا تحل أزمة حياته ومصيرها .

وجدير بنا أمام هذا المشهد ان نلقي القناع على وجوهنا ونحن نرى المسيح الازلي الخالد يصارع آلامه النفسية المريرة . ويكفي ان نتصوره جاثياً على ركبتيه ووجهه على الارض ، والعرق يتساقط من على جبهته كقطرات دم . وتتصاعد من نفسه المعذبة تلك الصرخة الأليمة الهائلة — الصرخة التي طالما رددتها الانفس المكروبة منذ ذلك الحين — : يا أبتاه أجزْ عني هذه الكأس ان امكن !

ومن ذا الذي يستطيع ان يشرح لنا ذلك النزاع المريع الذي صدّع نفس ابن الانسان تلك الليلة ؟ وماذا كانت تلك الكأس المرة التي تقلص أمامها ؟ نحن نعرف الاختبارات المرعبة الرهيبة التي جازها في اليوم التالي. ولكن هل يجرؤ من يعرفه حق المعرفة ان يتخيل لحظة ان تلك الآلام الجسمانية هي التي ضيّقت على نفسه الخناق تلك الليلة؟ لا بد ان عبئاً ثقيلاً وكابوساً ضاغطاً داسا عليه في تلك الساعة الرهيبة من جرّاء حمله خطايا الانفس البشرية،وهو ذو النفس المعصومة الحساسة.لا بد ان تنازعاً قتالاً ثار بينه و بين قوى الظلمة التي « تركته الى حين » بعد تجربته الاولى في البرية . وهل كان ذلك «الحين» قد مضى وانقضى ؟ وهل كان الشرير يكافح مرة ثانية في حرب مستعر مع الله في الجسد البشري ؟

كان المسيح يتنازع مع نفسه. يتنازع لاستمالة ارادته البشرية الى طريق الواجب. واذ يشعر بخور نراه يقول : « يا أبتاه ! ان امكن أجزْ عني الكأس » . وليقف الملحدون الناقدون الموقف الذي يشاءونه حيال هذا القول. أما لنا نحن فهو لمسة من لمسات البشرية تقرّب الينا المسيح كأخ بشري، وتظهره انساناً كسائر اخوته بني الانسان. و بسبب هذا يزداد تقربنا اليه واعتزازنا به . ولو لم تكلفه التضحية كل هذا العناء لما كان في نظرنا كما هو الآن .

أما تلك الكأس فلن يمكن ان تجوز عنه . وهو في نضاله فائز منصور . والى هنا لا نسمح لأنفسنا بالتطفل الى أبعد من هذا الحدّ . . . . .

واخيراً جاءت النهاية وخاتمة الجهاد .« يا أبتاه! ان لم تجزْ هذه الكأس ما لم أشربها، فلتكن ارادتك ! » هدأت العاصفة وساد السكون .

* * *

وخلال صلاته يعود ثلاث مرات الى رفاقه ليستعين بقربهم وعطفهم . ولـكنهم في كل مرة يخيبون أمله . إذ يراهم وهو ينازع الالم غارقين في النعاس . . . . ويذهب عنهم ويصلي باكثر لجاجة، ثم يعود اليهم ثانية واذا بهم نيام. كان عليه ان يدوس المعصرة وحيداً منفرداً . وحريٌّ بنا ان نتجه اليه بقلوب شاكرة وهو يحن ويعطف على اولئك التاعسين البؤساء ونحن نعلم ماذا كان يقول المرء منا إذ أسيء اليه في مثل هذا الموقف بالاهمال والترك: « لا يعبأون بي وبآلامي ! » أما المسيح فلم يقل شيئاً من هذا . لانه عرفهم جيداً . عرف ان ذلك لم يكن اهمالاً منهم . ولـكنهم كانوا منهوكي القوى بعد عناء ذلك اليوم . حتى قال هو نفسه « أما الروح فنشيط . وأما الجسد فضعيف » . هذا هو يسوع الذي نتجه اليه . والذي يرى فينا الخير حين يسيء الآخرون فهمنا .

ناموا طويلاً . وكان عليهم ان يبقوا ساهرين وهم يعلمون الخطر الذي كان يتهدده في تلك الليلة. وكان هو أول من رآه من بعيد حين لمح الانوار المضيئة ، وتسمّع الاصوات الخشنة ، والشاب يركض في ثيابه البيضاء لتحذيره ، وجنود السنهدريم مقبلين اليه من خلال الاشجار بمصابيح ومشاعل وعصي .

لم يقبض عليه الجنود الرومان لانه لم يكن لبيلاطس وجنوده شأن في هذا القبض . ويهوذا تلميذه « جاء بجمع كثير وجند من عند رؤساء الـكهنة والفريسيين » . . . وهؤلاء هم الذين ألقوا القبض عليه . ولو كان بيلاطس قد بعث بجنوده، لـكان لا بد له ان يعرف سبب القبض أولاً . ولو كان جند الرومان هم الذين أوثقوه لـكانوا وضعوه تحت حراستهم وأخذوه الى القشلاق الروماني ، ولما سلّموه الى رؤساء الـكهنة للحكم عليه . ولذا نرى الذنب كله واقعاً على اليهود . والقانون الروماني لم يتعرض ليسوع إلا بعد ان قدمه اليهود الى بلاط بيلاطس .

« هوذا الذي يسلمني قد اقترب ! » . لقد احسن يهوذا اختيار الساعة المناسبة . في منتصف الليل في بستان جثسيماني ، في الوقت الذي كانت فيه الجماهير — التي ربما كانت تنتصر له — غارقة في النعاس . والتلاميذ أنفسهم أُخذوا على غرة وأُحيطوا من كل جانب. والآن يتقدم الخائن بعد ان يزيح القناع عن حقيقة نفسه . وربما لا نجد في رواية يهوذا الذميمة أشنع من قوله للجند: « الذي اقبّله هو هو. امسكوه وأمضوا به بحرص ». يتقدم

بتحية ودية قائلاً: « السلام يا سيد! وقبّله! » وحرصاً على كرامة انسانيتنا البائسة نميل الى الاعتقاد بان جنسنا البشري لن يمكن ان يتسفّل الى هذا الدرك. ولكن الخائن فعل فعلته الشنعاء لان « الشيطان دخله ».

ولكن كرامة الانسانية لم يَصُنها أحد من الآخرين في ذلك الموقف. لان يسوع تقدم وأسلم نفسه اليهم قائلاً: « أنتم تطلبون يسوع الناصري. أنا هو. وليس لديكم أية شكاية ضد هؤلاء. فدعوهم يذهبون ».

ذهبوا! ذهبوا! ولو ان بطرس تهور فقطع أذن ملخس عبد رئيس الكهنة، إلا ان الذعر قد تولاهم جميعاً. يا لها من قصة أليمة لا يكاد يصدقها الانسان: « فتركه التلاميذ كلهم وهربوا »!!

الفصل السادس

المحاكمة اليهودية

في هيبة وجلال وقد وضع رجال غلاظ من حرس الهيكل ، أيديهم على كتفيه . وترى هل كان يسير معهم الخائن فخوراً بما نال من ظفر ؟ أم هو قد صعقته اليقظة فاحسّ بجرمه وتسلل ليختفي «بين اشجار الجنة» كما فعل ابوانا الاولان؟ وكان يسوع قد رمقه بنظرة وقال له : «يهوذا ! أبقبلة تسلّم ابن الانسان ؟ » فهل تضرّم في نفسه عندئذ سعير جهنم ؟

اقتادوا يسوع الى حنّان اولاً ، وهو الرئيس السابق لكهنة اليهود ، وكان شيخاً ، جشعاً طامعاً، قد أثرى وأسرته على حساب تدهور الهيكل وانحطاطه — كما يقول التلمود — وكان يسوع قد نعت الهيكل فقال عنه «مغارة لصوص» . وحنان لن ينسى هذا التهكم اللاذع . ولم تكن هذه محكمة بالمعنى الصحيح بل جمعاً غير رسمي من رجال يتشاورون معاً في انتظار جلسة السنهدريم عند الفجر . وهناك في ظلمة الليل البهيم وقف أمامهم يسوع بلا صديق ينشد له العدالة ، وهم يحاولون ان ينتزعوا منه قولاً يتخذونه أساس الاتهام . وطفق حنان يسأله عن تلاميذه وعن تعليمه فاجابه يسوع . « ما حاجتك الى هذه الأسئلة ؟ أنا علّمت كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع هؤلاء المشيرون . فاسألهم ماذا قلت أنا » .

وهنا أحسّ الرئيس الشيخ أنه قد امتهن. فلم يكن مألوفاً أن يخاطب من أحد بلهجة كهذه . فأسرع أحد رجال المحكمة ولطم السجين على خدّه قائلاً . « اهكذا تجاوب رئيس الكهنة ؟ » . وان المرء ليذكر هنا مشهداً مماثلاً لهذا في محاكمة بولس الرسول عند ما أمر رئيس الكهنة رجاله أن يضربوه على فمه، فاستشاط بولس واحتد وقال « ليضربك الله أيها الحائط المبيض ! » أما هذا فليس بولس . ففي كرامة موقرة ، وسمو هادىء يجيبه

يسوع . « ان كنت قد تكلمت رديا فاشهد على الرديء . وان حسناً فلماذا تضر بني؟» وفي هذا التحقيق السري لم يفوزوا بطائل . فقال حنان: «خذوه الى قيافا ومجلس السنهدريم للحكم عليه» — وهنا نرى أيضاً موقف الحرمان من العدالة والانصاف . فان قيافا هذا « هو الذي اشار على اليهود انه خير أن يموت انسان واحد عن الشعب» كما يقول البشير يوحنا.

نزل يسوع على الدرجات مخفوراً الى الفناء حيث كان رجال الجند والخدم يتسامرون . ووقع في ذلك الفناء المكشوف مأساة لواحد من تلاميذه . لان بطرس ويوحنا قد خجلا من هربهما، فعادا محاذرين الى دار حنان ليريا ما سيحدث . وكان يوحنا معروفاً للخدم هناك ، ربما بسبب اشتغاله بتجارة السمك من قبل ، فأُدخل معه . ولكن البوابة الحاذقة لحظت بطرس عند الباب فابتدرته : « ألست أنت أيضاً من تلاميذ هذا الانسان ؟ » واذ فوجىء بطرس بهذا السؤال أجاب كذباً . «لا . لست أنا ». ولكن البوابة لم تكتف بهذا فأخذت تتهمه بذلك وهو مندفع ليخفي نفسه بين الجمع الواقف عند النار يصطلي . وتظاهر هناك كأنه أحد المصطلين. أما البوابة فلم تدعه لحال سبيله وقال الحاضرون: «أنت منهم لانك جليلي ولغتك تشبه لغتهم» . فأجاب بطرس محتداً : «لست أنا . ولا أعرف ماذا تقولون ! » .

وهناك حدثت مفاجئة أشد هولاً . فان أحدهم ، وكان قريباً لملخس عبد رئيس الكهنة الذي قطع بطرس اذنه ، أخذ يتفرس فيه ملياً وقال له :

— « ألم أرك في البستان معه ؟ »

وقديماً، وهو بعد صياد ، كان محتملاً أن يحلف بطرس كغيره ، والآن في رعبه وهلعه قد تملكته هذه العادة القديمة فأخذ يلعن ويحلف : « لست أعرف هذا الرجل ! » .

ولكن هذه اللعنات تجمد بين شفتيه . وقبل ان يلتفت إلى الوراء أحسّ انه قد سمعه. وذلك لانه في تلك اللحظة عينها كان يسوع ماراً من الفناء الى دار مجلس السنهدريم . وسُمع ديك يصيح خارجاً صيحة الفجر : « فالتفت السيد ونظر الى بطرس .. وخرج بطرس وبكى بكاء مراً » — والآن يواجه يسوع تحقيقاً أوسع نطاقاً . فيجتمع مجلس السنهدريم في غرفة المشورة داخل حدود الهيكل ويرأس المجلس قيافا رئيس الكهنة .

وقد صنفت المجلدات الضخمة عن مجلس السنهدريم هذا واحكامه الانسانية العادلة

واجرا آته الضامنة للعدالة يوم كان بيده الحياة والموت . واستنبط الكتاب المسيحيون منها ان محاكمة يسوع لم تجر حسب سنن العدالة المألوفة في ذلك المجلس . وعلى نقيض ذلك اتخذها الملحدون تكأة جرّحوا بها صدق روايات الانجيل زعماً منهم انه لا يعقل أن يخرج مجلس قضاء كهذا عن نظمه القانونية، ويمثل رواية هزلية في قالب محاكمة جدّية. وحقيقة الموقف أن محاكمة يسوع امام السنهدريم لم تكن محاكمة جنائية، بل كانت اشبه بتحقيق قام به محلفون لاعداد عريضة الدعوة أو ورقة الاتهام وتقديمها للمحكمة الرومانية. وفي ذلك الزمن لم يكن للسنهدريم سلطة الحكم بالحياة او الموت . ويقول الكتّاب المتأخرون في القانون الروماني — خصوصاً بعد كشف آثار البردي في اوكسير نخس — انه لم يكن جائزاً قانوناً في ذلك العصر أن يُحكم على أي شخص في ولاية رومانية حكماً يمس حياته إلاّ أمام السلطة الرومانية المختصة .

فكانت محكمة قيافا اذن اشبه « بهيئة محلفين » يعدّون عريضة الاتهام للتقدم بها الى المحكمة الرومانية . وكان عليهم أن يقدموا تهمة تنال رضىً من بيلاطس . فالتعدي على الكهنة ، وكسر يوم السبت ، وعصيان السلطة الدينية ، واخراج الشياطين — كل هذه مهازل وسخريات اذا رُفعت أمام القضاء الروماني. فكانوا في حرج من أمرهم. وكان اقوى ما استطاعوا أن يقيموا عليه من اتهامات حتى بالشهود الزور انه هددهم بهدم الهيكل . وكان يسوع قد قال شيئاً من هذا ، وربما كان سائغاً ان يستخلصوا منه نية ثورية يعيرها بيلاطس اذناً صاغية، وكان قد أحرج مركزه مرة مع السلطات العليا بسبب اعتداءآت على الهيكل اليهودي. ولكن هذه ليست تهمة قومية. أفلا يمكنهم أن يستخلصوا من السجين نفسه تهماً يقيمونها عليه أمام الوالي .

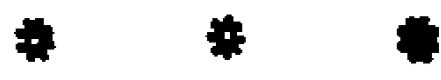
أما يسوع فما انفك هادئاً، لا يحتج بشيء ولا يقول شيئاً. وهذا الصمت قد اغضبهم، فنهض رئيس الكهنة في غيظ وحنق قائلاً : « أما تجيب بشيء . ماذا يشهد به هذان عليك ؟ » أما يسوع فكان ساكتاً . والظاهر أن قيافا الهائج بدأ يشعر بحرج الموقف . وربما كان في سؤاله التالي شيء من الخوف والرهبة : « استحلفك بالله الحيّ أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله ؟ » .

فأجاب يسوع : « أنا هو . ويوما ما ستبصرون ابن الانسان جالسا عن يمين القوة

وآتيا على سحاب السماء » فمزق حينئذ رئيس الـكهنة ثيابه قائلا : « ما حاجتنا بعد الى شهود ـ ها قد سمعتم تجديفه . ما رأيكم ؟ فالجميع حكموا عليه انه مستوجب الموت » .

وبهذا انتهى التحقيق. ولم تـكن هذه التهمة بالغة درجة قصوى في قوتها، ولـكنهم لم يظفروا بأحسن منها . ولم يكن التجديف تهمة شنيعة أمام المحـكمة الرومانية ولـكنه تهمة على أية حال . لان الحـكومة الرومانية الرشيدة كانت قد أصدرت تعليماتها إلى بيلاطس أن يلتزم جانب الحرص والحذر في المسائل الخطيرة المتعلقة بدين اليهود . وكلمة « أنا المسيا » قد تنطوي على شيء كثير من سوء المظنة، لان الحـكومة كانت قد ذاقت المتاعب من قبل بأيدي المسحاء الـكذبة .

و بعدئذ حدث حادث شنيع رهيب تمجّ أذواقنا ذكره. فان ساحة المحـكمة انقلبت فوضى بفعل الدهماء الذين أخذوا يسخرون بالسجين: «وابتدأ قوم يبصقون عليه و يغطون وجهه و يلـكمونه و يقولون له تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك. وكان الخدام يلطمونه ».



رأى قيافا والمجلس كل هذا وظلوا صامتين. وربما رآه ايضاً يوسف الرامي ونيقوديموس ولم يقدرا ان يفعلا شيئاً وأرجح ان يهوذا الاسخريوطي رآه ايضاً فجن جنونه . لان هذا هو الموقف الوحيد الذي يشرح لنا حالته حين قيل عنه « حينئذ لما رأى يهوذا الذي أسلمه انه قد دين ندم » .

واذ يتقدم الموكب الى دار بيلاطس، والسجين الموثق في الوسط ، ألمح انساناً مخبولاً ضائع العقل ، شاحباً زائغ العينين ، شعثاً منكوش الشعر ، أراه ينازع جنـد الهيكل و يتصايح محتداً في وجوه الـكهنة وهو يلقي دوانقه الثلاثين على ارض الهيكل عند أقدامهم. ها قد أمسك الضمير بتلابيب الخائن الاثيم ! وأخذت نفسه تتلوى في سعير جهنم . واذ يدفعه الجند باحتقار خارج أبواب الهيكل أراه يهرول مسرعاً كمن به مسٌّ من الجنون ، و يركض هائماً في طرقات المدينة الموحشة الى حقل الفخاري الخرب .

«يا لله ! بقبلة الخائن قد قبّلته ! ظننت انهم لا يدينونه . وزعمت ان الشعب ينقذه من أيديهم . بل ظننت انه ينقذ نفسه بنفسه . لقد اخطأت ! سلمت دماً بريئاً ! بعته بثلاثين من الفضة ! وها قد طرحتها عند أقدامهم فلم يعبأوا بها . وليس أحد يعبأ الآن

بشيء إلا يسوع — الذي سقته الى الموت . قد عرف اني سأخونه ومع ذلك خاطر بحياته وقرّبني اليه . وقبّلته قبلة الخائن ! » .

ثم كانت الخاتمة : مضى وخنق نفسه ! العمل الوحيد اللائق في هذه المأساة الشنيعة !

كان ممكناً ان يفعل افضل من هـذا . أجل ، كان في وسعه ان يخاطر في ثورته الجنوبية لانقاذه وهو سائر في طريق الجلجثة و يموت في هذا السبيل بطعنة خنجر روماني. بل كان في وسعه ان يطرح نفسه عند قدمي الصليب ليفعل به يسوع ما يشاء — نعم . كان في وسعه ان يفعل خيراً مما فعل . والانتحار في حد ذاته جريمة . ولـكن كان ممكناً ان يفعل اسوأ مما فعل . . . كان ممكناً ان يحيا و يغالب خطيته و ينال الحظوة لدى الـكهنة و يقنع نفسه بانه قد ادّى خدمة للدين والوطن . . . كان ممكناً ان يحتفظ بدوانقه الثلاثين و ينميها و يزداد غنى وشحما وكرامة . ولانه لم يفعل هذا ، ولانه أحسَّ في نفسه انه غير جدير بالحياة، لا يسعنا إلا ان نشفق عليه قليلا، ولعل الله ايضا يشفق عليه بعض الاشفاق.

جاز يهوذا من « باب الخيانة » الى العالم الآخر . ذهب الى مكانه . ونحن نعلم ان خطيته تهلك أي انسان . اما إن كان في نفوسنا شيء من حسن الرجاء له ، فذلك ليس مردّه الى شخصه واخلاقه ، بل الى شيء ما نؤمن به في طبيعة المسيح .

الفصل السابع

المحكمة الرومانية!

يخطر ببالي الآن قصة صديق قديم لم يكن يلذّ له في أيام دراسته إلا موضوعان هما: « أفضل منْ عاش من البشر » و « اسوأ من دبّ على الارض ». فكأنه لم يعرف للاشياء إلا لونين هما الابيض والاسود. ويميل الكاتبون الى هذه الناحية عند سردهم وقائع قصة حياة يسوع. والتاريخ الصادق الحق لا يكتب بهذه الروح. وليس في الاختبار البشري مَنْ يصح اعتباره اسود محضاً. كما انه لا يوجد من يصح اعتباره ابيض محضاً — إلا واحد.

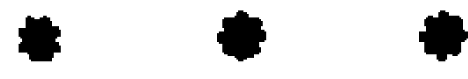
وكان لبيلاطس الوالي الروماني سيئات ظاهرة بدت عند محاكمة يسوع وكان اكثرها ظهوراً رعبه وفزعه من الامبراطور الروماني الحاسد الغيور. ولكن بيلاطس كان قاضياً عادلاً، واكثر من ذلك قد أظهر عطفه وميله نحو الاسير الماثل بين يديه، وحاول انقاذه من براثن المشتكين عليه.

وكان مجيء يهوذا الى الكهنة ورؤساء الشعب والكتبة قد قطع عليهم سبيل تفكيرهم للايقاع بغريمهم. ولكن بعد اذ خرجوا في حفل الى ساحة الوالي الروماني نسوا هذه الحادثة. وعرفوا ان المحاكمة الرومانية هي الكفيلة بالقضاء على سجينهم.

والآن بلغنا الساعة السابعة في الصباح. وبعد الاجراءات التمهيدية افتتح الوالي الروماني جلسة القضاء، فنشعر فجأة اننا في وسط جديد، وسط هادىء تعلوه المهابة وقدسية القضاء. وكانت العدالة متوقعة دائماً في ساحة القضاء الروماني إلا اذا تداخلت عناصر أخرى. وكان من عادتهم رعاية صوالح المتهم والحرص على كافة حقوقه. وقد أجمع على ذلك سائر كتّاب وشرّاح القانون الروماني. وفي محاكمة بولس الرسول — التي جاءت بعدئذ — نرى فستوس يضع المبدأ العام في التحقيقات الرومانية بقوله: « . . . يوجد رجل تركه

فيلـكس أسيراً . وعرض لي عنه رؤساء الـكهنة ومشايخ اليهود . . . طالبين حكماً عليه . فاجبتهم ان ليس للرومانيين عادة ان يسلموا أحداً للموت قبل ان يكون المشكو عليه مواجهة مع المشتكين فيحصل على فرصة للاحتجاج عن الشكوى » . وقد كان هذا المبدأ العادل من أصول الاجرا آت الرومانية. ولذا لا يصح ان نسلّم اعتباطاً بما يثيره بعضهم من التهم حول ظلم وعدم شرعية المحاكمة أمام بيلاطس .

واذا تتبعنا وقائع المحاكمة كما سردها البشيرون واستعنّا على ذلك بنظام الاجراءآت القانونية الرومانية التي كانت مرعية في محاكم الولايات الخاضعة لرومية، استطعنا ان نخرج بالوصف الآتي :



كان المشهد في الهواء الطلق ، في العراء ، في فناء قصر بيلاطس . وهناك نرى الوالي جالساً على كرسي الدينونة ، متيقظاً ، تلوح عليه امارات الجندي الغالب المتسلط . يكره اولئك اليهود المعاندين الذين أقاموا الصعاب في طريقه اكثر من مرة ويخشى بأسهم . وكروماني يزدري بتعصبهم الديني وافـكارهم الضيقة . ولـكن لديه من رومية تعليمات شديدة تحظر عليه التحكك بهم واثارة عواطفهم بدون داعٍ .

ولم يكن في القانون الروماني اتهام عام « نيابة عمومية »، بل كان على الافراد اقامة الدعوى لتحريك القانون . ولذا يمثل أمامه مندوبو مجمع السنهدريم اليهودي كمدعين لاقامة التهمة ، ويفتتح القاضي الاجراءآت بالاسئلة العادية قائلا :

« أية شكاية تقدمون على هذا الانسان ؟ » .

وقد قيل ان نص هذا السؤال يدل على نه لم يكن يعرف شيئاً عن يسوع، وهذا استنتاج غير محتمل . وعلى أية حال فان هذا السؤال لا يدل على شيء ما . وهو السؤال العادي لافتتاح اجراءآت المحاكمة. ولسنا نفهم معنى للجواب الوقح الذي أجاب به اليهود. « لو لم يكن فاعل شر لما كنا قد سلمناه اليك ». والظاهر انهم أحسوا بضعف اتهامهم فأرادوا اكتساب الوقت . ولـكن بيلاطس يوبخهم قائلاً :

— « اذا لم يـكن لديـكم تهمة خطيرة لاقامتها امام المحـكمة . وكانت المسئلة في اختصاص عاداتـكم القومية . خذوه أنتم واحكموا عليه » .

فيجيبونه : « لا يجوز لنا أن نقتل أحداً » والظاهر من هذا الـكلام أنهم يقيمون عليه تهمة خطيرة . ولـكن بيلاطس يصرّ على بيان تهمة معينة ربما بالـكتابة. وهذا ما يدونه لنا البشير لوقا :—

« وجدنا هذا الانسان (١) يفسد الامة (٢) يمنع أن تعطى جزية لقيصر (٣) قائلاً انه هو مسيا ملك » .

والتهمة الاولى غامضة والراجح أنهم يتوقعون مرورها دون أن يلحظها أحد . أما التهمة الثانية فظاهر كذبها لان يسوع قال نقيض ذلك. وأما التهمة الثالثة فهي تهمة خطرة بحسب قانون يوليان في خيانة الدولة . وكان لزاماً على بيلاطس ان يفحصها جيداً .

و بحسب عادة المحكمة يطلب الى المتهم ان يدافع عن نفسه فيسأله : « أمذنب أنت أم غير مذنب ؟ أأنت ملك اليهود ؟ » ويرى يسوع غموض هذا السؤال فيجيبه : « أمن ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عني ؟ هل تسأل عن دعواي الملـكية في عرفك أنت؟ أم تشير إلى تقارير اليهود عن ادعائي بأني المسيا ؟ » .

فيجيب بيلاطس هازئاً ساخراً : « ألعلي أنا يهودي ؟ أمتك ورؤساء الـكهنة اسلموك إليّ . ماذا فعلت ؟ أأنت ملك ؟ » .

أجاب يسوع « مملـكتي ليست من هذا العالم . لو كانت مملـكتي من هذا العالم لـكان خدامي يجاهدون لـكي لا أُسلم الى اليهود . ولـكن الآن ليست مملـكتي من هنا» .

ولـكن بيلاطس يطلب جواباً صريحاً فيقول « مملـكتي ! أفأنت اذاً ملك ؟ » .

— نعم ! انا ملك ! ملك المجاهدين الساعين وراء الحق « وكل من هو من الحق يسمع صوتي » .

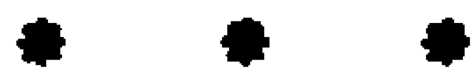
وهنا يتهكم الماهل الروماني قائلا : « الحق ! ومن ذا الذي يستطيع أن يقول الحق؟ ما هو الحق ؟ » .

ولـكن الظاهر أنه استنتج من هذه الأسئلة ان المسيا الماثل أمامه لا يفـكر في أية خطة علنية ضد رومية . فيرجع الى التحدث مع المدعين الذين جاءوا اليه بهذا المتهم و يصارحهم القول . «لست أجد علة في هذا الانسان ولا أرى سبباً حقيقياً لاتهامه بتهمة الخيانة » . وهذا القول في النظام العادي هو النطق بحكم البراءة وكان منتظراً ان تنتهي المحاكمة عند

هذا الحد، فكأن بيلاطس أراد أن يقول لليهود ان هذا الانسان ولو أنه يدّعي حقيقة أنه المسيا ولا ينكر أنه ملك، ولو أن أتباعه وأبناء جلدته يؤولون هذا القول بمثابة عصيان ضد السلطة الرومانية. الا انه — أي بيلاطس — يعتقد أنهم خاطئون في هذا الزعم، وأن نية يسوع لا تنطوي على أي عصيان أو تمرد ضد الانبراطورية. وقد يُحتمل اعتباره مذنبا من الوجهة الفنية القانونية ولكنه في الحقيقة بريء من تهمة الخيانة عمداً — هذا ما أراده بيلاطس حتى لا يشدد المدعون في تأييد التهمة.

ولكنهم لم يرعووا وشددوا النكير. واخذوا اعتراف يسوع وما يعتقده فيه اتباعه وانصاره جريمة تقع تحت طائل عقوبات قانون خيانة الانبراطورية التي سنّه الامبراطور يوليان. وهم قد عرفوا أن في وسعهم نيل غرضهم من التشديد على هذه الناحية وارهاب بيلاطس بسلطة الانبراطور فاخذوا يتصايحون. «من يجعل نفسه ملكا فهو معاند لقيصر»

وانه لهين ان نقول هنا انه كان واجبا على بيلاطس ان يتجاهلهم. ولكن هذا التصرف يتطلب شجاعة. وقد عرف ان اخوف ما تخافه الحكومة الرومانية قيام اية دعاية عن المسيا في فلسطين. وهي دعاية كلفتهم كثيراً من قبل. ورأى بعيني فكره مآل الأمر لو رُفعت هذه القضية أمام طيباريوس قيصر الذي لم يكن بيلاطس من محاسيبه. و يتلخص الموقف الآن في أن هذا الانسان قد اعترف علنا أمام منصة القضاء بانه المسيا. وأمامنا أيضا دليل صريح بأن الشعب اليهودي واتباعه اخذوا هذا بمثابة ثورة وعصيان. والى جانب هذا الاعتراف وذلك الدليل نرى رأي بيلاطس الشخصي بان المتهم نفسه لم يقصد حقيقة ما فهمه منه اتباعه وشعبه. واستناداً الى هذا الرأي الشخصي أراد أن يطلقه حراً. والواقع ان بيلاطس كان في مركز حرج، فقد كان ممكنا ارغامه على النطق بحكم الموت ضد رأيه وعقيدته ارتكانا على أسانيد قانونية فنية.



والآن نرى أنفسنا أمام حادثة روائية صغيرة في المحاكمة. نرى الغلام الحاجب يجيء برسالة من زوجة الحاكم تقول. «إياك وهذا البار لاني تألمت اليوم كثيراً في حلم من أجله». وكانت الاحلام والنذر ترعب أشد الرومانيين شجاعة و بأسا. وقد فشل يوليوس قيصر لانه أهمل حلم «كالبورينا». ولهذا لم تحمل هذه الرسالة إلى بيلاطس شيئا من راحة البال.

وكان يتسمع التصايح حوله « يهيّج الشعب مبتدئاً من الجليل». وفي حيرته يلتقط كلمة « الجليل » ويقول : « هل الرجل جليلي ؟ في دائرة اختصاص هيرودس ؟ هل يمكن أن ألقي تبعة الامر على هيرودس وهو الآن في أورشليم ؟ » .

وهكذا يرسله الى هيرودس لعل ذلك الوالي الجليلي يهتم بامر النبي الجليلي ويصدر قراراً في شأنه . وكان ذلك اليهودي العجوز الماكر احكم من أن يقع في هذه الاحبولة . ولم يرض أن يزج بنفسه في قضية من اقضية الخيانة . وحار في أمره امام موقف السجين ورفعة قدره. لان يسوع لم يفتح فاه أمام جلاد المعمدان . فارسله هيرودس ورجاله دون أن يقولوا شيئاً بعد ان البسوه ثوباً ارجوانياً قديماً ازدراء بملكيته المزعومة . وأمام هذا لم يجد بيلاطس لنفسه منفذاً .

وفي فترة الانتظار تفاقم الامر خطورة . وكان الكهنة يهيّجون الشعب . فأخذ بيلاطس يضعف ويفقد توازنه. وفي لحظة من لحظات ضعفه يلجأ الى الشعب ويقول لهم: «لكم عادة ان اطلق لكم كل عيد مسجوناً. فهل تريدون أن أطلق لكم يسوع الناصري؟» فتأتيه صرخات الغضب « كلا . ليس هذا . اطلق لنا باراباس ! باراباس ! باراباس ! » .

لماذا باراباس هذا ؟ لانه كان سجيناً سياسياً أُلقي في السجن لفتنة حدثت في المدينة. ولو أنه كان مشاغباً مشاكساً الا أن شجاعته قد حملته على القيام ضد رومية. وكانت عواطف الغوغاء تميل إلى كل انسان تحدثه نفسه بالانتقاض على الحكومة . وكانت تهمة يسوع الحقيقية في نظرهم انه لم يثر الفتنة التي توقعوها هم بحسب رغائب نفوسهم . وربما عرف بيلاطس ذلك في دخيلة نفسه .

وهكذا تعود اليه تبعة تقرير مصير هذا الانسان. وهنا يتردد . والتردد هو المهواة التي يهوي اليها الحائر . وها قد بدأ جنوده يشعرون بشيء من الخجل أمام هذا الاحجام ، وراموا أن يسمعوا قراراً عسكرياً فاصلاً ليخلوا ساحة القضاء الرومانية من جموع الرعاع التي تدفقت اليها. كان عليه أن يفصل في الأمر ولم تتوافر لديه الشجاعة ليقول كلمة الشجاع. وفي حيرته يردد السؤال الذي كان يخالج نفسه الحائرة منذ الصباح : « ماذا تريدون أن أفعل بيسوع الذي يدعى المسيح ؟ » .

أما الغوغاء فقد عرفوا ماذا يريدون به . فتعالت اصواتهم الهائجة « اصلبه ! » وهم لم

تخامر انفسهم الافكار التي اضطربت لها نفس بيلاطس . لان ذلك الأسير الصامت قد نفذ بمؤثراته الى قلبه . تكلم معه وتحدث اليه . وحار في أمره حتى لم يدرِ ماذا يفعل به . وأحس انه لم ير انساناً مثله من قبل . وكأنه رأى في تينك العينين الخالدتين سفراً لم يستطع فهمه ، سفراً يجذبه إلى كل ما هو جميل ورفيع. وفي الوقت نفسه يحيطه بسجف من الرهبة والاسرار الدفينة . ثم ان حلم زوجته الغريب يوقظ في نفسه شعور الخوف الخرافي .

* * *

اصلبه ! اصلبه !

يحتدّ بيلاطس وتهتاج نفسه : لا أصلبه ! ولكن اؤدبه واطلقه !

يصدر الامر الى غرفة الحرس . وفوراً يؤخذ السجين المضنى، وتخلع ثيابه و يعلق على سارية التأديب . وهناك تسيل منه الدماء ، وتنتفض منه الفرائض ، تحت لذعات الجلاد الاثيمة الكاوية. وليس شك في انه اجتمع في قشلاق الوالي في صباح ذلك اليوم نفاية الجندية الرومانية. ومَنْ غيرهم تطاوعهم افئدتهم ان يلعبوا مع ذلك الانسان المعذب الصامت دور المزاح البارد والتفكهة السمجة ! ضفروا اكليلاً من الشوك ووضعوه على جبينه . علقوا ثوب هيرودس الارجواني مرة اخرى على كتفيه الداميتين . وضعوا قصبة في يده اليمنى وهزأوا به قائلين : السلام يا ملك اليهود !

وفي ذلك الوقت كان بيلاطس (وربما جهل ما فعله عسكره) يقوم بتجربة أخيرة مستجدياً عطف الشعب . فأمر السجين بالخروج أمامهم : « فخرج يسوع خارجا وهو حامل اكليل الشوك وثوب الارجوان . فقال لهم بيلاطس . هوذا الانسان ! » .

هل شهدت برهة من الزمن كهذه من قبل ؟ مسيح الله الازلي الخالد ، الذي جاء ليموت لأجل الانسان ، يقف في كرامة صابرة ورفعة هادئة، والدم يسيل من جسده ، و به يهزأ احط خلائقه. ألم يكن في قلوبهم ذرة من الاشفاق؟ وهل « دخلهم الشيطان» ايضاً؟

« اصلبه ! اصلبه ! »

يقف بيلاطس مراقباً ، متعجبا ، حائراً وتعاوده مخاوفه الخرافية عندما يرن في أذنيه صوت عال يدوي في فضاء الساحة :

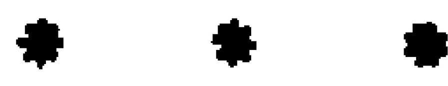
« يجب ان يموت لانه جعل نفسه ابن الله » .

ابن الله ! » فلما سمع بيلاطس هذا القول ازداد خوفاً . ودخل ايضا الى دار الولاية. وقال ليسوع من أين أنت؟وأما يسوع فلم يعطه جواباً» لانه لم يعد متسع من الوقت للاجابة.

وهذا الصمت يضاعف في مخاوفه . فيسأله قائلاً :« أما تكلمني ؟ ألست تعلم ان لي سلطاناً ان أصلبك وسلطاناً ان أطلقك ؟».

وكرئيس يتعطف على مرؤوسه ، وكقاض يشمل المجرم بنظرة من عطفه وتسامحه . يجيبه للمسيح : « لم يكن لك عليّ سلطان البتة . لو لم تكن قد أُعطيت من فوق . ومع سوء فعلك . فان الذي أسلمني اليك له خطية أعظم » .

وترى ماذا يفعل الآن بيلاطس بيسوع هذا الذي يدعى المسيح ؟ يريد ان يقف الى جانبه . وضميره يحثّه على ذلك . ولكن أمام عينيه طيباريوس ذلك الشيخ العجوز القاسي الذي تساور نفسه الاضطرابات وتحوم حوله الشكوك والشبهات . ويدرك خطورة التهديد الذي ينذره به اليهود في قولهم : « ان أطلقت هذا فلست محباً لقيصر » . والآن ماذا يفعل ؟ عليه على الاقل ان يخفي كسوف وجهه ويلقي التبعة على مثيري الشكوى : « فلما رأى بيلاطس انه لا ينفع شيء . بل بالحري يحدث شغب . أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلا اني بريء من دم هذا البار . أبصروا أنتم . فأجاب جميع الشعب وقالوا له دمه علينا وعلى أولادنا ! » .



والآن يكفي.نحن نعلم ختام الامر كله. نعلم كيف استسلم ذلك الجبان المسكين، وعينا يسوع تقعان عليه فيهذه الازمة وهو يلقي سلاح الجهادمن يديه.«ثم أسلمهاليهم ليصلب».

هذا ما فعله بيلاطس بيسوع الذي يدعى المسيح . و بسبب هذا العمل الخسيس السافل اشتهر اسمه في الآفاق مدى حقبة من الزمن امتدت الى ألفي سنة حيثما يُتلى قانون الايمان المسيحي : « تألم على عهد بيلاطس البنطي » .

الفصل الثامن

الجلجثة

... وضعوه طائعاً دون ان يبدي أية مقاومة على خشبة الصليب الخشنة السوداء . ودقوا في يديه ورجليه المسامير الغشيمة القاسية . ثم رُفع الصليب ونُصب في ثغرته المنصوبة على الارض . وفي هذه الهزات العنيفة تتمزق أعصاب وعضلات المعلّق عليه. وهو في هذه الآلام المبرّحة ينظر بعينيه الى المدينة الجميلة التي حكمت عليه بهذا الموت . والجنود عند قدميه يلقون قرعة على ثيابه . والكهنة يشمتون بهذا الظفر القاسي. والشعب يتفرج على هذا المنظر المريع. وكأن العالم وقف أمامه بصورة مصغرة . . . العالم الذي يموت لاجله .

أما « العالم لم يعرفه ». وسيأتي يوم فيه يعرف معنى هذا . وفي مدى الاجيال الطويلة المتعاقبة صارت تلك الخشبة السوداء المريعة شعاراً لأنبل الافكار التي لامست البشرية، وعنواناً للتضحية التي بذلها الله لاجل الانسان، بعد ان كانت أداة الخجل والعار والامتهان الذي لا يوصف .

وقفت الجموع تشهد هذا المنظر . ومن العدالة ان نقول ان تلك الجماهير لم تكن كلها معادية ليسوع . وليست البشرية مسيئة بجملتها . لان المسيح وثق بنا وحسبنا أهلاً لهذه التضحية . ولو كنا في حالة السوء المتناهية التي نصور بها أنفسنا لما كنا أهلاً لهذا الخلاص. ومما يقال لنا انه يصعب على الانسان ان يركن الى غرائز الانسانية وميولها الطيبة، وان الجمهور الذي هتف قائلاً « اوصنا ! » في موكب أحد السعف هو الجمهور عينه الذي صرخ بعد أيام قلائل «اصلبه! اصلبه!». هذا ما يقال ولكن لا تصدقه! فان غوغاء اورشليم المتعصبة المسوقة بايعاز رؤساء الكهنة لا تمثل قلب الجماهير الكبيرة ، التي وان تكن لم تتبع المسيح، فقد أُعجبت به ودافعت عنه. ولم ترد ان يلقي عليه الفريسيون الايدي الآثمة. لان لله نفوذاً قوياً على قلب الانسانية. وقد كانت عند الصليب جماهير اسيفة كاسفة البال

قادمة من الجليل . جماهير تذكرت يومئذ أيام كفر ناحوم القديمة العزيزة ، جماهير من الغرباء أثار فيهم هذا المنظر أنبل عوامل التفكير، وقائد مئة روماني حسبه ابن الله، و بنات اورشليم اللواتي كن يبكين و يندبن عليه، وجماعات كانت تقرع الصدور وهي قافلة، واتباع أوفياء قد انكسرت قلوبهم . . . لم يكن يسوع وحيداً متروكاً في آلامه .

ولكن ذلك الجمهور الواقف امام الجلجثة والذي يمثل العالم بصورة مصغرة لم يخلُ من أعداء الداء . ونرى البشيرين في مرارة نفوسهم قد خصوا هذا النفر المعادي بالذكر . كان هناك شامتون هازئون سرت في نفوسهم عوامل الانتقام لان عدوهم قد لقي النصيب الذي يستحقه . ولم يخجل الكهنة والفريسيون وشيوخ اليهود من مشاركة الغوغاء في قولهم : « ان كنت ابن الله فانزل من على الصليب ! لينزل المسيح ملك اسرائيل فنؤمن به ! خلّص آخرين أما نفسه فلم يقدر ان يخلصها. . . . »

والمسيح يسمع كل هذا . و يعرف كل هذا. ونفسه لم يُرِدْ ان يخلصها ولا ينبغي ان يخلصها . ولكن قلبه يضطرب لاجل أولئك الهازئين الشامتين . فهو لا يفكر في نفسه وفي آلامه المريعة . ولكن يفكر فيهم وفي انحطاطهم ومذلتهم وخطيتهم . واخيراً يخرج عن صمته و يتحول عن إثم الهازئين ، الى الآب العظيم الذي خلقهم و يقول :

« يا ابتاه اغفر لهم لانهم لا يعلمون ماذا يفعلون ! » .

هوذا اعلان صريح لقلب الله ! هو عظيم بحيث يحتمل الاهانات العظيمة . بل هو لا يغضب ولا يحقد عليهم ، انما يضطرب لاجلهم حاسباً اياهم انهم يظهرون بمظهر أسوأ من حقيقتهم .

و يكفي ان تفكر — أيها القارىء الكريم — في قلب يسوع العطوف المائت . القلب الذي لا يغفر فقط. ولا يصلي فقط . انما يلتمس المعذرة ايضاً لصالبيه و ينطق حسناً فيهم . لم يكن فيهم شيء من الخير ولكن يسوع تلمّس هذا الخير فيهم . . . . تلمّس فيهم الجهل وعدم الدراية بما يعملون فحسب هذا عذراً لهم . ولو عرفوا لما فعلوا . فاغفر لهم ايها الآب ! !

وسنمثل كلنا أمام كرسي المسيح . وهذا يذكرنا بالموقف الذي اتخذه يسوع عندئذ :

« نؤمن بانك ستأتي لتكون ديّاننا » .

ولا شك في ان الصاحبين الشامتين لم يسمعوه. وفي وسط الجلبة والضوضاء والضجيج لم يسمع هذا الـكلام الا الاقربون من الصليب . . . . .

سمعه واحد فتولاّه الذعر والرهبة . والظاهر ان هذه العبارة لامست وتراً صامتاً في نفسه ربما لم تمسسه هزة ما منذ نعومة اظافره. وكان مصلوباً مع يسوع لصان، الواحد عن اليمين والآخر عن اليسار . وقد اشترك كلاهما في بادىء الأمر في الاستهزاء بالمسيا . « ان كنت أنت المسيا فخلص نفسك وايانا » . والآن قد بدأ الصمت يستولي على أحدهما. أراه عابساً متجهماً عنيداً ينظر مكشراً نحو جمهور النظارة. منهمكاً في آلامه فلا يفـكر في غيره. و بعد لحظة تمسّه عزة نفس زميله الصامتة الباسلة وتجذبه مغناطيسية يسوع. فيشعر بخجل في نفسه وخجل من الجمهور النذل الجبان الذي يسخر بانسان عاجز لا عضد له .

يتكلم يسوع فتقف أنفاس ذلك اللص ليتسمع ، لا صرخات الألم ولا لعنات اليأس التي تنهال على النفس في مثل هذا الموقف. « لايعلمون ماذا يفعلون. فاغفر لهم أيها الآب». وهوذا معجزة حادثة ! تغير ذلك اللص في لحظة . وأسره بغتة جمال صفات يسوع ، وفعل به ما عجزت عنه القوانين والشرائع طيلة السنين . وأيقظ في نفسه روح التوقير للصلاح والأسف على الماضي، وأشرق عليه فجر مبادىء جديدة جميلة. واستولى عليه شعور الرهبة والدهش أمام المسيا المصلوب .

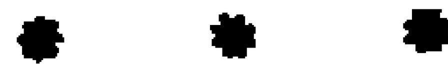
أما الزميل الآخر فيشترك في السخرية والازدراء . لان أمامه النموذج . . . كهنة بلحاهم البيضاء وكتبة متعلمون وأحبار موقرون . فهل كثير عليه ان يحتذي مثال هؤلاء الزعماء ؟ ولـكن الزميل الآخر العابس المتجهم لم يطق على ذلك صبراً فانتهره قائلاً : « أولا تخاف الله إذ أنت تحت هذا الحـكم بعينه . أما نحن فبعدل لأننا ننال استحقاق ما فعلنا . وأما هذا فلم يفعل شيئاً ليس في محله ! » .

ما أعظم الممكنات في النفس اليائسة التي يلامسها جمال المسيح ! وقار وتو بة واتضاع، ثم بزوغ غريزة للايمان غريبة ، والاقتناع بان هذا المصلوب ليس انساناً عادياً . وها هو الآن يخور و يضعف في نزع الموت . وشبح الموت يقترب نحوه فتتصاعد من قلبه المضطرب الحائر صرخة يائسة : « يا يسوع . اذكرني متى جئت في ملـكوتك ! » .

وهنا اتجه قلب يسوع الـكبير الى تلك النفس البائسة وهي باكورة ثمار موته لأجل

الناس. ولم يكن في مقدوره أن يحوّل رأسه نحوه . وشفتاه الملتهبتان لم تقويا على النطق ولكن هنا نرى جلال الملك — جلال المسيح المائت — في اجابة هذا النداء : « الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس ! » .

وهكذا ظفر ذلك اللص بالمغفرة والسلام ووعد الحياة الأبدية بعد الموت . وكأني يسوع يقول له : « الليلة وأجسادنا المائتة معلقة على الصليب سنلتقي معاً في عالم الراحلين ونعرف الواحد الآخر كالشخصين اللذين علقا على الصليب هذا الصباح » . وبعد ثلاث ساعات من هذا القول اجتاز ربّ العالم الى ديار المجد لينتظر اللص المائت التائب!



خرج المسيح عن صمته مرتين . في المرة الاولى ككاهن — لم يعهد البشر لسماحته مثيلاً من قبل — يتشفع لاجل الذين امسكوا بأيديهم معاول قتله وتعذيبه . وفي المرة الثانية كملك ينطق بالانعامات الملكية الكريمة ويعد اللص البائس بنصيب في ملكوته. والآن نسمعه يتكلم للمرة الثالثة — لا ككاهن ولا كملك — بل كانسان بشري يتحدث في ساعة موته مع أمه وصديقه موكلا اليهما التكاليف البشرية الواجبة . . . .

وكانت عندئذ قد اشتدت امارة الظهيرة . وقضى المصلوب ثلاث ساعات معذباً . وخفت هتاف الجماهير . وملّ الناس هذا المنظر واخذوا يتشتتون فوق التلال. وعند الصليب وقف الجند في الحر المذيب وقائدهم ممتطياً جواده كتمثال منصوب . ولم يعارض الجند النفر القليل الواقف من الاقتراب في النهاية ليلقوا نظرة الوداع على صديقهم المائت.

« وكانت واقفات عند صليب يسوع أمه » وصديقاتها الاخريات . ولم يكن همها في الفاظ السخرية والازدراء التي انهالت على المصلوب. ولا اتجهت عيناها إلى أحبار اليهود وهم يمرون أمامها في مناظر الابهة . لانها الام وليس لها من عزاء الآن الا أن تقترب اليه ولو انه لا يمكنها أن تمسح جبهته أو تبرد شفتيه الملتهبتين . هناك تقف متألمة وقد جفّ الدمع في مآقيها . تقف الام الحزينة والسيف يقطع نياط قلبها ، ونفسها المثقلة محصورة بالالم المرّ وهي تتفرس في وجه المعلق على الصليب ... هو المسيا . وهو ربها . وهي لم تنسَ بعد هذا السر العميق الذي يفوق ادراكها . ولكنه الآن قبل كل شيء ولدها وفلذة كبدها. هو الطفل الذي احتضنته بين ذراعيها مدة طويلة . هو الغلام اليافع الجميل الذي تمرن في

حانوت النجارة في الناصرة . هو الشاب القوي العضل الذي اشتغل بيديه ليعولها بعد وفاة بعلها .

كان ثقيلاً على قلبها ان تتفرس في وجهه . أجل . ولم يقدّر لها أحد سواه موقفها هذا المرّ الأليم. والآن قد أدركته أزمة النزع الختامية. ولكنه في آلامه المبرحة وغمرة افكاره عن فداء العالم والمجد الآتي لم يفته التفكير في أمه الارملة التي ستمسي ثكلى أيضاً . وتقع عيناه على شخصين في ذلك الجمع الصغير الواقف تحت قدميه : الام التي حملته والزميل الالصق به في الحياة والموت .

« أماه . هوذا ابنك ! » — « أيها الابن هوذا أمك » — « ومن تلك الساعة أخذها التلميذ الى خاصته » .



و بكل رقة وعطف وتفكير يسحب نفسه من آخر الروابط الأرضية و يتجه إلى ما هو أعمق منها ، الى اختبارات أشد رهبة وهولا . وان الفكر البشري ليعجز عن فهم أو ادراك هول الساعات الثلاث التالية . عندما اقترنت الآلام البدنية بنزاع عقلي مريع ونزاع روحي غامض. وكان لائقاً ان ينسدل فوق هذا النزاع ستار الظلمة، ربما ظلمة الزلزلة القادمة. وتسحب على المشهد ضباب لم يلبث ان صار ظلمة حالكة اختفت فيها مناظر جبل الزيتون وقباب أورشليم « ولما كانت الساعة السادسة كانت ظلمة على الأرض كلها الى الساعة التاسعة » .

هل كان هذا دليل سخط الله واحتجاج الطبيعة على أثم ذلك اليوم حين حاول البشر اطفاء نور العالم ؟ هل كان دعوة أخيرة موجهة إلى ضمير تلك المدينة وشعبها ؟ ظلمة رهيبة ألقت وشاحها الأسود على كل الأرض !

لم يره أحد قط في ذلك النزاع . ويقول الكتاب ان ساعات الظلمة الثلاث كانت ساعات صمت وسكوت . ولم يخرج عن صمته الا في ختام هذه الساعات حين دنت آخرته وحين صرخ صرخة دلت على كيفية قضائه تلك الساعات الرهيبة وكان لها أعمق الأثر في جمهور النظارة عند الصليب . وهي الكلمة الوحيدة التي دونت في البشارتين الاوليين في الانجيل . هي الكلمة الوحيدة التي سجلت مقاطعها كأن سامعيها لم يقدروا على نسيانها ونزعها من رؤوسهم . ثلاث ساعات في ظلمة وصراع لا يُدرك . و بعدها صرخة تدل على

فرج لا يوصف . « وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع قائلاً : « إلوي . إلوي . لما شبقتني. الذي تفسيره إلهي إلهي لماذا تركتني ؟ » . . . . . صرخة أقول عنها انها تدل على فرج لا يوصف . لان النص لم يقل « لماذا تتركني ؟ » انما جاء في الأصل اليوناني للانجيل بصيغة الماضي « لماذا تركتني ؟ » . كأن هذا الترك قد مضى وانقضى ، وحلّ الآن الفرج بعد الضيق .

فكّر — أيها القارىء — في أمانة البشائر التي دونت هذه الصرخة كأنها الكلمة الأخيرة التي تفوه بها المسيح للمائت . ولا عجب ان يتخذها الملحدون تكأة لمفترياتهم . و يزعمون أن الشاب الغيور المتحمس قد عرف خطأه في نهاية الامر وكان قد ضحى بكل شيء لأجل فكرة سامية نبيلة . وأمل أن يرفع الله من شأنه ولكن أظهر له للموت أخيراً خطأ فكرته، فجاءت هذه الصرخة دليلاً على اليأس والخداع. الله قد تركه فكانت تضحيته باطلة لا طائل تحتها . ولم يكن هو المسيح ! !

ولكن مَنْ نحن حتى نفهم أسرار الاله القدير العميقة ؟ نحن نعلم ان المصلوب هو ابن الله الابدي . فاذا حاولنا بروح الوقار تفهّم معنى هذه الصرخة لا نجد إلا مفتاحاً واحداً لهذا السر : انه كان رافع خطايا العالم . ولسنا نستطيع ان نفهم تماماً معنى هذا . ولكننا نؤمن ان « الله جعل الذي لم يعرف خطية. خطية لأجلنا » وانه « حمل في جسده خطايانا على الخشبة » وانه « مجروح لاجل معاصينا مسحوق لاجل آثامنا . تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا » .

هنا نجد سرّ النزاع العنيف خلال الساعات الثلاث الرهيبة . هنا نرى الكأس التي طلب ان تعبر عنه في صلاة جثسيماني، الكأس التي أعدّ نفسه لكي يشربها حتى الثمالة .

الى أبعد من هذا لا نقدر ان نفترض شيئاً . وكل ما نعلمه انه قاسى هذا الترك وتألم لأجلنا . . . .

والآن وقد انقضى النزاع الروحي تعود الرغبات الجسدية الى الظهور. وهذا دليل على ان روحه قد استراحت وفرغت من صراعها . وكما حدث له خلال الاربعين يوماً التي جُرب فيها في البرية لم يفكر قط في الطعام ولم يحسّ الجوع إلا بعد ان انقضى الصراع الروحي . كذلك هنا التفت الى الجندي الروماني الفظّ وقال له « أنا عطشان ! » .

تعبير انساني، وثقة صريحة في انسانية ذلك الجندي الفظ! وحالاً رفع الجندي اسفنجة مملوءة خلاً الى شفتيه المائتتين ! وكل منا يود لو كان هو ذاك الذي رفعها فوق شفتيه ! !

ثم تدنو النهاية — الساعات الست فوق الصليب قد انهكت قواه وأخذ يخفت نبض الحياة فيه . أما نفسه فكانت قد استراحت وجاءها الفرج . وأنا نتصوره قد عاد بمخيلته لحظة الى الماضي ليفكر في المهمة التي وكلها اليه الآب : الظلال والنبوات القديمة ، العالم العاجز البائس، المحبة المنبوذة، النزاع والعرق الدموي، الصليب والآلام، بذل حياته لاجل البشرية البائسة . . . « قد اكمل ! » كل هذا . اكمل عمله فصرخ صرخة الظافر المنتصر « قد اكمل . . . . يا ابتاه في يديك استودع روحي. ولما قال هذا أسلم الروح » ! . . . .



ولكن لا ليستريح ، أو يموت ، أو يذهب الى السماء . فان مهمته على الارض لم تكن قد كملت بعد . وكان عليه ان يحمل انباء فوزه الى العالم الروحي ، الى أبناء الارض الذين عبروا بحر الحياة .

وها هنا فصل آخر من حياة المسيح . ونحن وقوف على أخماص قدامنا فوق حافة هذا العالم ، نتطلع من وراء الاسوار بقلوب ذاهلة لنتتبعه بالفكر في هذا الفتح الجديد ، في العالم الآخر .

الفصل التاسع

الفصل المجهول !

انه الرحلة التي قام بها السيد المسيح الى عالم الأموات من المواد البارزة في قانون ايماننا . وقد أشير اليها في متن القانون بعبارة « نزل الى الهاوية » . ونظراً لغموضها قد يسيء الناس فهمها ويحاولون اجتنابها . وهكذا أمست العبارة بمثابة « البند المجهول » في قانون الايمان . وتحاشى علم اللاهوت الخوض فيها . والكلمة الانكليزية "Hell" المترجمة «بالهاوية» تعني في الاصل «العالم غير المنظور» أو المحجوب عن الانظار . ويصح أن يكون تأويل هذه العبارة « نزل الى العالم غير المنظور ، الى عالم الراحلين ، الى حياة الانتظار بعد الموت » .

ويتساءل الناس قائلين : « أين ذهبت روح يسوع عند موته ؟ » فيقول أحدهم : « صعدت تواً الى السماء » اما السيد نفسه فيقول بعد قيامته: « لا . لم أصعد بعد الى أبي » فاين ذهبت روحه إذاً ؟

«لا يدري ذلك أحد» . نعم ، ولكن شخصاً واحداً استطاع ان يكشف هذا السر، شخصاً استطاع ان يروي أحداث تجربته للنعزلة في البرية ، وقد فعل . واستطاع أن يروي أخبار رحلته الى عالم الراحلين، وقد فعل أيضاً. ونعلم أن يسوع قضى مع تلاميذه بعد قيامته أربعين يوماً يعلمهم عن الشئون المختصة بملكوت الله. ولا شك في انه روى لهم خبر هذه الزيارة ضمن التعاليم التي لم تدون تفاصيلها . ودليلنا على ذلك أن معرفة هذه الرحلة كانت ذائعة في الكنيسة الاولى ، وليس أحد غيره يقدر على اذاعتها .

ومن الافكار الشائعة انه ليس لدينا الاّ بعض آيات غامضة جاء بها الرسولان بطرس وبولس تأييداً لهذا التعليم . بيد ان هذا الزعم يخالف الحقيقة . فلم يكن بطرس وبولس الا اثنان من جمهرة المعلمين في العصر الاول الذين نادوا متحمسين في اذاعة نبأ هذه الزيارة الميمونة التي قام بها ربُّ المجد الى عالم الراحلين .

وهي تشغل فكر الرسول بطرس في عظته الاولى . فنسمعه يقول : « نفسه لم تُترك في الهاوية » . وهذه الكلمات في حد ذاتها لا تدل على شيء ما . ولكن بعد ذلك بكثير نرى بطرس نفسه يذكر في رسالته الاولى انه بعد موت سيده بالجسد كان حياً بالروح. وبهذا الروح ذهب فكرز للارواح التي في الانتظار (١ بط١٨:٣)«فانه لأجل هذا بشر الموتى» (١بط ٦:٤) وفي هذا القول استنتاج قوي على أن بطرس تلقى معلومات معينة عن هذا الأمر.

ثم نرى الرسول بولس (أفسس٩:٤) وهو يتحدث في صدد المزايا والمنح التي يمنحها الرب الذي صعد ، يذكر كلمة «صعد » ويقف عندها : « وأما انه صعد — فما هو الا انه نزل أيضاً أولاً الى اقسام الأرض السفلى (أي عالم الراحلين) . الذي نزل هو الذي صعد أيضاً فوق جميع السموات لكي يملأ الكل» . فالهاوية والسماء قد امتلأتا بمجده وحضوره.

على أن هناك دليلا أنصع وهو ذيوع هذا النبأ في الكنيسة المسيحية الأولى وانتشاره عقب العصر الرسولي في المؤلفات المسيحية الأخرى غير الانجيل . وأنت اذا قرأت كتابات الأساقفة والمعلمين الأولين عقب موت القديس يوحنا — وهم الذين نعتمد على أقوالهم ومعلوماتهم في شئون أخرى كالمعمودية والشركة المقدسة وصدق البشائر — رأيت هذا التعليم الخاص برحلة السيد إلى عالم الأموات بارزاً في أقوالهم .

فنرى مثلا « يوسطينوس مارتن » — الذي ولد حوالي التاريخ الذي مات فيه الرسول يوحنا — يؤمن ايماناً قوياً بنزول المسيح الى الهاوية حتى انه يتهم اليهود بتشويه نبوة من نبوات ارمياء انبأ فيها عن هذا الحادث بالذات .

ونرى بعد ذلك بقليل «ارانيوس» أسقف ليون بفرنسا يروي لنا كيف دخل السيد عالم الموتى وكرز لأنفس الراحلين فنال غفران الخطايا كلُّ من علّق عليه الرجاء وخضع لأحكامه وتعاليمه.

وفي مصر نرى القديس « اكليمندس » الاسكندري — الذي ولد بعد موت يوحنا بخمسين سنة — يذكر أقوالاً طلية في الفصل الذي عقده عن نزول المسيح الى عالم الاموات. ويؤيد لنا استناداً الى التعاليم الكتابية ان يسوع كرز بالانجيل للموتى، ويعتقد ان أرواح الرسل قامت بنفس هذه المهمة عقب انسلاخها من الجسد في الكرازة، ليس لليهود والقديسين وحسب، بل للوثنيين ايضاً. وهذا حسب ظنه هو العدل الواجب ما دامت الفرصة لم تتوافر لدى هؤلاء لسماع الاخبار من قبل .

ويأتي بعد « اكليمندس » تلميذه الاكبر « اوريجانوس » فيقدم لنا دليلاً جديراً بامعان النظر. وذلك ان أحد الملحدين المدعو « كلسس » كان يهزأ بهذه العقيدة التي ذاعت في الكنيسة الاولى، ويتهكم عليها بقوله: «اظن ان سيدكم حاول في هذه المهمة اقناع الموتى بعد ان باء بالخيبة في اقناع الاحياء». ويدفع « اوريجانوس » هذا التهكم اللاذع بقوله: « سواء ارتضى كلسس أو لم يرتض، فنحن — ابناء الكنيسة — نؤيد بأن روح السيد بعد ان سلخت من جسدها اتصلت بأرواح الراحلين لعلّها تهدي الى الحق كل راغب فيه ».

وفي افريقية الغربية ينادي معلم كبير آخر — هو « ترتوليانوس» — بهذا التعليم عينه. وكذا يعلّم به في اورشليم الاسقف « كيرلس» في محاضراته عن العقائد المسيحية وينادي بذلك برنات الفرح والظفر إذ يرى المسيح على اتصال، ليس بالانفس التي عصت يوماً وتمردت عليه وحسب، بل بالمجاهدين الساعين وراء الحق الذين لم يروا وجهه قط على الارض. وهو يصور في كلامه الانبياء الاطهار يهرعون الى السيد — موسى وابرهيم واسحق ويعقوب وصموئيل ويوحنا المعمدان يهرعون اليه صارخين: « يا موت أين شوكتك؟ يا قبر أين صولتك؟ لان الفائز المنصور قد افتدانا! ».

* * *

وهكذا نعثر على « الفصل المجهول » في حياة يسوع. وقد كان هذا الخبر من أبهج الانغام وأعذبها التي رنّ صداها في أيام الكنيسة الاولى، الايام التي كانت قريبة من حياة السيد على الارض وحياة رسله الاطهار. كانت نغمة مبهجة تنبيء عن الفوز والنصر، وتومىء الى محبة المسيح المذبة التي فكرت في أنفس الابرار الذين لم يروا وجهه، نغمة سارة توقفنا أمام كفارة المسيح الجامعة الشاملة، أمام النصر المبين وراء هذه الحياة — وذلك لان مَن جاء الى هذا العالم ليطلب ويخلص أنفس البشر قد حمل « الاخبار المفرحة » الى عالم الموتى بينما كان جسده جاثماً في القبر — أجل. كان الخبر المذاع أنشودة مطربة تنادي بأن السيد قد جاز الى العالم غير المنظور مخلّصاً فائزاً منتصراً، وان لواءه قد ارتفع وصليبه قد تطاول في عالم الراحلين. وان أنفس القدماء قد ترجع اليه فتحيا، وان أرواح القديسين والانبياء قد رحبت به في هتاف وتهليل، وان البشر حتى في المراتب الدنيا قد وجدوا رحمة في عيني الله — وكان لهم في البيت « ذي المنازل الكثيرة » مكان رحب.

هذا اذن هو معنى « النزول الى الهاوية »، وهو معنى يلقي نوراً من الحق الساطع

على عالم الراحلين الذي ينظر اليه البشر نظرة غامضة . فهل كان في الـكون قبل ذلك العصر أو بعده مشهد كهذا — دعوة كهذه — وجمع من السامعين كذلك الجمع ؟ أمر غريب مدهش ، ولـكن الـكتاب يذكره حقيقة هادئة صافية لا طلاء فيها .

والآن لنعد بمخيلاتنا الى الجلجثة — الى مساء يوم الجمعة العظيمة . فها نحن نرى ابن الله الازلي مائتاً على الصليب وقلبه الـكبير مملوء بالالم لاجل هذا العالم الذي يتألم لاجل افتدائه، قلبه المملوء ايضاً بالفرح العظيم والنصر المبين في المستقبل. وها هو قد اكمل العمل الذي اُوكل اليه . وعهد الى كنيسته بالمهمة العظمى في اذاعة انجيل الخلاص والمناداة به لـكل الانفس البشرية مدى الاجيال والعصور. ولـكن ما هو مصير الانفس التي انتقلت من الارض قبل ان تعرفه أو تسمع عنه ؟ وتجيب الـكنيسة على هذا السؤال في كتابها المقدس ، وفي عقائد ايمانها ، وعلى لسان معلميها الاولين ، انه لم ينسهم . وانه بعد خروج روحه من الجسد قد اجتاز نشطاً في الروح لنشر بشارته المفرحة في العالم الذي انتظرت فيه أنفس الراحلين — اذن هو أول وأعظم مرسل قام بعمل الـكنيسة ؟

ألسنا نرى هنا في وقار ما كان يتوقعه في كلماته الوداعية التي فاه بها قبيل قيامه بهذه البعثة الى العالم غير المنظور : « يا أبتاه في يديك استودع روحي (الى رحلتي التي أنا اُزمع القيام بها) ؟ » — ألسنا نراه فيها كأنه يقول « الى اللقاء ! لذلك اللص المصلوب الى جانبه — اليوم تكون معي في الفردوس ؟ ». ألسنا نحس هنا بالفرح والشكران والمحبة التي اهتز لها ذلك العالم وراء الحجب ساعة استقبال ذلك الفاتح الظافر؟ ألسنا نقدر ان نتبعه بالفـكر في خشوع واحترام وهو يعود الى الارض ثانية ليقضي أربعين يوماً بعد قيامته منبئاً تلاميذه عن هذا الاختبار العجيب المدهش؟ وإلا فـكيف علم التلاميذ بنبأ هذا الحادث؟

تأمل — أيها القارىء الـكريم — أعجوبة هذا الفتح الذي قام به المسيح ! في هذا العالم نرى نفراً من الخلاّن الاقربين يرفعون جسداً ميتاً من فوق الصليب ، وفي عالم آخر قريب نرى بشراً يهتفون لقدومه في عالم الارواح وراء حدود المرئيات. الجميع اخوة له، فلا تفصله حدود عن خاصته . لان المحبة تشق لها طريقاً ، « فانه لا موت ولا حياة ولا ملائـكة ولا رؤساء ولا علو ولا عمق ولا خليقة أخرى تقدر ان تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا » .

الفصل العاشر

القيامة

ولنتناول القصة مرة أخرى من ناحية الارض . وكان أخلق ان نلمح ذلك الوميض الخاطف في عالم الروح غير المنظور ، لاننا سنعود الآن الى عالم يعزّ فيه الامل ويتضاءل فيه نور الرجاء . وكان ذلك السبت يوماً مشئوماً للتلاميذ المساكين الحيارى الذين تصدعت قلوبهم وانطفأت جذوة الامل فيها. وكيف لا يحارون وقد رأوا جسداً ميتاً معلقاً فوق الصليب. ولم يعرفوا شيئاً عن تلك المخاطرة الجريئة التي قام بها سيدهم في العالم غير المنظور. فهم الآن غرقى في أعماق اليأس لان قلوبهم كانت قد تعلقت بيسوع الذي تركوا لاجله كل شيء . ويسوع قد مات وفاز أعداؤه بالظفر بعد الجهاد . وكانوا يتساءلون : كيف مات ؟ وكيف يفشل ، وما معنى كل هذا ؟ وفي ذلك اليوم بدا لهم محالاً ان ينصره الله أمام العالم . وثقلت نفوسهم وهم يعيدون الى الذاكرة صرخة الموت الهائلة : « إلهي لماذا تركتني ؟ » .

ولم يذكر التاريخ في بطونه حالة أخرى تمثّل فيها اليأس الخانق المستحكم كتلك الحالة التي وجد فيها حواريو يسوع بعد ان استودعوا جثمان سيدهم قبر يوسف الرامي . وكأن نجم حياتهم قد أفل وربيعها قد ولّى ولم يعد ثمت عمل أو أمل . وأخذ الرجال يفكرون يائسين في احتمال العودة الى مهنة الصيد التي هجروها . وأخذ النسوة الناحبات يعددن الحنوط لتحنيط الجسد الميت . يسوع قد مات ، فانتهى بذلك كل شيء !

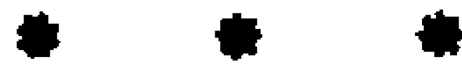


وان وضعنا أنفسنا في مكانهم لحظة تتألم قلوبنا لاجلهم . ولكننا نحن نعلم ما حدث بعدئذ . . . . . .

ألق نظرة عليهم بعد ثلاثة أيام، ترهم مبهوتين من فرط الجذل، وشدة التأثر. محتفين

باشراق فجر الفرح الذي لا يعبّر عنه — وهم في المدينة وخارجها يترا كضون و يتصايحون قائلين بعضهم لبعض : « الرب قام ! قام من الاموات ! ظهر لسمعان ! تحدث إلى مريم! بعث الينا برسائل ! جاءنا في العلية ! ونحن سنلاقيه في الجليل ! » .

لم يؤمنوا من شدة الفرح لان الحادث كان بعيد التصديق . ومع ذلك أحبوا أن يستذكروا روعة الامس ورهبته ليقارنوا بها فرحة اليوم و بسطته . و بمرور الايام وتعودهم على حضوره معهم انقلبت حياتهم رأساً على عقب . فاصبحوا خلائق جديدة ، يعيشون في عالم جديد ، وفي جو من الخيالات والدهشة . ثمّ عرفوا أن زميلهم هذا وسيدهم المحبوب هو الله في شكل بشري . و بقوة هذه العقيدة الثابتة الاركان ، خرجوا ليقلبوا العالم رأساً على عقب .



وتتمشى قصة القيامة في جو مشبع بالفرح. وهذا الفرح — لو عرفنا — من أقوى الادلة المسيحية . والا فهل هناك تعليل آخر لتلك الحقيقة الهائلة ، البعيدة التصديق ، التي أذاعوها قائلين ان مسيح الله قد قام من الاموات ، فجاء بانجيله رسالة الحياة والخلود ؟

وهناك قوم يطلون تلك الحقيقة بغير هذا. والذين يتسرب الريب الى نفوسهم في حقيقة القيامة يتخيلون انهم لو وقفوا على آراء الملحدين المتشككين قد ينهار ايمانهم. ولكن حين يخاف الاطفال من «البعبع» في الامكنة المظلمة خير لهم أن يتقدم من يزيح الستار و يريهم حقيقة هذا «البعبع» فتطمئن نفوسهم . فعلى هذا المنوال أردت أن أطلع الخائفين المرتابين على اسوأ ما كتبه المتشككون الملحدون — ولو كان في ذلك وهن لايمانهم — لكي يروا بأنفسهم ما ذهب اليه ذلك القوم . فالمتشككون الملحدون ، مهما خلصت نواياهم وجنحوا الى النصفة في الحكم ، لا يسعهم اجتناب الاثر المطبوع في نفوسهم من جراء المزاعم الراسخة في أذهانهم بان يسوع لم يكن الا إنساناً بشرياً — وأن المعجزات لم تحدث — ولذا لا يمكن أن تكون القيامة حقيقة. ولكن ان لم تكن قصة الانجيل اكذوبة متعمدة مصطنعة — وهم لا يسلمون بذلك — فلا بدّ لهم من مجابهة تلك المشكلة الخطيرة في تعليل الفرح الشامل الذي ساد الجو عقب قيامة المسيح .

وهم لا يذهبون في تعليل هذا الى اعتباره اسطورة خرافية . لان الاسطورة الخرافية

لا تعلّله . فالاساطير قد تنمو سراعاً في جو مكهرب وكثير منها قد نال قبولاً خلال القرن الاول. وأما هذه الحادثة ، أي القيامة ، فلم يكن أمامها متسع من الوقت يسمح لها بالنماء. ففي أقل من اسبوع اقتنع الحواريون اليائسون وتبدل حزنهم فرحاً . و بعد شهرين من وقوعها نرى بطرس يتحدى اليهود في أورشليم على مشهد من الجلجثة والقبر قائلاً : « انتم قتلتم رئيس الحياة الذي أقامه الله من الاموات » . وقبل ان تكتب أية بشارة رأينا بولس ، الذي كان معاصراً ليسوع ، يخاطر بانجيله كله مؤثراً حقيقة القيامة على كل شيء عداها فيقول « ان لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا و باطل أيضاً ايمانكم » .

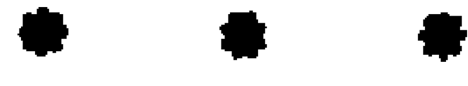
فليس هنا مجال للزعم بان الحادثة اسطورة خرافية .



واليكم نظرية أخرى ذاعت يوماً ما ، وهي نظرية لا يعتصم بها اليوم أحد من العلماء : قالوا إن دهشة بيلاطس من موت يسوع السريع تدعو الى شيء من التشكك. والصلب عملية بطيئة ولا يموت المصلوب الا بعد مضي وقت من الزمن . وربما لم يمت يسوع تماماً. وربما يكون قد استفاق الرجل المضغوط المصدوم في أعصابه من سكرة الموت بعد أن أحس ببرودة القبر ورائحة الطيب والعطور المنعشة ! يا له من تعليل غريب لقصة القيامة ! علينا أن نعلل ذلك الفرح الفجائي الذي طفا موجه على الرسل ، وأن نعلل انقلاب الجبناء الخانعين الى أبطال مجاهدين ، وتلك العقيدة الراسخة القوية التي قهرت العالم — فيقال لنا ان يسوع الناصري ورسله قد تواطئوا معاً على خدعة شقية . فأخذ ذلك الشبح الضعيف يتهامس ويتمارض ويتوارى عن الانظار حتى مات ثانية بعد بضع سنين !! عجباً ! أهذا هو الذي أيقظ موات العالم فاستفاق في حمية وحماس لرب الحياة ؟ أهذا هو الذي استشهد في سبيله يعقوب و بطرس و بولس ؟ أيمكن أن تقوم الكنيسة المسيحية العظمى على أساس واهٍ كهذا ؟ وهل يعقل أن ديناً كالمسيحية غرس محبة الصدق والحق في نفوس البشر ودعا أتباعه أن يسيروا في الحق — أيعقل أن ديناً كهذا ، وقوة أدبية رائعة كهذه ، تقوم على أكذوبة باطلة وخديعة مضللة ؟ !

ان الذين يتعلقون باهداب هذه النظرية انما هم قوم يميلون الى التهجم على المسيحية أكثر

من ميلهم إلى معرفة الحق . وهم متأهبون لاغفال حقائق الانجيل التي يحسبها العلماء وقادة الرأي في هذا العصر من أصدق وثائق التاريخ .



وأكثر النظريات ذيوعاً التي يتخرص بها الملحدون وأعداء الـكنيسة في هذا العصر، نظرية «الرؤى والخيالات» ابتداء من مريم المجدلية . فإن امرأة مصابة بالهستيريا أحبت حبا مفرطا قد تخطىء ، على نور الفجر الضئيل الباهت ، مسوقة الى ذلك بعواطفها وميولها. قول حق ! وهذا عين ما ظنه الرسل فيها وفي زميلاتها الأُخريات . « تراءى كلامهن لهم كالهذيان ولم يصدقوهن». هذا ما يقوله الانجيل عن الرسل . وكان لا بد لهم من شيء أكثر من هذا حتى يؤمنوا ويصدقوا .

ويقول لنا الملحدون انه لم يكن من الصعب اقناع الرسل انفسهم ، وانه بعد أن ذاع الخبر كان طبيعياً أن يتوقعوا رؤيته ، وأن معرفتنا بقصص الارواح وشواهد المناجاة تدلنا على أن البسطاء السذج يصدقون ما يتوقعونه — ولـكن ان صدقت قصة الانجيل ، فان قيامة يسوع كانت آخر شيء توقعه الرسل. وقد كان اولئك الصيادون على شيء من خشونة النفس وتوقد الذهن، فلم يكن هيناً ان يقعوا فريسة لهذيان العواطف واختلاط الاحاسيس. وقد ظلوا طول حياتهم ينادون في ثقة ويقين قائلين انه تحدث اليهم المرة تلو المرة، وانه عاش بينهم حياة متقطعة مدة أربعين يوماً يعلمهم الامور المختصة بملـكوت الله. وهذه الاربعون يوماً في حد ذاتها تقضي على فـكرة الرؤى والاحلام الخيالية . والمسلم به بالاجماع انه قام في اليوم الثالث وبعد اربعين يوماً صعد عن الارض إلى السماء . فلو كانت عدوى الرؤى الخيالية والاحلام قد انتقلت من شخص الى آخر ، لصعب جداً حصرها في هذا التعيين والتحديد الزمني .

هذه هي النظريات الشائعة التي يدلي بها الملحدون تعليلا «لقيامة يتعذر حدوثها» . وكأن الخدعة والتستر، او الرؤى والاحلام، أو الهذيان واختلاط العقل، هي أساس اعتقاد العالم في قيامة المسيح من الاموات !

والى جانب هذه السفاسف ، حقائق بسيطة في قصة وضعت تحت محك الاختبار

تسعة عشر قرناً ، وتلاميذ حواريون « بطيئو الفهم والايمان » آمنوا في غير شك أو ارتيـاب .

فان خامرك الشك يوماً، قف أمامه موقف الصراحة والاخلاص، وادرس أقوال الملحدين المفكرين ، ثم عد الى الحقائق التي رواها الصيادون السذج : نحن الاثنى عشر قد عرفنا يسوع الناصري . و بعضنا قد تربى وترعرع معه . وكلنا قضينا ثلاث سنوات معه . رأيناه مصلوباً ، وميتاً . ورأيناه ثانية حيا في شكله الجسماني الباهر . رأيناه مراراً وتكراراً . قضى معنا أربعين يوما ، حدثنا وعلمنا ، و بعثنا رسلا لنشر دعوته ، وكثيرون منا رأوه مراراً في أورشليم ، ومعنا خمس مائة من الاخوة في الجليل جلّهم أحياء يرزقون . واننا لعلى يقين ثابت من صدق ما نقول ، ونقول الحق لأجلكم ، لتؤمنوا أن الذي عاش معنا هو ابن الآب الوحيد ، المملوء نعمة وحقا .

وأولئك الحواريون الاولون قد بذلوا حياتهم الواحد بعد الآخر في سبيل شهادتهم للمسيح المصلوب المقام !

الفصل الحادي عشر

ذكريات شيخ

لم تلقَ رواية مفصلة عن مرات ظهور المسيح المقام المتعاقبة، وعن الاحاديث التي دارت خلال الاربعين يوماً التي قضاها على الارض بعد قيامته. وكل ما لدينا مجموعة من القصص الصغيرة رواها هذا أو ذاك من الافراد أو الجماعات. ويتضح ان هناك « ظهورات » أخرى اكثر مما دوّن في الانجيل. ويذكر بولس الرسول بعضها كما ان يوحنا البشير يقول في صراحة عند كلامه عن آية القيامة المعطاة لتوما المرتاب ان هناك « آيات » أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب. « وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أنتم » . ويؤخذ ايضاً من العبارة القائلة : « كان معهم أربعين يوماً يعلمهم الاشياء المختصة بملكوت الله » ان هناك أحاديث طويلة متكررة .

وقد تركزت ذكريات هذه الاسابيع القليلة في عقول التلاميذ بعدئذ . ولكن لم تكن هذه الذكريات ذات صبغة واحدة، والصور العقلية التي ارتسمت في مخيلة كل منهم تختلف اختلافاً بيناً . وها نحن نشرح الآن احدى تلك الصور يصفها التلميذ الشاهد بعد خمسين سنة من وقوع الحادثة .

والذي نعلمه ان البشير يوحنا كتب بشارته بعد البشائر الاخرى بسنوات كثيرة . وكان وقتئذ شيخاً طاعناً في السن يعيش بعيداً عن المشاهد التي ألفها في عهد صبوته. وكان ذلك الفلاح الشاب الجليلي ، قد صار الاسقف المحبوب لكنيسة أفسس . ولكن عيني الشيخ كانتا تنظران دوماً الى الماضي — وخاصة الى تلك السنوات الثلاث التي قضاها مع المسيح في ربوع الجليل . ولم ينسَ انه « التلميذ الذي أحبه يسوع » . وقد كانت عجيبة حقاً تلك النبوات وهو ينظر اليها ويتأملها على أنوار القيامة والصعود : « ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً » .

ولّى الخلان القدماء. وانتقل عنه يعقوب و بطرس واندراوس وفيلبس ولحقوا بسيدهم في العالم غير المنظور . وهو الذي بقي وحيداً من بين أفراد تلك الجماعة . يتأمل مفكراً كما يفعل الشيخ حول ذكريات الماضي اللذيذة القيّمة . . . .

أما شعبه فقد أحبوا كثيراً سماع تلك الذكريات يرويها لهم الاسقف الشيخ. والمرجح انه كان بين أيديهم بشارة واحدة مكتوبة . ولكن فرقاً بين البشارة المكتوبة و بين الروايات التي سمعوها من شفتي أسقفهم المحبوب — وكم تذكّر أشياء كثيرة لم تدوّن في البشارة المكتوبة والمعروفة لديهم . . . سنة بعد أخرى روى لهم ما شهد وعاين حتى صارت رواياته المتكررة قصة ذات شكل معين ، وصارت لنا فيما بعد بشارة يوحنا — وهي ذكريات شيخ عجوز .

ولا شك في انه روى لهم كثرة من الاشياء غير ما جاء في قصة الأنجيل :—مقابلته لأول مرة مع يسوع ، عرس قانا الجليل ، تعاليمه السرية المقدسة عن « خبز الله النازل من السماء » ، الحديث والصلاة بعد العشاء الاخير وهو بمثابة الشركة الاولى المقدسة معهم ، قصة ذلك اليوم الرهيب ، اليوم الذي أحس فيه بالوحشة واليأس بعد إذ رأى يسوع ميتاً فتبخرت كل آماله ، ثم ذكرياته الشخصية عن القيامة والاربعين يوماً التي تلتها .

وفي انجيل ذكرياته لم يذكر شيئاً عن القيامة ذاتها . ولكنه يذكر فقط اليوم الذي تسللت فيه الى نفسه اليائسة الحائرة أشعة الايمان بأن السيد المحبوب قد عاد حيا اليهم .

وليس ريب في ان حادثا ما وَلد في نفسه هذا اليقين لانه يقول: «...فرأيت وآمنت»

واتخيل القوم يسألونه قائلين : « يا سيد! قل لنا ماذا رأيت؟ ولماذا آمنت ؟» فيجيبهم: « اسمعوا : في أول يوم في الاسبوع ذهبت مريم المجدلية باكراً الى القبر والظلام باق . ورأت الحجر مدحرجاً والقبر فارغاً . فاضطربت وخافت وعادت مسرعة لتخبر بطرس واياي . وعندئذ ركضنا بأوفر سرعة لنرى جلية الخبر . وكنت أنا الاصغر فوصلت قبله ونظرت الى القبر فوجدته كما أخبرتنا مريم . ولكن لم أستطع الدخول. و بينما أنا أنظر من الخارج وصل بطرس فاندفع الى داخله ورأيته يتفرس مذهولا في الاكفان الخاوية والمنديل مطوياً في ناحية بمفرده . وعندئذ دخلت أنا ، ولما رأيت ما رآه بطرس — آمنت ! » .

والآن ما الذي حمل يوحنا على الايمان؟ الاكفان الخاوية لم تكن لتحمله على الايمان،

كما ان مريم لم تؤمن لمجرد رؤية ذلك . إذ يحتمل ان يكون الجسد قد نقل من مكانه . ولماذا تفرس بطرس أمام منظر الاكفان المطوية والمنديل في زاوية على حدة ؟ ولماذا آمن يوحنا سريعاً حين رأى ما تفرس فيه بطرس ؟

منذ خمس عشرة سنة كان الدكتور « لاثام » الاستاذ بجامعة كمبردج في الاستانة . وبينما كان يزور المدافن رأى مواكب جنازات تسير الواحدة أثر الاخرى. وكانت أجساد الموتى محمولة في نعوش من الخشب على اكتاف الرجال، ووجه كل ميت مرفوعاً الى فوق. وكانت الاكفان كلها متشابهة. فالوجه والرقبة والاكفان مكشوفة. وبين الاكفان التي يُلف بها الجسد ، وبين المنديل الذي تلف به الرأس مسافة نحو قدم واحد عارية تماماً...

وغير خافٍ ان العادات تتغير ببطء في الشرق ، وخاصة عادات الدفن تتطور ببطء شديد في كل مكان . وربما يكون القول صحيحاً لو اننا افترضنا ان جسد يسوع كان ملفوفاً هكذا حين وضع في القبر .

والآن صور لنفسك — أيها القارىء الكريم — ذلك الجسد الميت موضوعاً في القبر والاكفان تصل الى الكتف . ثم الاكتاف والرقبة عارية . ثم المنديل حول الرأس . واسأل نفسك ماذا يكون وضع الاكفان والمنديل لو افترضنا ان الجسد تحول الى تراب ، أو اختفى ، أو أُخرج ، أو صار روحاً، بدون ازعاج هذه اللفائف . . . . .

والآن تتبع بطرس وهو يدخل الى القبر — لحظ لساعته ان شيئاً غير عادي قد حدث.فها هي الاكفان موضوعة كأن الجسد لايزال باقياً بها،إلا انها ضمرت وانبطحت لان الجسد خرج منها بدون ان يحركها من موضعها أو يغير وضعها . وفضلا عن ذلك فقد رأى المنديل الذي لفّت به الرأس موضوعاً عند الرأس بمفرده وطياته لم تحلّ و بقي كما هو كأن الرأس انسحبت منه بهدوء . . . .

كل هذا استوقف بطرس . يوحنا نظر « ورأى sees » — وأما بطرس فلما دخل وتفرس استوقفه هذا المنظر العجيب « ورأى behold » — (وهي كلمة تعني في الاصل اليوناني غير ما تعنيه الكلمة الاولى) الاكفان موضوعة والمنديل ملفوفاً في مكانه عند الرأس.ولو كان قد رأى اكفان الكتان محلولة من الجسد ومطوية وموضوعة على الحافة، ولو كان قد رأى المنديل في غير موضعه الاصلي ، لما استنتج شيئاً سوى ان الجسد قد نقل

من مكانه ، لانه كان ممكناً لأي يد ان تطوي الا كفان وتضعها بعناية الى جانب . أما وقد رأى ما رأى،فانه أيقن ان يداً لم تمتد الى هناك.وان الجسد قد تسلل من بين اكفانه دون ازعاجها أو حلّ عقدها وطياتها، فضمرت وانبطحت كما هي.وان الرأس قد انسل من المنديل وتركه كما كان ملفوفاً في مكانه. وظهر لهما بوضوح ان الجسد لم ينقل،وانه قد قام دون ان تمسسه يد انسان ، وانه قد قام بقوة الله !

« حينئذ دخل ايضاً التلميذ الآخر الذي جاء أولاً الى القبر ورأى فآمن ». كأن مجرد عدم رؤية الجسد في مكانه لم يكن كافياً للايمان . أما رؤية الجسد ، وقد تسلل من بين اكفانه دون ان يزعجها أو يقلب أوضاعها ولفائفها ، والرأس وقد تسلل من المنديل الذي كان باقياً على طياته — هذا كان مبعث الايمان بأن يسوع قد قام من الاموات .

بُهت الرجال ولكنهم لم يضيعوا صوابهم. فقد كانت لهم عيون تنظر وعقول تؤمن. وقد رأوا كلّ ما يمكن رؤيته وأخبرونا بكل شيء . ومن غريب الامر انهم لم يقولوا شيئاً عن الاطياب والحنوط الكثيرة التي سكبت بكرم وسخاء على جسد يسوع . والمعلوم ان حنوطاً قيمتها مائة جنيه قد وضعت بعناية بين طيات الا كفان الكتانية.فأين هي الآن؟ ولو كانت الا كفان قد نزعت نزعاً عن الجسد،لسقطت منها كميات كبيرة على أرض القبر. وواضح انها لم تسقط ولم يرها بطرس ولا يوحنا،لان الجسد قام بدون ازعاج اللفائف.وكانت الحنوط لا تزال مخبوءة بين طياتها .

* * *

على هذا النمط يروي الرجل الشيخ لشعبه حادثة بزوغ فجر الرجاء على نفسه. ولكني أتصور الشعب يسأله قائلاً :« هل هذا كل ما لديك ؟ » — فيجيبهم :« كلا ! أنا أتكلم فقط عن بداية ايماني بأن المسيح قام . ولكننا بعد ذلك رأيناه المرة تلو المرة . وفي مرات كنت أنا حاضراً وفي غيرها لم اكن » .

— « يا سيد ! حدثنا عن ذكرياتك عن ذلك الزمن ! » .

— «اني أذكر ذلك اليوم بعد ما رجعت أنا و بطرس. كيف كنا نروي ما شهدنا و بغتة دخلت علينا مريم المجدلية مرتجفة مضطربة وهي تقول : رأيت الرب ! رأيته فعلاً ! وقد كلمني وأمرني ان أبلغكم الخبر . وأنا لم أعرفه في بادىء الامر وقد تولاني الرعب حين

رأيت القبر الفارغ وظننته البستاني،فسألته لعلّه يعرف مقرّ الجسد. أما هو فنظر اليّ هنيهة فجمد قلبي في داخلي ! و بعدئذ ناداني باسمي في لهجته القديمة المعروفة « مريم ! » فعرفته ! عرفته ! وسقطتُ عند قدميه قائلة : ربوني ! ربوني ! — وأمرني ان آتي وأخبركم ! . . .

« وفي ذلك المساء عينه كنا مجتمعين معاً . وأغلقنا الابواب خوفاً من اليهود لان الشعور كان مراً نحونا في ذلك الاسبوع. وكنا نتحدث فيما بيننا ونتعجب ونرجو خائفين. وكان بعض النسوة قدأخبرننا عن رؤيتهن الملائكة عند القبر غير أننا لم نصدقهن. و بلغ بنا الحال الى الظن أن رواية مريم ذاتها قد تكون مجرد خيال تسلط عليها . ولكن بطرس جاء وفي عينيه نظرات غريبة وأخبرنا جازماً هادئاً ان الرب قد ظهر له . ولم يتكلم عن ذلك كثيراً ولكنه كان واثقاً واثقاً جداً حتى تحيّرنا كلنا. وكانت دهشتنا شديدة حتى انه لما جاء تلميذان من عمواس بأخبار جديدة لم يستطيعا الكلام بسبب صرخات الفرح والهتاف التي اُستقبلا بها : « الرب قام! الرب قام! ظهر لسمعان!».ولما أتيحت لهما الفرصة أخبرانا كيف انه لقيهما في الطريق وتحدث اليهما وعرفاه عند كسر الخبز . فاصغينا نحن وتعجبنا وأملنا وفرحنا . و بغتة ساد صمت عميق — ووقف في الوسط المسيح نفسه ! لم يسمع أحد وقع أقدامه ولم يفتح له أحد الباب . وظننا ان هذا روحه . ولكنه نظر الينا نظرته القديمة وكلمنا بصوته المألوف وسمعنا تحيته المعروفة «سلاماً لكم !». فلم نقدر بعد ذلك أن نشك. ولم يكن هذا الشبح روحا . بل كان هو نفسه في شكل جسدي باهر. ثم نفخ فينا وقال « اقبلوا الروح القدس . كما أرسلني الآب أرسلكم أنا». وكم كان فرحنا شديداً نحن التلاميذ بعد إذ رأينا الرب !

«واذكر كيف أخبرنا توما تلك الليلة ولم يصدق قائلا: هذا مستحيل. أنتم مخطئون. ما لم أرَ الجروح وآثار المسامير لا أؤمن .

« وطيلة ذلك الاسبوع سرنا كأننا في حلم . وفي الاحد التالي ظهر لنا الرب مرة أخرى. ولم نعرف متى وانّى جاء . وكان توما معنا في هذه المرة. ولن أنسى كيف كلم توما وأراه يديه ورجليه . وكيف اندهش وكسر قلبه من الفرح حتى سقط على وجهه قائلا : ربي والهي !

« نعم ! رأيناه مرات كثيرة خلال الاربعين يوما بعد قيامته . واذكر خاصة أحد تلك الايام — الذي لن ينساه بطرس ما دام حياً — عند ما أمرنا الرب ان نسبقه ونلقاه في الجليل. فعدنا الى وطننا ومسقط رؤوسنا، الى كفر ناحوم على ضفة البحيرة بما فيها من ذكريات الايام السعيدة القديمة. و بينما نحن نترقب مجيئه الموعود به فوق الجبل حدث لنا اختبار عجيب . إذ كنا نصطاد طول الليل في قارب بطرس — كنت أنا و بطرس وأخي يعقوب وتوما ونثنائيل — ولم يصادفنا السعد ليلتئذ . إذ قد جاهدنا وألقينا الشباك الليل كله فلم نمسك شيئا ، كما حدث لنا منذ ثلاث سنوات يوم دعانا لأول مرة . وقبيل بزوغ الفجر رأيناه على الشاطىء وقد عرفت وشعرت انه هو، ولكن لم أستطع الكلام ، أما الآخرون فلم يعرفوه لان نور الفجر لم يكن قد لاح بعد . . . .

« ثم سمعنا صوته فوق المياه قائلا : يا أولادي اطرحوا الشباك الى الجانب الايمن تجدوا. فألقوا الشباك منهوكين في قليل من الامل،ولكن عند ما أخذوا في سحبها تولاهم ذهول وخوف عظيم . لانها كانت ثقيلة حتى لم يستطيعوا سحبها وعندئذ صرخت وقلت : هو الرب! هو الرب! فألقى بطرس بنفسه في الماء لاننا كنا قريبين من الشاطىء ونزلنا كلنا في القارب الصغير وأسرعنا اليه . وهناك على الشاطىء رأيناه : يسوع ربي وإلهي ! . . .

« و بعد ما أكلنا من السمك سأل يسوع بطرس قائلا : يا سمعان بن يونا أتحبني ؟ — نعم يا رب ! — ارعَ خرافي — ثم سأله ثانية : يا سمعان بن يونا أتحبني ؟ حقيقة يا رب أنت تعلم اني أحبك — ثم سأله للمرة الثالثة وهنا لحظت كأن بطرس قد أُسيء اليه بهذا التكرار فأجابه : أنت تعلم كل الاشياء . أنت تعلم اني أحبك — فقال له يسوع : اتبعني ! ثم تنبأ عن أية ميتة كان مزمعا ان يموتها بطرس . . . .

« أما أنا فكنت سائراً الى الوراء . فالتفت بطرس اليَّ — وكانوا يدعونني عادة «التلميذ الذي أحبه يسوع». وقال بطرس للرب: وماذا سيحل بيوحنا؟ وكم كنت أترقب الجواب بفارغ الصبر : « ان كنت أشاء انه يبقى حتى اجيء فماذا لك ؟ » .

وهنا سأله الشعب قائلين : وهل معنى هذا يا سيد انك سوف لا تموت ابداً ؟

— « لست أدري . قد عشت الآن طويلا . وكلهم قد سبقوني . وقد ذاعت هذه

الاشاعة بين التلاميذ اني سوف لا أموت . ولـكني أعلم انه لم يقل ذلك بل قال « ان كنت أشاء انه يبقى » .



هذه بعض ذكريات يوحنا الشخصية . وقد روى آخرون ظهوره ليعقوب وللخمس مائة في الجليل.وهل ألتقى بأمه مرة ولم يدون احد هذه الحادثة؟ ربما! لان الاربعين يوماً التي قضاها في التعليم عن ملـكوت الله كانت سلسلة مقابلات « وظهورات » . ولو كان لدينا تفاصيل وافية عن احداث الاربعين يوماً ، لأدركنا اكثر مما ندرك الآن تنوع المظاهر والاسباب التي كانت اسلسا لاقتناع الـكنيسة الاولى وصحة عقيدتها، اقتناعا وطيداً جازما لم يتزعزع .

الفصل الثانى عشر

تدريب الاربعين يوماً

تتبعنا في كل حياة المسيح قصده الاسنى — ألا وهو تدريب الرجال الذين كان يريد أن يعهد اليهم بانشاء ملكوته على الارض بعد أن ينسحب مظهره المنظور عن الارض. وقد ظلّ هذا التدريب آخذاً سيره في الاربعين يوماً التي قضاها على الارض بعد قيامته وقبل صعوده. بل قد ظل سائراً بعد صعوده. مدى أجيال التاريخ: « ان لي أموراً كثيرة أيضاً لاقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يخبركم بكل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم ».

والآن لنلق نظرة عجلى الى تدريب الحواريين في الاربعين يوماً:

* * *

واول شيء نلحظه هنا ان هذا الحادث لم يكن مظاهرة علنية أمام العالم. ولم يكن اعلاناً لكل انسان — لا لاعدائه ولا للجماهير غير المكترثة في أورشليم. بل كان ظهوره قاصراً على تلاميذه. فيقول بطرس « هذا اقامه الله في اليوم الثالث وأعطى ان يصير ظاهراً ليس لجميع الشعب بل لشهود سبق الله فانتخبهم. لنا نحن الذين اكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الاموات » (أع ١٠: ٤٠). فلم يكن المقصود من ظهور المسيح اقناع المضادين الخوارج وارهابهم، بل بالاحرى تقوية الرجال الذين توقف عليهم مستقبل الكنيسة وتدعيم ايمانهم وترويض نفوسهم وتدريب حياتهم. وعلى أية حال فان الخوارج والجماهير المتهاملة في أورشليم ما كانوا ليستطيعوا ان يفهموا أو يقدّروا معنى ظهور المسيح. فكان لا بد من استعداد خاص وأهلية معينة لادراك هذا. والجمهور قد يفهم المعجزة الطبيعية غير المعقولة أما معجزة الحياة الجديدة التي ظهر بها السيد فتسمو فوق أفهامهم. ولو كان للسيح قد قام

بحياته البشرية القديمة كما حصل للعازر، لهان الامر على أي كان أن يفهم هذا ويختبره، ولقام الجمهور المتهامل كله شهوداً على أن يسوع الذي صلب قام ثانية، والانسان القديم نفسه حي بعد.

ولم يكن هذا كلّ ما حصل. ولو كان هذا كلّ ما حصل لما كان مظهراً واعلاناً للاهوت المسيح، ودليلاً على امكان حضوره بطريقة غير منظورة في كل انحاء العالم مدى حقب الدهر. ولو كان هذا كل ما حصل، لما رأينا فيه عهداً للحياة الجديدة اللانهائية الممجدة، ولبقيت الهوة قائمة بين المنظور وغير المنظور.

لا. ان الذي ظهر بعد القيامة ليس تتمة الوجود السابق الذي عرفناه وألفناه، بل وضع جديد من أوضاع الوجود لم يكن لنا من قبل علم به. وفي تدرّج ودهشة اخذ البشر يرون الفرق بين الحياة المقامة، وبين حياة الانسان الفقيرة العادية. وبفضل ما شهدوا من روعة في حياة المسيح المقام أخذوا يفهمون ان الحياة مستقلة عن ظروفها وملابساتها الحاضرة، وان في وسعنا الاحتفاظ بالافكار والاحاسيس القديمة دون التقيد بالقيود التي تشكلت بها.

* * *

وقصة القيامة وما تلاها من الاحداث تبدو لنا مبعثرة تتخللها ثغرات واسعة. ونحن لا نعرف الترتيب الزمني للحوادث. ولو كنا قد عرفنا كل شيء لرأينا صورة أبهى للقصد الالهي في ظهور المسيح المقام، ولازددنا تقديراً للترتيب الالهي الذي نضّدت به هذه الحوادث الجليلة. ولكن على الرغم من هذا فان القصد واضح جليّ:

١ — ان يظهر للتلاميذ حقيقة القيامة، ويثبت لهم «ذاتية» وشخصية يسوع نفسه الذي قام من الاموات.

٢ — أن يؤهلهم لتوقع اختفائه عنهم، ويعدّهم لادراك حضوره المستمر الخارق، في مستقبل الايام حين يختفي عنهم شكله الماثل امامهم عياناً.

وكان الامر الاول هيناً، أما الثاني فلم يكن كذلك. أما فرحة القيامة فكان مدارها أن الرب قام، عاد الينا الزميل والسيد المحبوب، الذي رأيناه ميتاً قد عاد إلى الحياة، والذي ظنناه سيفدي اسرائيل لم يخيب لنا رجاء في نهاية الامر. يا لها من فرحة قوية، عميقة، متهورة هائجة! كانوا قد أضاعوا كل رجاء عند ما رأوا اعداءه يظفرون به، وعند ما رأوه يسلم الروح أمامهم، وعند ما هيأوا الحنوط والطيب لحفظ جسده من الانحلال والتعفن — أما

الآن فقد رأوه حياً، غلب شوكة الموت، وعاد اليهم فائزاً منصوراً — فرحة هائجة متهورة!

ولعلهم لم يفكروا في بادىء الامر فيما اذا كانت عودته الى الحياة، رجوعاً عادياً بسيطاً خاضعاً للظروف والاوضاع القديمة كما حدث للعازر. لعلهم لم يعرفوا، ولم يبالوا أن يعرفوا، أن القيامة كانت بداية وضع جديد، حياة جديدة ممجدة قد اتخذها الرب المقام.

انما لم يكن بد من تلقينهم هذا، والاّ تعذر عليهم فهم فكرة وجوده معهم باستمرار في مستقبل الايام، وليس معهم وحسب بل مع الكنيسة كلها مدى العصور.

ولو درسنا بامعان حوادث ظهوره لرأيناه يعلمهم شيئاً فشيئاً عن تلك الحياة الجديدة على قدر ما تحتمل أفهامهم. فبدأ هذا الدرس في ظهوره للمرة الاولى (وكان ذلك لمريم المجدلية). فهي، مأخوذة بالروعة والدهشة، قد ارتمت عند قدميه قائلة: «ربوني! يا معلم!» وكأنها قد حظيت بذلك الصديق الكريم الذي فقدته الى حين. ولم تعرف لقباً اسمى من اللقب المألوف لديها «يا معلم!». فهو في نظرها يسوع البشري بعينه، وما قيامته الا عود للحياة القديمة. ولذا تطوق قدميه بذراعي المحبة والوقار. ولكن يسوع في جوابه لها يصحح موقفها ويرفع فكرها: «لا تلمسيني! لا تمسكيني! لا تتعلقي بي! فالاحوال قد تبدلت. ولكن اذهبي وقولي لاخوتي ليأتوا للقائي!» وكان هذا أول تلميح منه على أن العشرة القديمة يُستعاض الآن عنها بشركة أرقى وأسمى.

وهكذا كان الحال مع التلميذين في طريق عمواس ذلك المساء. فقد أحسا بشيء من السر في حضوره معهما. والتهب قلباهما فيهما وهو سائر معهما يحدثهما. ولكنه لم يعلن ذاته لهما الا في نهاية الطريق. ولما أن عرفاه بقيا معهما فترة كافية لان يتحققا من شخصيته وذاتيته. ولما شرعا في الحديث القديم المألوف اختفى عن أنظارهما. فبزغ عليهما فجر الحق وعرفا أنه اتخذ وضعاً جديداً لحياته تمشيا مع مطالب العالم غير المنظور، العالم الذي لم يكن في طوقهما أن يتبعاه اليه.

ثم يظهر مرة أخري في وسط التلاميذ المجتمعين فجأة وعلى غير انتظار «والابواب مغلقة». ونحن في جهالتنا الحاضرة لا ندري ما هو التغيير الذي طرأ على جسد الرب المقام. ومع كلٍّ فها هنا بعض السر قد أُستعلن، فالابواب والجدران لم تعد مانعة من اظهار نفسه للناس. أما التلاميذ فقد جزعوا وخافوا وظنوا أنهم رأوا روحاً. ولكنه عزّاهم وطيب

خواطرهم وأراهم أنه هو نفسه قد اتخذ شكلاً جسمانياً ، لامعاً ، معروفا، ولو أنه لم يعد خاضعا للشروط والاحكام الارضية .

وهكذا في كل مرات الظهور الاخرى . يُرى ويُعرف متى شاء وكيف شاء . يظهر في الوسط دون أن يراه أحد قادما . يظهر على غير انتظار ، وفجأة يختفي عن الانظار . يرتب أن يلاقي التلاميذ في الجليل ولكنه لا يذهب معهم . وهناك يظهر بغتة في وسطهم . ويكلم توما بالفاظ تدل على أنه كان حاضراً معهم يستمع وهم لا يدرون الى ما أبداه توما من أقوال الشك . ورويداً رويداً يقوّى فيهم اليقين والايمان بحضوره غير المنظور معهم .

وكلما تقضت الايام من هذه الاربعين تتعمق في نفوسهم أحاسيس الروعة والاستغراب، فيرونه ولم يعد خاضعا للحاجات البشرية ولا مقيداً بنواميس الأرض الطبيعية ، وكم كان يعتزّ ويغتبط باللجوء الى بيت عنيا للراحة والهدوء !— أما الآن فقد تبدل الحال غير الحال . ولم يعد المسيح المقام في حاجة إلى مأوى يأويه ، أو راحة تسرّى عنه . وقضى جائلا في العالم أربعين يوما في غير موطن أرضي ! فتأصل في نفوسهم يقين ثابت بان ربهم وسيدهم يعيش في شكل آخر من اشكال الوجود ، ارقى وأسمى مما عرفوه في أيامه القديمة وهو على الأرض .



أحسوا انه يختلف عما كان ، ومع ذلك فهو بعينه كما كان . احتفظ بخواص صوته وأخلاقه ، والاشارات الصغيرة التي تميز الانسان عمن سواه . احتفظ بين جنبيه بذات القلب النابض بالحب لهم . ولبثت محبته كما كانت في الايام القديمة ، قوية لم يعتورها تبديل . وبقيت ذكرياته عن الحوادث القديمة حية فلم تبهت صورها . وعاود معهم الحديث بهدوء في الموضوعات المألوفة، وكأن هذا الموت والايام الثلاثة التي قضاها في عالم الراحلين لم تؤثر فيه شيئاً . وكان قد أخبرهم قبل موته «و بعد أن أقوم أسبقكم إلى الجليل» وهو الآن يقول: « اذهبا قولا لاخوتي ان يذهبوا إلى الجليل . هناك يرونني كما قلت لكم » . وقال لهم قبل موته : « الروح القدس يحل عليكم » والآن يأمرهم أن يلبثوا في أورشليم حتى يكمل هذا الوعد الذي أخبرهم به . فالصلة بين الحياة القديمة والجديدة لم تنفصم عراها .

وهكذا كان الحال في معالجته شئون الناس . خذوا بطرس مثلاً : ونحن نعرف طريقة

تدريبه بطرس في الجليل قبل موته . فلننظر الآن الى تدريبه إياه بعد قيامته . ولنلق نظرة قبل كل شيء الى تلك الرسالة الرائعة المؤثرة التي بعث بها اليه عند القبر : اذهبي وقولي لتلاميذي —وقولي لبطرس خصوصا— بطرس الذي تحطم قلبه من جراء انكاره اياي ، بطرس الذي لم يعد يحسب نفسه تلميذاً لي ، قولي لبطرس ! —ثم اللقاء الذي خصَّه به والذي لم يفشِ بطرس ما دار فيه من الأسرار . ثم السؤال المثلث «هل تحبني ؟» اشارة إلى الانكار المثلث الذي سقط فيه — الطرائق بعينها في التدريب والتعليم ، واليد بذاتها الحاذقة اللينة في الترويض والتهذيب .

وهكذا أيضا مع توما . ففي كل مكان أدخل في روعهم أن السيد الذي عاد من الموت منصوراً هو بعينه كما كان مع أصدقائه . فهو يتنزل لتقوية ضعف الايمان بلمسة الرقة والدعة . وهو يؤنب ويوبخ بروح العطف والاشفاق . وهم يرون الآن في كل عمل قلب يسوع الذي عرفوه على الأرض : لم يؤثر فيه الموت شيئا .

وفجأة نلحظ تبدلا في موقفهم القديم المشبع بروح العطف والاحترام حياله . اذ داخله عنصر التوقير والرهبة والعبادة الوادعة. فقد كانوا من قبل أشبه بعصبة من الاخوة يتحدثون في غير كلفة ، يجلسون معه ويواكلونه ، حتى ان واحداً منهم يتكىء على صدره عند العشاء . أما الآن فقد انتهت هذه العلائق القديمة الطليقة، ونراهم يعبدونه ويعترفون به «ربّا والها».

وفي بطء ، وفي يقين ، تعلموا أمثولة الاربعين يوما بأن زميلهم وصديقهم هو ابن الله الازلي استخفى في شكل جسدي، وانه قد اتخذ شكلا أرقى من أشكال الوجود، بحيث يستطيع أن يكون معهم دون ان يروه ، وان شركة روحيـــة أبدية ستحلّ محل الصلة الزمنية المنظورة .

وقد تأصلت هذه الامثولة من نفوسهم حتى يراهم يرقبون فراقه العتيد في كثير من هدوء البال وراحة الفكر . وقصة الصعود اقوى دليل على صدق ما نقول . فهناك كنا نتوقع حزناً ووحشة وشعوراً بأن الأرض أمست داراً بلقعا ، واذا بنا في موقف خلا من الحزن والوحشة ، واذا بالارض تبدو اوفر خصباً واعز مقاماً . افترق عنهم وعادوا هم إلى أورشليم فرحين ! لانهم تعلموا أمثولة الاربعين يوماً وعرفوا انه سيكون « معهم إلى انقضاء الدهر » .

* * *

ألسنا نرى لانفسنا شيئاً من امثولة الاربعين يوماً هذه — بعض التلميحات عن الحياة المرتقبة يوماً ما لبني البشر ؟ ان الذي نستخلصه من ظهور الرب المقام هو اننا حين نموت ، وأن أصدقاءنا الذين سبقونا ، سنبقى واياهم كما كنا رجالاً ونساء. وسنختلف أيضاً عما كنا رجالاً ونساء . فحياتنا لا تشطر شطرين، بل تتجلى في صورة أبهى وسوف لا نفقد شخصياتنا وذاكرتنا ومحبتنا . بل نبقى كما نحن نعرِف ونعرَف . ونحتفظ بتلك الخواص والمميزات الذقيقة التي تميزنا هنا ، انما تتمجد اذ تتبدل بواعثنا ومرامينا .

وليس حقاً ان في الحياة الاخرى يبقى كل شيء على الارض غامضاً أمامنا . ونحن لسنا نعرف الشيء الكثير « ولم يظهر بعد ماذا سنكون » ، ولكن الحياة المجهولة ليست مجهولة تماماً لنا الآن . فاسبوع الآلام يحدثنا عن تعزيته للص البائس : اليوم تكون معي في الفردوس ، حيث يعرف الواحد الآخر كما عرفنا ونحن على الصليب في الصباح. وظهوره بعد القيامة يحدثنا عن انسان مات كما مات اعزاؤنا وعبر نهر الظلام كما فعلوا ، و بلغ الشاطىء البعيد ، البعيد . كان عند عودته للقاء صحابته باراً بهم وصديقا لهم كما كان . فنهر الموت لم يمحُ ذكريات الايام القديمة ، ولم يؤثر في حبه وحدبه على أصدقائه القدماء . أليست لنا هنا مرقاة للرجاء ، وايمان بان هذا هو حال اعزائنا الذين اطبقنا عيونهم وسجّيناهم باكفانهم البيضاء ؟ أليس خليق بنا أن « نعزّي بعضنا بعضاً بهذا الكلام ؟ » .

الفصل الثالث عشر

العود الى الآب

ولكن هذا اللقاء السعيد العجيب لا بد ان يصل الى منتهاه . وتختتم تلك الزيارة القصيرة التي قام بها الابن الازلي الى عالم الارض مبتدئاً من مذود بيت لحم . كما قال عن نفسه : « خرجت من عند الآب وقد أتيت الى العالم . وايضاً أترك العالم وأذهب الى الآب » .

ولسنا نتوقع نهاية غير هذه. فربَّ السكون حلَّ ردحاً من الزمن في هذا الكوكب السيار الصغير وهو الآن يختفي بجسده المنظور ليكون اقرب بوجوده الروحي الى جميع بني الانسان ، كي يتسنى لكل نفس بأنسة ان تدخل الى مخدعها وتشعر بوجوده معها في تلك الخلوة : « انه خير لكم ان انطلق » .

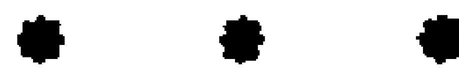
ونحن نؤمن بان تلك الحادثة المنظورة التي نسميها الصعود انما كانت بمثابة تنازل وانعطاف منه ازاء الافكار البشرية الساذجة. فقد تواضعنا على ان نقرن الحياة العليا في السماء بتلك القبة الزرقاء ، أو بذلك العالم المرصع بالكواكب المتلألئة فيما وراء تلك القبة. وتمشياً مع هذه الافكار المتواضع عليها لم يرد المسيح ان يختفي عن انظار صحابته ، كما تعوَّد ان يختفي عنهم من قبل خلال الاربعين يوماً . بل ظللته سحابة امام اعينهم الشاخصة وارتفع في مجد الى العلاء وهم يشهدون . فاجتاز من هذا الوجود الذي نعرفه وندركه الى وجود آخر لا تدركه الافهام .

و بعد اربعين يوماً من قيامته . و بعد ما ظهر لهم مراراً في مناسبات شتى . حان يوم اللقاء الاخير ، يوم الوداع . و بينما كان يعلمهم الدرس الاخير عن ملكوت الله ختم بهذه العبارة : « دفع اليَّ كل سلطان في السماء وعلى الارض . فاذهبوا وتلمذوا جميع الامم .

وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس . وعلموهم ان يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الايام الى انقضاء الدهر » .

ثم اقتادهم خارج المدينة تجاه بيت عنيا للوداع الاخير ورفع يديه و باركهم . و بعد ذلك افترق عنهم وصعد في سحابة الى السماء !

من السماء . . . . الى المذود . . . . الى الجلجثة . . . . الى السماء !



هنا تنتهي القصة . وهي قصة لانهائية . ولقد رأينا في الصفحات الاولى من هذ السفر ان لا بداية لها ، فهي غارقة في الازلية البعيدة . والآن تنتهي ولم تكمل بعد إذ لا نهاية لها ، وتمتد الى الاجيال اللاحقة ، الى ابدية الزمن الخالد .

وما روايةُ الانجيل الكريم إلا قصة لثلاث وثلاثين سنة من تاريخ السيد المسيح وحياته واعماله . ولكن وراءها فصولاً في بطون الازلية ، وامامها فصولاً اخرى ستكتب في سجلات العالم الآخر .

وقبل ثلاث وثلاثين سنة ، حسب العرف المصطلح عليه في تقدير الزمن ، هبط من عالم السماء الى عالم الارض طفل صغير ليحيا بين الناس و يموت لأجل الناس . وفي تلك الليلة الخالدة دوت في فضاء العالم اصداء انشودة رنمتها اجواق من جند السماء « المجد لله في الاعالي وعلى الارض السلام و بالناس المسرة ! » .

ولمدة ثلاث وثلاثين سنة ظلت تلك الأجناد السماوية ترقب في دهشة حائرة ، وألم ممضّ ، ما صنعه البشر بربهم وسيدهم .

والآن قد دنت الخاتمة و بعد ما اكمل مهمته على الارض ، يعود حاملاً الانسانية البائسة في قلبه ، يعود فائزاً منصوراً الى الحياة اللانهائية ، ليستوي بمجد و بهاء فوق عرش العالمين .

فهرس الكتاب

الكتاب الاول — في البدء

الكتاب الثاني — في ملء الزمن

الكتاب الثالث — العام الاول

الكتاب الرابع — كفر ناحوم

صفحة

الكتاب الخامس — ذكريات الطريق الى اورشليم

صفحة

الكتاب السادس — اورشليم



وها قد جئنا فى مراحل التاريخ البشرى إلى الحادثة الخطيرة التى كان التاريخ السابق بمثابة استعداد لها ، الحادثة التى أزالت شقة التباعد بين الله والإنسان ، اذ جاء « هو » نفسه إلى الأرض فى هيكل بشرى ، « هو » الذى كان مخارجه منذ القدم ومنذ الأزل .

وأول ما يسترعى النظر ، ويكاد يكون بعيد التصديق لأول وهلة ، تلك الطريقة العادية البسيطة التى تم بها الحادث الخطير . فلو كان قد جاء فى قوة واقتدار ، وانشقت له السماء ، لكان ذلك حادثاً منتظراً لا شذوذ فيه . أما أن يجىء على هذه الطريقة البسيطة العادية فهنا وجه الغرابة والدهشة ! ولكن .. فى بساطة وهدوء ، وفى حالة طبيعية ، صار المسيح انساناً ...